

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية



مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة

رئيس التحرير: اعمار غرايبة



العدد
12

رقم الاصدار الثاني 2015-102

Issn 2437-0384

الرئيس الشرفي : عمر الموحاتي - مدير الجامعة
المدير الشرفي للمجلة : عبد الرحمان تركي - عميد الكلية



مجلة المعارف

للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية

العدد الثاني عشر - مارس 2017

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مجلة المعارف
للبحوث و الدراسات التاريخية
ص - ب رقم : 789 . ولاية الوادي 39000 . الجزائر -
الهاتف / الفاكس 032223005
العنوان الإلكتروني:
el-maaref@univ-eloued.dz

إدارة المجلة

الرئيس الشرفي:

الأستاذ الدكتور عمر فرحاتي

مدير جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي. الجزائر.

recteur@univ-eloued

المدير الشرفي :

الأستاذ الدكتور محمد الرحمان تركي ، عميد كلية العلوم

الاجتماعية و الإنسانية.

adab -- 39@hotmai.com

مدير المجلة :

الدكتور محمد السعيد محبب ، نائبة عميد الكلية المكلف

بالعلاقات الخارجية و التعاون والتنشيط و الأتصال و التظاهرات

العلمية.

maguieb@yahoo.fr

رئيس هيئة التحرير :

الأستاذ عمار غرايسه ، عضو هيئة التدريس بالكلية ،

gheraissa-ammara@univ-eloued

هيئة تحرير المجلة

أ. رابع رمضان. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. الطاهر سبوق. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. خنائية البشير . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. محلال بن عمر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. رشيد قسيه . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. الجباري عثمانبي . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. محمد الحميد العابد. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. محمد القادر عزام عوادي. جامعة الشهيد حمه لخضر. الوادي

التعريف بالمجلة

من وحي الثورة الجزائرية المجيدة
و في إطار الاحتفالات بالذكرى

الستون المخدلة لها ، جاءت

فكرة إنشاء هاته المجلة الموسومة

بمجلة المعارف للبحوث و

الدراسات التاريخية التي حازت

على موافقة المجلس العلمي

لكلية العلوم الاجتماعية و

الإنسانية لتكون فضاء متميزا

للمعرفة . إذ المعرفة هي بلا

شك الطريق الأنسب لمحاولة

الاقتراب أكثر من الحقيقة التي

هي أمل السالكين دروب العلم

على أمل ملامستها في ظل

أجواء الفكر الإنساني الحر و

الذي لا يلتزم بغير ضوابط

الموضوعية و الحقيقة المستندة

للوفاة و الحقائق الثابتة.

إن مجلة المعارف تسعى لأن

توجد لنفسها مكانا بين

الدوريات التاريخية المتخصصة

لتسهم بفضل جهود الأعلام

للتألق في فضاءها في الغوص

في مجال البحوث و الدراسات

التاريخية لتخرج بها نحو أرحب

الآفاق الدالة على مدى قدرة

التاريخ في الإسهام إلى جانب

العلوم و المعار الأخرى في

صناعة واقع الأمة انطلاقا من

فهم واقعها و محاولة لرسم

مستقبلها. و تبقى المعرفة التي

جاء بها أول غيث الوحي

السماوي خير ما تستهدي به

البشرية في دروب الحياة .

الهيئة العلمية الاستشارية

أ. د. إبراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية.	أ. د. إبراهيم بن محمد بن حمد المزيبي . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المملكة العربية السعودية.
أ. د. أحمد شريقي . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	أ. د. أحمد صاري . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة
أ. د. بن يوسف تلمساني . المركز الجامعي خميس مليانة .	أ. د. جمال حجر . جامعة قطر. قطر
أ. د. صالح بوسليم . جامعة غرداية . غرداية.	أ. د. عبد الوهاب شلالي . جامعة العربي التبسي . تبسة.
أ. د. علي آجقو . جامعة محمد خيضر . بسكرة.	أ. د. محمد حسن . جامعة تونس الأولى . تونس.
أ. د. علاوة عمارة . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة.	أ. د. عمر حاج الزاكي . جامعة أم درمان السودان.
	أ. د. وجدان فريق عناد . جامعة بغداد العراق.
أ. د. بوبه مجاني . جامعة قسنطينة2 . قسنطينة.	أ. د. جمال يحيوي . جامعة أبو القاسم سعد الله . الجزائر.
د. أحمد الباهي . جامعة القيروان . تونس.	د. العمري مومن . جامعة قسنطينة2 . قسنطينة.
د. الوفي نوحى . جامعة محمد الخامس . المغرب.	د. أنور عوده عواد الخالدي . جامعة آل البيت . الأردن.
د. بشير فايد . جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين . سطيف.	د. بلقاسم ميسوم . جامعة محمد خيضر . بسكرة.
د. جمال بلفردى . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.	د. خير الدين شترة . جامعة محمد بوضياف . المسيلة.
د. دلال لواتي . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	د. رضوان شافو . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. طارق لعجال جامعة ملايا . ماليزيا.	أ. د. عاشوري قمعون . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. عبد الحكيم أروغي . جامعة فريبورغ . ألمانيا.	د. عبد الكريم الماجري . جامعة منوبة تونس.
د. علي بن سعد آل زحيفه الشهراني . جامعة ملايا . ماليزيا.	د. علي غنابزية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. عليان عبد الفتاح الجالودي . جامعة آل البيت .	د. لزهر بديدة . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد

الأردن.	الله . الجزائر .
د . لمياء بوقريوة . جامعة الحاج لخضر . باتنه .	د . محمد الأمين ولد آن جامعة نواكشوط . موريتانيا .
د . محمد السعيد عقيب . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد السعيد قاصري . جامعة محمد بوضياف . المسيلة .
د . محمد رشدي جراية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد عبد الرؤوف ثامر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
د . محمد فرقاني . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية . قسنطينة .	د . محمد وادفل . جامعة قسنطينة 2 قسنطينة .
د . نواف عبد العزيز الجحمة . الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب . الكويت .	د . هيووا عزيز سعيد . جامعة السليمانية . العراق .
د . ودان بوغفالة . جامعة معسكر . معسكر .	د . يوسف نبي ياسين . جامعة قطر . قطر .
د أحمد عبد الدايم محمد حسين . جامعة القاهرة . مصر .	د علي الريامي . جامعة السلطان قابوس . سلطنة عمان .
د مبارك جعفري جامعة أحمد دراية . أدرار .	د نجيب بن خيرة . جامعة الشارقة . الإمارات العربية المتحدة .
د . ناصر بالحاج . جامعة الحاج لخضر . باتنة د . اسماعيل وارشيد EH SS ismail warscheid فرنسا . أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه برائالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .	أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه برائالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .
د . Augustin Jomier أوغسطين جوميهه (ce / cnrs - fondation thiers rhio) جامعة لومان . فرنسا .	د . البشير غانية . قسم العلوم الانسانية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

قواعد النشر بالمجلة

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

- 1- أن تكون المادة المرسله للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.
- 2- أن لا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وأن لا تقل عن 10 صفحات.
- 3- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.
- 4- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والفاكس والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية.
- 5- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع **simplified Arabic** بمقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي **simplified 16 Gras** العناوين الفرعية **simplified Arabic** مقاسه 14.
- 6- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).
- 7- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية **Not de fin** على أن تعرض في نهاية المقال.
- 8- المقالات المرسله لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- 9- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.
- 10- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.
- 11- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : el-maaref@univ-eloued.dz

في محراب ذكرى عيدي النصر والشباب

لم يكن يخطر ببال فرنسا الاستعمارية أن تكون الفئة التي كانت بالأمس القريب تنعتها بأقذر الأوصاف ستكون بقدرة قادر ممسكة بميزان القوة الذي رجحت كفته لصالح توجهاتها التي استطاعت أن تفرض نفسها من خلال ذلك كقوة فاعلة بفضل ما وظفته من عناصر تفوق كان مرتكزها التلاحم المنقطع النظير بين الشعب و قيادة ثورته التي كانت في مستوى القدرة على تحقيق طموحاته و رسم تطلعاته انطلاقا من عمق هويته المتأصلة في عمق التراب الذي كان عنوان الانتساب.

لقد كانت القيادة الرشيدة المرتبطة بتطلعات الشعب الذي علق منتهى آماله عليها أمانة في الوصول بالقضية الوطنية الى غاية ما كان منتظرا منها ان ترسو عنده مراكب الثورة المجيدة. ولم تنهزم أمام ما كان معروضا عليها من مبادرات رأت فيها أنها لا تخدم مصالح الشعب ولا تتوافق مع حجم التضحيات التي كانت قد قدمت قربانا للنضال أملا في التحرر الفكري والانعقاد السياسي و فك الارتباط مع جميع أشكال العبودية المقيتة.

انه شعب قرر ارادة الحياة فكسر قيود الاستعباد وداس على قابليته الساكنة في بعض النفوس ليصل بعد عناء جهد عسكري و فعل سياسي متعدد المراحل الى ارغام الارادة الاستعمارية على الخضوع و الانصياع ومن ثمة الاستسلام لإرادة الشعب الذي لم يكن مسلحا بأكثر من العزم والاصرار على استعادة حقوقه التي لم يعجزه دونها غير أمله في بلوغ الغد الأفضل الذي كان ينتظر فيه من سواعد الشباب أن تكون عازمة على البناء والتشييد لتحقيق القدرة على اللحاق بالركب الحضاري ليوجد لنفسه بين العالمين مكانا

يليق بحجم التضحيات الجسام التي قدمها الأجداد والآباء في سبيل أن يحي عقبهم من بعدهم بعيدا عن عوالم الاستعباد .

وهذه هي الأمانة التي ستظل عهدا بين جيل الدماء وجيل البناء

الوادي في: مارس 2017

رئيس هيئة التحرير

أ.عمار غرايسه

المفهرس

الصفحة	الموضوع
06	كلمة العدد
11	البطل حمه لخضر ودوره في الثورة التحريرية (1930-1955م) ✻ د/ رشيد قسيبة/ قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي
31	العناصر الفنية في خطوط الوثائق والمراسلات السلطانية بالمغرب ✻ د/ امبارك بوعصب / المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين/ القنيطرة/المغرب.
60	دور الجزائر وليبيا في حركة التحرر الإفريقي 1954/1974 النموذج و الاحتضان ✻ أ/ فضيلة علاوي / قسم التاريخ/ جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله
80	حواضر الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ✻ أ/ منادي عثمان / قسم التاريخ/ جامعة محمد الشريف مساعدي/ سوق اهراس
116	جهود اسبانيا لتوسيع نفوذها التجاري في الساحل المتوسطي للمغرب خلال القرن 19م ✻ د/ محمد أحميان - المغرب
144	"لاصاص" بين تأطير السكان المحليين وإفشال الثورة التحريرية (1954-1962) ✻ أ/ عبد الهادي حسين/ أستاذ بقسم العلوم الإنسانية / جامعة تلمسان
180	الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين ✻ أد/ بلعربي خالد/ قسم العلوم الإنسانية/شعبة التاريخ/جامعة سيدي بلعباس
192	مقدمات الاحتلال الايطالي لليبيا 1911م (بناء التحالفات الدولية) ✻ أ/ الحواس غربي/ قسم التاريخ كلية العلوم الانسانية والاجتماعية/ جامعة 8 ماي 1945م قالمة
216	الحركة الإصلاحية بمنطقة الحضنة (1931 - 1954م) ودور الشيخ نعيم النعيمي فيها. ✻ أ/ نورالدين مقدر/ قسم التاريخ / جامعة محمد بوضياف/ المسيلة.
237	عوامل التطور والتنظيم الصحي للثورة التحريرية (1956 - 1962). ✻ أ/ عائشة مرجع/ قسم التاريخ/جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.
260	الكتابة التاريخية عند أبي زكرياء يحيى الوارجلاني(ت474هـ/1081م) ✻ أ/ الزرويل صالح/ قسم التاريخ/ جامعة غرداية
284	ابن حمادوش الجزائري وأبو راس الناصري يؤرخان للعلاقات التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن 18م ✻ أ/ مشوشة سمير/ جامعة عباس لغرور /خنشلة
310	إبن حماد الصنهاجي ومنهج في التأريخ لثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد من خلال كتابه: " أخبار بني عبيد وسيرتهم" مساهمة جزائرية في حفظ الذاكرة الجماعية لمجتمعات بلاد المغرب

	<p>✻ أ/ عاشور منصورية قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة باتنة 1</p> <p>✻ أ/ موسى رحمانى قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة باتنة 1</p>
340	<p>المعالم الأثرية بوادي سوف بين الانهيار والترميم</p> <p>✻ أ/ ماني محمد / جامعة الشهيد حم لخضر / الوادي</p>
362	<p>مناهج التحقيق و تأثير المدارس الفكرية و العلمية .</p> <p>✻ أ/ رحمة يسعد شريف / قسم التاريخ/ جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2</p>
386	<p>العقيدة الأشعرية .. مرجعية فكرية. - الحضور في فكر وذهنية إنسان المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط -</p> <p>✻ أ/ نذير برزاق - قسم التاريخ - جامعة محمد بوضياف المسيلة</p> <p>✻ أ/ خلفات مفتاح- قسم التاريخ - جامعة محمد بوضياف المسيلة</p>
404	<p>منهجية تحقيق تراث المغرب الإسلامي المخطوط عند ليفي بروفنسال كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب انموذجا"</p> <p>✻ أ/ حساين عبد الكريم - قسم التاريخ - كلية الآداب و العلوم الإنسانية - جامعة سيدي بلعباس</p>
415	<p>حركة المجتمع الإسلامي من نظرية التحدي والاستجابة إلى مقارنة الوعد والوعد</p> <p>✻ أ/ نبيلة شلابي - كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة 1</p>

تظلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتما عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي المجلة
يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط بمرتبة الباحث ولا
مكانته العلمية

البطل حمه لخضر ودوره في الثورة التحريرية (1930-1955م)

د. رشيد قسيبة/ قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي

الملخص:

تزخر منطقة وادي سوف بتاريخ حافل بالأحداث خاصة أثناء الثورة التحريرية صنعها رجالها الذين كان لهم الأثر البارز في تاريخ الجزائر عامة وتاريخ المنطقة بصفة خاصة، منهم من أميط اللثام عن جوانب من حياته، ومنهم من بقي طي النسيان، ومن بين الذين لم يأخذوا حقهم في الدراسة والتوثيق الشهيد حمه لخضر الذي كان له تأثيراً بارزاً ودوراً في قيادة الثورة بمنطقة وادي سوف، فمن هو البطل حمه لخضر؟ وما هو دوره في الثورة التحريرية المباركة؟

Resume:

La région de Ouadi Souf a en pleins des événements historiques au cours de la révolution algérienne, ce lui qui fait par les hommes, ont l'henneur de la participation de la creation de l'histoire d'Algerie en général et l'histoire de la région en spéciale, Ils y ont des gens qui plus connaitre par les autres, mais ou bien par contre, les hommes qui participent dans la guerre de la liberation sont oubliés.

Ils existent des hommes qui n'ont prend leurs droit de la decommentaire et l'étude, le martyr Hamma Lakhdar, le fils de la village de Djoudeida celui qui était un role primordiale dans la révolution dans la région de Ouadi Souf, Qui est l'héros Hamma Lakhdar? Et quel est son role pendans la gurre de liération? Et quel est son role qui joue pendans la guerre de libération?

_ شخصية البطل حمّه لخضر:

1_ نسبه:

ولد القائد البطل حمّه لخضر خلال 1930⁽¹⁾ بقرية الجديدة⁽²⁾ ينتمي إلى قبيلة أولاد زقزاو(3) وهي أحد فروع فرقة ربائع الشمال (4) من عرش الربائع(5)، ويذكر حمّه لخضر بلقبين هما عمارة حمّه لخضر أو الشايب حمّه لخضر وكلاهما صحيح ذلك أنّ الجدّ الأوّل عمارة قد أنجب ولدين هما محمّد وتحمل عائلته لقب "عمّاري" وأحمد الذي أنجب (07) سبعة أولاد حملت فروع كل ابن لقب خاص لأنّ السلطات الاستعماريّة رفضت توحد العائلة الكبرى في لقب واحد، محاولة منها لتشتيت هذا العرش الثائر فحمل حمّه لخضر لقب "الشايب" والأبناء هم كالأتي:

- عبد الله: وهو الابن الأكبر حملت عائلته لقب "المقدّم" لأنّه كان مقدّمًا للزّواية العزويّة في المنطقة.

- بلقاسم (داسي): وهو الابن الثاني حملت العائلة اسمه "داسي".

- مبروك: وهو الابن الثالث حملت العائلة اسمه "برايسة".
 - عمر: وهو الابن الرابع حملت العائلة اسمه "بن عمر".
 - محمد: وهو الابن الخامس يلقب بقسيبة فلقبت العائلة بكنيته "قسيبة".
 - خليفة: وهو الابن الخامس حملت العائلة اسمه "خلائفة".
 - مسعود: وهو الابن السابع وحمل أبنائه لقب العائلة "عمارة" لعدة اعتبارات.
- وبعدما توقّيت أمّ الأولاد السبعة وهي حدّدي بنت علاق قرّر أحمد بن عمارة الزواج بعدما أصبح شيخًا هرمًا ويقولون له أبنائه السبعة "الشايب" لوقاره وسنّه فتزوّج من فاطمة سديرة فأنجبت:
- إبراهيم: وهو الابن الثامن وحملت العائلة لقب "الشايب" لأنّ إخوته يقولون له ابن الشايب وهو والد البطل حمّه لخضر.
- تزوّج إبراهيم بن أحمد بن عمارة من حفصيّة بنت عبد الله حامد وأنجبت منه خمسة أطفال ثلاثة أولاد هم حمّه لخضر، أحمد والعيد وبنّتين هما بشيرة وسعدية. (6)

2_ نشأته:

نشأ وتربّى الشّهيد حمّه لخضر في أسرة بدويّة تعتمد على تربية المواشي (الإبل، الغنم) وزراعة النخيل في قرية الجديدة لأنّ العائلة كانت كثيرة الترحال قاصدة الأماكن الرعويّة مثل الدويلات (7)، أم الطبول (8) بئر بوحبلين (9)، العقلة (10) وهذا في الفترة الممتدة بين شهر نوفمبر حتّى شهر جوان وهي مرحلة الرعي ثمّ تعود إلى المقرّ

الرئيسي قرية الجديدة ما بين شهر جويلية حتى أكتوبر وهي مرحلة جني التمور، لذلك نقول جمعت العائلة بين تربية المواشي وزراعة النخيل، وفي سنّ العاشرة من عمره تقريباً بدأ يحفظ القرآن الكريم ويتعلّم بعض مبادئ العلوم الشرعيّة على يد العلامة الشهيد لمقدم علي (11)، علماً أنّ التحفيظ والتدريس كان يتمّ في مناطق مختلفة كالصحراء أو في قرية الجديدة (هود، دار كاف، زريبة) لأنّه لا يوجد مقرّ رسمي لتحفيظ القرآن وتعليم العلوم الشرعيّة كمسجد أو زاوية مثلاً، تزوّج الشاب حمّه لخضر وعمره حوالي 22 سنة من السيّدة الجبّارّة بنت عثمان براكّة سنة 1952م، وأنجب منها ابنة وحيدة عام 1953م سمّيت مبروكة ثمّ التحق عام 1954 بالثورة التحريريّة المباركة حتّى استشهد عام 1955م(12).

3_ تكوينه السياسي والعسكري:

مع بداية شبابه عرف البطل حمّه لخضر باهتمامه الكبير بالسّلاح خاصّة وأنّ والده إبراهيم بن أحمد كان يملك سلاحاً خاصّاً من نوع خماسي (13)، وكان البطل حمّه لخضر يأخذه ويستعمله أحياناً ويتدرّب على الرمي والتسديد، إضافة إلى كونه مولعاً بالصيد فاشتهر بصيد الغزال والأرانب وهي الحيوانات التي تعرفها بيئته، وكان لا يشقّ له غبار مقارنة بأقرانه، كما يروي هؤلاء الأقران أنّ البطل حمّه لخضر كان ينافس في الرمي وبياري في القنص مع أبناء عمومته وشهدوا له بالتفوّق في شتّى أنواع الأسلحة مثل الخماسي والستاتي والثماني وغيرها.

وفي أواخر الحرب العالمية الثانية اتّصل بأعضاء الحركة الوطنية عن طريق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبدأ نشاطه السري من خلال إنشاء خلية على يد العلامة لمقدم علي وضمت الخلية ميهي محمد بلحاج (14) وكلف البطل حمّه لخضر بشراء السلاح ونقله إلى جبل أحمد حدّه (15) والى منطقة الأوراس خلال سنتي (1948-1949م)، في إطار جمع السلاح وتدريب الشباب وهو البرنامج الذي سطرته المنظمة الخاصة التي تأسست سنة 1947م قبل أن يتم اكتشافها سنة 1950م.

حاول البطل حمّه لخضر السفر إلى المشرق العربي وتفيداً إلى فلسطين تلبيةً لنداء الجهاد في الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام 1948م لكن الظروف منعت، وبقي في الوطن رفقة إخوانه للتحضير للثورة التحريرية المباركة. (16)

_ جهاد البطل الشهيد حمّه لخضر:

سجّل البطل حمّه لخضر ملاحم بطوليةً بداية من معركة هود كريم حتى استشهاده في معركة هود شيكة.

1_ القائد حمّه لخضر والتحضير للثورة التحريرية:

كلّ الاستعدادات كانت مضبوطة من طرف القائد حمّه لخضر لتفجير الثورة بمنطقة وادي سوف ساعة الصفر من ليلة الفاتح من نوفمبر 1954م لكن الأقدار شاءت أن تتأخّر حوالي أسبوعين وذلك بسبب اعتقال القائد حمّه لخضر قبل هذا الموعد وتأخّر إطلاق سراحه إلى يوم 06 نوفمبر 1954م (17)، ووصلته الأخبار بأنّ موعد تفجير الثورة قد نجح مثلما خطّط له، وقد حققت نتائج مبهرة خاصة في منطقة

الأوراس (18) المنطقة الأولى الذي يعتبر أحد قادتها بالأخص إعلاميًا ونفسيًا، فسارع بالاتصال بمجموعته وركز على هدفين هامّين أولهما جمع السلاح وثانيهما تدريب الشباب وتجنيدهم كخطوة أولى ثمّ قسّم العمل إلى قسمين:

القسم الأوّل: وتقوم به الفئة الأولى وعملهم مدني من خلال جمع الأموال والأسلحة وتجنيد الشباب وتوفير المؤونة.

القسم الثاني: وتقوم به الفئة الثانية وعملهم عسكري من خلال الأعمال الفدائية والعسكرية، لكن هذه التحركات تمّ رصدها من طرف القومية واكتشف العدو الفرنسي أمر المجموعة وتخطيطها وبدأ يتجسس وداهوا قرية الجديدة يوم 15 نوفمبر 1954م من أجل إلقاء القبض على البطل حمّه لخضر لكنّه لاذ بالفرار ولم يتمكّنوا من اعتقاله، لتكون هذه الحادثة سبب مباشر في تفجير الثورة بمنطقة وادي سوف والتي قادها البطل حمّه لخضر (19).

2_ حمّه لخضر قائد عسكري:

بين نوفمبر 1954م و شهر أوت 1955 قاد حمّه لخضر العديد من المعارك سجّل فيها انتصارات ساحقة وكبّد فيها العدو خسائر فادحة داخل وخارج المنطقة نذكر منها:

_ معركة هود كريم 1954/11/17م

في يوم 16 نوفمبر 1954م انطلقت المجموعة نحو منطقة السويهلة (20) ذاهبة إلى المسمى "واري الحاج البشير" وعندها داهمتهم سيارة عسكرية فرنسية فأطلقوا عليها النار فلاذت بالفرار، ليعودوا إدراجهم متجهين نحو المقرن (21) ثم توجهوا إلى الجديدة وأخذوا معهم باقي عناصر المجموعة وواصلوا طريقهم نحو حاسي خليفة (22) وكانوا يعلمون أنّ العدو يلاحقهم لذلك حاول البطل حمّه لخضر التمويه بالعدوّ الفرنسي معتمداً في ذلك على دردوري خزّاني لما له من خبرة وتجربة حربيّة حيث كان من الذين شاركوا في الحرب العالميّة الثانية(23)، بدأت المعركة المشهورة يوم 17 نوفمبر 1954م على الساعة الحادية عشر صباحاً واستمرّت حتى الليل ونتج عن هذه المعركة خسائر فادحة من جانب العدو حوالي 80 قتيلاً ومن جانب الثورة خلّفت المعركة جريح واحد والذي ألقى عليه القبض "شعباني بلقاسم" (24)، أمّا البقية فقد خرجوا سالمين وهم 12 مجاهداً يتقدّمهم القائد حمّه لخضر:

- صوادقية صالح.

- زيد عبد القادر.

- ريغي عبد الرزاق.

- دردوري خزّاني.

- لمقدم مبروك.

- داسي العربي.

- فرجاني العربي.

- شنيبة بلالة البشير.
- العايب البشير.
- شراحي مصباح.
- عبد الباري عمّار.

وأنجّها في طريقهم نحو المنشية (25)، ثمّ الزرق (26)، أين لاحقهم العدو لكن لم يستطع مواجهتهم لتحصّنهم في أماكن صعبة وعالية ثمّ وصلوا المسير إلى مكان قرب جارش (27) ثمّ إلى جبل زريف (28).

_ معركة أمّ الكماكم: (28)

انطلق البطل حمّه لخضر من قرية الجديدة باعتبارها القاعدة الخلفية محمّلاً بأسلحة متعدّدة لتسليح الشباب المتطوّع في صفوف جيش التحرير والمتواجد بجبل زريف، وانتقل بعدها إلى مدينة الرديف التونسية (29)، لالتقاء بالقائد بن عمر الجيلاني (30) وبعض المواطنين أين تكمن من جمع كميّة لا بأس بها من المؤونة والأسلحة، وفي طريق العودة من تونس نحو جبل زريف حدث اشتباك دام ليلة كاملة ويوم ومن هناك تسلّل البطل حمّه لخضر نحو جبل أمّ الكماكم أين حدثت معركة عنيفة.

وبعد نجاح هذه المعركة انتقل البطل حمّه لخضر إلى جبل الجرف (31) أين تقابل مع عمر القرشيشي ولزهر الجدري (32) أين تقرّر ذهاب البطل حمّه لخضر إلى ليبيا رفقة مصطفى بن بولعيد لطلب الأسلحة ثمّ تغيّر القرار واستبدل بالبطل عمر القرشيشي لدرايته الكبيرة بالأراضي التونسية (33)، وقد وقعت عدّة معارك أخرى قادها البطل حمّه

لخضر في الأوراس أبرزها (34) غابة الأبراج، شليا، معركة عالي الناس، تبرقة، شرشار، الجبل الأبيض.

_ معركة صحن الرتم:

بأمر من قائد منطقة العمليّات بالأوراس شيحاني بشير (35) تطوّعت فرقة من المجاهدين بقيادة البطل حمّه لخضر مهمّتها جمع الأسلحة وتدعيم صف الثورة بالمال والسلاح انطلقت الفرقة في شهر مارس 1955م، وعبرت إلى الوادي عن طريق نقرين (36) وتوجّهت إلى منطقة عميش وانقسموا إلى ثلاث مجموعات:

_ المجموعة الأولى توجّهت إلى النخلة قاصدة منزل أحد القومية المدعو "معمر".

_ المجموعة الثانية توجّهت إلى الرّباح واتّصلوا بالمدعو كشحة عبد القادر الذي سلّم إليهم ثلاث بنادق، وبعدها توجّهوا إلى الزاوية القادريّة حيث قدّم لهم الشيخ الإمام الشريف مساعدات مختلفة.

_ المجموعة الثالثة توجّهت إلى البيّاضة وأشرف عليها لمقدّم مبروك قاصدة الزاوية التيجانيّة وطلبوا المساعدة من الطريقة فالترزم بذلك ودفع ثمن بنديّة. (37)

لقد مكّنت هذه المهّمة في عميش من تجنيد حوالي 15 مجاهدًا ليصل عدد المجاهدين إلى 22 مجاهدًا حيث تكفّل محمّد بن الحاج بتوفير اللباس لهم ثمّ توجّهوا شمالًا مرورًا بالزرقم (38) والبهيمة (حساني عبد الكريم حاليا) وفي طريقهم إلى القاعدة الخلفيّة قرية الجديدة وأثناء مرورهم بقرية "أولاد لخضر" (39) قام البطل حمّه لخضر بقطع الأسلاك الهاتفيّة

الرّابطة بين الجديدة والديبلة، كما قام بالاستيلاء على سلاح من حراس أحد شيوخ المنطقة، وفي حادثة بطوليّة شهدها العامّة من الناس أقدم البطل حمّه لخضر على قتل أحد القوميّة رمياً بالرّصاص في سوق الجديدة(.....)، وأتّجه نحو المقرن بحثاً عن حركي آخر (.....) لقتله لكنّه لم يجده وهو ما أدّى إلى تسرّب أخبار المجاهدين وتحركاتهم بالمنطقة فتوجّهوا إلى هود بصحن الرتم (40) شمال الجديدة، وفي يوم 16 مارس 1955م اندلعت المعركة حوالي السّاعة الرّابعة صباحاً بين مجموعة من الجنود الفرنسيين (41) والمجاهدين تكبّد فيها العدوّ خسائر فادحة فاقت 70 قتيلاً ومن جهة المجاهدين فكانت كالآتي:

_ استشهاد 07 وهم:

- سديرة البشير.
- خالد العيد.
- حماتي علي.
- داسي العربي.
- ريغي عبد الرزّاق.
- وادة قدّور.
- خزّاني إبراهيم.

_ الجروح والإصابات 04 وهم:

- لمقدم مبروك وبوغزالة عبد الكامل وتمّ إلقاء القبض عليهما.
- البطل حمّه لخضر وشنيبة بلالة البشير وتمكنا من الفرار مع البقية وطلب من المجموعة الاتجاه نحو الشمال وبقي هو يقاتل تارة ويختبأ تارة أخرى لدرابته الكبيرة بالمنطقة وبقي يلاحقه ضابط وجنديين حتى مسافة حوالي 20 كلم أين تمكّن من القضاء عليهم في مكان يسمّى الهزيري (42) وواصل المسير شمالاً حتى المكان المسمّى بئر لمزيرة (43) وهو مكان تواجد بعض أقاربه الذين قدّموا له علاجاً وأوصلوه إلى الجبل وطلب منهم إخبار العدو الفرنسي حتى لا يتضرروا بعده ولكنهم رفضوا وهو ما سبب عزلهم عن الثورة والزجّ بهم في محتشد أميه ربح (44) وفي جبل زريف الساهل اتّصل بأحد المجاهدين في المكان المسمّى رأس العش وأدخلوه أحد الدواميس وبقي يعالج جراحه إلى أن شفي تماماً. (45)

_ معركة شمال الخنقة:

والمقصود بالخنقة خنقة سيدي ناجي (46) وهي منطقة يعرفها البطل حمّه لخضر لأنّه مارس فيها الرعي كثيراً وهذه المعركة عبارة عن كمين نصبه لسيارة عسكريّة تمكّن من القضاء على من فيها من جنود وأحرق بعدها السيّارة ثمّ رجع إلى الجبل الأبيض.

_ معركة نقرين:

خطّط البطل حمّه لخضر للهجوم على الثكنة العسكريّة بنقرين خاصّة وأتمّها أحد أكبر الثكنات العسكريّة بالمنطقة وأكثرها تحصيناً لذلك لم يحقّق الهجوم نتائج معتبرة وفي

المقابل فقد حمّه لخضر أحد جنوده الذي استشهد هناك ثمّ واصل العدو ملاحقتهم حتى جبل زريف. (47)

_ معركة فركان:

نزل البطل حمّه لخضر صحبة دورية متكوّنة من 11 مجاهدًا إلى منطقة فركان (48) في مهمّة لجمع المؤونة وما يلزمهم من الزاد وفي طريق عودتهم صدفة وجدوا شاحنات الفرنسيين وهي تصادر مواشي المواطنين القاطنين هناك فأمر البطل حمّه لخضر برمي الرصاص على الجنود الفرنسيين أين تمكّنوا من إصابة 18 جنديًا فرنسيًا والبقية فروا هارين تاركين وراءهم الأغنام التي تكفل المجاهدين برعيها لأنّ الرعاة اعتقلوا من طرف الفرنسيين ثمّ غنم البطل 600 رصاصة. (49)

_ معركة عقب الجنحان:

وهي استمرار لمعركة فركان أين واصل الجنود الفرنسيين ملاحقة المجموعة والمتكوّنة من 11 مجاهدًا في المقابل فاق عدد الجنود الفرنسيين 300 عسكري موزعين بين السيّارات والشاحنات وبدأت المعركة في المكان المسمّى عقب الجنحان ليلاً واستمرت حتى الليلة الموالية تكبّد فيها العدو خسائر فادحة ماديّة وبشريّة مقابل إصابة أحد المجاهدين إصابة خفيفة لأنّ المنطقة جبليّة ومحصّنة (50).

_ معركة هود شيكة 08-09-10 أوت 1955:

عقد لقاء على أعلى مستوى قيادي حضره قائد المنطقة الأولى بشير شبحاني، وعبّاس لغرور، الجليلاني بن عمر، لزهري الجدري، البطل حمّه لخضر تمخّض عنه تكليف هذا الأخير بالذهاب إلى وادي سوف ومعه وحدة عسكريّة متكوّنة من 32 مجاهدًا متطوّعين عن طريق رفع الأيدي لأنّ العمليّة اختياريّة لا إجباريّة، والمهمّة هي جمع الأسلحة وتجنيد الشباب وتأمين المؤونة، كما أنّ هناك هدف خاص للبطل حمّه لخضر وهو الثأر من العدو الفرنسي بعد الزج بعائلته في محتشد أميه ربح (51) وحسب رواية رفقائه فإن حمّه لخضر قد قرّر رفع العلم الوطني في مقرّ الملحقة العسكريّة في الوادي وهي جرأة كبيرة تؤكّد بطولة وشجاعة الشهيد، ثمّ انطلقت المجموعة في رحلة دامت 06 أيّام حتّى وصلت الوادي وفي طريقها تمكّنت المجموعة من تجنيد العديد من الشباب نذكر منهم:

يحيوي الطاهر، لجدل بشير، سوا لم البشير، تواتي سليمان، تواتي محمّد.

وعند وصوله إلى منطقة الجديدة الغربيّة (52) أرسل البطل حمّه لخضر دوريات إلى الجديدة، المقرن، الرقيبة، (53)، قمار (54)، الوادي، عميش، ولكن العدو الفرنسي اكتشف أمرهم وبدأ يقوم بتحريّاته وتحركاته في الجهة وحشد قوّاته القادمة من الأغواط، بسكرة، ورقلة، ورغم قلة الإمكانيّات استعدّد كذلك البطل حمّه لخضر لهذه المعركة من خلال تجنيد عدد من الشباب للمعركة منهم: محمّد عريف، مصباح لخوميس، إبراهيم رحومة، الهاشمي رحومة، السباع العياط، إبراهيم الزاوي، لزهاري الزاوي، مريم رحومة، واندلعت يوم 08 أوت 1955م بكمين لدوريّة عسكريّة بها 35 جنديًا تمّ القضاء عليهم جميعًا باستثناء جندي واحد أمره البطل حمّه لخضر بإيصال الخبر لقيادته لكنّه فقد

عقله وبقي مجنوناً إلى بعد الاستقلال، ثم انتقلت المعركة إلى المكان المشهور بهود شيكة (55) دامت المعركة 03 أيام بلياليها أين تكبد العدو خسائر فادحة وفوجئ بقوة المجاهدين وشراستهم ولجأ إلى الاستنجاد بالطائرات وفرق المظليين التي قدمت من تولوز (56) وعن نتائج المعركة فقد كانت مجزرة للفرنسيين بآتم معنى الكلمة حيث بلغ عدد القتلى ما بين 550 و650 قتيلاً حسب رواية جنود المعركة وإن كان هذا الرقم عليه تحفظ كبير، إضافة إلى تحطم 04 طائرات والعديد من الدبابات والشاحنات، ومن جهة المجاهدين خلفت استشهاد 38 شهيداً أبرزهم البطل حمه لخضر كما بلغ عدد الأسرى 04 مجاهدين وتمكن سبعة (07) من الفرار إلى الجبل (57).

3_ وفاته:

يقول المولى عز وجل في محكم تنزيله >>ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون<< (58)، تعتبر معركة هود شيكة عملية استشهادية بآتم معنى الكلمة لأنها معركة بين جيش جرار عصري مجهز بأعتى الأسلحة المتطورة ومدعوم من حلف شمال الأطلسي مقابل ثلة من المجاهدين بوسائل وأسلحة تقليدية في منطقة صحراوية مكشوفة وفي عز الحر وفصل الصيف مصدر قوتهم الوحيد النصر أو الشهادة التي كتبت للبطل حمه لخضر يوم 09 أوت 1955م، وبعد نهاية المعركة نقلت جثة الشهيد إلى مسقط رأسه قرية الجديدة أين بقي يومين في الصباط (59) ليدفن بعدها بمقبرة القرية، رحم الله الشهيد القائد البطل حمه لخضر الذي استشهد حاملاً راية الإسلام والعروبة، وراية الوطن الغالي، يقول تعالى: >>يأتيها النفس مطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فأدخلني في عبادي وأدخلني جنتي<< (60).

وقد خلّده عدّة شعراء منهم شاعرة الثورة بالمنطقة فاطمة منصورى وكذلك صاحب الإلياذة مفدي زكريّا الذي قال فيه:

أننسى ثلاث أيام نحس وسوستال يندب في النائحين

وأخضر يحصد حمر الحواصل فيها ويقطع منها الوتين (61)

الهوامش:

1. بلدية الدبيلة، مستخرج من الأحكام الجماعية للمواليد، رقم شهادة الميلاد 1980/1287.
2. الجديدة من قرى ولاية الوادي تقع إلى الشمال وتبعد عن عاصمة الولاية بحوالي 30 كلم.
3. أولاد زقزاو: من فرق ربايع الشمال عرش الربائع يقطنون بلديتي الدبيلة وبن قشة.
4. ربايع الشمال: ويتشكّلون من سبعة عروش وهم أولاد زقزاو، أولاد حجاج، الزيود، العلاونة، المصاييح،.....،.....
5. الربائع: أكبر قبيلة عربية في منطقة وادي سوف ويمتد انتشارها إلى ورقلة وإيزي وخارجياً في تونس وليبيا ومصر تتشكّل من 14 عرشاً 07 فرق في الشمال و07 فرق في الجنوب يشتهر الربائع بالجوهر والكرم والشجاعة والبطولة.
6. رشيد قسيبة، التنظيم القبلي "أولاد زقزاو"، (مخ).
7. الدويلات: تقع على مستوى الطريق الوطني رقم 16 وتبعد عن الوادي بحوالي 120 كلم.
8. أم الطبول: تقع في الحدود بين تبسة والوادي، وتحديدا شمال الدويلات وتبعد عنها بحوالي 20 كلم.
9. بئر بوجبلين: منطقة رعوية تقع شمال الدويلات وتبعد عنها بحوالي 10 كلم.
10. العقلة: غرب الدويلات تماماً تبعد عنها حوالي 07 كلم.

11. الشهيد علي لمقدم بن عبد الله ولد خلال 1884م بالجديدة حفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه ثم انتقل إلى تونس وتحديدًا إلى جامع الزيتونة لمواصلة دراسته، انخرط في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1936م وبدأ في ممارسة النشاط السياسي، ألقى عليه القبض وعذب بسجون الاحتلال وتوفي سنة 1956م ودفن بقرية الجديدة مسقط رأسه.
12. لقاء مع مبروكة بنت حمّه لخضر الشايب، يوم 2016/05/07 في منزلها بالجديدة على الساعة 09:00 صباحًا.
13. عرفت منطقة وادي سوف انتشار عدّة أنواع من الأسلحة مثل الخماسي سلاح ألماني عرف بعد العرب ع 2.
14. ميهي محمّد بلحاج من مواليد 1919 أولاد حمد الوادي حفظ البعض من القرآن الكريم تعلّم في مدرسة الشيخ عبد العزيز الشريف، كلفّ بجلب الأسلحة من طرابلس وإيصالها إلى الأوراس عن طريق القوافل، ألقى عليه القبض في سبتمبر 1954 وأطلق سراحه جانفي 1955 وبقي تحت الإقامة الجبريّة ثمّ ألقى عليه القبض مرّة أخرى عام 1957 إلى غاية 1961.
15. جبل أحمد حدّه: من أشهر الجبال أثناء الثورة التحريريّة، يقع في حدود باتنة ويسكرة (غابات مشونش).
16. محمّد بن الساسي داسي، مصدر سابق.
17. دخل الشاب حمّه لخضر السجن وأطلق سراحه يوم 1954/11/06.
18. شهدت منطقة الأوراس نجاح عدّة عمليّات مقارنة بباقي المناطق العسكريّة فأطلق عليها المنطقة الساحنة.
19. محمّد بن الساسي داسي، مصدر سابق.
20. السويهلة: تقع شمال مدينة الوادي وتبعد عنها بحوالي 18 كلم .
21. المقرن : تقع شمال مدينة الوادي وتبعد عنها بحوالي 30 كلم

22. حاسي خليفة : تقع شمال شرق مدينة الوادي وتبعد عنها بحوالي 30 كلم
23. العمارة سعد وعون علي، معارك وحوادث حرب التحرير بمنطقة وادي سوف، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 17.
24. بلقاسم شعباني بن خليفة (1920-2009) شارك في أول معركة في منطقة وادي سوف وهي معركة هود كريمة 17 نوفمبر 1954 وأسر فيها بعد أن أصيب في هذه المعركة وبعد إطلاق سراحه فرّ إلى تونس وعاد بعد الاستقلال، لقاء مع عبد الرؤوف بن بلقاسم شعباني في منزله بالديلة يوم 2016/11/19 على الساعة 10:00.
25. المنشية: منطقة فلاحية تقع شمال حاسي خليفة وتبعد عنه بحوالي 10 كلم.
26. الزرق: صحراء قاحلة تقع شمال الوادي وتبعد عنه بحوالي 45 كلم.
27. جارش: منطقة فلاحية تقع في الحدود بين ولاية تبسة والوادي.
28. جبل زريف: يقع في سلسلة الأطلس الصحراوي بلدية نقرين ولاية تبسة.
29. رديف: مدينة تقع غرب ولاية قفصة في الجنوب التونسي تشتهر بالفسفاط وجبالها الخلاب.
30. الجيلاني بن عمر ولد سنة 1926 في بلدية العقلة ومجزّد اندلاع ثورة نوفمبر 1954 اتصل بمصطفى بن بولعيد شارك في معركة الجرف الشهيرة التي وقعت من 22 إلى 28 سبتمبر 1955، استشهد يوم 11 أكتوبر 1955 في معركة النقب للمزيد ينظر: سعد العمارة، شهداء من بلاد الجزائر، (ب ت) (ب،د)، الجزائر، 2006، ص ص 42، 43، 44.
31. جبل الجرف: اشتهر بمعركة جبل الجرف 22 سبتمبر 1955م، وهو من جبال الأوراس يبلغ ارتفاعه 1711م يقع في ولاية تبسة.

32. لزهرة شريط: أحد أسود النمامشة يلقب بالغزوم (الثعبان) يعتبر من الأوائل المفجرين للثورة،

شارك في معركة الجرف الشهيرة.

33. محمد بن الساسي داسي، مصدر سابق.

34. الجبل الأبيض: أو جبل أضرار أملال يبلغ طوله 2000م، من جبال الأوراس يقع في ولاية

تبسة.

35. بشير شيحاني: نائب قائد الأوراس مصطفى بن بولعيد الذي استخلفه وهو يغادر عرينه في

23 جانفي 1955م، لبحث موضوع الإمداد بالسلاح مع أعضاء الوفد الخارجي لجهة

التحرير، ولد بشير شيحاني بالحروب ولاية قسنطينة في 22 أبريل 1929م للمزيد ينظر:

محمد عباس، بشير شيحاني... أمير سر الثورة بالأوراس، الشروق العدد، 8831،

2009/12/21، ص9.

36. نقرين: تقع جنوب ولاية تبسة وهي بؤابة الصحراء واسمها من النقر وهو بئر الماء تبعد عن

عاصمة الولاية تبسة بـ 150 كلم.

37. محمد بن الساسي داسي، مصدر سابق.

38. الزقم: تقع شمال شرق الوادي وتبعد عنه بحوالي 12 كلم.

39. أولاد لخضر: تقع شمال الوادي وتبعد عنه بحوالي 25 كلم.

40. صحن الرتم: تقع شمال الوادي وتبعد عنه بحوالي 35 كلم.

41. سعد العمامرة وعلي عون، مرجع سابق، ص 25.

42. الهزبري: تقع شمال الوادي وتبعد عنه بحوالي 50 كلم، وهي منطقة مرور للقوافل الصحراوية.
43. بئر لمزيرة: تقع شمال الوادي وتبعد عنه بحوالي 65 كلم، وهو عبارة عن منطقة رعوية ومنطقة مرور للقوافل.
44. رشيد قسيبة، المحتشدات الفرنسية في الصحراء الجزائرية من خلال الرواية الشفوية محتشد أميه ربح 1955م، مجلّة البحوث والدراسات، جامعة الشهيد حمّه لخضر، الوادي، ص ص 255-266.
45. محمد بن الساسي داسي، مرجع سابق.
46. خنقة سيدي ناجي: أقصى شرق ولاية بسكرة وتبعد عنها بحوالي 100 كلم.
47. جبل زاريف: يقع شرقي نقرين ولاية تبسة.
48. فركان: تقع جنوب ولاية تبسة وتبعد عنها بحوالي 170 كلم.
49. محمد بن الساسي داسي، مصدر سابق.
50. محمد بن الساسي داسي، مصدر سابق.
51. رشيد قسيبة، محتشد أميه ربح، مرجع سابق، ص 255 .
52. الجديدة الغربية: قرية في بلدية سيدي عون تقع شمال الوادي وتبعد عنه حوالي 25 كلم.
53. الرقيبة: تقع شمال الوادي وتبعد عنه بحوالي 30 كلم.
54. قمار: تقع شمال الوادي وتبعد عنه بحوالي 14 كلم.
55. هود شيكة: عبارة عن مستثمرة من النخيل ملك للمعمر يدعى شيكة.

56. تولوز: مدينة فرنسية عرفها الأندلسيون باسم طولوشة، تقع جنوب غرب فرنسا بالقرب من

الحدود الإسبانية.

57. محمد بن الساسي داسي ، مصدر سابق.

58. الآية 169 سورة آل عمران.

59. لقاء مع علي برائكة، يوم 2016/06/16، بمنزله بالجديدة على الساعة 17:00.

60. سورة الفجر، الآيات 27، 28، 29، 30.

61. مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص، 76.

العناصر الفنية في خطوط الوثائق والمراسلات السلطانية بالمغرب

د. امبارك بوعصب / المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين / القنيطرة/ المغرب.

bouassab.hg@gmail.com

الملخص:

تكتسي الوثائق والمراسلات السلطانية أهمية خاصة في الدراسة التاريخية وهذا ما أدى إلى الاهتمام المتواصل بها حفظا وبمحتا وتحقيقا، حتى صارت مجالاً معرفياً مستقلاً وأصيلاً. إلا أنه بالمقابل بقي البحث في الجانب الفني للوثائق السلطانية في المغرب لحد الآن بكرة، إذ أن تسليط الضوء عليه لم يكن إلا من خلال التركيز على قيمته الدلالية، التي ترتبط بمعناها المفاهيمي أو مبناها اللغوي، أما الجانب الشكلي منها والمتعلق بالإخراج الفني للوثيقة خطأ وزخرفة وتذهيباً، فقد ظل شكلياً عند المهتمين والباحثين ولم يولوه ما يستحقه من دراسة وتشريح، وذلك بالرغم من إمعان خطاطي الدواوين السلطانية في تجويده، أو لائق الذين كان السلطان يختارهم ويكلفهم بتحرير جليل مكاتباته ومراسلاته بين يديه، ليمضي عليها بتوقيعه أو يخطمها بخاتمه الأصفى على حد تعبير ابن خلدون.

من هذا المنطلق يروم هذا المقال دراسة هذه المرتكزات الفنية في وثائقنا المغربية، من خلال تفكيك وتشريح هذه العناصر الفنية، فكان الاهتمام بعناصر الافتتاح بالتركيز على عبارة الحمدلة التي كان يفتتح بها السلاطين مراسلاتهم، والأختام والطغراوات

كعناصر فنية مستقلة لكونهما عنصرين بنويين في تحرير المراسلات السلطانية؛ تحيلنا على سيادة السلطان وشرعية حكمه.

الكلمات المفتاحية: الوثائق - المراسلات - الأختام - الطغراء

Abstract

This article examines the technical underpinnings of the Moroccan our documents that have not received sufficient attention; Historians care about the documents do not focus on the technical aspects, which do not put spotlight – in most cases – only the associated value of semantic document side, was the attention to the elements of the opening, focusing on the Doxology, which was a opens the sultans correspondence, seals and Tograwat for being two Bnaoyen editor Bowl correspondence through the dismantling of the technical elements of the semantic historical dimension in addition to the decorative style, which was decorated with these documents. On the whole, we have tried to address these elements in detail technician – scientific by decoding text symbols, and dissect the technical elements even raise the attention of researchers to the need to look at the aesthetic aspects of the documents and take advantage of it to address a group of historical issues that are still pending.

Key words: artistic elements – artistic output of the document – seals – Tograwat

مقدمة:

تكتسي الوثائق والمراسلات السلطانية أهمية خاصة في الدراسة التاريخية، وهذا دفع الباحثين للاهتمام المتواصل بها حفظا وبمخنا وتحقيقا، حتى صارت مجالا معرفيا مستقلا وأصيلا، وبالرغم من العناية التي توليها الدولة المغربية للوثائق¹، من خلال جمع المتفرق منها بالحيازة أو النسخ أو التصوير والتوثيق والأرشفة والترميم، إلا أن البحث في الجانب الفني للوثائق السلطانية في المغرب لا يزال لحد الآن بكرا، إذ أن تسليط الضوء عليه لم يكن إلا من خلال التركيز على قيمته الدلالية، التي ترتبط بمعناها المفاهيمي أو مبناها اللغوي، أما الجانب الشكلي منها والمتعلق بالإخراج الفني للوثيقة خطا وزخرفة وتذهيبا، فقد ظل شكليا عند المهتمين والباحثين ولم يولوه ما يستحقه من دراسة وتشرح، وذلك بالرغم من إمعان خطاطي الدواوين السلطانية في تجويده، أولئك الذين كان السلطان يختارهم ويكلفهم بتحرير جليل مكاتباته ومراسلاته بين يديه، ليمضي عليها بتوقيعه أو يختمها بخاتمه الأصفى على حد تعبير ابن خلدون²، والحال، أن السلاطين كانوا يولون عناية فائقة لهذه الوثائق من حيث إخراجها؛ بالنظر إلى كونها تعبر عن قوة سلطانهم وترسخ سيادتهم، وكأنهم بذلك كانوا يرومون استرعاء انتباه المتلقي أو المرسل إليه، وشد انتباهه إلى قوة الدولة واستعراض جلال خططها السلطانية ومراسيمها الملوكية، بلسان الحال المتمثل في شكل الوثيقة، فضلا عن لسان المقال المتمثل في مضمونها.

من هذه القناعة، جاء هذا المقال ليركز على الجانب الجمالي للوثائق السلطانية، واستغلالها لرصد مدى الإسهام الفني الذي قدمته الدواوين السلطانية لخطنا المغربي وفنونه³، من خلال استغوار تلك الشواهد المادية، وتفكيك عناصرها الفنية ذات البعد الدلالي التاريخي والعميق، وتشريحها تشريحا علميا، وبالتالي مقارنتها مقارنة تاريخية. ولتفكيك وتشريح المراسلات السلطانية تشريحا فنيا، نشير إلى أنه ينبغي دراسة بعض مرتكزاتها الفنية التي تتميز بها عن غيرها، فمن العناصر الأساسية التي ينبغي استكناها؛ الافتتاح بالتركيز على عبارة الحمدلة التي كان يفتح بها السلاطين العلويون مراسلاتهم، والاختتام لكونه عنصرا بنويا في تحرير المراسلات السلطانية، حيث يحيلنا على سيادة السلطان وشرعية حكمه، كما يحيلنا في الآن نفسه على نوع الخط الذي حرر به، والذي كان في غالب الأحيان من صنف "المجوهر الجليل"⁴، لذلك كان من أكثر العناصر التي همتها الاختزالات والتحويلات والإدغامات التي ميزت التوقيعات السلطانية. ثم بعض الزخارف الجديدة بالدراسة والتشريح.

1- الافتتاح والاختتام في الوثائق والمراسلات السلطانية.

اتفق أهل الاختصاص في علم تحقيق الوثائق على أن الوثيقة تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية هي: المقدمة أو الافتتاح، والمتن، والخاتمة أو الاختتام، وأن كل جزء من هذه العناصر الرئيسية يتكون من عناصر فرعية تختلف باختلاف أنواع الوثائق وطبيعتها. وقد اعتمد السلاطين المغاربة في تقاليد مراسلاتهم الرسمية ووثائقهم الإدارية على بنية شبه موحدة، حيث أشرف الكتاب على صياغتها في ديوان الإنشاء وضمنوها الأوامر والنواهي

الموجهة للخدام بغرض تنفيذها، غير أنه، ونحن نقارن بين بنية المراسلات والوثائق السلطانية نستوقفنا بعض الملاحظات؛ تتجسد فيما يلي:

- التباين الحاصل بينها على مستوى علامات التصديق ورموزه وختم الرسائل.
- الاختلاف من حيث المستوى اللغوي، فإذا كانت الوثائق الصادرة عن السلطان السعدي تميزت بمهارة أدبية رفيعة غنية بالصور البلاغية، أضفت عليها طابع المبالغة جعلت القادري يصفها "بالغلو والإغراق، والإطراء في المخلوق بما هو من صفة الخالق"⁵، بينما عرف فن الترسيل في عهد سلاطين الدولة العلوية نوعاً من التباين، فجاء بعضها مكتوباً بمهارة أدبية رفيعة، وبالمقابل يثير انتباهنا ركاكة الأسلوب وغلبة اللهجة العامية على بعضها الآخر، كما هو الحال في هذا المقطع المقتطف من إحدى الوثائق "والله ثم والله إلا أن وجهت له وقلت له إن لم تحضر لك المائة، اشهد لي بها واصبر لك شهرين أو ثلاثة ونعمر بها ذمتي، ونعلم مولانا بما أنها وصلتني فامتنعوا، هذا جهدي عملته والقائد الذي نشكي له ويجبره عليها عينته بالذهاب والإياب ولم يفعل شيئاً.."⁶.

وعموماً اتسمت الوثائق والمراسلات بثبات بنيتها العامة، التي حافظت على تركيبة إنشائية مماثلة، إذ كان الهيكل الأساسي لهذه الوثائق لا يخرج عن نظيره الذي ميز المراسلات الإسلامية عموماً، والتي تستهل بالبسملة والحمدلة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تنتهي بتاريخ، وتحمل خاتماً أو علامة سلطانية.

1-1. الافتتاح في الوثائق والمراسلات السلطانية المدروسة.

لقد كان الخط الجوهري وسيلة التوثيق الأساسية فجاء دوره الوظيفي في الوثائق والمراسلات السلطانية بالمغرب واضحا وجوهريا من الناحيتين الشكلية والدلالية - ونظرا لارتباطه بتحرير الوثائق السلطانية ودواوينها - يمكن أن نعتبه بأنه خط ديواني- تحريري من حيث حقيقة استعماله، وليس من حيث تسميته التاريخية - الفنية، إذ أن مجالات استعماله في المغرب - تقريبا - كمجالات استعمال الخط الديواني في المشرق. وهذا يجعلنا نقارنه بالخط الديواني - العثماني الذي اكتسب تسميته من خلال وظيفته، سيما بعدما اتخذ السلاطين العثمانيون خطا رسميا في دواوينهم، وخاصة في تحرير المراسلات والفرمانات السلطانية، وقد اشتق من الديواني العثماني صنف أضخم منه، يكتب بقلم جليل سماه العثمانيون "بجلي الديواني" أو "جلي ديواني"، ولأن القلم الجليل للخط الجوهري لم يكن يستعمل إلا في حدود ضيقة؛ يمكن حصرها في (كتابة العناوين، والاستشهادات، والاشهادات..)، فإن استعماله لم يتطور بالشكل المطلوب مقابل سيادة الجوهري الدقيق⁷. وهذا ما لاحظناه من خلال هذه الدراسة التي كانت محكومة بالضرورة ب: "الجوهري الدقيق"، لأن الوثائق معظمها - إن لم نقل كلها - كانت تحرر بهذا الخط، ولم نتطرق لـ "جليل الجوهري" إلا في بعض المواطن التي استعمل فيها لأغراض تفيد إما التزيين أو التوضيح.. كالانتقال من معنى إلى معنى كما نلاحظه من خلال كلمات: (الحمد لله.. وبعد.. قال فلان أو علان..). أو عبارات الافتتاح (بسملة.. الحمدلة.. الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم..). أو عبارات الاحتتام (التوقيعات.. الإشهادات.. التصحيحات..). ولما أرادوا ذلك، قاموا بتجلية أو تجليل حروفهم بنفس

القلم، وتحديدًا بخط الثلث المشرقي والمبسوط المغربي، ولم يخطوها بقلم ذي رأس مقطوط مزوى، الشيء الذي غيب ظهور خصائص التجويد المعروفة في باقي الخطوط العربية⁸.
ومن بين العبارات التي كتبت "بخط مجوهر جليل"؛ عبارة الحمدلة التي كان يفتتح بها السلاطين العلويون مراسلاتهم، والجدير بالذكر أن استعمالها كان سائدًا في الطغراوات والعلامات السلطانية السعدية، وقد كان ذلك الإستعمال يستند إلى مرجعية تاريخية ضاربة أطنابها في القدم⁹. بدليل أن المقري يذكر أن تركيب الحمدلة نال إعجاب الأدباء والشعراء منذ العصر الموحد، حتى إن حفصة بنت الحاج الركونية، قامت بمدحها بين يدي عبد المؤمن بن علي الكومي حيث قالت¹⁰:

يا سيد الناس يا من يؤمل الناس رفده

امنن علي بطرس يكون للدهر عده

تخط يميناك فيه: الحمد لله وحده

وذهب المقري في تفسيره لهذا المقطع؛ أن الركونية "أشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، فإنها [أي: العلامة] كانت أن يكتب السلطان بخط غليظ في رأس المنشور: الحمد لله وحده"¹¹.

وقد أبدى الشعراء إعجابهم بهذه العلامة أيضا ومنهم، أبو عبد الله ابن مرج الكحل الذي هنا الناصر الموحي بعد قدومه من إفريقية مظفرا سنة: 603هـ/1206م، حيث أنشد قائلا¹²:

ولما توالى الفتح من كل وجهة ولم تبلغ الأوهام في الوصف حده
تركنا أمير المؤمنين لشكره بما أودع السر الإلهي عنده
فلا نعمة إلا تؤذي حقوقها علامته بالحمد لله وحده

وقد ذهب ابن الأحمر في كتابه: "مستودع العلامة" إلى أن الموحدين "كانوا يكتبون العلامة بأيديهم، ولم يكتبها لهم سواهم، وذلك من أولهم: عبد المؤمن، إلى آخرهم: أبي دبوس"¹³. أما عن نوع المداد المستعمل في رسمها، فقد أشار القلوسى (707- 607هـ/1210 - 1211م)، إلى أنها كانت ترسم بمداد خاص يسمى: "مداد العلامة"، يكون ذا لون أسود براق تعلوه حمرة تساعد على سرعة القلم¹⁴.

وقد توارث السلاطين المغاربة استفتاح مراسلاتهم بعبارة الحمدلة، وظل هذا التقليد متبعا إلى أن انتهى أمره إلى العلويين، وغالبا ما تكون الحمدلة مقترنة بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث تفصل بينهما مسافة معينة كما لاحظناه من

خلال معظم الرسائل التي اطلعنا عليها، ولتأكيد هذا الأمر، نسوق الأنموذج التالي الذي استخرجناه من مراسلة سلطانية يرجع تاريخها إلى سنة: 1311هـ/1893م¹⁵:

المزلة حرك
وكل الله على سيدنا محمد وآله وهنبدوسل

وفيما يلي نماذج أخرى لعبارة الحمدلة مستخرجة من عدة مراسلات سلطانية علوية ينحصر تاريخها بين سنة: 1228هـ/1813م. وسنة: 1263هـ/1846م¹⁶:

المزلة حرك
المزلة حرك
المزلة حرك
المزلة حرك
المزلة حرك
المزلة حرك

2-1. التوقيعات أو العلامات السلطانية في الوثائق.

كانت المراسلات السلطانية غالبا ما تتوج أو تنتهي بالختم السلطاني الذي يوقع باسم السلطان، وذلك لإضفاء طابع الرسمية على الرسالة التي تفيد الأمر أو التوجيه أو الحسم في قضية معينة.

واستعمال التواقيع أو العلامات السلطانية في وثائق الدولة - حسب ابن خلدون - إنما يكون المراد منه الإشارة إلى معنى واحد هو: "معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه، لأن الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات، وهو من دونها ملغى ليس بتمام. ويكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه، وسمي ذلك في المتعارف علامة، وسمي ختماً تشبيهاً له بأثر الخاتم الآصفي في النقش، ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوص"¹⁷.

وسميت التواقيع أو العلامة السلطانية بذلك لأن السلطان كان يختص بها لنفسه، ولا توقع الكتب الرسمية للدولة إلا بها، حتى ولو كان السلطان لا يجيد كتابة الخط الرائق، يقول ابن خلدون في هذا المعنى: "وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته، ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظه وابلغه"¹⁸.

أما العلامة السلطانية في المغرب فكانت من اختصاص موظف ينصبه السلطان بنفسه، أطلق عليه المؤرخون خلال الحقبة الوسيطية "صاحب القلم الأعلى" أو "كاتب العلامة"¹⁹، وكانت هاتان التسميتان مختلفتان في مدلولهما - حسب ابن الأحمر - قبل أن يصبح لهما نفس المعنى اعتباراً من العصر المريني، يقول ابن الأحمر: "كان يعبر عن كاتب الإنشا بصاحب القلم الأعلى ثم صار هذا الرسم يعبر به في زماننا هذا عن كاتب العلامة"²⁰، وأضاف أن "كاتب العلامة"، جرت العادة أن يكون هو عينه "رئيس

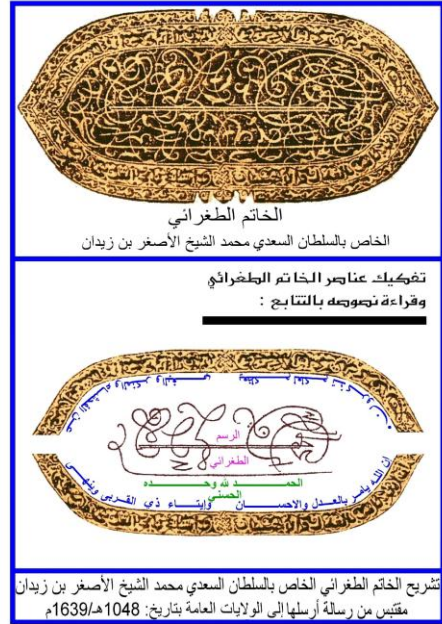
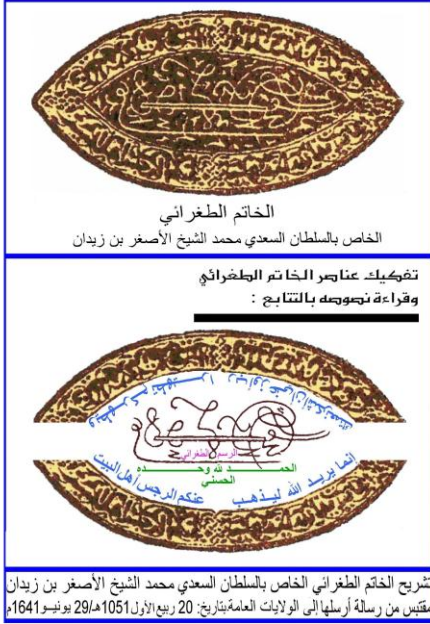
الكتاب" في الدواوين السلطانية بالمغرب، وذلك بحكم منصبه الحساس الذي يتصل مباشرة بالسلطان. ويتفق ابن خلدون مع ابن الأحمر في هذا المضمار، إذ جعل من رئيس الكتاب هو نفسه كاتب العلامة أو "صاحب العلامة" كما وردت في كتابه العبر²¹، ليصبح في العهد السعودي يعرف ب: "صاحب الديوان"²².

وكانت عبارات العلامات السلطانية خلال العصر الوسيط تتميز بالاختلاف، وذلك بالنظر إلى وظيفة كل واحدة؛ فقد كانت العلامة المرابطية مرتبطة بالتصحيح فمثلتها عبارة "صح ذلك بحول الله"، أما العلامة الموحدية فكانت مرتبطة بالافتتاح فجسدها عبارة "الحمد لله وحده" في حين أن العلامة المرينية ارتبطت بالتاريخ، ولذلك استخدمت عبارة: "و كتب في التاريخ".



أما في العصر السعودي فقد شاع استعمال الأختام الطغرائية نظرا للقيمة الفنية الكبيرة التي احتلتها الطغراء، إلا أن هذه الأختام كانت تزيد عن الطغراء المجردة بإضافة نصوص مرفقة تتضمن اسم السلطان والدعاء له بالنصر والتمكين، وتركيب ذلك في شكل بيضوي يتوسطه الشكل الطغرائي، بينما كانت تملأ الفراغات بزخارف نباتية متنوعة حتى يبدو التركيب متماسكا كما نلاحظه من خلال (الشكل 1). كما ورد في

أول كتاب - حسب علمي- تناول "الطغراء السعدية - المغربية" تعريفاً وتأصيلاً وتشريحاً بل وحتى مقارنة، كما أنه الأول في مقارنتها "بالطغراء العثمانية - المشرقية" المزامنة لها²³.



الشكل رقم 1. نماذج لتشريح الأختام الطغرانية

المصدر: خبطة. الطغراء. ص: 331-333

ومن بين السلاطين العلويين الذين اهتموا بهذا الأمر، السلطان المولى إسماعيل الذي تفنن خطاطو ديوانه في رسم أختامه، وإنما إذ نستعمل كلمة: "رسم"، نشير إلى أننا لم نستعملها عبثاً، فباطلاعنا على قدر كبير من رسائل هذا السلطان، اكتشفنا أنه يتميز عن باقي السلاطين، بكونه كان يأمر خطاطي ديوانه برسم خواتم رسائله، حيث تبدو مرسومة بماء الذهب، ومؤطرة بالحبر الأسود، فضلاً عن تزيينها بمختلف الوحدات الزخرفية

النباتية المموهة بالأحمر أو الأخضر أو غيرها من الألوان، وذلك بحسب ما تقتضيه بعض المتطلبات الجمالية، كما نلاحظه من خلال الشكل التالي:



ولا يخفي علينا أن هذا السلطان يستعمل أيضا الأختام التي كانت تصنع قوالبها بأمره من المعادن على غرار سابقه ولاحقيه، وذلك ليفتح أو يختتم بها رسائله المستعجلة، وعادة ما كان السلطان يغمس خاتمه المعدني في الحبر للاستمداد، ثم يخرجها ليصم أو يختتم به رسالته بضرية من كفه، وبهذا الإجراء يكون السلطان المولى إسماعيل قد تخلّى عن الإمضاء اليدوي وعن العلامة الخطية التي استخدمها السعديون والتي تضمنت عبارة "صح هذا" أو "صحیح ذلك" المختومة بشكل طغرائي يحمل ملامح حرف الهاء للدلالة على كلمة: "انتهى". وفيما يلي أنموذج لمثل تلك الأختام، التي قمنا بتشريح نصوصها، وترجمتها بالخط الإداري في لوحة تركيبية معبرة (الشكل 2).



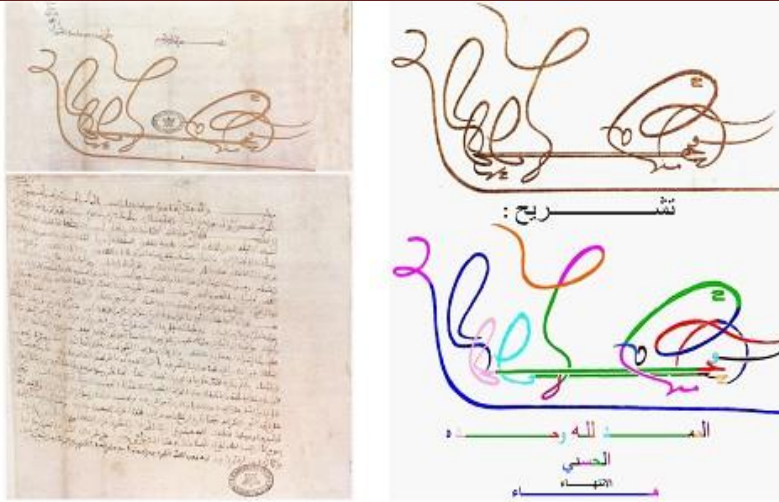
الشكل رقم 2. نماذج لتشريح الأختام السلطانية

المصدر. بو عصب. المراسلات. ص: 44

وقد كانت الأختام بأشكال مختلفة منها ما هو دائري ومنها ما هو بيضوي ومنها ما هو لوزي إلى غير ذلك من الأشكال الهندسية، وفيما يلي نسوق لوحة جمعنا فيها أختاما علوية مختلفة الأشكال²⁴:



وللإشارة، فإننا لن نركز هنا على وصف هذه الأختام أو التعليق عليها، أو دراسة عناصرها الفنية أو النصية، لأن ذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة. ومع ذلك نشير إلى أن توظيف كلمة: "الحسني" في الخاتم الإسماعيلي هو تقليد لما ورد في الطغراء السعدية المتواجدة بالوثائق والمناشير والمراسيم الديوانية التي كانت تُختم عادة بتلك العلامات السلطانية ذات البعد السيادي، وهي لقب اتخذته سلاطين الدولة السعدية للتذكير بأثالة محتدهم، وعراقة جذمهم، الذي يتصل بالنسب الشريف الممتد إلى الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما²⁵. (الشكل 3).



الشكل رقم 3 . نموذج للتحليل الفني للطغراء السعدية وتفكيك عناصرها

المصدر. خبطة. الطغراء. ص:356

بالإضافة لما سبق، نشير إلى أن الرسائل السلطانية، كانت تحتتم في بعض الأحيان بالتوقيعات الخطية، إذ جرت العادة عند المغاربة أن تمضى رسائلهم بخط مجوهري - ملغوز للحيلولة دون تقليده من طرف المغرضين والمزورين، ونحصر تلك الرسائل في الرسائل الجوابية التي ترفع للسلطان ردا على رسالته، أو رسالة مطلبية، أو بيعة أو ما شابه ذلك.. وفيما يلي رسالة تضمنت أكبر عدد ممكن من التوقيعات في أسفلها²⁶، لأنها تحمل في مضمونها مفهوم الولاء وتجديد البيعة:



مراسلة من أهل أزمور للسلطان الحسن الأول تحمل تاريخ: 1290هـ/1873م

2 - عناصر الزخرفة في الوثائق والمراسلات السلطانية.

إن البداية الحقيقية للطراز المغربي في فن الزخرفة ترجع إلى أواخر القرن السادس الهجري، حيث بدأت الزخرفة في المغرب تستقل عن نظيرتها في المشرق، مقابل ارتباطها بالطريقة الأندلسية²⁷. لتترسخ بشكل كبير في عصر الدولة المرينية، حيث ارتبطت بفنون إخراج المخطوط، وقد اتخذ التصميم الهندسي لمعظم المخطوطات، شكلا زخرفيا مميزا طبعت به الزخرفة المغربية، المتميزة بخصائص فريدة أبدعها الفنان المغربي²⁸. أنتجت لنا طرازا مغربيا، يمكن أن نصطلح على تسميته: "بالطراز الفاسي" الذي أشار إليه مفتي الديار التونسية: محمد الفاضل بن عاشور، حين عبر عنه "بالذوق الفاسي"، وهذا التخصص، مرده إلى أن مدينة فاس كانت قاعدة ملك المرينيين، ومعقلا للعلم والعلماء، الشيء الذي أهلها لكي تكون رائدة في تطوير صناعة المخطوط خطأ وزخرفة، يقول ابن عاشور: "استتبع العناية المرينية بتصحيح الكتب وضبطها عناية بتجويد الخط، وتحميل الطوالع، وإظهار التراجم والمقاطع، وإبداع التزييق والجدولة والتلوين والتذهيب، وذلك ما ورد في أخبار مصاحف السلطان أبي الحسن، وما وفر لها من آيات الجلال والجمال، وبذلك كان للوراقة مكانها السامي من بين مظاهر الحياة الفاسية، وأعانت سعة الحضارة وضخامة الدولة من جهة أخرى، وتأثير الخطاطة والوراقة الأندلسيتين من جهة ثالثة، على أن أصبح الكتاب موضوع عمل فني رقيق، يبدو فيه الذوق السليم، والصناعة الرشيقة، والبذل الواسع، وقد اكتملت لمدينة فاس أسباب الإتقان الفني للكتاب من جميع النواحي، حتى أصبحت تقصد لطلب الكتب من حيث جمال المجلدات ونفاستها، كما

تقصد لطلب التأليف المهم والضبط الصحيح، حتى أصبحت الكتب المخطوطة بفاس على تفاوت مراتبها، ذات كثرة غالبية على مخطوطات المكتبتين: الزيتونة والعبدية...²⁹.

وقد تم تداول هذا الطراز كتقليد رسمي عرف في العصر العلوي عند المنحرفين الذين اهتموا بتزيين وتذهيب الوثائق والمراسلات السلطانية وفق أشكال زخرفية تمزج بين الزخرفة النباتية والكتابية والهندسية. وقد بلغ هذا الفن أوجه في العهد السليمانى كما ذهب إلى ذلك بعض المحققين³⁰.

وكيفما كان الحال، فقد اطلعنا على مجموعة من الوثائق المعنى بما خطا وزخرفة، فأثرنا أن نستدل ببعضها للتعرف على المستوى الجمالي الذي وصل إليه المنحرف المغربي في تلك الفترة (أنظر الشكل 4 وما بعده).



الشكل رقم 4 . وثيقة علوية وظفت فيها الزخرفة النباتية (التوريق) إلى جانب الخط

المجهر، وفق نمط مستلهم من فن العمارة المغربية، وسيما في شكل الأقواس التي تتميز بها أبواب المباني التاريخية

ويمكن تفسير هذه العناية بالزخرفة بتوفر البلاط السلطاني على دواوين للخطاطين والمزخرفين والمذهبين والمحررين والوراقين، وهذا ما نلاحظه من خلال وثيقة علوية (راجع شكل: 1). وردت فيها جملة تفيد بأن السلاطين العلويين كانوا يهتمون بدواوين المكاتبات والمراسلات، حيث سميت في الرسالة المذكورة ب: "الدواوين السعيدة":

الدَوَائِينُ السَّعِيدَةُ

أو "ديوان النساخين" كما كان في عهد الحسن الأول الذي يقول عنه ابن زيدان "أنه كان ولوعا بنسخ الكتب والبحث عن البارعين في الخط المتقنين، ويجلبهم لحضرته للكتابة والنسخ، لا يفارقون حضرته سفرا ولا حضرا، اتخذ لهم محلا خاصا بهم برحاب القصر، وعين لهم من يقوم بشؤونهم .."³¹. نفس الاهتمام أولاه السلطان عبد الحفيظ للخط، فكان بلاطه يستوعب عددا من النساخين، يجتمعون في بنية (مكتب) في القصر السلطاني بفاس الجديد.³²

بناء على ما سبق، يمكن تسمية الخط المخصص لتحرير الرسائل والمكاتبات السلطانية ب: "الخط الديواني"، من حيث وظيفته، وهي نفس التسمية التي أطلقت على الخط المخصص لتحرير الوثائق والفرمانات العثمانية، حتى أضحت لصيقة به إلى اليوم،

بخلاف الخط المغربي المخصص للوثائق المغربية، فإن تسميته لم ترتبط بوظيفته، وإنما ارتبطت بملاحمته الفنية، فسمي خطا مجوهرا، لأن ترويساته وزلفه تشبه الرصائع والجواهر، فاندمج بهذه الملامح مع العناصر الزخرفية بكافة أشكالها، سواء كانت نباتية (التوريق)، أو هندسية (التسطير)، والزخرفة التي تعد أنسب لهذا الخط؛ الزخرفة النباتية، لكونها تتداخل معه بشكل لا نشاز فيه، حتى انه يصعب التمييز في بعض الأشكال التركيبية بين الأحرف المجهرية، والوحدات الزخرفية النباتية، شأنه في ذلك شأن خط الثلث المغربي، الذي استعمل أيضا في نفس الغرض، نظرا لليونته المتناهية، التي كانت تسهل عملية دمج حروفه المرسومة بماء الذهب أو غيره من الأحبار النفيسة مع مختلف العناصر الزخرفية، وخاصة النباتية منها وهو ما نلاحظه من خلال الشكل التالي الذي استخراجناه من الوثيقة السابقة، حيث تظهر كل من البسملة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مرقومة بخط الثلث المغربي بلون أصفر، على مهاد أو أرضية زخرفية، تتألف من وحدات نباتية تتشابك فيما بينها وفق نسق حلزوني، وقد رسمها المزخرف بماء الذهب، ولولا الاختلاف الطفيف بين اللونين: الأصفر والذهبي لاختلط نص الكتابة بالزخرفة:



والجدير بالذكر أن منفذ هذه الوثيقة، قد تقيد بما تقيد به الخطاطون المغاربة في الافتتاح، حيث ترك فراغا بين البسملة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم،

شغله بتاج زخرفي نباتي يتوسط العبارتين (البسملة، والصلاة على رسول الله)، والملاحظ أن الخطاط فضل الافتتاح بالبسملة عوض الحمدلة التي جرت العادة أن يفتتح بها المغاربة مراسلاتهم ومكاتباتهم، بخلاف المشاركة الذين فضلوا الافتتاح بالبسملة في جليل مكاتباتهم، ولعل هذا ما يفسر افتتاحهم الحلية النبوية الشريفة التي تعد أشرف الأشكال الخطية بالبسملة، مما يدل بشكل ضمني أن الخطاطين المغاربة يفتتحونها بالحمدلة كما يلاحظ ذلك من خلال كتاب: "دلائل الخيرات" للجزولي، هذه الحمدلة التي رسمت في عصر السعديين على شكل رسوم طغرائية وعلامات سلطانية في المراسلات والوثائق الرسمية³³.

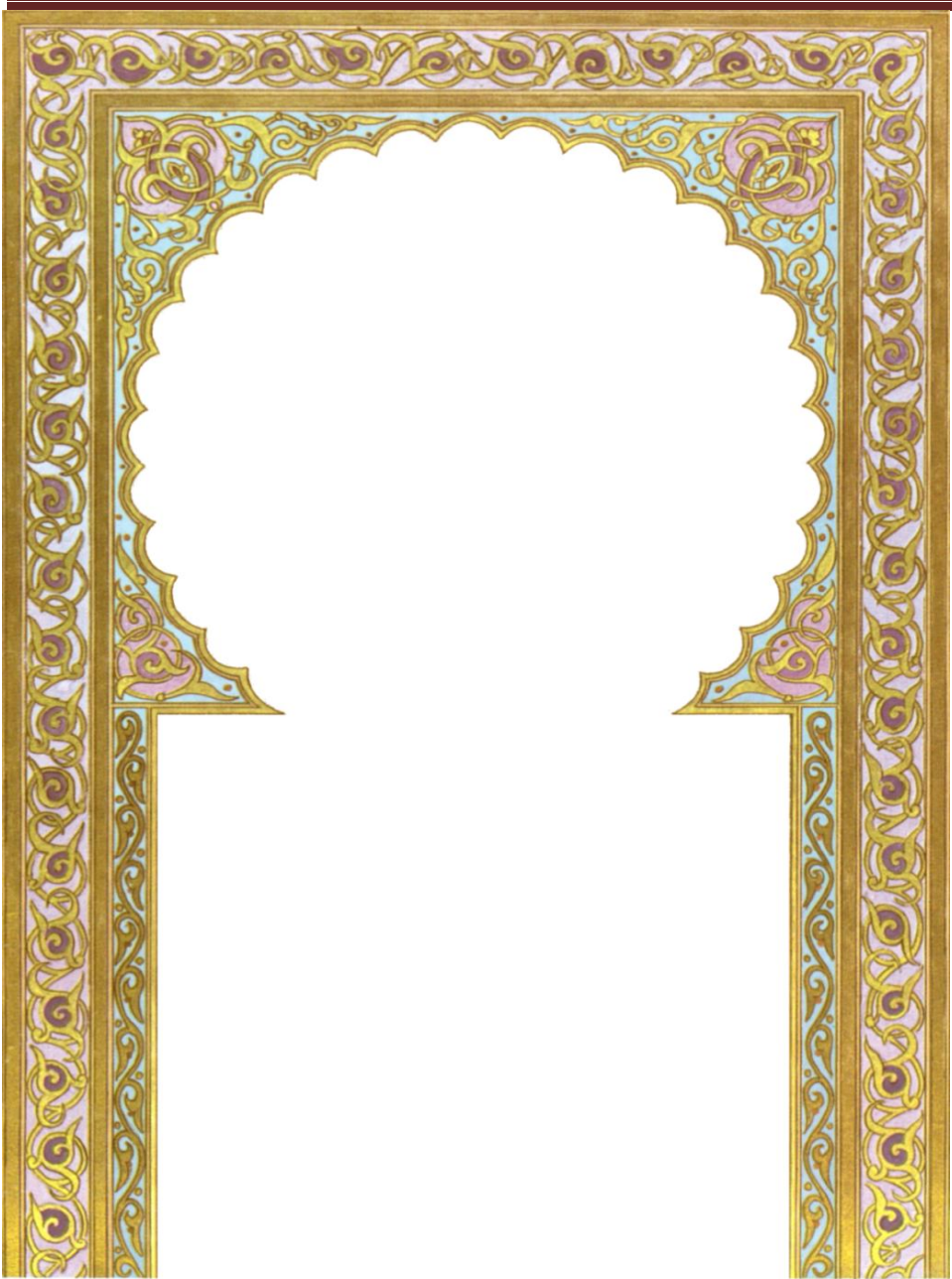
وكيفما كان الحال، فإن منفذ هذه الوثيقة وبالرغم من افتتاحه بالبسملة، أبقى إلا أن يضع تحتها الحمدلة لترتبط مباشرة بمتم الوثيقة:



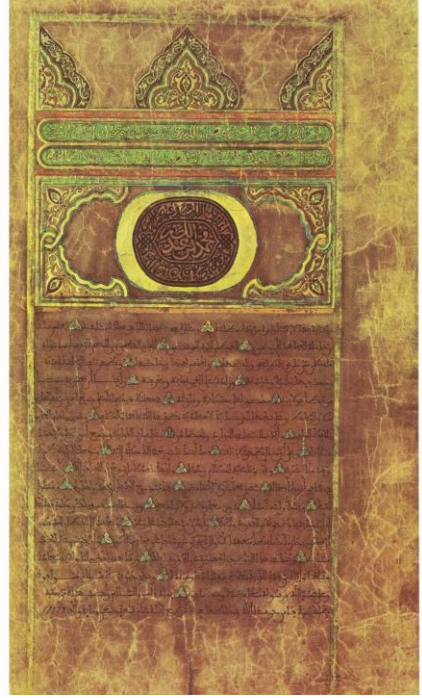
حيث رقمها بخط ثلثي جليل على أرضية زخرفية نباتية، يشكلها تاج مورق يقع بشكل رأسي تحت التاج الذي يصغره، و الذي يفصل بين البسملة والصلاة على رسول الله، مما جعل من الحمدلة محور الوثيقة ومركزها.

وقد اتخذ الشكل العام للوثيقة صورة قوس مفصص يرتكز على عمودين، وفق نمط مستلهم من فن العمارة المغربية، وسيما من شكل الأقواس التي تتميز بها أبواب المباني التاريخية، وحتى نؤكد هذا التشبيه، قمنا بتفريغ الوثيقة من نصوصها، وعرضناها لتبدو على شكل باب مزخرف، وكأنه أحد أبواب المدن المغربية العتيقة في فاس أو مراكش أو سلا.. (أنظر شكل:5).

وتعد هذه الوثيقة من أندر الوثائق السلطانية المغربية التي زخرفت وفق هذا الطراز، إذ جرت العادة أن تكون الوثائق السلطانية متوجة بالطرز الزخرفية، التي كانت تنفذ بعناية تامة لتنسجم مع الأختام السلطانية التي جرى وضعها في الحيز الفاصل بين تلك الطرز ونصوص الوثائق، كما لاحظناه من خلال مجموعة من النماذج التي اقترحنا منها شكلين اثنين (أنظر شكل: 6).



الشكل رقم 5 . زخرفة على شكل باب إحدى المدن المغربية العتيقة.



الشكل رقم 6. وثيقتان علويتان مزخرفتان تظهران كيفية الملاءمة بين الطرز الزخرفية والأختام السلطانية.

حاتمة:

من خلال ما سبق، نخلص إلى أن السلاطين المغاربة استخدموا مجموعة من العبارات للمصادقة على خطاباتهم ورسائلهم المبعوثة إلى الخارج؛ وهي نوع من التوقيعات السلطانية التي كانت مأثورة عند هم. كما استفتحو مراسلاتهم بعبارة الحمدلة التي يستند استعمالها إلى مرجعية تاريخية ضاربة أطنابها في القدم. وقد وظل هذا التقليد متبعاً إلى أن انتهى أمره إلى العلويين، وغالبا ما تكون الحمدلة مقترنة بالصلاة على رسول الله صلى الله

عليه وسلم، حيث تفصل بينهما مسافة معينة، واستعملوا في ختم هذه الوثائق أختاماً، تفنن خطاطو السلطان في رسمها وتعددت أشكالها وأحجامها وتنوعت عباراتها التي تركزت أساساً حول اسم السلطان والدعاء له بالنصر والتمكين. بالإضافة إلى النوع السابق وظفت الأختام الطغرائية ذات القيمة الفنية الكبيرة وذات البعد السيادي. كما كانت تُملاً فراغات الوثائق وتزين إطارها بزخارف نباتية وكتابية متنوعة، ولعل تفكيكنا وتشريحنا لبعض المرتكزات الفنية لهذه الوثائق جاء لإثارة انتباه الباحثين والمؤرخين لأهمية هذه المكونات التاريخية والحضارية وإمكانية توظيفها لمعالجة العديد من الإشكاليات التاريخية الكبرى. إن أحسنت دراسة الوثائق وعناصرها الفنية من خلال دراسة تاريخية فنية تفكيكية تشريحية، لأن كل وثيقة تمثل درة جمعت بين الخط والعناصر الخطية والزخرفة.

الهوامش

¹ - تعتبر مديرية الوثائق الملكية كما هو معروف لدى جميع الباحثين، من أهم الخزانات بالمغرب على الإطلاق ومن أغنى المكتبات الخاصة في الغرب الإسلامي، حيث تتوفر على ذخيرة هامة من الوثائق النفيسة والنادرة التي تقدر بما يزيد عن 150 ألف وثيقة.

² - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: 1988م، ص. 327.

³ - لن نركز هنا على الجانب الفني المتعلق بدراسة الخط الذي حررت به تلك الوثائق لأننا أفردنا لذلك دراسة خاصة في كتابنا، ينظر:

- امبارك بوعصب، المراسلات والوثائق السلطانية خلال العصر العلوي مساهمة في دراسة الخط المجوهر وسماته الفنية، الرباط، 2014.

- 4 - عرف التحليل في المغرب منذ غابر العصور، وغالبا ما كان يعبر عنه في المصادر المغربية بمصطلح "التعليظ"، راجع:
- محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني «الخط المجرور والخط الديواني بين الاستدقاق والتحليل دراسة تاريخية- فنية» مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، العدد 34، 2014، ص. 273-233.
- 5 - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم، ج/1، 1977، ص.55.
- 6 - بوعصب، م س، الوثيقة 7 بالملحق.
- 7 - محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني، المصاحف والكتب المخطوطة في المغرب خلال العصرين المريني والسعدي، مساهمة في دراسة أصناف الخط المغربي وأقلامه، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 2011-2012، ج/3، (مرقونة)، ص. 834.
- 8 - حميد الخربوشي، «الأقلام المغربية من التدقيق إلى التحليل الخط المجرور نموذجا نحو مقارنة تأسيسية لقلم المجرور الجليل»، مقال مرقون.
- 9 - خبطة، المصاحف، م س، مبحث: الطغراء: جذورها التاريخية وتطورها خلال العصر السعدي، ج/2 ص: 515.
- 10 - أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر بيروت، تحقيق إحسان عباس، 1997، ج/4، ص 171.
- 11 - نفسه.
- أنظر أيضا: خبطة، المصاحف، ج/2، ص. 515.
- 12 - المقرئ، نفح الطيب، ج/4، ص. 171-172.
- 13 - أبو الوليد ابن الأحرر، مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التركي ومحمد بن تاويت المركز الجامعي للبحث العلمي، تطوان: 1964، ص. 21 - 22.

- 14 - أبو بكر محمد بن القضاعي القلوسى، تحف الخواص في طرف الخواص، في صناعة الأمدّة والأصبغ والأدهان، نشر مكتبة الإسكندرية تحقيق، الدكتور حسام أحمد مختار العبادي، 2007، ص. 25.
- أنظر أيضا: خبطة، المصاحف، ج/2، ص 515.
- 15 - بو عصب، المراسلات، ص. 41.
- 16 - نفسه، ص. 42.
- 17 - ابن خلدون، المقدمة، ص. 306.
- 18 - نفسه.
- 19 - خبطة، الطغراء، ص. 72.
- 20 - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص. 25.
- 21 - عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر بيروت الطبعة الثانية، 1988. ج7، ص. 523.
- 22 - أبو العباس احمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، المنتقى المقصور في مآثر الخليفة المنصور ابن القاضي، دراسة وتحقيق محمد زروق، مكتبة المعارف الرباط، 1986، ج2، ص. 604.
- 23 - محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني، الطغراء والأختام السلطانية وعلاقتها بإشكالية السيادة بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية، 2013، ص. 330-331.
- 24 - بهيجة سيمو، البيعة ميثاق مستمر بين الملك والشعب، منشورات عكاظ، مديرية الوثائق الملكية، الرباط، 2011، صفحات: 42 - 43 - 88 - 89 - 105 - 197 - 308 - 309 - 364 - 365.
- 25 - خبطة، المصاحف، ج/2، ص. 553.
- 26 - سيمو، البيعة، ص. 248.
- 27 - محمد المنوني، تقنيات إعداد المخطوط المغربي، مطبعة دار المناهل، أبحاث مختارة. منشورات وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 2000، ص. 226.

- 28 - من هذه الخصائص، الحركة، الإتساع والإمتداد، كراهية الفراغ...
- 29 - نقلا عن المنوني، تقنيات إعداد المخطوط المغربي، ص. 228 . 229.
- 30 - محمد المنوني ، تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات جامعة محمد الخامس: رقم 2 ، الرباط، 1991، ص: 169.
- 31 - المنوني، تقنيات إعداد المخطوط المغربي، ص. 233 - 234.
- 32 - نفسه، ص. 236.
- 33 - للتوسع في ذلك؛ راجع، خبطة، المصاحف، مبحث: "الحلية النبوية الشريفة. دراسة مقارنة" ج/2، صص 424 - 468. ومبحث: "الطغراء: جذورها التاريخية وتطورها خلال العصر السعدي" ج/2، صص. 492 - 567.

دور الجزائر وليبيا في حركة التحرر الإفريقي 1974/1954

النموذج و الاحتضان

أ. فضيلة علاوي / قسم التاريخ/ جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله

الملخص :

تعد ثورة التحرير الجزائرية (1954) التي أعادت للدولة الجزائرية سيادتها - التي وضع أسسها الأمير عبد القادر الجزائري ، عبر مقاومته للإستعمار الفرنسي . من أهم حركات التحرر التي قادت الى انتشار ثقافة التحرر في افريقيا والعالم ، والتي سيظل اشعاعها مستمرا وأنموذجا يحدى به في مواجهة كل أشكال الإستعمار الجديدة ، لأن أسسه بنيت على مبدأ أن استقلال الجزائر لن يكون مكتملا الا عبر التحرر الكامل للمناطق الإفريقية التي ماتزال محتلة .

ولقد ساهمت في تفعيل هذا المبدأ العديد من حركات التحرر في افريقيا . لبيا أنموذجا . للخروج من سياسة الهيمنة التي تمارسها فرنسا في عالم اليوم ، وبالخصوص عبر دعمه لبعض دول المنطقة ، والتي تحول دون التوصل إلى إيجاد حل لمسألة الصحراء الغربية ، التي تعد آخر مستعمرة في افريقيا .

The summary:

The Algerian War of Liberation (1954), which restored to the Algerian State—founded by Emir AbdelKader— its sovereignty, remains one of the great liberation movements that led to the spread of culture of liberation in Africa and all over the world. It will continue shining as a model for any resistance against the new types of colonization, since its principles were built on the fact that the independence of Algeria cannot be

completed before the liberation of all the colonized regions in Africa.

This objective has been promoted by the contribution of several liberation movements in Africa-Libya as a model- to run away the French policy of hegemony, especially through the support of some states in the region. Such a policy hinders any effort towards an effective solution of the Western Sahara issue, as a last colony in Africa.

توطئة/

لقد أضحى من المتعارف عليه أن الثورة الجزائرية التي اندلعت في الأول نوفمبر 1954، ودامت سبع سنوات ونيف في مواجهة الاحتلال الفرنسي، كانت من أهم وأبرز المساهمين في بعث معاني الحرية والسيادة الشعبية في ربوع المعمورة خلال الحقبة المعاصرة، إذ ساعدت على انتشار ثقافة التحرر في محيطها أصلاً، وفي العالم التواق إلى الحرية كلها، لأنها نابعة من قيم تحررية ثابتة وعريقة، أكدت عليها مختلف مواثيق الثورة بداية من بيان أول نوفمبر 1954 .

وهي بذلك سبقت الثورة الفرنسية في هذا المضمار، فالثورة الفرنسية التي اعتبرها الكثير من الدارسين والباحثين، ثورة مؤسسة للتعددية والديمقراطية في محيطها، في حين أنها أخفقت هذه الأخيرة في تصدير الحرية والديمقراطية للآخرين لأن مرجعيتها بنيت على البحث عن المصالح وقياس العلاقات بما فصدت للعالم استعماراً لا عدل فيه؛ ولعل أحد روائبها وثيقة كامبل⁽¹⁾ التي هي شهادة تاريخية على التواطؤ بين النخب والساسة ورجال الدين على شرعنة الاستعباد والرق الجماعي وإحياء جذور الاستعباد المناقضة للتحرر .

وقد كان ذلك واضحا لدى الرئيس هواري بومدين، عندما أقر أن فرنسا لن تتخل عن أطماعها في أفريقيا وإبقاء الأخيرة للأفارقة الفرنكفونين كوجه آخر للاستعمار والتبعية؛ ما يتطلب من الجزائر أن تكون رمزا مستمرا للمقاومة والحرية واحتضان حركات التحرر وهي بذلك مستهدفة بحملة فرنسية لإعاقة تطور الجزائر ودورها: "فرنسا الرسمية لم تتخل بعد عن أطماعها في إفريقيا وخاصة مناطق النفوذ، وفرنسا لم تتخل في منطقة شمال إفريقيا عن إستراتيجية المصالح هذا هو الواقع وهذا هو الجوهر، فرنسا لم تنس استعمارها ويحز في نفسها أن ترى الشعب الجزائري يبني نفسه، هناك من يدفع المال وفرنسا لا تزال تدفع السلاح"⁽²⁾

وبالرغم أن مصطلح حركة التحرر⁽³⁾ حديث في المنظومة الاصطلاحية السياسية والتاريخية إلا أننا نعتقد بعدم الفصل بين تلك الجذور التي أسست لحركة الرفض المسلح والسياسي والاجتماعي للاستلاب والاستعمار وبين الثورة في شكلها الأخير الذي يمكن القول أنه أعطى النموذج المتكامل للتحرر فاقتدت به عشرات الدول التي تحررت بسببه لتستكمل سيادتها أو التي ثارت لأجل الحرية أو لا تزال سواء في المحيط الأممي كقضية فلسطين⁽⁴⁾ أو في إفريقيا على غرار الصحراء الغربية⁽⁵⁾، التي تمثل آخر استعمار في القارة الإفريقية موضوع حديثنا، وقد أعطت ثورة المغرب الأوسط⁽⁶⁾ إشعاعا تحرريا لكل المغرب العربي⁽⁷⁾ ليكون نموذجا حيا لحركات التحرر كما أسست للحاضنة الإفريقية الأكبر لزعماء التحرر ومنظماته التي كان العالم يطاردها والجزائر توفر لها قواعد الانطلاق لأنها تؤمن بقضية التحرر كجزء من عقيدة الدولة وعقيدة جيشها سليل جيش التحرير ووريثه

أولاً: الجذور التاريخية للتحرر في المشروع التأسيسي للأمير عبد القادر

إن الحديث عن النموذج والاحتضان يبدأ من الوقوف أمام جذور النموذج واللبنات الأساسية للحاضنة حيث نعتبر أن الأمير عبد القادر بن محي الدين⁽⁸⁾ هو نقطة انطلاق التحرر في المغرب العربي خلافا لما ذهب إليه بعض الباحثين المغاربة، الذين

حاولوا القفز على الحقائق التاريخية، واعتبار الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي مؤسس لجنة تحرير المغرب العربي، هو المؤسس لهذا التوجه، ما يعني القفز على حقيقة قائمة، هي دور الحركة الوطنية الجزائرية، والقراءة المتأنيئة لمكونات الحالة السياسية التي أسسها الأمير عبد القادر، تعكس بعمق ما تتحدث عنه الورقة حول النموذج والحاضنة؛ فالأمير عبد القادر:

1- كان صوفيا بأكمل وجوه التصوف وعلى أعلى مستويات العرفان ومقامات أهل الطريقة وهو امتداد للتصوف الجهادي الذي كان عليه أئمة المتصوفة كالشاذلي و"أبي مدين التلمساني"، والتصوف أصل في التحرر لأنه يبحث في الإعتاق من كل القيود فكيف بالقيود على الحرية والحقوق الأساسية للإنسان وعلى رأسها حرية وسيادة الشعوب في خياراتها المرتبطة بمكونات الشخصية العامة والخاصة

2- كان رجل مقاومة ، أسس لدولة المقاومة وجعل حالة الانتقال من عاصمة إلى أخرى قاعدة في ارتباط الدولة بالحرية والسيادة على الأرض فحيث لا سيادة لا توجد حرية وعلى تلك القيم بنى الدولة وجعل لها شخصية خاصة بها بعد أن انتهت سلطة الخلافة الإسلامية⁽⁹⁾ على الجزائر بسبب الاستعمار الفرنسي الذي سبق السقوط النهائي للخلافة بقرن من 1830 إلى 1924 مع بداية تشكل الدولة الوطنية الحديثة في العالم العربي وإفريقيا

3- كان مجددا وطنيا أخرج الجزائر من النظام القبلي الذي آلت إليه الأوضاع إلى الجماعة الوطنية التي أصبحت أساسا للتحرر على أساس الوطن بثوابته التي بقيت مستمرة في الدولة الوطنية الحديثة، واعتبر الأمير بذلك مؤسس الدولة أو بالأحرى مجدد الدولة الجزائرية بمشروع مجتمع أصبح قاعدة للتحرر ونموذجا في البعد التحرري الوحدوي المناهض لمشاريع التقسيم، التي لا تزال إستراتيجيتها قائمة إلى اليوم

لقد كانت حالة التحرر في المغرب العربي ابتداء من بيعة الأمير عبد القادر ومثيلائها من حالات المقاومة تؤسس للنموذج التحرري المقاوم والوحدوي، والتي تعمقت بمقاومة الأمير خالد الدبلماسية⁽¹⁰⁾ التي عبرت عنها رسالته إلى الرئيس الأمريكي ولسون⁽¹¹⁾ ثم بدأت تبطلور في نجم شمال إفريقيا⁽¹²⁾ وما تلاه من مظاهر التحرر العابرة للقطرية مثل ثورة الأمير بن عبد الكريم الخطابي⁽¹³⁾ ولجنة تحرير المغرب العربي⁽¹⁴⁾ ثم مؤتمر طنجة وانتهاء إلى ثورات التحرير

ثانيا : كعبة الأحرار مشروع مستمر وممارسة منتجة

تعتبر الجزائر نموذجا حقيقيا في العمل التحرري، لأنها قدمت نموذجا مبنيا ومتكاملا يبدأ تحرريا وينتهي تحرريا. وينطلق من أبسط وسيلة، لأنه يستمد قوته من فكرة الحرية، ويعرف منذ بدايته المآلات والنهايات، ويتضمن مشروعاً متكاملاً ويستعد لدفع ضريبة المقاومة والتحرر، وكانت المقاومات المختلفة وصولاً إلى الثورة، تملك مشروع إعادة بناء الدولة، وفقاً لبرنامج ثقافي واقتصادي وسياسي، وهو مشروع متكامل لدولة وليس لحرب فقط، فالتحرر بناء مشروع مستمر وليس حرباً معزولة عن مشروعها وهو الفرق في نظري بين الحرب والثورة

وقد كانت نصوص هذه المراحل كلها تقوم على أساس البعد التحرري كحق مطلق للشعوب مما ساهم في صناعة الوعي التحرري وتأسيس حركات التحرر الإفريقية التي تماهت مع مظاهر التحرر في المغرب العربي ووجدت البيئة الحاضنة لها حتى إبان الثورات التحريرية في دول المغرب العربي وعلى رأسها الثورة الجزائرية وهي في حالة الثورة ثم الدولة الجزائرية فيما بعد استرجاع الاستقلال حتى سميت الجزائر كعبة الثوار ولهذا التسمية قصة يرويها المجاهد جلول ملائكة⁽¹⁵⁾ مسؤول مكتب حركات التحرر في جبهة التحرير بعد 1964 حين سئل عن الموضوع قائلاً " خلال ندوة صحفية نشطتها مع الزعيم الإفريقي الكبير "أميكال كابرال" من غينيا بيساو في فيلا بومعروف (مقر

منظمة المجاهدين حالياً) في 1968، وأكدت في كلمتي على تأييد الجزائر لحركات التحرر العالمية وبعدها أنهيت كلمتي أمام عدد كبير من الصحفيين العالميين سألني صحفي أمريكي: ما هو نوع السلاح الذي تقدمونه لحركات التحرير؟ لكن أميكال كابرال أخذ الكلمة وخاطب الصحفي الأمريكي قائلاً: هذا السؤال يوجه إلينا وليس إلى الجزائر.. خذ قلمك، وبقي جميع الصحفيين في انتظار أن يخبرهم كابرال بنوع السلاح الذي يستلمونه من الجزائر، لكنه قال لهم "المسيحيون يحجون إلى الفاتكان والمسلمون يحجون إلى مكة المكرمة أما الجزائر فهي كعبة الثوار".⁽¹⁶⁾

وبالوقوف على المسار التاريخي للثورة الجزائرية، يظهر واضحاً لنا تأثير الثورة والمواقف السياسية للجزائر في دعم الحركات التحررية في إفريقيا، التي لم يكن فيها إلا ثلاث دول مستقلة عند انطلاق الثورة التحريرية في الجزائر في أول نوفمبر عام 1954 وهي مصر وإثيوبيا ومنروفا، فقد توالى بعد انطلاق الثورة الجزائرية حرية الأقطار الإفريقية ابتداء من تونس والمغرب ثم غينيا، وفي عام 1960 منحت فرنسا الاستقلال لكل من الدول التالية: مالي - السنغال - فولتا العليا (بوركينا فاسو حالياً) ساحل العاج وإفريقيا الوسطى وتشاد والنيجر والغابون والكونغو برازافيل والكاميرون وموريتانيا. وكل ذلك لتتفرغ فرنسا للثورة الجزائرية إلا أن السحر انقلب على الساحر فأصبحت حالات الإستقلال الجديدة رصيذاً وطاقة دفعت الجزائريين إلى الإصرار على الحرية في معادلة تبادلية بين شعوب القارة من أجل استقلال وتحرر القارة الإفريقية

لقد كشفت إحدى افتتاحيات جريدة المجاهد، لسان حال الثورة، الوعي الكبير بالدور التحرري للجزائر في إفريقيا، ففي عام 58 سجلت قيادة الثورة بحسب ذات الجريدة، أن: " انتصار الثورة الجزائرية سيعزز عقيدة وآمال جميع الشعوب التي ما تزال تحت وطأة الاحتلال الأجنبي وخصوصاً في القارة الإفريقية. كما أنه سيضع

حدا نهائيا للأطماع الاستعمارية" (17) وبقي خطاب الثورة مستمرا في هذا المنحى، وفي مختلف المحافل الدولية، عاكسا لإستراتيجية دعم التحرر الإفريقي، فقد جاء في خطاب للسيد أحمد يزيد، أحد أركان الإعلام الثوري الجزائري، أن: "تضامننا الفعال شرط لتحقيق أهدافنا في حرية إفريقيا البطولي الذي يقوم به إخواننا في الشرق، وفي الغرب وفي الوسط والجنوب من القارة الإفريقية". (18)

فقد جاء في ميثاق طرابلس 1962⁽¹⁹⁾ "أن الجزائر تستعيد سيادتها في سياق دولي ما فتئ ميزان القوى يتطور فيه لفائدة الشعوب المحبة للسلام وعلى حساب الامبريالية وتسلطها ... فإنه من الواجب توجيه السياسة الخارجية للجزائر المستقلة بالاعتماد على مبادئ محاربة الاستعمار والامبريالية من أجل دعم حركات الوحدة في المغرب الكبير والوطن العربي وإفريقيا ودعم حركات التحرر والنضال من أجل السلم عبر محاربة الاستعمار والإمبريالية ودعم حركات النضال من أجل الوحدة، ودعم حركات التحرر، والنضال من أجل التعاون الدولي".

ومن أهم الأعمال السياسية والدبلوماسية الجزائرية خلال السبعينات العمل على صناعة رأي عام داخل الأمم المتحدة من أجل دعم حركات التحرر خصوصا في الجمعية العامة للمنظمة الأممية، حيث انتهى عملها إلى بلورة موقف لدى أغلبية من الدول الأعضاء للتصويت على قرار طرد ممثل النظام العنصري لجنوب إفريقيا، وكانت هذه اللحظة التاريخية من عام 1974 من أهم المواقف التي يحتفظ بها تاريخ دعم حركات التحرر العالمي للجزائر فضلا عن موقفها التاريخي في دعم القضية الفلسطينية ودعوة الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات إلى إلقاء الكلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة كما هو موثق في سيرة الرئيس بوتفليقة بالوثائق الرسمية لرئاسة الجمهورية.

من جهة أخرى، كانت الجزائر قاعدة للزوايا الدينية والطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة القادرية التي تقع رئاستها بالجزائر ممثلة في مشيخة عموم إفريقيا في الجنوب

الجزائري، والأمر نفسه ينطبق على الزاوية التيجانية، التي تمتد في كل إفريقيا تقع رئاستها بالجزائر ممثلة في الخلافة العامة بالأغواط بالجنوب الجزائري أيضا، وهاتان الطريقتان هما الأكثر امتدادا وتأثيرا في القارة دون إغفال الطريقة الرحمانية والعلوية وطرق منطقة توات التي لا تزال إلى اليوم ذات تأثير مباشر في الشعوب الإفريقية .

وبالرغم من الاستهداف المزدوج الذي أخرج الطريقتين الأكبر في البلاد من سياقات التأثير المباشر، بعدما استهدف الاستعمار كل الزوايا بالتشويه والاختراق مما يتطلب البحث الأعمق في مواقف العديد من الباحثين تجاه دور الزوايا في التحرر والرفض للاستعمار، وهنا نشير إلى أن مريدي هذه الطرق كانوا فعالين في العديد من الدول الإفريقية ضمن حركات التحرر وضاع نضالهم في الدعاية المضادة للزوايا، كما أن التيارات السلفية أو بالأحرى الوهابية لعبت دورا كبيرا في حجب هذا الدور السياسي التحرري للزوايا في الجزائر كامتداد لحرب الوهابية على الخلافة العثمانية التي كان التصوف هو عمقها الديني. ولعل عبد القادر المالي والراحل شريف مساعدي ومن معهما كانوا محتضنين في الزوايا وهم يقومون بدور مميز في التحرر من مواقع البوابة الجنوبية للجزائر عبر مالي والنيجر.

ثالثا : استرجاع استقلال الجزائر لا يكتمل إلا بالتحرر الإفريقي :

أن الجزائر التي أعطت النموذج في قضية التحرر أمام القارة الإفريقية كانت سببا في إيقاظ همم الشعوب من كابوس الهيمنة ومحاولة فرض الأمر الواقع الاستعماري، وفتحت لهم الأبواب أمام أمل التحرر وجعلتهم يرفضون الحلول الجزئية التي أراد الاستعمار أن يعالج بها البدايات الأولى لحركات التحرر حيث اقترح الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول الحكم الذاتي على تونس وعلى غانا الذي رفض، فاستمرت عملية المطالبة بالتحرر إلى أن انتهت فرنسا إلى خيار استقلال العديد من الدول لتتفرغ إلى إنهاء الثورة

الجزائرية فقد كانت الجزائر تمثل لها القطعة الأهم في إمبراطوريتها الاستعمارية وهو معنى آخر يضاف إلى حالة التأثير في التحرر الإفريقي

ولان حركة تحرر الجزائر كانت ثورة فقد استمرت بعد استرجاع الاستقلال في احتضان حركة التحرر على المستوى السياسي باستمرار الموقف الجزائري الداعي إلى تصفية الاستعمار والذي تجسد بأوضح الأشكال في دعم الشعب الصحراوي ودفاعه عن قضية الصحراء الغربية باعتبارها من أهم حالات التحرر لشعب من شعوب المغرب العربي والحوار الجزائري، وقد ساهم هذا الدعم في صناعة رأي عام عالمي ورأي عام إفريقي على المستوى السياسي وعلى مستوى المنظمات الأممية والإقليمية كما على مستوى احتضان اللاجئين الصحراويين بالجزائر الى اليوم.

ويمكن الإشارة أيضا إلى أن الجزائر لم تكن وحدها الحاضنة التحررية ولا وحدها النموذج ولكن لا احد يجادل في أنها كانت النموذج الأبرز على مستوى الرمزية والاحتضان في إفريقيا مما يعطيها ميزة في عقيدة التحرر قادت مواقفها الدبلوماسية بعد ذلك حين بقيت ترفض التدخل الأجنبي في أي دولة وتحرص على أن تكون إفريقيا متحررة من الاستعمار ومتحررة في قرارها السياسي وقرارها الاقتصادي

وقد دفعت الجزائر فاتورة مواقفها التحررية، وذلك بالضغط المستمر عليها من طرف القوى الاستعمارية، التي لا تزال تدفع إلى خيارات إعادة صياغة الخارطة السياسية للعالم وفق مصالحها الإستراتيجية بإدخال إفريقيا في الصراعات البينية ومحاولات تقسيم دولها المحورية وجرها إلى التوترات من اجل القضاء على أية قوة قائمة أو دولة قاطرة في القارة .

رابعا : احتضان ليبيا لحركات التحرر الإفريقي، من السنوسية إلى القذافي ساهمت ليبيا سواء في مرحلة السنوسية⁽²⁰⁾ أو مرحلة العقيد القذافي كثيرا في حركة التحرر ودعم الثورات من أجل الحرية والاستقلال والسيادة؛ حيث مثلت صورة

واضحة لحالة الرمزية والنموذج والبيئة الحاضنة لمراكز الدعم وتوفير القواعد الخلفية لحركة التحرر الإفريقي وإسنادها للموقف التحرري العسكري والسياسي الذي لم يكن شكله العسكري هو الشكل الوحيد خصوصا في مرحلة ما بعد الاستعمار.

ففي حوار للزعيم الليبي الراحل معمر القذافي أشار إلى ما قامت به ليبيا عندما تبنت حركات التحرر في إفريقيا وحركة التحرير الجزائرية، وعملت معسكرات لحركة التحرير الجزائرية في الأراضي الليبية بكل احتياجات المعسكرات المادية والسياسية والعسكرية والأمنية، وأقامت معسكرات التدريب والدعم بمختلف أشكاله عبر توفير الحاضنة الحقيقية لحركة التحرر في جنوب إفريقيا، وفي زيمبابوي، وسواو في ناميبيا، حيث كانت لكل حركات التحرر معسكرات في ليبيا، فوضعت ليبيا في القائمة السوداء، واعتبرت دولة إرهابية، ويجب معاقبتها وكانت المواجهة مع ليبيا. مبيناً أن ذلك حدث لأن ليبيا كانت تعتبر بمثابة حاضنة عالمية لحركات التحرر. (21) وقد دفعت ليبيا ثمنا باهضا على احتضانها لحركات التحرر بأن أصبحت عرضة للمواجهة مع أكبر دولة في العالم وهي أمريكا، التي قامت قواتها بقصف مواقع بليبيا وبأمر الرئيس الأمريكي حينها رونالد ريغان.

وقد كان الشباب يقودون المظاهرات المتكررة من أجل الجزائر ويعتبر الزعيم معمر القذافي، أن مظاهرة من أجل الجزائر كانت سببا في دخوله السجن أول مرة في حياته هو وزمرة من الشباب الثوري الليبي، مؤكدا بالحرف الواحد أن: "أول مرة دخلت فيها السجن وتعرفت على السجن في مظاهرة قمنا بها من أجل الجزائر، ومن الصدفة أن بعض إخواني الذين قاموا معي بالثورة وكانوا طلبية في ذلك الوقت في مدارس متعددة، وجمعتنا تلك المظاهرة، وتعرفت عليهم في حجرات السجن، وأصبحنا رفاقا إلى أن قامت الثورة في 1969." (22)

وتعود حالة الدعم اللببي لحركات التحرر إلى بداية تأسيس الحركة السنوسية حيث كانت الزوايا السنوسية بمثابة مراكز إسلامية شاملة. فإلى جانب تلاوة القرآن الكريم والعلوم الدينية والشرعية، كان يمارس فيها النشاط السياسي والاقتصادي؛ أي أنّ الزوايا كانت لها أهمية الدين والدولة لان الزاوية السنوسية كانت عبارة عن مدينة جهادية تحتوي على مركز صناعة السلاح ومركز تربية الخيول ومركز القرآن وعلوم الدين ومركز تدريب المجاهدين على الدعوة والجهاد .

وامتدت الزوايا السنوسية في حزام كبير من إفريقيا الشمالية إلى باقي القارة، انطلاقاً من السودان إلى المغرب، مروراً بليبيا والجزائر ومالى والصحراء الغربية والنيجر في قرابة 149 زاوية، مرتبطة كلها بالزاوية الرئيسية في "الجغبوب" بليبيا وتغلغل تأثير السنوسية في المناطق التي أقيمت فيها الزوايا وما حولها، وتوثقت الروابط السياسية والثقافية والاقتصادية مع مملكة كانم بدولة تشاد، ونظراً لطبيعة البدو لم تقع مصادمات أو مواجهات مع المجتمع التشادي، لأنّ الحركة السنوسية تتلاءم مع المجتمع البدوي، تقوم علي حاجاتهم، وتتفق مع رؤاهم، إلى جانب ذلك شارك السنوسيون مع التشاديين في معارك دامية في الشمال التشادي ضد الغزاة الفرنسيين خلال الفترة ما بين 1910م إلى 1913م.

ففي التشاد مثلاً "يعود أثر الحركة السنوسية في تشاد إلى بداية العلاقة بين السنوسية ومنطقة السودان الأوسط، وإلى اللقاء الذي تمّ بين مؤسس الحركة السنوسية الإمام محمد بن علي السنوسي والسيد محمد شريف بن صالح التشادي في مكة المكرمة أثناء وجودهما في الحجاز. والسيد محمد بن صالح هو أحد أفراد العائلة الحاكمة في مملكة وداي بتشاد. ومملكة وداي هي إحدى ثلاث ممالك كانت حاكمة في تشاد، والممالك هي (مملكة كانم، مملكة باقومي، مملكة وداي)، واستمرت هذه الممالك قرابة تسعة قرون. ونظراً لموقع مملكة وداي الجغرافي المتاخم للسودان ومصر وليبيا، وعلاقتها الوثيقة عن

طريق القاهرة بالباب العالي في اسطنبول في فترة الخلافة العثمانية، فقد لعبت المملكة دوراً كبيراً في نشر الإسلام، وتطور اللغة العربيّة في المنطقة. وهذا الدور يمثّل دور مملكة كانم في تشاد وإنّ لم يتحقق الكثير لمملكة باقرمي نتيجة لموقعها الجغرافي.

تأثر السيد محمّد الشريف بالدعوة السنوسية وتعاليمها. وعقب عودة كل منهما إلى بلده - بعد الإقامة في الحجاز - ظلا على اتصال فيما بينهما، وبعد تأسيس الحركة السنوسية في ليبيا وتولي السيد محمّد الشريف (1835 - 1858م) الخلافة في " وداي " خلفاً لشقيقه سلطان علي الشريف، توطدت العلاقة، فازدادت الروابط بين السنوسية و" وداي " منذ ذلك العهد. وخاصة بين الخليفة محمد المهدي السنوسي، والسلطان يوسف بن محمّد الشريف (1874 - 1898م).⁽²³⁾ وكانت الزوايا السنوسية كانت تقطع طريق القوافل التجارية الاستعمارية المحملة بالرقيق والعبيد، فتحرّروهم وتأخذهم إلى الزوايا تربيهم على الدعوة والحرية والإسلام، وتعيد إرسالهم إلى شعوبهم دعاء للإسلام والتحرر من الاستعمار. وكانت يشتري العبيد من القبائل وتحررها وترسلها إلى أصولها الإفريقية حيث كانت الوثنية منتشرة وتحتاج الدعوة إلى تجنيد أهل تلك المناطق لتوفير آثار أفضل للدعوة الإسلامية⁽²⁴⁾

وعلى مستوى احتضان ليبيا للثورة الجزائرية فقد كانت ليبيا متقدمة في الرمزية التي جسدها السنوسيون، بل أن الحركة السنوسية كانت على اتصال بالشيخ بوعمامة خلال ثورته المقاومة على مدى أكثر من عشرين سنة، كما كانت رمزية عمر المختار القائد المميز لحرب العصابات خلال الثلاثينات ثم استشهاده الذي رمز لمعادلة التضحية أساس التحرير والثبات طريق النصر والتي كان الشارح العربي يتفاعل معها بشكل كبير ألهم مشاعر الشعوب نحو دعم حركات التحرر وخيار المقاومة والثورة ضد الاستعمار ولما قامت الثورة الجزائرية كان مبتدأ الدعم بدفعات السلاح التي مررتها اللجنة العليا الليبية لدعم الثورة الجزائرية حيث يورد أحمد بن بلة في مذكرات شهادته بالغة

الوضوح حول تميز ليبيا في دعمها للثورة الجزائرية فيقول : " كانت ليبيا على المستويين الرسمي والشعبي وبمختلف أجهزتها المركز الأول في إيصال النجندات العسكرية لجنود الثورة الجزائرية عبر منافذ الحدود التي تربط بين ليبيا والجزائر. " (25) وتشير شهادة بعض المجاهدين إلى ثقة عالية تتجاوز ثقة الثورة في الجانب المصري لان التهريب للأسلحة كان يتم في سرية عن الجانب المصري فعند الحديث عن الطريق الذي تسلكه الأسلحة انطلاقا من مصر حتى الجزائر، قال المجاهد رابع مشحود إن "شحنها يتم بطريقة سرية جدا حتى على المصريين، حيث تخرج الأسلحة في سيارات مدنية إلى منطقة معبر السلوم على الحدود الليبية المصرية، ومن ثم يتولى العقيد عبد الحليم درنة، مهمة توصيلها إلى منطقة بنغازي الليبية، حيث يتم إخفاؤها من طرف تاجر شاي بالجملة اسمه سعد الشريف، فيغطيها بشكل مموه على أساس أنها شاي، ومن ثم تستكمل وجهتها نحو طرابلس، حيث كانت توضع الأسلحة في منطقة اسمها "سيدي المصري" وبالضبط داخل مسجد "مزران" وتغطي بأفرشة المسجد، قبل أن يتم نقلها مرة أخرى كأكياس شاي إلى منطقة "جميل" غرب مدينة طرابلس، ومن ثم إلى تونس، ثم إلى الجزائر. " ويفصل بدقة تصويره للحالة في أدق تفاصيلها حين يقول: "في الليالي القمرية كنا نستعمل الحمير للتنقل، لأن البعير في الظل يبدو ظله كبيرا، وفي الليالي المظلمة ذات الظلام الدامس، كنا نستعمل الإبل " (26)

وقد أوردت الباحثة بسمة خليفة أبو لسين في كتابها القيم - الليبيون والثورة الجزائرية - وثائق قيمة تعكس حالة الهبة الليبية الواسعة لنصرة الثورة الجزائرية بالتبرعات وهي تتحدث عن مئات الحالات من مختلف أشكال الدعم من التبرعات مثل دخل يوم من مدخول باعة الخضروات والفواكه بالجملة ودخل يوم من مقهى السيد علي مرشان صاحب مقهى وراتب يوم من راتب السيد رئيس الوزراء والسادة الوزراء في الحكومة لعام 1959. (27) كما دعت لجنة المقاطعة للبضائع الفرنسية إلى توسيع دائرة المقاطعة

الاقتصادية للضغط على فرنسا، ومن أمثلة ذلك بيانها في 14 ديسمبر عام 1960 والذي جاء فيه: " الشعب العربي في الجزائر يناديك لمقاطعة عدوه ". " إذا كنا صادقين في تعاوننا مع الجزائر فلنقاطع فرنسا الغاشمة " " كل قرش تدفعه في بضاعة فرنسية يتحول إلى رصاصة في صدور الأبرياء " وفيه " التعامل مع فرنسا خيانة كبرى للجزائر "

بل تعدى الأمر إلى تنظيم المباريات الرياضية وجعل مداخيلها للثورة وتحيض المتفرجين على الهتاف باسم الثورة ومناصرتها. كما أن الوعي الليبي في دعم القضية التحررية في ثورة الجزائر كان سابقا لزمانه حيث جندت اللجنة المختصة لجمع التبرعات مكونات كل القطاعات التجارية والزراعية والطلابية والسياسية والفكرية والرياضية والرجال والنساء لتحويل الجهاد المالي لدعم الثورة الجزائرية ظاهرة عامة ومستمرة إلى ما بعد استرجاع الاستقلال؛ حتى أنه كانت هناك مجموعة من "المكفوفين الليبيين" (28) يذهبون للتسول من أجل جمع المال والتبرع به للثورة الجزائرية " وهو ما يؤكد مدى ترابط وتضامن الشعب الليبي مع ثورة الجزائر ..

وحتى خلال فترة الأعياد يتم جمع جلود الأضاحي لبيعها والتبرع بما تدره من أموال لدعم الثورة الجزائرية. " كما كشف المجاهد رابح مشحود في حوار صحفي سنة 2015 معتبرا أن حجم الدعم الليبي للثورة الجزائرية لا يعلمه إلا الله . (29) ولم تكتف لجنة الدعم الليبي للجزائر بجمع التبرعات من الليبيين وحدهم بل اتصلت بالجاليات الموجودة في ليبيا وحرصتهم على التبرع للثورة الجزائرية ومنها الجالية اليهودية والايطالية والانجليزية وهذه الجاليات كانت ميسورة الحال تجاوبت مع توجه الرأي العام حرصا على مصالحها التي كانت وسيلة ضغط وتجنبا لمقاطعة الشعب الليبي لها . فتبرعت الجالية اليهودية بـ 35000 جنيه ليبي والايطالية بـ 105.85 جنيه ليبي والجالية الانجليزية بـ 116000 جنيه ليبي . (30)

الخاتمة

ليس مستغربا استمرار حالة التفاعل مع حركات التحرر في النظم السياسية الثورية وضموره لدى الدول الناشئة عن قرارات سايكس بيكو أو دول الحماية الاستعمارية، ولقد كان الاستعمار هو الاعتداء المباشر للدول الرأسمالية على الشعوب المستضعفة ولذلك فإن التيارات التحررية لم تكن لتتحالف معه، ولا هو كان لديه الأيدي الممدودة لإصلاح الأضرار التي خلفها أو الاعتذار عنها .

وقد كانت دول النظام السياسي الاشتراكي تتجه نحو الوحدة والتحرر مما جعل الساحة الدولية تشهد توجها كبيرا لحركات التحرر باتجاه المعسكر الاشتراكي الذي انعكس بعد ذلك في مشاريعها السياسية في حالة الاستقلال وتشكل الدولة الوطنية ما بعد الاستعمار؛ في حين ارتفعت الدول الإفريقية التي انخرطت في توجه المنظومة الليبرالية ضمن خياراتها الإستراتيجية فلم تستطع العمل على المحور التحرري بل كان لبعضها مواقف معاكسة للحركات التحررية .

وإذا كان هذا الاتجاه هو ما نقرأ من خلاله موقف الجزائر وليبيا الرسمي والشعبي موضوع الورقة فإننا نجد الحالات الشعبية اليسارية والإسلامية والقومية على حد سواء تعمل خارج خيارات أنظمتها في حقل داعم لحركات التحرر فالحالة التونسية أو المغربية لم تخل شعبيا من دعم أحرار العالم عامة وإفريقيا خاصة ومن المهم الإشارة إلى أن تونس قد شهدت حالة مميزة في النموذج العمالي الذي مثله الاتحاد العالم التونسي للشغل كتنقابة تحررية لم تكن حدودها العمالة التونسية فقط بل كانت تدافع عن تحرر عمال إفريقيا كلهم ومثل زعيمها فرحات حشاد روحا نضالية إفريقية عالية⁽³¹⁾ في حين نقرأ الموقف التونسي الرسمي البعيد نسبيا عن دعم حركات التحرر وأكثر منه الموقف المغربي الرسمي الذي لا يزال يمثل صورة معاكسة باحتلاله الصحراء الغربية التي هي آخر حركات التحرر في القارة.

الهوامش

- 1- مؤتمر كامبل بنرمان ، هو مؤتمر انعقد في لندن عام 1905 واستمرت جلساته حتى 1907 ، بدعوة سرية من حزب المحافظين البريطانيين يهدف إلى إيجاد آلية تحافظ على تفوق ومكاسب الدول الاستعمارية إلى أطول أمد ممكن. وقدم فكرة المشروع لحزب الأحرار البريطاني الحاكم في ذلك الوقت وضم الدول الاستعمارية في ذلك الوقت وهي بريطانيا، فرنسا، هولندا، بلجيكا، إسبانيا، إيطاليا. وفي نهاية المؤتمر خرجوا بوثيقة سرية سموها "وثيقة كامبل" نسبة إلى رئيس الوزراء البريطاني آنذاك هنري كامبل بانرمان.
- 2- مقتطف من خطاب الرئيس هواري بومدين عام 1975 أمام إدارات الدولة، الجزائر،
- 3- الحركة التحريرية هي رد فعل ضد الاستعمار والسيطرة الأجنبية ظهرت قبل الحرب العالمية الأولى واتضح معالمها أكثر خلال الحربين العالميتين وكانت تكتسي طابعا سياسيا ثم تطورت بعد الحرب العالمية الثانية وأصبحت تكتسي طابعا عسكريا بالاعتماد على الكفاح المسلح الذي نتج عنه استقلال جزء كبير من المستعمرات في القارات الثلاث : آسيا، إفريقيا وأمريكا اللاتينية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثاني ومن اهم رموزها : غوفان مبيكي، كوامي نكروما ، باتريس لومبا ، احمد بن بلة ، نلسون مانديلا ، شيجيفارا
- 4- القضية الفلسطينية هي القضية المركزية في الصراع العربي الحديث وهو مصطلح يشار به إلى الاستعمار الصهيوني والمشكلة الفلسطينية بدءاً من عام 1897 (المؤتمر الصهيوني الأول) وحتى يومنا الحالي.. وترتبط بشكل جذري بنشوء الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين، والاستيطان فيها، ودور الدول العظمى في أحداث المنطقة. و قضية اللاجئين الفلسطينيين واحتلال الأراضي الفلسطينية. وما نتج عن ذلك من المجازر بحق الفلسطينيين وعمليات المقاومة ضد الصهيونية.
- 5- الصحراء الغربية دولة افريقية احتلتها اسبانيا وخرجت منها العام 1975 حيث أعلنت جبهة البوليزاريو قيام جمهورية الصحراء الغربية بالساقية الحمراء ووادي الذهب وقام المغرب باحتلالها فتحولت إلى حالة آخر استعمار في إفريقيا حيث يحتل المغرب 80 بالمائة من أراضيها رغم أحكام محكمة العدل الدولية بعدم وجود روابط سيادية للمغرب على التراب الصحراوي

- 6- مصطلح المغرب الأوسط مصطلح يطلق على الجزائر في كتب المؤرخين القدامى مثل المغرب الأدنى والمغرب الأقصى
- 7- المغرب العربي اسم لدول غرب شمال إفريقيا وهي تتألف من خمسة أقطار هي موريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا، أنشأت هذه الدول في 17 فبراير 1989 تكتلا إقليميا من خلال التوقيع على معاهدة إنشاء اتحاد المغرب العربي و يعتبر الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي أول من استعمل مصطلح المغرب العربي بعد أن أسس لجنة تحرير المغرب العربي، في البيان الذي أصدره بمناسبة تأسيسها في 6 كانون الثاني، 1947 .
- 8- هو الأمير عبد القادر الجزائري بن الامير محي الدين ؛ يعتبر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، عالمٌ ديني، شاعر، فيلسوف، سياسي ومحارب في آنٍ واحدٍ، اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر ولد في رجب 1222هـ الموافق لماي 1807م 19 وتوفي في رجب 1300هـ الموافق 26 مايو 1883م قاد المقاومة ضد فرنسا من منظور دولة ومشروع تحرري وكان له مواقف إنسانية في حماية المسيحيين بمنفاه بسوريا
- 9- الخلافة الإسلامية نظام حكم إسلامي تأسس بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم على تطبيق الحكم الإسلامي وتختلف بين السنة والشيعة فالخليفة عند السنة يخلف بتعيينه حاكماً على الأمة، وعند الشيعة هو الإمام ولا يشترط أن يكون الإمام حاكماً وانتهى نظام الخلافة منذ سقوط السلطان العثماني عام 1924م ومن أهم نماذجه الخلافة الراشدة ثم الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية
- 10- يعتبر الأمير خالد مؤسس للحركة الإصلاحية حسب الدكتور سعد الله، فقد استغل الرصيد النضالي لجده الأمير عبد القادر ومعرفته للحضارة العربية الإسلامية للوقوف في وجه السياسة الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى. بدأ نشاطه السياسي بعد تقاعده من الجيش الفرنسي على جبهتين: الأولى: التصدي لدعاة الإدماج و الداعين إلى التجنس بالجنسية الفرنسية، والثانية ضد غلاة المعمرين والنواب الفرنسيين. وقد بعث الأمير خالد ب عريضة إلى الرئيس الأمريكي ولسن يطرح فيها مطالب الجزائريين ؛ أسس الأمير خالد جريدة الإقدام سنة 1920 للتعبير عن أفكاره والدفاع عن فكرة المساواة بين الجزائريين و الفرنسيين في الحقوق السياسية. ولد 1875 بدمشق و شارك في

الحرب العالمية الثانية كضابط وانسحب من الجيش الفرنسي سنة 1919 واستقر بالجزائر شارك في مؤتمر باريس للدفاع عن حقوق الإنسان

11- وودرو ويلسون- 28 ديسمبر 1856 - 3 فبراير 1924- الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية بالفترة من 4 مارس 1913 إلى 4 مارس 1921. كان أكاديمياً في مقتبل حياته حتى صار رئيساً لجامعة برنستون، ثم الحاكم رقم 45 لولاية نيو جيرسي من عام 1911 إلى 1913 م. كان ثاني رئيس ديمقراطي يحكم لمدتين متواليتين بالبيت الأبيض بعد أندرو جاكسون. تولى الرئاسة بعد فوزه في انتخابات عام 1912 مرشحاً عن الحزب الديمقراطي ضد كل من الرئيس ويليام هوارد تافت، والرئيس السابق ثيودور روزفلت. في فترة رئاسته الأولى (1913-1917) أبقى بلاده محايدة إزاء الحرب العالمية الأولى. قاد الولايات المتحدة الأمريكية، وعرف بمبادئه الأربعة عشر وهو أول من أعطى الحمامة كرمز للسلام.

12- هو في الأصل منظمة تأسست بفرنسا في مارس 1962 من طرف العمال الجزائريين المهاجرين كانت نواته الاولى الحاج علي عبد القادر ، بغلول ، مصالي الحاج، سي الجيلالي الذين لعبوا الدور الأساسي، وكان الرئيس الشرقي للحزب هو الامير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري المنفي في فرنسا

13- محمد بن عبد الكريم الخطابي ولد في المغرب 1882 - توفي في القاهرة، 6 فبراير 1963 رجل سياسي وقائد عسكري مغربي من منطقة الريف، وكان قائدا للمقاومة الريفية ضد الاستعمارين الإسباني والفرنسي للمغرب. وهو مؤسس ورئيس جمهورية الريف، بين عامي 1921 و1926. ويعتبر من أهم قادة الحركات التحررية في النصف الأول من القرن العشرين، وأستلهم سيرته السياسية والعسكرية العديد من الحركات التحررية العالمية .

14- أسس الأمير محمد عبد الكريم الخطابي (1882 - 1963) لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة سنة 1948م بناءً على طلب مجاهدو شمال إفريقيا المقيمين في القاهرة بتكوين هيئة مغربية كبيرة توحد جهودهم

15- احد مناضلي الحركة الوطنية إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية، لينضم إلى صفوف جيش التحرير الوطني سنة 1955م. وبعد الاستقلال، واصل المجاهد جلول ملايكة نضاله الوطني لينتخب نائباً بالجلس الوطني التأسيسي، كما كان نائباً بالجلس الشعبي الوطني لعدة دورات. ولد في

17 سبتمبر 1928م بوادي العلايق (البليدة)، شغل منصب مستشار الرئيس هواري بومدين ومسؤول مكتب حركات التحرر بحزب جبهة التحرير الوطني.

-16 جلول ملائكة في حوار مع جريدة المستقبل الجزائرية، 04 / 07 / 2009

-17 المجاهد العدد - 20 - 15/03/1958

-18 من خطاب محمد يزيد وزير الأخبار في ندوة أديس أبابا بإثيوبيا 14-24 جوان

1960

-19 ميثاق طرابلس ما بين ماي- جوان 1962

-20 المملكة الليبية اعلن تأسيسها الأمير محمد إدريس السنوسي في 24

ديسمبر 1951م، في مدينة بنغازي كبداية الاستقلال وميلاد الدولة الليبية بعد جهاد الشعب الليبي، وتنفيذاً لقرار هيئة الأمم المتحدة، وبناءً على قرار الجمعية الوطنية الصادر بتاريخ 2 ديسمبر 1950 حيث اعتبر أنّ ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة، وأتت اتخذ لنفسه لقب ملك المملكة الليبية المتحدة، وأنه سيمارس سلطاته وفقاً لأحكام الدستور.

-21 من كلمة الرئيس معمر القذافي مع الوفد الشعبي الجزائري جويلية 2010. نشر

في موقع ليبيا 2

-22 نفسه .

-23 محمد شريف جاكو ، العلاقات السياسية بين تشاد وليبيا ، مكتبة مدبولي ،

القاهرة ، 1989.

-24 الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في ليبيا ، دار المعرفة ، بيروت، 2009

-25 محمود شاكر ، التاريخ الاسلامي ، المكتب الإسلامي ، بيروت، 1996، ج14

، ص 437 ، نقلا عن الصلابي، الثمار الزكية، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 2005، ص 144

-26 روبرت ميلر ، مذكرات أحمد بن بلة ، دار الآداب ، بيروت، 1979

-27 المجاهد رابع مشهود حوار لقناة البلاد الجزائرية - الحلقة الثالثة من شهادته عبر

برنامج "صنعوا الحدث" يوم -19

12-2015

-28 نفسه

- 29- بسمة خليفة أبو لسين ، الليبيون والثورة الجزائرية ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث ، ص 222
- 30- المجاهد رابع مشحود حوار لقناة البلاد الجزائرية - الحلقة الثالثة من شهادته عبر برنامج "صنعوا الحدث" يوم 19-12-2015
- 31- في جويلية 1951، دعا فرحات حشاد في المؤتمر الثاني للسينزل بميلانو إلى إنهاء النظام الاستعماري، وفي سبتمبر من نفس السنة طرح حشاد قضية الاستعمار بشمال إفريقيا في مؤتمر النقابات الأمريكية AFL. هذه المواقف الوطنية إضافة إلى الدعم المبدئي من قبل الاتحاد لحركات التحرر الوطني في الوطن العربي وعلى رأسها حركة التحرر الوطني الفلسطيني تفسر اتخاذ قرار اغتيال فرحات حشاد في 5 ديسمبر 1952 من قبل الأوساط الاستعمارية ولاسيما أعلى هرم السلطة في باريس، وهو ما يمثل جريمة استعمارية تستدعي مزيد الإلمام بحيثياتها. وبقطع النظر عن ظروف الاغتيال فإنّ حركة التحرر الوطني استفادت من استشهاد فرحات حشاد، واستثمرت الحادثة أطراف عديدة ضد الاستعمار وقد أثارت جريمة الاغتيال ردود فعل متنوعة على الصعيد العربي وفي الجزائر نشرت الصحف صورة حشاد في صفحاتها الأولى، كما نشرت بيانات التنديد الصادرة عن النقابات والأحزاب، وأعلن الإضراب العام في المغرب في بداية جانفي 1952،. وتجاوزت أصداء جريمة اغتيال حشاد والمجازر المرتكبة في حق الوطنيين بالمغرب الأقصى شمال إفريقيا إلى المشرق العربي، حيث نشرت الصحف الصادرة بالقاهرة وبيروت مقالات وتقارير إخبارية حول أحداث المغرب العربي وصدرت بيانات المساندة عن هيئات وجمعيات مثل جمعية «العروة الوثقى البيروتية» ونادي الأساتذة والطلاب اللبنانيين و وصل صدی جريمة اغتيال حشاد إلى أوروبا وأمريكا، واستندت عليه بعض الدول الإفريقية والآسيوية المناهضة للاستعمار لمطالبة الأمم المتحدة بإصدار قرار يدين الاستعمار الفرنسي . وهكذا فقد استفادت قضية التحرر الوطني من نضالات الطبقة العاملة، ذات المصلحة في مقاومة الاستعمار ومن تضحيات رموزها، وهو ما يفسر المكانة المميزة التي يحتلها الاتحاد العام التونسي للشغل سمير البكوش، «ظرفية 1948 وتدعم العمل النقابي الوطني»، كما أورد ذلك د. مبارك زكي في كتابه حول «اغتيال حشاد: ط.مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، جانفي 2002

حواضر الممالك الاسلامية في غرب افريقيا

أ. منادي عثمان / قسم التاريخ/ جامعة محمد الشريف مساعديّة/ سوق اهراس

ملخص :

لم تظهر الحواضر في التاريخ المعروف فجأة، ولكن سبق ظهورها فترات ممتدة من الزمن كان الإنسان يجمع فيها الثروة، ويقنن المعارف، ويرقي القدرة التنظيمية له، ولذويه ممن اتفقت أهوائهم وتوحدت مصالحهم في التجمع والارتقاء .

فالمدينة كمفهوم اجتماعي أنساني تعد مرحلة كبرى على سلم مراحل التطور البشري لم يكن يصلها الإنسان دون أن يكون قد تخطى المراحل السابقة، وهي المراحل التي اعتمدت في الأساس على مرحلتي الرعي والزراعة، وعندما تمكن الإنسان من جميع ذلك تراه قد استقر في مدن، فقد ضمن شرابه وغذائه وكساءه، وتسنى له ان ينظر بعقله الى أمور الحياة الدنيا، فظهر الفكر والتاريخ والابتكارات ومن ثم توسعت المدن وأصبحت نواة قوية ومتكاملة انبثقت منها صور الحضارة المعنوية والمادية التي نعرفها الآن عن الإنسان في العصور التاريخية المختلفة 1.

تعد دراسات الحواضر من الدراسات المهمة، وذلك لان المدنية وتطوراتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية تمثل الوحدة الحيوية والجزء الفعال من حركة

التقدم الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات، والمدينة هي حضارة وهي تعادل تعبير الأمة لذلك أخذت بعض الجامعات العربية والغربية على عاتقها أقسام علمية ومواد دراسية تتناول دراسات المدن، وتركز على الحياة الفكرية والعلمية بها، فجامعة قسنطينة مثلا فتحت عام 2006 دراسات عليا (ماجستير) بتخصص عنوانه "المدينة"

وكان من نتائج هذا التوجه الاهتمام بهذا النوع من الدراسات والبحوث المتعلقة بالحواضر من مختلف القارات والمراحل التاريخية والحضارة هي المكان الطبيعي للفرد المتمدن المتحضر، وذلك لأنها تمثل رقعة حضارية، يتجمع فيها الناس من مختلف الأجناس ينشغلون. في أغليتهم بأعماط إنتاجية غير زراعية 2.

كانت الحضارة تبدأ بنواة عمرانية وتتطور وتتشكل لتأخذ الملامح الأخيرة، وإن اختلفت في بعض التفاصيل ارتباطا بالنشأة أو العوامل البيئية والمحلية 3.

كان للحضارة الإسلامية، والممالك التي نشأت في غرب إفريقيا دور كبير في تأسيس الحواضر ولعبت القبائل العربية والبربرية الدور الأهم في عمارة وازدهار تلك المدن، حتى سمي العرب القاطنون في مدن إفريقيا عادة حضرا 4 وقد تناول مصادر الرحلة والتاريخ أهم هذه الحواضر التي نشأت، ووصفوا موقعها، وعمارتها وشوارعها ومهن سكانها، وتضاريسها، ونبأها فتكلم ابن خلدون مثلا عن هذه الحواضر قائلا هي: "بسائط

يتكون مزاجها تارة بمزاج التلول، وتارة بمزاج الصحراء بهوائها ومائها ومنابتها " 5، وظلت كتابات البكري والإدريسي وابن حوقل وابن بطوطة وابن خلدون والوزان وغيرهم، الى وقت قريب تحل الصدارة وحدها في هذا المجال ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي أضيفت للمصادر العربية، ما كتبه العلماء السودانيون، أمثال القاضي محمود كعت وعبد الرحمان السعدي 6 .

وقد تعدد أسباب تأسيس حواضر السودان الغربي وتنوعت عوامل ازدهارها، من الموقع الذي يعد طريق لتجارة الذهب او القرب من المجاري المائية، او محطات قوافل التجار التي تخترق الصحراء باتجاه الشمال 7 أو العوامل السياسية الأخرى التي حولت غاو، وولاته، تنبكت، و جني إلى مراكز وهج فكري في القرن السادس عشر 8. وانطلاقا من وظيفة الحواضر القائمة على الارتقاء المعنوي بالإنسان، الذي يرتبط بازدهار الحياة العلمية، كان هذا البحث من اجل إبراز حقائق تتعلق ب:

- 1-التعريف بحواضر السودان الغربي .
- 2- دور حواضر غرب افريقيا في الحياة العلمية .
- 3-إظهار الإرث الحضاري للمدينة الافريقية ذات التأثير الاسلامي .
- 4-إبراز وظائف المدينة في مجال التطور الفكري والعلمي والحضاري .

5- رسم صورة واضحة عن تلك الحواضر التي لم يبق من آثارها إلا القليل على اعتبار أن الكيان المادي للمدينة اضعف من الحضارة المعنوية التي تخرج منها ، بفضل العلماء الذين عاشوا فيها وبقيت آثارهم عبر التاريخ

Abstract:

Urban studies became omnipresent these days due to the socio-economic, political and intellectual development the city is going through. Urban studies represent a vital unit and an active element in the progress of the society. The city, by itself, is a civilisation for it is the manifestation of the structure of the nation. Thus, Arabic and Western universities took on their shoulders the creation of departments and classes that are meant to urban studies, the scientific and intellectual atmosphere in it. Constantine University, for example, initiated in 2006, post-graduation studies entitled "urbanism".

Amongst the result of such a trend, the attention paid recently to metropolises and the researches connected to it as well as its history across the universe. Civilisation is the

coordinate place for a civilised person, because the city is a civilised peace of any country where different races gather together, share their concerns which are most of the time productive not agrarian.

Civilisation starts as an urban core that develops and transforms to its final features though some changes may be noticed due to the environmental and local elements.

The basic elements of the foundation of metropolises in Western Sudan, and its prosperity are diverse. Its strategic situation that facilitates the trade in gold, close waterways, being a stopping place for merchant caravans that penetrates the Sahara towards the North, together with other political features that transformed Gaw, Wulatah, Tenbekt and Jeney into a centre of high intellectual activity in the 16th century.

From the role of metropolises which is built on the moral superiority of humanity linked to the scientific development of

any nation, there came this research to bring to light facts concerning what follows:

1. The definition of metropolises in Western Sudan.
2. The role of West African metropolises in the scientific field.
3. Demonstrating the urban heritage of the African city with an Islamic effect.
4. Demonstrating the urban functionalities in the intellectual, scientific and metropolitan fields.
5. Drawing a clear picture of those metropolises that hardly exist nowadays due to the materialist being of the city that weakened the incorporeal civilisation that ever existed there thanks to the scientists that lived there once and what they left behind.

المبحث الأول: الحواضر التاريخية الكبرى:

1- تنبكت : تأسست هذه الحاضرة على أيدي قبيلة مغشرن أو مقشرن (إحدى قبائل الطوارق، في بين أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وأوائل القرن الثاني عشر⁹، كان الطوارق ينزلون بهذه المدينة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة، في وقت الصيف، ثم يرتحلون وقت الخريف 10.

تقع المدينة على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى 11، على الضفة اليسرى من خليج نهر النيجر¹²، حيث يبعد عنها في الصيف ب16 ميلا أما في الخريف فان ماء النهر يقترب منها فيصل الى بعد سبعة أميال من المدينة، وهي تنحصر بين دائرتي عرض 17°-40° وخطي طول 3°-50° 13.

أما تسمية المدينة فيقال انه كانت هناك سيدة من الطوارق، او أمة لهم، كانت تعيش في الموقع الحالي لتنبكت، وكان اسمها (بكت)، وكان رجال قبيلة مقشرن الطارقية ينزلون في ذلك المكان في فصل الصيف راتعين حيواناتهم على ضفاف نهر النيجر ويرتحلون في الخريف شمالا 14 وأحيانا يتركون أمتعتهم الزائدة لديها 15.

ولذا سميت المدينة تنبكت أي مكان أو مأوى بكت - المرأة - حيث لفظ (تن) تعني في لغة الطوارق المكان أو المأوى أو المسكن. إن اسم تنبكت ينير في الأذهان الماضي

المشرق لإفريقيا، فهو رمز لقاء إفريقيا السوداء مع إفريقيا البيضاء، والاتحاد المثمر الذي مكن من تطوير حضارة عالمية أخذت عناصرها من ضفاف البحر المتوسط، فظلت تنبكت نقطة اتصال وتعارف بين الناس ومهدا للثقافة الزنجية البربرية في السودان الغربي اكتسبت حاضرة تنبكت مكانة متميزة بفضل موقعها الجغرافي، فهي ذات موقع وسيط للمسافرين في طريق القوافل 16 ونقطة تقارب بين الشمال والجنوب 17 .

انطلاقا من موقعها الجغرافي الهام، بدأت المدينة تكبر وتتحول إليها الطرق التجارية، واستمر شأن تنبكت في التعاضم، طيلة القرن الثامن الهجري /الرابع عشر ميلادي، حيث شهدت المدينة رخاءا ورفاهية في أواخر القرن التاسع الهجري /الخامس عشر ميلادي 18 وقد شهد المؤرخ الفرنسي "ديبوا" بان القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي كان أزهى العصور التي مرت بتنبكت التي وصلت في ذلك الحين الى أوج المجد الأدبي والعلمي حيث كانت سوقا لكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع في البلاد 19، اكتسبت

تنبكت مكانة مميزة خلال حكم مالي، وخاصة في عهد ملكها منسى موسى حيث عم الأمن والرخاء البلاد كلها 20 .

لقد ورثت تقاليد التبادل الثقافي الذي رفعها إلى المقام الأعلى في القرن السادس عشر، وبعد انضمامها إلى إمبراطورية غاو (سنغاي) منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، واغتنتم هذه الوضعية الممتازة لكي تزداد تطورا وجمالا بإقامة أحياء مشرقة، كحي "سانكوري" وحي "ساركاينسي" وأصبحت العاصمة الثقافية والدينية للسودان الغربي وابتداء من ذلك الوقت ظلت تؤدي وظيفة مزدوجة تجارية وثقافية حيث بلغ عدد سكانها في ذلك العهد حوالي، ستين ألف أو سبعين ألف، وكان يرتفع في فصل الأعمال، فيبلغ على الأرجح مائة ألف نسمة 21 انتشرت سعة تنبكت ووصلت أوج عظمتها في عهد أسكيا محمد من حيث المعاملات التجارية وكثرة الحوانيت المملوءة بالكتب 22 فكانت مركزا ثقافيا كبيرا، فقد كان بها مسجدان كبيران يعتبران جامعتين إسلاميتين تضمّان المتشوقين للعلم وكانت الدروس فيها تستمر طيلة النهار، ولا تنقطع الا وقت الصلاة وكان بعض الاساتذة يدرسون في الليل على نور الحطب المشتعل الذي يتبرع به الطلاب وكان بهذه المدينة نحو مائتين وثمانين مدرسة 23 .

ظلت تنبكت أهم طريق لنقل الثقافة إلى باقي حواضر غرب السودان 24 فكانت ذات إشعاع حضاري وتجاري واسع 25 إلى غاية نهاية القرن السادس عشر حيث بدأت تضعف بعد أن غزى المغاربة البلاد 26 وهو عمل منعزل ليس له هدف ديني، لا يعني أن السلام توغل عن طريق السيف الذي كان يحمله العربي، بل قد انتشر بواسطة القوافل الاسلامية في جميع العصور في غرب إفريقيا 27.

ويكفي أن نختتم مع المثل القديم في غرب أفريقيا والذي يقول : " ملح يأتي من الشمال، ذهب من الجنوب، ولكن كلمة الله وكنوز الحكمة لا يمكن العثور عليها إلا في تنبكت" 28.

2-حاضرة جنّي: 1-التسمية:

تعددت الآراء في سببية إطلاق اسم جنّي على هذه المدينة العظيمة الميمونة المباركة ذات السعة والبركة والرحمة الذي جعل الله في أرضها خلقا كثيرا ويذكر ان اسمها من اسم ملكها الشهير جنور رئيس قبيلة مرك 29 وهو أول ملك مكث في مدينة جنّي وعاش بعد البناء أربعون سنة ، فتم عمره مائة سنة ومن نسله كيكمبرو الذي فتح الله عليه بالاسلام ويسميه السعدي كبير ويرى البعض ان اسم جنّي جاء من ملكها كبير ولكن ليس من صلة بينهما ولم يتحدث السعدي قط عن ذلك كما يعتقد انه مشتق من

الجنة لوقوعها في منطقة زراعية وفيرة الخيرات، حيث تتخللها فروع عديدة من نهر النيجر وهذا ما جعلها ميمونة مباركة كثيرة الخيرات من الزراعة والملح والذهب 30 .

2-التأسيس:

اختلف الباحثون عن من قام بتأسيس المدينة وان كان هناك شبه إجماع على أنهم السونينكي، فيذكر السعدي أنها كانت على الكفر في أواسط القرن الثاني للهجرة، واسلم أهلها عند تمام القرن السادس للهجرة /الثاني عشر للميلاد 31 في حين يقول الرحالة بارت أنها انشئت عام 435هـ/1033م 32 ولكن مع تطور الدراسات الأركيولوجية والأثرية المسحية حل لنا مشكل التأسيس، فقد توصلوا ان أقدم تواجد بشري في جنّي يرجع الى القرن الثالث قبل الميلاد، ومنذ القرن الأول الميلادي بدأت زراعة الأرز، وفي حوالي القرن الثاني الميلادي كانت جنّي مدينة كبيرة تتبعها قرى زراعية صغيرة، ونحو 500م كانت توجد بها تجارة عابرة للصحراء 33.

3- الموقع:

يذكر السعدي ان جنى تقع الى تنبكت في وراء البحرين بين المغرب واليمن في جزيرة البحر 34 وهي تقع الى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت 33 وكانت قد بنيت

على نهر بني bani من جهة اليمين أحد روافد نهر النيجر ، وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه في فصل الأمطار 35 .

وتقع على مقربة من مدينة موبتي أو مبتي Mopti في شمالها وهي اليوم من المدن الرئيسية في جمهورية مالي وان لم تكن كما كانت وتقع إلى الشرق من سلا silla برحلة قصيرة قوامها يومان ، والمسافة بين جني وتبكت رحلة مدتها اثنا عشر يوما ويقال إنها زاخرة بالسكان ، وسكانها أكثر عددا من سكان سيجو sego بل وأكثر عددا من سكان أي مدينة اخرى من مدن بمبارا bambarra وكلما أوغلنا شرقا من سلا أصبحت لغة البمبارا أقل استخداما، حتى اذا وصلنا الى جني نجد معظم الناس يتحدثون لغة مختلفة يسميها الزوج لغة جني كومو jennekummo ويسميها البربر لغة السودان (كلام السودان kalam soudan).

4-إسلام جني:

يذكر السعدي 36 قصة إسلام جني: "ثم أسلموا عند تمام القرن السادس والسلطان كبير وهو الذي اسلم واسلم أهلها بإسلامه ولما عزم على الدخول في الاسلام أمر بجشد جميع العلماء الذين كانوا في ارض المدينة فحصل منهم أربعة الألف ومائتان عالما فأسلم على أيديهم وأمرهم أن يدعوا الله تعالى " بثلاث دعوات لمدينته تلك" وهي أن كل من

هرب اليها من وطنه ضيقا وعسرا أن ييدها الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه ذلك وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها وان يسلب الصبر من الواردين اليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيرجون بها، فقرؤوا الفتحة على هذه الدعوات الثلاث فكانت مقبولة وهي كائنة إلى الآن بالمشاهدة والمعينة ولما اسلم خرب دار السلطان وحوّلها الى مسجد لله تعالى وهو الجامع".

ويتفق صاحب مخطوط جنيّ مع السعدي في روايته من حيث عدد العلماء واسم الملك والدعوات وتاريخ بداية إسلامها، ولكن يزيد عليه بأن ملكها قد حج بعد إسلامه واشرى في خلال رحلة حجه كتب وأمر الناس بالتعلم، وأقام أرزاق للمعلمين، والمؤذنين والأئمة سنويا، وعبر السير توماس، وأرنولد عن قصة إسلام جنيّ "بأن بإسلام كنبُر kunburu حول نهاية القرن السادس الهجري أي (حوالي سنة 1200) قدر لجني في القرون المتعاقبة أن تأثر تأثيرا قويا في تقدم الاسلام في السودان الغربي ويسير حسن إبراهيم حسن على نهج توماس - رغم تحفظه على المبالغة في عدد هؤلاء العلماء 4200- "ان الإسلام قد تقدم تقدما عظيما في البلاد التابعة لكنبرو ملك جنيّ"، فليس هناك شك في ان وجود أعداد كثيرة من العلماء دليل قوي على نشاط الدعوة الاسلامية في بلاد السودان الغربي وسرعة انتشار الاسلام وقبوله، فقد بدأت جنيّ تدخل

دائرة النفوذ الاسلامي منذ القرن الخامس الهجري، فاسلم أميرها سنة 1050م وبني مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام في مكة 37 ونظرا لوجود التعامل التجاري الكثيف لجيِّ عبر الصحراء منذ سنة 500م على حسب ما توصل إليه الأثريين من نتائج أي قبل ظهور الاسلام بما ينيف عن قرن ، فهذا جعل التجار يحملون لها الاسلام مع ما يحملون من سلع فاخذ الإسلام يدب فيها وينتشر رويدا رويدا فأقام بها كثير من العلماء يعلمون الإسلام وينشرون مبادئه 38 وهذا ما يفسر لنا وجود 4200 عالم 39، كما أن الثقافة الإسلامية قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل أميرها في الإسلام وذلك بسبب علاقاتها التجارية مع بلاد المغرب وحوض السنغال، فقد كانت سوقا عظيما لتجارة الملح والذهب وجني أهلها أرباحا طائلة 40، فإذا كانت التجارة قد ساهمت في نشر الإسلام فقد أدى الإسلام إلى مضاعفة النشاط التجاري" وهذا ما حدث في جيِّ حتى وصلت درجة سماحة الوثنيين من الملوك والأهالي أن تركوا المسلمون في جيِّ يتبعون أنشطتهم التجارية والدينية بحرية كاملة. ويعلمونهم اللغة العربية وعلومها فازدهرت فيها الثقافة الإسلامية ازدهارا بعيد المدى، واقبل أهلها على الاعتراف منها، حتى برع منهم كثيرون، وأضحت مكتظة بالعلماء والفقهاء لدرجة وجود العدد الذي ذكره السعدي 41 والتي تدفقت من خلالها المؤثرات الثقافية العربية الإسلامية حتى

صار جنّي مركزا ثقافيا هاما وصار مسجدها مشهورا في كل وادي النيجر وكان مثل أهمية المسجد الحرام في مكة ذاتها 42 .

5- جنّي خلال حكم مالي :

واختلف المؤرخون والباحثون حول الوضعية السياسية لجنّي في عهد دولة مالي، فمنهم من يرى استقلال جنّي السياسي والاقتصادي... في عهد مالي، لعدم قدرة الأخيرة على الاستيلاء عليها، رغم محاولاتها العديدة 43 ومنهم من يرى تبعية جنّي السياسية لمالي، حيث استولت عليها دولة الماندينغو في عهد ماري جاطة أو منسى موسى، ومنهم من نصح الطريق الوسط حيث جعلها تتبعه فقط بدفع الجزية لمالي، وربما هذا ما دعي السعدي للتركيز على حملات سني علي لفرض سيطرته على المدينة خلال بداية حكم سنغاي، وان ذلك السلطان الذي وصفه السعدي بالفاجر، حاصر المدينة أربع سنين ولم يدخلها 44 كما أن المصادر السودانية لم تشر إلى تبعية جنّي لمالي إلا من خلال التجارة ودفع الجزية

6- جنّي خلال حكم سنغاي :

فيتحدث السعدي 45 عن كيفية غزو سني علي لجنّي ويقول: " انه ما غلب احد من قبل هذه المدينة سوى سني علي، واستولى على المدينة بعد حصار دام 7 سنوات و7

أشهر و 7 أيام، وخلالها كان يقاتلهم يوميا في مكان نُهرِي جاف من المياه يسمى زبر حتى ترتفع مياه النهر فيعود الى موقع بري يدعى " نبكة شن " يزرعون حتى تنخفض مياه النهر فيعودون مرة أخرى للمقاتلة وهكذا مدة سبع سنوات، حتى أن وقعت المجاعة في جني، ورغم ذلك لم يعلم أحد من جنود وقوات سني علي، فظل تكابر حتى نقصت الأوقات إلى الذرورة .

وفي هذه الأثناء فقد سني علي أمل استيلائه على المدينة وعزم على الرجوع إلى غاو، حتى حدثت خيانة من بعض قواد جني، واخبر سني علي بما يدور من مجاعة في المدينة، فامتنع الأخير عن الرجوع حتى يرى الامر، ثم شاور سلطان جني قيادات وكبراء جيشه في التسليم لسني علي فوافقوه.

فبعث رسوله بذلك وبعدها خرج سلطان جني الصغير مع كبراء جيشه ونزل على قدميه ورحب بسني علي، فلما رآه شابا صغيرا أجلسه بجانبه وأكرمه، وسرعان ما خطب منه أمه فتزوجها 46 وقد اختلف الباحثون في تاريخ دخول سني علي إلى حاضرة جني ويبدو أن عام 1476 هو الأصح لسقوط المدينة، لاتفاق كثير من المؤرخين عليه.

وهكذا سيطر سني علي علي جني (881هـ/1476م) وتصدى لحملة الموسى وقبائل البول 47 ومات هذا السلطان الذي وصف من طرف مؤرخي السودان الغربي بأبشع الأوصاف عام (898هـ/1492م) وخلفه ابنه الأكبر أبو بكر داعو 48.

وهكذا يجد الباحث ان مدينة جني مثال مصغر لتبكت، وقد عجت فيها وفود الطلاب نظرا لكثرة مدارسها 49 فكانت بها جامعة لتدريس العلوم الدينية والعلوم المدنية الأخرى وبلغ عدد الطلاب فيها نحو ألف طالب. فكانت بذلك ذات قيمة دينية وعلمية ومعروفة 50.

فالت جني ما نالته تبكت من مظاهر إسلامية من حيث وجود العلماء والفقهاء ووفرة المساجد الجامعة، والكتاتيب والمدارس والجامعات الإسلامية، والأساليب والأدوات التعليمية، حيث ساوتها في شكل الاجازات العلمية، وأصبحت جني ونطاق تأثيرها الثقافي بجانب ولاته الممول الأساسي الذي لا ينضب لتبكت بمجموعات العلماء والفقهاء لتجديد النظام الديني .

وكانت قد ظهرت في جني أسرة علمية شهيرة توارثت علوم الفقه والحديث والتفسير والتشريع واللغة والادب هي أسرة (بغيغ او بغيغ او بغيغو او بغيغو) على نسق أسرة أقيت العلمية في تبكت، حتى أن أسرة أقيت تعود أصولها إلى إقليم ماسنه(ماسينا)

والذي كان في كثير من حقبه الزمنية امتدادا حضاريا للتأثيرات الثقافية الجينية، حيث كانت جني في كثير من الأوقات تمثل العاصمة الثقافية الثانية للسودان الغربي. ويرجع هذا الازدهار العلمي أيضا، رخائها الاقتصادي، ووفرة الثروات الطبيعية والحيوانية والزراعية، ونستدل على ذلك ان المدينة قاومت منسى علي قرابة سبع سنوات 51 كما كانت سوقا تجارية كبيرا، تتدفق إليها السلع من الذهب والملح والغذاء عبر الطرق الصحراوية، والطرق المائية لتتجمع في النهاية في مدينتي جني وتبكت 52.

المبحث الثاني: الحواضر الأخرى:

3- ولاته :

مدينة موريطانيه- حاليا - تقع في مقاطعة الحوض الشرقي، تأسست في القرن الأول الهجري عرفت ببيرو، أي المدينة الكبيرة، تم العثور بها على شواهد تاريخية متمثلة في الألواح الحجرية على القبور تحمل أسماء زنجية وأخرى عربية والكتابات كلها بالعربية 53 تبعد عن العاصمة نوا قشط بحوالي 1200 كلم إلى الشرق، وهي تبعد عن تبكت بنفس المسافة تقريبا 54، أما تاريخ تأسيسها فلم تشر إليه الدراسات والمصادر التاريخية إلا أن تحليل النحوي يضمن أنها شيدت في القرن الهجري الأول 55 .

وتسمية ولاته يقال ان معناها : العارض المرتفعة 56 وتقع الى الشمال الغربي من مدينة تنبكت ، تأسست على أنقاض مدينة "بير" ولذلك يسميها البعض " بير " او " بيرو" 57 وذلك عقب هجرة العلماء والتجار المسلمين بعد سقوط عاصمتهم كومي صالح ، والذين هربوا من مدينتهم خوفا من بطش قبائل الصوصو لهم ولذلك خشوا على أموالهم من النهب والضياع فدخلوا بها الى المدينة في بداية القرن السابع للهجرة /الثالث عشر الميلادي 58 .

ويذكر ابن بطوطة ان هؤلاء التجار كانوا من قبيلة مسوفة 59 وأشار السعدي 60 على أنها كانت مأوى للتجار المسلمين بقوله: " واليه يرد الرفاق من الأفاق وسكن فيه الأحيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال " ، وعلى ضوء ما ورد ذكره كان يعيش بولاته عدد كبير من التجار المسلمين عرب وبربر وخاصة من قبيلة مسوفة حيث كان يفد اليها التجار وأصحاب الأموال من كل بلد ، من أهل مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وفاس وسوس وغيرها، وتحول النشاط التجاري قليلا الى تنبكت فكانت عمارة تنبكت في خراب بير 61، وزارها ابن بطوطة 62 وسمها " إيولاتن " بمعنى نتعد في لغة السوننك وهو ما قاله المهاجرون الذين تركوا كومي كومي صالح واتجهوا الى ولاته 63.

احتلت ولاته دورها كبوابة غربية لعبور التجار الى السودان الغربي وذكر ابن بطوطة
64 "أول عمالة السودان " وكان أحر الثغور لمملكة مالي .

وتحولت ولاته إلى سوق كبير في عام 600هـ / 1203 م يرد إليها التجار من سائر
البلاد المغربية من ورجلان و فزان و غدامس وتوات ودرعه و تغليلات و فاس والسوس
65 ومن عوامل تردد التجار واستقرارهم بها هو الأمان الذي يشعرون به أثناء وجودهم
ب هذه المدينة كما قال ذلك ابن بطوطة 66 : "فلا يخاف المسافر فيها، ولا المقيم من
السارق ولا غاصب مع عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان
بالقناطير المقنطرة ، وإنما يتكون بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه وكان وجود
تجار العرب والبربر في ولاته بارزا فقد ذكر ابن بطوطة 67 لما عزم الدخول الى هذه
المدينة قام تاجر من سلا وهو صديق له من تأجير منزلا له قبل وصوله وقد يكون

أكثرية التجار من الطوارق وهم الذين أسسوها قبل تنقلهم الى تنبكت 68.

وقد استنكر ابن بطوطة بعض تصرفات أميرهم اسمه فربا بعد المعاملة السيئة،
ف عندما توجه إليه مع رجال قافلته، كان جالسا في سقيفته وبين يديه أعوانه، ويكلمهم
بترجمان على قريهم منه، واحتقارا لهم، وعند ذلك خرج ابن بطوطة من بلادهم لسوء

أديهم واحتقارهم للبيض 69، وقد صف ابن بطوطة أهل ولاته بالكرم، وأن سكانها محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن واخبرنا انه امضي بضعة أيام اخرى في ولاته ووجدها " شديدة الحر، وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ وثياب أهلها حسان مصرية 70 .

فولاته تبدوا من حديث ابن بطوطة، بمثابة مركز للتجارة من سوادنين ومغاربة على السوء وبحكم موقعها كانت تعد مركز استقبال القوافل التي في طريقها الى السودان الغربي 71 ، وهي التي اجتذبت التجار بعد سقوط المدينة الغانية القديمة، وانتقلت التجارة الى ولاته walata 72.

وبذلك شهدت ولاته أوج ازدهارها الاقتصادي في عهد مملكة مالي، كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة خلال القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي، الا ان أحوالها تغيرت بعد ذلك وهاجرها سكانها الى مدينة تنبكت ولذلك قال عنها السعدي 73 :

"فكانت عمارة تنبكت من خراب بير " ومن خلال ما عرض نستنتج أن ولاته اشتهرت أنها حلقة للعلم ومنطلق لقوافل الحجيج وأيضاً كميدان للحركة التجارية النشطة ، فقد وفد إلى ولاته الكثير من العلماء والصالحين، وأصحاب الأموال من كل فج ومن قبائل شتى، من سلجماسة، ودرعة، وتافيلالت وفزان وغدامس ومصر وغير ذلك ومن هنا

تتضح العلاقة بين تطور التجارة وانتشار الإسلام في المنطقة وقد اشتهرت هذه المدينة أيضا بزراعتها وبساتينها التي عرفت ازدهارا كبيرا، فهي تقع في واد مشهور بخصوبة تربته وغزارة مياهه مما جعل من ولاته ملتقى لطرق القوافل التي كان ربط بين بلاد المغرب وبلاد السودان الإفريقي، حيث كانت المدينة تمثل المرجعية الدينية والعلمية لسكان منطقة الحوض بصفة عامة .

4- غاو(أو كاو أو جاو أو كوكو و كاغو، وكوغنة، وجاغ):

تقع غاو ضمن الحدود السياسية الحالية لدولة مالي، شرق العاصمة باماكو، وتبعد عنها ألف وأربعمائة كيلومتر، وإلى الجنوب الشرقي من تنبكت بحوالي أربعمائة وخمسين كيلومترا 74 وعلى الضفة اليسرى لنهر النيجر حيث يتصل به وادي تلمسي وهي تقع شرق تنبكت 75 .

وكثيرا ما يقع خلط بينها وبين مدينة كوكيا عاصمة السنغاي القديمة الواقعة على نهر النيجر إلى الشرق من غاو. حيث تبعد الثانية عن الأولى بحوالي مائة ميل شمالا 76.

تعد غاو أول مدينة لها اتصال مع الإسلام في الشمال الشرقي من مال كانت موجودة قبل مدينة تنبكت ذكرها البكري 78 بقوله: « أهلها مسلمون وحاوليها مشركون

وهي أكثر البلاد ذهباً» اعتمد اقتصادها على معدن الذهب الذي اشتهرت به فشكل
بها ازدهارا اقتصاديا.

تشكلت مدينة غاو كمركز تجاري مهم في عهد مملكة غانة واستمر هذا الدور في
عهد مملكة مالي وربما هو ما أهلها أن تكون فيما بعد عاصمة لمملكة سنغاي من أكبر
الدول الإسلامية السودانية، وحيث تصلها السلع من الشمال الأفريقي والمشرق العربي
والهند 79 .

وازدهرت غاو لموقعها الإستراتيجي الهام، فهي تقع في الطريق التجاري الرابط بين
بلاد السودان والمغرب، ففي سنة 400هـ/1009م أسلم على أيديهم ملكها "زاكسي"
، وازداد عدد سكانها بعد ذلك حتى وصل إلى تسعة آلاف وثمانية وعشرون منزلا كبيرا
مجهزا، بالإضافة إلى البيوت التي يسكنها الفقراء وعمامة الناس، فضلا عن ستة وعشرين
بيتا-من بيوت- مبنية من غير الأخصاص و بما مائة وخمسون مدرسة 80.

وسجل حسن الوزان ازدهار غاو أوائل القرن العاشر الهجري من الناحية
الاقتصادية ، فقد كانت تعج بالتجار الذين كانوا يتاجرون في مختلف البضائع وعلى
رأسها الأقمشة التي يحضرونها من المغرب وأوروبا 81.

وأطلق عليها اسم كاغو التي يقول أنها أدت دورا حضاريا متميزا، فكانت أكثر من قريناتها في الحضارة باستثناء مدينة تنبكت، وسكانها خلطاء من الزنج والعرب والفلان والطوارق 82.

وقد أصبحت غاو عاصمة مملكة السنغاي، مركزا تجاريا هاما في تلك المنطقة، وجاءها التجار العرب والمسلمين، وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مثل تنبكت من ناحية الدعوة الى اعتناق الديانة الإسلامية، فقد امتلأت العاصمة بمجالس العلم، ووفد اليها العلماء المسلمون من الدول الإسلامية، كما وفد اليها طلاب العلم من مناطق المملكة، والمناطق الأخرى المجاورة 83.

ويتضح من خلال ما ذكر أن غاو مركز تجاري كبير يضا هي المراكز التجارية الأخرى بالسودان الغربي مثل تنبكت وجني في عهد مملكة مالي. ازدادت غاو مكانة بعد تحولها إلى عاصمة سياسة لمملكة سنغاي ومقرا لرجال الدولة وطلاب العلم والأساتذة والتجار. واشتهرت بتجارة الرقيق وأصبح سكانها من الأثرياء، إلا أن أهميتها ازدادت بعد تحولها إلى عاصمة في عهد الإسيقيين، حيث حاول سني علي في توسعته التحكم في تجارة الذهب بالسيطرة على محور جني تنبكت 84.

وبلغت غاو أوج ازدهارها في عهد الأسقيا الحاج محمد الأول، فقد وفد عليها التجار من عدة مناطق وأصبحت مقرا لحكم السلاطين 85.

وعندما زارها عبد الكريم المغيلي التلمساني سنة 908هـ/1502م على أيام الأسقيا محمد الكبير كان الأجانب يشكلون ففة كبيرة بالمدينة وكان منهم التجار بالإضافة إلى الأئمة والفقهاء والقضاة الذين يختصون بالنظر في الجرائم العامة والجنح والخلافات بين المواطنين 86.

وأصبحت حاضرة تضاهي المدن الأخرى مثل تنبكت وجني ، فقد تنازع أناس من أهل كانو وجماعة من أهل غاو أيهما أكبر وذلك في عهد سلطة أسقيا الحاج محمد ،يقول محمود كعت: " وأخذو ورقة ودواة وقلما ودخلوا بلد كاغ (غاو)، وإبتدأوا من أول بيت بمغربها يعدون القصور، واحدا واحدا الى ثلاثة أيام الى انتهاء البلد من المشرق، فجاءت سبعة آلاف وست مائة وعشرون غير بيوت مبنيات بالحشيش . 87.

5- تغازا:

تقع تغازا جنوب المغرب الأقصى ،قرب البحر المحيط على الطريق الرئيسي بين المغرب و تنبكت 88.

تكتسي أهميتها من معدن الملح المستخرج منها ولوجودها على الطريق الرئيسي التجاري الذي يمر بها والمسمى "طريق الذهب" وهي عبارة عن قرية صغيرة كانت ملتقى للتجار القادمين من السودان 89.

وكان الرقيق هم العاملون بهذه المناجم 90، ولما زارها ابن بطوطة وجدها عبارة عن قرية صغيرة الا أن بها تبادل تجاري كبير حيث يقول: ان قرية تغازا على حقاقتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب، ويتبادلون الملح مقابل الفضة 91.

لتغازا أهمية اقتصادية كبيرة نتيجة تبادل السلع بها ولذلك أضحت مركزا كبيرا للجالية المغاربية من تجار العرب والبربر وعن طريقها انتقلت مؤثرات الثقافة العربية الاسلامية الى المناطق المجاورة.

وظلت تغازا المصدر الرئيسي للملح ببلاد السودان لعدة قرون، وكانت مركزا مهما لتجارة الذهب يتم فيها تبادله بالملح ن وأشار إلى ذلك ابن بطوطة بقوله: "...وقرية تغازا على حقاقتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب"

ولم تدخل تغازا تحت سيطرة احد بل كانت السيطرة فيها لقبيلة مسوفة الصنهاجية، ولم تخضع لسلطة مركزية الا في عهد مملكة سنغاي أثناء حكم محمد الكبير (899هـ- 935هـ/1493م-1528م) وتم الاستيلاء عليها نهائيا عام 1000هـ/1591م عند

دخول السعديين بقيادة احمد المنصور الى بلاد السودان، وتحولت بعد ذلك السيطرة عليها من القبائل البربرية الصنهاجية الى السودانيين.

6- تكدا :

اشتهرت تكدا بإنتاج النحاس الذي يستخرج من مناجمها ، ويحمل الى بلاد السودان ويسبك لصك العملة ، ومن تكدا تسير القوافل الى برنو حيث يجلب العبيد والثياب . وكان كثير من سكانها تجارا ، فيروي ابن بطوطة أنه التقى بعض التجار العرب منهم سعيد بن علي الجزولي، هؤلاء التجار كانوا يسطرون علة تجارة النحاس الذي يحملونه الى كوبر وزغاري وبلاد برنو على مسيرة أربعين يوما من تكدا ويؤتون من هناك بالثياب والحواري الحسان 92، ولم تستمر هذه الصناعة فيما بعد فقد ذكر الرحالة بارث (القرن 19م) انه لم يجد أثرا لمناجم النحاس خلال زيارته لتكدا 93، وهذا راجع إلى أن المدن ككيان مادي أضعف من الحضارة المعنوية التي تخرج منها، فالأفكار والعقائد والمثل العليا لا تموت ولا تندثر، ولكنها تنتقل بطرق أخرى لتدخل في البنيان العقلي للبشر 94 .

خاتمة :

إن تاريخ الحواضر هو تاريخ الشعوب الذين اجتهدوا في التطور الحضاري الذي انتج مظاهر الحياة العلمية فكان منها العمران الذي ساهم في تجمع السكان فنشط التبادل

الفكري بفضل تجمع الطاقات من التجار والدعاة والعلماء فساعد هذا كله على استقرار القبائل في المدن .

ولم تكن المدن التي أخرجت الحضارات لتصمد لولا قوة سكانها معنويا وماديا ، فاهم سنة من سنن التاريخ هي سنة الصراع بين البشر بسبب تباين أفكارهم وتفاوت ثرواتهم وكان التنظيم والقوة 95، جزء من عقيدتهم الإسلامية، التي رسخت حب العلم والاجتهاد في التطور.

فالحاضرة هي المكان الطبيعي للفرد المتمدن المتحضر، وذلك لأنها تمثل رقعة حضارية يجتمع فيها الناس من مختلف الأجناس، ينشغلون في أكثريتهم بأنماط إنتاجية غير زراعية .96

لقد استندت حواضر غرب إفريقيا غي تأسيسها وازدهارها إلى أربع عناصر هي :
أولا: العنصر الخاص بالمسائل المالية والصرف، والتي ترتبط بجمع الضرائب وحركة النقود بين التجار والسكان في المدينة.

ثانيا: وجود السوق التي تجتمع فيها المعاملات التجارية من بضائع ومهن عمال 97، سواء كانت أسواقا ثابتة كالمحلات التجارية التي يضمها مكان مسقوف ولها مداخل 9 ، او الأسواق الأسبوعية التي تكون معلومة الزمان والمكان، حيث يتبادل سكان الحواضر

99 مع سكان الأرياف والقرى البضائع والمنتجات، فتكون في الغالب بضائع الحواضر ما جلبته قوافل التجار ، بينما بضائع الأرياف مواد زراعية، أو أولية كالصوف، أو الجلود.

ثالثا: وجود المدارس التي تكون في العادة ملاصقة للمسجد، الجامع في المدينة مثل المدارس التي وجدت في تنبكت وغاو، ولعل مسجد سنكري، المعلم البارز في تاريخ الحياة العلمية بحواضر السودان الغربي 100.

رابعا: وجود تنظيم داخل الحاضرة من حيث الشوارع والمهن، وتوفير الامن، وتلبية حاجيات الكثافة السكانية بصفة عامة ن ويحيط بالمدينة في الغالب سور كبير لحمايتها، من الأخطار الخارجية .

ومن خلال ما ذكر يمكن ان نجل خصائص حواضر غرب إفريقيا بما يلي :

- سعة المساحة، - الرخاء الاقتصادي، - الموقع التجاري الهام، - توفر المياه، - كثافة عدد السكان، - نشاط أسواقها، - بها دار الإمارة، - لها سور من طين

لتهميش:

- 1- . عبد الحكيم : موسوعة 100 مدينة إسلامية، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، 1986، ص 07 .
- 2- عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، 2001، ص 05 .
- 3- عبد الجبار ناجي : نفس المرجع ، ص 17 .

4- . الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا في وراء الصحراء في نهاية القرن الخامس

عشر ، إلى بداية القرن الثامن عشر ، ط2، طرابلس ، 2001 ، ص 98 .

5- . مار مول كرنخال إفريقيا - الجزء الثالث - ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ، عمار زبير ،

محمد الأخضر ، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1 - الرباط

المغرب، 1984، ص. 97.

6 - بن خلدون: (عبد الرحمان): تاريخ ابن خلدون - المعروف لكتاب (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ

العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

، بيروت ، 1421هـ/2000م ، ص 132

7- الهادي الدالي، عمار هلال: دراسة حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء،

ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2002، ص 15، 16

⁸ - كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ، ت مختار السويفي ، ط1 الهيئة المصرية العامة

للكتاب ، القاهرة ، 1987 ، ص 105

9-. Maurice DELAFOSSE: LES NOIRS DE L'AFRIQUE.

Collection Payot, Payot et Cie, Paris, 1922. Édition numérique

réalisée le 11 avril 2010.p57.

10-. Maurice DELAFOSSE: LES NOIRS DE L'AFRIQUE.

Collection Payot, Payot et Cie, Paris, 1922 . Édition numérique

réalisée le 11 avril 2010.p43.

¹¹ .عبد الرحمان السعدي: -تاريخ السودان -وقف على طبع هوداس -مكتبة أمريكا والمشرق -

باريس ، بدون تاريخ.. ص20، مطير سعد غيث أحمد: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع

السودان الغربي (خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلادي)

ط1 دار الكتب الوطنية -بنغازي ليبيا 2005م. ص. 185.

¹² . محمد فاضل علي باري ، سعيد إبراهيم كريدية : المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ حضارة ط1 ،

دار الكتب العلمية بيروت 2007 ، ص 96.

¹³ . Faidherbe :le Sénégal la France dans l Afrique occidentale
'paris '1889'p 340

¹⁴ Barth '(h)'travels and discoveries in north and central africa
'vo 13 'London '
1859'p 264 .

¹⁵ . مطيرسعد غيث : نفس المرجع ، ص 186 .

¹⁶ . عبد الرحمان السعدي : نفس المصدر ، ص 21 .

¹⁷ . شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، ط1، المجلس الأعلى
للتحافة القاهرة، مصر 2000، ص 52.

¹⁸ .Boubou '(h)'histoire des songhay 'paris'1968' pp321-32

¹⁹ . إسماعيل العربي : الصحراء الكبرى وشواطئها ، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،
1983 ، ص312

²⁰ . عبد الرحمان زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية ، ط1، المؤسسة العربية
الحديثة ، القاهرة ، 1961، ص. 220.

²¹ . محمد عبد الفتاح إبراهيم : افريقية من السنغال إلى نهر جوبا ، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية ،
القاهرة ، 1961، ص.104

²² . سكيبي مودي سيسوكو : نزعة تومبوكتو في وحدة العالم الأفريقي مجلة الثقافة الإفريقية ، الجزائر
1969 ، ص 265

- ²³ . زينب احمد هاشم : علاقة مصر بالدول الإسلامية في حوض نهر النيجر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية القاهرة ، 1982 ، 102
- ²⁴ . نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1974. ص 159 .
- ²⁵ . محمود خيرى : العلاقات العربية الإفريقية ، مجلة البحوث والدراسات الأفريقية، العدد 513 ، القاهرة 1977 ، ص 18
- ²⁶ . عبد الحكيم العفيفي : المرجع السابق، ص 178
- ²⁷ . عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الاسيقين 1493-1591 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر -1971. ص. 100.
- ²⁸ . سكينى مودي سيسوكو -: سنغاي من القرن الثامن عشر الى القرن السادس عشر ، تاريخ افريقيا العام ، المجلد 4، اليونسكو، ص 265 .
- ²⁹ . *Jackson, Mississippi. Sankore University: Rediscover the Glory* .www.muslimmuseum.org/SankoreUniversity.aspx
- ³⁰ . الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص 112.
- ³¹ . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 11.
- ³² . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 12.
- ³³ . عبد الرحمان زكي : المرجع السابق ، ص 224.
- ³⁴ . حسين مهدي صالح : جني من المملكة الوثنية إلى المملكة الإسلامية ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ص 02 .
- ³⁵ . عبد الرحمان السعدي : نفس المصدر ، ص 12.
- ³⁶ . الهادي مبروك الدالي :مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا (من القرن 13 حتى القرن 15م) ط1-دار المتلقى للطباعة والنشر -بيروت-لبنان-1993م.، ص. 43.
- ³⁷ . عبد الرحمان زكي : المرجع السابق ، ص 224 ..

38. عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق ، ص 13 .
39. محمود كعت : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوس وأكابر الناس -طبع هوداس ودولافوس، 1964.، ص 44-45.
40. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ،ص 15.
41. الهادي المبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية، المرجع السابق ص 45.
42. جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الإفريقية ، مجلة البحوث والدراسات الافريقية ، العدد 547، القاهرة 1977 ص 28 .
43. الهادي المبروك الدالي : التاريخ الحضاري لإفريقيا في وراء الصحراء ، المرجع السابق،ص 112 .
44. سيكيني مودي سيسكو : سنغاي من القرن الثامن عشر الى القرن السادس عشر ، تاريخ افريقيا العام ،المجلد 4، اليونسكو،ص 204 .
45. سيكيني مودي سيسكو : المرجع السابق ، ص 218
46. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 15 .
47. عبد الرحمان السعدي : نفس المصدر ص 14.
48. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ص 15 .
49. paris . robert cornevin historir des peuples de l Afrique noire . 1962..p 253
50. عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 71 .
51. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 159 .
52. جوان جوزاف : الاسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء ، ترجمة مختار السويفي ، ط 1، دار الكتاب المصري ، القاهرة، 1984، ص 84 .
53. زينب احمد هاشم: المرجع السابق، ص 104.
54. كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ، ت مختار السويفي ، ط 1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب لبقاهرة ، 1987 ، ص 105

- 55 . أبو بكر أحمد المصطفى المحجوبي : منح الرب الغفور في ذكر ما أهل صاحب فتح الشكور ، دراسة وتحقيق وتقديم ، الهادي المبروك الدالي ، ط1 ، 2001 ، بدون مكان.ص.122
- 56 . ولد حمادي : ولاته ، حاضرة العلم وحاضنة الدين ومنازة الثقافة في موريتانيا جريدة الراية 2010/08/07 موريطانيا www.ereyde.com
- 57 . الهادي المبروك الدالي : قبائل البراييش ، ط1 ، دار الكتب الوطنية ، 2002 ، بدون تاريخ، ص 28.
- 58 . حسن الوزان : وصف إفريقيا - ترجمة محمد حجي عمار زينر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد يتحلون - دار النشر للمعرفة - الرباط.، ج2، ص 160.
- 59 . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق ، ص 21 .
- 60 . عبلة محمد سلطان : العناصر المغاربية في السودان الغربي - دورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سنغاي - رسالة دكتوراه - مركز البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة - 1999- ص 156.
- 61 . ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة (المعروف ب: تحفة النظار في غرائب الأمطار) دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - 1400هـ/1980م ، ص 65 .
- 62 . عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 11 ، 12.
- 63 . نفس المصدر ص 21 .
- 64 . ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص 677 .
- 65 . مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص 204.
- 66 . ابن بطوطة نفس المصدر ، ص 676 .
- 67 . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق ، ص 21 ، حسن الوزان : المصدر السابق ، ص 530 ،
- 68 . ابن بطوطة المصدر السابق، ص 672 .
- 69 . نفس المصدر ، ص 677.
- 70 . عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 21.
- 71 . ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص 676 .

- 72 . نفس المصدر والصفحة.
- 73 . جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص28.
- 74 . Op.cit. .P 353:BOUBOU.
- 75 . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 21.
- 76 . الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري السياسي ، المرجع السابق، ص106، إسماعيل العربي: المرجع السابق ، ص317
- 77 . مطير سعد غيث : المرجع السابق، ص. 201.
- 78 . عبد الحكيم العفيفي: المرجع السابق، ص. 18.
- 79 . عزالدين موسى: انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي. - ندوة: الدروس الحسينية-وزارة الأوقاف المغربية -1406هـ/1986، ص 76.
- 80 . Yattara El mouloud : L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du VIIIème au XVIème siècle. P02.www. histoire-afrique.org
- 81 . ابن عبد الله ابن عبد العزيز البكري: المغرب في ذاكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك) مكتبة أمريكا والمشرق -باريس 1965، ص 179.
- 82 . الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص.108.
- 83 . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 03.
- 84 . محمود كعت: المصدر السابق، ص146، عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين، المرجع السابق ، ص 109.
- 85 . حسن الوزان: المصدر السابق، ج 6، ص 193، 170، مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص 203.
- 86 . الهادي المبروك الدالي: قبائل البرابيش، ط1، دار الكتب الوطنية، 2002، بدون مكان، ص.29.
- 87 . جوان جوزيف: المرجع السابق، ص 82.

- 88 . عز الدين عمر موسى: المرجع السابق، ص 100.
- 89 . الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص 108.
- 90 . نعيم قداح: المرجع السابق ، ص 171.
- 91 . عزالدين عمر موسى :المرجع السابق،ص. 146.
- 92 . حسن الوزان : المصدر السابق ، ص 150 .
- 93 . عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 11.
- 94 . محمد عوض محمد: المغرب والسلالات الإفريقية -الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة - 1970، ض 121-128.
- 95 . ابن بطوطة: المصدر السابق ، ص 674 .
- 96 . نفسه ، ص 696 .
- 97 . Barth : op.cit .t1.p365.
- 98 . عبد الحكيم العفيفي : المرجع السابق .ص 08.
- 99 . نفس المرجع ، ص 07
- 100 . عبد الجبار ناجي : المرجع السابق ،ص 17.

جهود اسبانيا لتوسيع نفوذها التجاري في الساحل المتوسطي للمغرب

خلال القرن 19م

The Spanish effort to expand its commercial leverage
ouer the Mediterranean coast of Morrocco in the 19'c

د/ محمد أحميان - المغرب

Ahmiane2008@hotmail.fr

ملخص:

شكل غزو فرنسا للجزائر، سنة 1830م، إيذانا بتغيير طبيعة العلاقات المغربية الأوربية. وتكرس الوضع عقب انهزام الجيش المغربي في حرب إسلي، سنة 1844م، الذي أظهر عجز المخزن وضعفه؛ فكتفت الدول الأوربية ضغوطها عليه ليتسنى لها فرض نفوذها، خصوصا في المجال الاقتصادي، بل سعت سعيا حثيثا لربطه بعجلة الرأسمالية.

وفي هذه الظروف، حاولت اسبانيا الاستفادة من الوضع، لإيجاد موطئ قدم لها في الساحل الشمالي للمغرب، متعلقة بالحقوق التاريخية. خاصة أمام الانتكاسة الذي تعرض له الاستعمار الاسباني في أمريكا اللاتينية. لذا حاولت الدوائر العليا في مدريد بلورة ادبولوجياتها الاستعمارية لمنافسة باقي القوى الامبريالية.

Abstract:

The French invasion onto Algeria in 1830 was as a declaration of the change in the nature of Euro-Moroccan relationships. Hence, the fact that confirmed this change, was the Moroccan military defeat in Isli confrontations in 1844. The European countries intensified its pressure over Morocco so as to impose their authority, mainly in the economic domain. They even Tried to attach it to the capitalist system.

In the mid of these circumstances, Spain tried to benefit from this situation in order to assure its foothold in the northern coast of Morrocco, pretending that, by its historical rights, especially after its retrogression in Latin America. For this reason, the higher authorities in Madrid tried to boost its imperialist ideology to compte with the rest of the imperialist powers.

مقدمة:

شكل غزو فرنسا للجزائر، سنة 1830م، إيدانا بتغيير طبيعة العلاقات المغربية الأوربية. وتكرس الوضع عقب انهزام الجيش المغربي في حرب إسلي، سنة 1844م، الذي أظهر عجز المخزن وضعفه؛ فكتفت الدول الأوربية ضغوطها عليه ليتسنى لها فرض نفوذها، خصوصا في المجال الاقتصادي، بل سعت سعيا حثيثا لربطه بعجلة الرأسمالية.

وفي هذه الظروف، حاولت اسبانيا الاستفادة من الوضع، لإيجاد موطئ قدم لها في الساحل الشمالي للمغرب، متعلقة بالحقوق التاريخية. خاصة أمام الانتكاسة الذي تعرض له الاستعمار الاسباني في أمريكا اللاتينية. لذا حاولت الدوائر العليا في مدريد بلورة تصوراتها وادولوجياتها الاستعمارية لمنافسة باقي القوى الامبريالية.

وقد شهدت المبادلات التجارية ما بين اسبانيا والمنطقة الشمالية للمغرب، نتيجة ذلك نموا مهما، بفضل تدشين سياسة تجارية جديدة، تختلف عما كان سائدا قبل القرن التاسع عشر؛ فأضحت الثغور المتوسطة المحتلة للمغرب، مراكز حيوية، لتسرب النفوذ التجاري الاسباني إلى عمق الريف¹، وحلقة وصل لربط الريف بمحيطه الخارجي.

1. اهتمام الإسبان بتوسيع نفوذهم التجاري في ساحل الريف:

تميزت بداية القرن 19م، بمبادرات إسبانية خجولة لتوجيه أنظارها إلى الساحل الإفريقي، إلا أن هذا التوجه ما فتى أن يتغير، مع تبلور الاتجاه الأفريقي، الذي دعا إلى ضرورة الاهتمام بدراسة تاريخ إفريقيا وثقافتها. وإن كان الفضول الأكاديمي والفكري واضحا لدى زعماء الأفريقية، غير أنه لم يكن غاية في حد ذاته، بل ركزت الأفريقية رغبتها على تحقيق الاحتراق السلمي لإفريقيا². وقد وصل الاهتمام الإسباني -خاصة الكطلاني- بالريف إلى أقصى درجاته مع أواسط القرن 19، وتعالى الأصوات الداعية إلى العمل من أجل التدخل في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط³، لاسيما في ظل الإكراهات المتزايدة، للحفاظ على السيادة الإسبانية في جزر الهند الغربية والمستعمرات الآسيوية، فولت أنظارها إلى الساحل الإفريقي لتوسيع نفوذها.

ونتيجة الاهتمام بالتجارة مع شمال إفريقيا، عملت "الجمعية الاقتصادية لبرشلونة" (La Sociedad Económica de Barcelona)، سنة 1856، على بعث

رسالة إلى الملكة إيزيلا الثانية (Doña Isabel II)، بشأن التدابير الواجب اتخاذها لتعزيز التجارة الإسبانية في إفريقيا⁴. واشتد نشاط الأفريقية خلال عقد الثمانينيات من القرن 19م، بانطلاق حركة نشيطة للجمعيات الجغرافية الاستكشافية والاقتصادية، قادها رجال الأعمال الإسبان، وخاصة من البورجوازية الكطالونية، التي بدأت بدراسة مجتمع شمال المغرب لفهم ثقافته، وجغرافيته، وتاريخه... بغية توسيع تعاملها التجاري معه، في إطار ما اصطلح عليه "بالاختراق السلمي" عبر تنشيط المبادلات التجارية⁵. وذلك بعد أن أرجع منظرو الأفريقية عدم نجاح إسبانيا في مستعمراتها القديمة في الكاريبي والمحيط الهادي، بالأساس إلى الجهل بهذه المناطق؛ لذا دعوا إلى تجنب هذا الخطأ، بالوصول إلى معرفة وافية للممتلكات الإسبانية الإفريقية، وذلك ما يمكن تحقيقه عن طريق رسم الخرائط، وتوجيه البعثات، والقيام بالدراسات⁶.

وقد تبلورت هذه الجهود من خلال القيام بعدة رحلات استكشافية؛ كرحلة: "خوسي مريا مورگا" (Jose María de Murga) تحت اسم مستعار "El Moro Vicaino"، "وخواكين كوتيل" (Joaquín Gatell) تحت اسم "El kaid Ismail"، "وخوسي بود" (Jose Boada) ... وغيرهم⁷. وأيضاً في ميلاد العديد من الجمعيات، وإصدار المجلات، التي أنيط بها مهمة تدعيم هذا التعامل، ومنها⁸:

- Congreso de Geografía Comercial.
- Sociedad de Geografía Comercial de Barcelona.
- Revista de Geografía Comercial Publico.
- Revista de Geografía Colonial y Mercantil.

لقد كان لهذه الحركة النشيطة للجمعيات الجغرافية الاستكشافية والاقتصادية، التي عرفتها إسبانيا، تأثير مباشر على توسيع النفوذ التجاري؛ إذ نادت كل تقاريرها بتشجيع تلك المبادلات، والتأكيد على المزايا الاقتصادية التي يمكن الحصول عليها من جراء التغلغل السلمي. ولأهمية أدوار هذه الجمعيات، التي وإن استهدفت خدمة مصالح اللوبي الاقتصادي، فهي في نفس الوقت تخدم اتجاه الدولة المهادف إلى بسط النفوذ على ساحل المغرب؛ مما جعلها تتلقى دعماً مادياً سخياً من الحكومة. فقد أكدت مثلاً "الجمعية الجغرافية التجارية لبرشلونة" (la Sociedad de Geografía Comercial de Barcelona)، أن تأسيسها كان لغرض وطني، يتجلى في نشر وقائع الجغرافيا التجارية، ونشر إحصائيات حول منتوجات التصدير والاستيراد، ودراسة الوضع الحالي للمستعمرات، والترويج لها، والتنقيب عن الوسائل العملية لتأسيس مستوطنات جديدة، وتشجيع المستكشفين للقيام برحلات من أجل فتح أسواق جديدة أمام التجارة الإسبانية⁹.

وقد منح انضمام "خواكين كوستا" (Joaquín Costa)¹⁰ إلى "الجمعية الجغرافية التجارية لبرشلونة"، نفساً قوياً لها؛ فبدأت الدعاية النظرية للقيام بعمليات نشيطة لتعزيز الادعاء الاستعماري للجمعية. وفي هذا الاتجاه، دعت إلى عقد مؤتمر لمناقشة القضايا الجغرافية والسياسية والتجارية، والذي حضره أزيد من 1200 شخص، من بينهم 658 ممثلاً عن الجمعيات الجغرافية. وناقشت، في أولى الجلسات، مواضيع تتعلق بالإمكانيات التي تتيحها السواحل الشمالية لإفريقيا، وتجارة إسبانيا معها، والممتلكات الإسبانية والأماكن التي يمكن أن تستعمر، والعناصر المناسبة لإقامة المنشآت الصناعية والموانئ الحرة¹¹. وقد توجهت هذه الجهود، بعقد المؤتمر التأسيسي للأفريقيانيين بقصر

الحمراء بغرناطة، في مارس 1884م. ومن بين النقاط الرئيسية التي أجمع عليها في المؤتمر¹²:

- تعديل بنود الاتفاقية التجارية مع المغرب.
- تعزيز خطوط الملاحة بين إسبانيا والمغرب.
- تشييد ميناء في جزر كبدانة.
- تحسين وضعية ميناء سبتة.
- الاهتمام بالطرق المؤدية إلى المناطق الداخلية.
- تحويل الحصون إلى مقاطعات مدنية.
- القيام بالاستغلال العلمي والتجاري لأراضي الريف.

قد كانت "الجمعية الجغرافية التجارية لبرشلونة"، ومن ورائها الرساميل والشركات الكطالانية، من أبرز المساندين لهذه التوجهات؛ لكون ميناء برشلونة هو المستفيد الأول، باستقباله أزيد من 6000 رأس من الأبقار المغربية سنويا، وحمولات متنوعة ومهمة من الحبوب والجلود؛ فتولد نتيجة لذلك، الطموح لتوسيع هذا التعامل، وعملت هذه المؤسسات على إرسال بعثاتها إلى الريف، من أجل الوقوف على حقيقة الإمكانيات الاقتصادية للمنطقة. وفي هذا الصدد، أقدمت "الجمعية الجغرافية التجارية لبرشلونة" سنة 1884م على إرسال أحد مبعوثيها وهو "ستورنينو خمينيث" (Saturnino Jiménez)، من أجل رصد الإمكانيات التجارية لساحل الريف، قصد وضع قاعدة تجارية في الحدود المغربية الجزائرية قرب جزر كبدانة، ليتجه إشعاعها نحو وجدة ومليية¹³.

علما بأن "كلوديو لوبيث" (Claudio Lopéz)¹⁴، طلب سنة 1883، من "خوسي ريكار خيرلت" (José Ricart Giralt)¹⁵، تقديم دراسة حول تأسيس

خطوط بحرية جديدة، تربط مباشرة المراكز الإسبانية في ساحل الريف مع برشلونة، وتخصيص هذه الشركات جزءا من نشاطها التجاري للنقل الجماعي للمسافرين¹⁶.

وأمام النجاح التي حققتها البورجوازية الكطالونية، في توجيه طموحاتها نحو مناطق الساحل الشمالي للمغرب، بدأت تمتد هذه الحركة إلى مختلف المناطق الإسبانية، لتعزيز مصالحها في المنطقة. فتأسست بإشبيلية سنة 1885م، "جمعية الأفريقيين" (Sociedad de Africanista)¹⁷. وفي نفس الاتجاه، أرسلت "الجمعية الاقتصادية لأصدقاء البلاد" (Sociedad Económica de Amigos del País)، بعثة نحو ساحل إفريقيا من أجل تعميق دراسة هذا المجال لتسهيل الاستغلال التجاري، بتسويق المنتجات الإسبانية، إسوة بما قامت به "الجمعية الجغرافية التجارية لبرشلونة"¹⁸. وتم نفس الأمر في مورسيا (Murcia)، حيث أنشئت "الشركة التجارية الإسبانية-الإفريقية" (La Compañía Comercial Hispano-Africana) سنة (1885)، وشكلت "بعثة واد ملوية S.A"، لتقوم في دجنبر 1886م، بنشر تقرير تشرح فيه أغراضها التجارية (الاستيراد والتصدير)، وأهمية المواد التي يمكن الحصول عليها، كالحلفاء، والنخيل، والمطاط، والفلين والحبوب. وكان يدير هذه الجمعية، المستكشف الإفريقي "ستورينو خميث"¹⁹. وهكذا ظهرت رغبة جامعة، لدى رجال الأعمال الإسبان، لتنمية التجارة مع ساحل الريف، وتعويض انتكاساتها في أسواقها القديمة في أمريكا اللاتينية.

ومع نهاية القرن 19م، ستتقاطر المزيد من البعثات على الضفة الجنوبية للمتوسط، مظهرة اهتماما بالغا بشؤون الساحل المتوسطي للمغرب؛ حيث وصل إلى طنجة الكونت "كرلوس دي كدو" (Carlos de Gado)، وبجانبه اثنان من الكطالونيين الآخرين، وهما "خوسي بود" (José Boada) و"إنريكي كياسو" (R. Enrique)

(Collaso)، وقدموا سلسلة من المشاريع للرفع من العلاقات التجارية الإسبانية المغربية، وكذا تم إنشاء شركة مساهمة برأسمال كبير في طنجة. فضلا عن تأسيس غرفة التجارة في سبتة، لتكون منفذا لتوجيه تجارة شمال المغرب. وفي الآن نفسه، طالب الإسبان -الإخوان "غودو" (Godo) - حكومتهم بالتدخل لدى المخزن لحماية مشاريعهم؛ عن طريق مطالبة السلطان بالتنازل عن قطع أراضي في فاس والقصر الكبير لإنشاء فندقين²⁰. ورغم المكتسبات التي حققتها تلك البعثات، إلا أنها لم تسلم من انتقادات عدة، فأصبح لزاما عليها التجنّد للدفاع عن مشروعيتها.

2. الأفريقية والمشروعية:

لاشك في أن النشاط الأفريقي، الذي قاده اللوبي الاقتصادي، سعى للدفاع عن مشروعيتها، وتقدم المبررات اللازمة لتبرير توجهه؛ فتعددت الحجج لإقناع كل من الجناح المحافظ في الحكومة، والمجتمع الإسباني بمختلف تلويناته. "الجمعية الجغرافية لمدريد"²¹، ركزت خطابها أساسا على الحقوق التاريخية، والعلاقات التقليدية التي كانت قائمة بين ضفتي المضيق، ثم القرب الجغرافي، وكذا على الدافع الإستراتيجي، من خلال تعزيز القدرات الدفاعية لسبتة ومليلية، ومنع القوى الأخرى من الاستقرار قبالة السواحل الإسبانية التي يمكن أن تشكل خطرا على أمن إسبانيا. أما اقتصاديا، فقد أثار الأفريقيون مسألة المنافع الاقتصادية التي يمكن جنيها من جراء هذا التوسع. ولإقناع المفكرين ورجال الدين، كان من اللازم تغيير نبرة الخطاب، فأثاروا ضرورة تعزيز الضفة الجنوبية للمتوسط بالقيم الحضارية الأوروبية، والتبشير بالديانة المسيحية²².

كما ركز الأفريقيون، على الوحدة الجغرافية التي تربط شبه الجزيرة الإيبيرية بالمغرب، إذ يرى خواكين كوسطا، أن مضيق جبل طارق لا يفصل بين دولتين وشعبين،

بل هو عبارة عن نهر، وكلتا ضفتيه تنتمي إلى نفس الأمة، فالبنية الجيولوجية والمناخ والنباتات التي تنتشر في الشمال هي نفسها في الجنوب. أما على المستوى العرقي، فإن البربر كما قال هم "أشقاؤنا"؛ إذ ينتمون إلى نفس الجنس المتوسطي، الذي يتميز بشعر أشقر وعيون زرقاء، وإننا عشنا نفس المصير والتاريخ المشترك الذي يمتد لقرون²³. بذلك جعل من الماضي حاضرا، فكانت حججا متكاملة مخاطبة مختلف الأطياف الفكرية، وموجهة إلى جميع الفئات الفاعلة في المشروع الأفريقي.

وبهذا الخطاب، حاول الأفريقيون زعزعة اللامبالاة تجاه السواحل الجنوبية للمتوسط، وجعل العمل الأفريقي عملا وطنيا، وأي اعتراض يعني الوقوف في وجه مصلحة الوطن. وتقتضي هذه المصلحة تكاثف الجهود بين مختلف المكونات، وتجاوز العمل الفردي لأرباب المصانع والتجار؛ إذ أشارت إحدى مقالات "مجلة الجغرافية التجارية" (Revista de Geografía Comercial)، لعام 1888م، إلى أنه "سيكون من المفيد لرجال الصناعة والتجار الإسبان العمل معا في شراكة، لتغطية نفقات إرسال الوكلاء والرحالة لدراسة الوضع في البلاد وتقديم منتوجاتهم، مثلما يقوم نظراؤهم الإنجليز والفرنسيون، وخصوصا الألمان، الذين بفضل هذا النظام يقومون بأعمال تجارية كبيرة في جميع أسواق العالم"²⁴. فتزايد الاندفاع الأفريقي في ظل هذا التنافس الإمبريالي، للتأثير أكثر في المجتمع والدوائر الرسمية الإسبانية.

وركز الأفريقيون على شراسة التنافس الإمبريالي، وضعف حضور إسبانيا فيه لإثارة المسألة الإفريقية. وتعالى عدة أصوات منتمية إلى "الجمعية الجغرافية لمدريد"، موجهة مجموعة من الانتقادات للحكومة، لعدم اتخاذها إجراءات تمكنها من زيادة نفوذها في المغرب، باستغلال موقع الثغور المتوسطية، وتوقيع اتفاقيات مع المخزن المغربي، وبناء خط السكك الحديدية يربط مليلية بتازة عبر تافريسيت، للتصدي لخطر المشروع الفرنسي

القاضي بربط الجزائر بوجدة ثم فاس عبر تازة²⁵. وأشار أحد زعماء هذا الاتجاه (خواكين كوسطا)، في المؤتمر الذي دعت إليه "دائرة الاتحاد التجاري" (Círculo de la Unión Mercantil)، سنة 1882م، حول موضوع التجارة الإسبانية في الساحل المغربي، إلى أن "التجارة الخارجية للمغرب تقدر بحوالي 250 مليون ريال، هذا المجموع أكثر من نصفه يعود لإنجلترا بنسبة 60%، وفرنسا تساهم بـ 25%، وتوزع الباقي - أي 15%- بين البرتغال وإسبانيا وبلجيكا. انظروا جيدا أيها السادة، البرتغال تتقدم على إسبانيا، النسبة التي توافق إسبانيا تنخفض إلى أقل من 4%، وقسم هام من ذلك يتجه إلى الصادرات، وهي نسبة أعلى بكثير من الواردات؛ مما يعني أن السوق الصناعية الإسبانية لم تفتح بعد في المغرب"²⁶. إنه خطاب بليغ، لدغدغة أطماع الإسبان للتوجه نحو المغرب، وليست إشارته إلى النسب المرتفعة لإنجلترا وفرنسا إلا لجذب الانتباه، وتدارك الوضع، بينما ذكره النسبة الضعيفة التي تساهم بها إسبانيا، تحمل في طياتها دعوة لمضاعفة الجهود.

ولتبيان محاسن المشروع الأفريقي، والدفاع عنه، أقدم أصحاب هذا الاتجاه على نشر مجموعة من الأعمال في المجلات التي أنشئت لهذه الدعاية. ففي عام 1886م، نشرت "مجلة الجغرافية التجارية" مقالات عدة حول "التجارة الإسبانية في المغرب"، ركزت على ضرورة أخذ إسبانيا نصيبها من التجارة مع الساحل الإفريقي²⁷، ونشرت أيضا في سنة 1886م، عملا واسعا حول "التجارة في شمال غرب إفريقيا"²⁸. وللأهمية التي أضحت تحتلها تجارة ساحل الريف في الخطاب الأفريقي، فقد تحدث "خوسي ريكار خيرلت" (1886م)، في العرض الذي قدمه إلى "المؤتمر العام لمركز كطالونيا" (Consejo General del Centro Catalán) عن "تجارتنا مع الساحل

الإفريقي²⁹. وعلى هذا الأساس، فلم تعد التجارة مع السواحل الإفريقية بالنسبة للأفريقيين مسألة ثانوية، ولكن رغم ذلك ظل الحضور التجاري الإسباني بها باهتا.

وفي هذا الإطار، نشر قنصل إسبانيا في تطوان "تيودرو دي كوياس" (Teodoro de Cuevas)، سنة 1897، في "مجلة الجغرافية الاستعمارية والتجارية" (Revista de Geografía Colonial y Mercantil)، مقالا تحت عنوان: "وسائل تعزيز التجارة الإسبانية في المغرب"، حاول من خلاله تبيان حقيقة المبادلات التجارية الإسبانية مع المغرب، مؤكدا على غيابها تقريبا مقارنة بما وصلت إليه المبادلات مع إنجلترا وفرنسا وألمانيا، متحسرا على المشاركة الضئيلة أو المنعدمة من قبل المؤسسات الصناعية والتجارية الإسبانية، وتقصيرها في ولوج هذا المجال الحيوي³⁰. والانتقاد نفسه، وجهه سكرتير "الجمعية الجغرافية لبرشلونة"، الذي انتقد لامبالاة الحكومة والأفراد، من رجال الصناعة والشركات البحرية، تجاه الحالة التي آلت إليها التجارة الإسبانية مع المغرب³¹.

وكان للعرض الذي قدمه خوكين كوسطا، حول "التجارة الإسبانية في إفريقيا"، دور مهم في انتعاش العمل الأفريقي. هذا بالإضافة، إلى فعالية "مؤتمر الجغرافيا الاستعمارية" (Congreso de Geografía Colonial) (1883م)، الذي شاركت فيه العديد من الشخصيات البارزة وممثلي الشركات. علاوة على مساهمة بعض وجهاء الريف، الذين طالبوا إسبانيا بمنحهم حمايتها، وإقامة علاقات تجارية معهم³²، بينما ردت الوثائق المخزنية ذلك لسوء المعاملة التي تلقوها من ممثلي المخزن³³. غير أن الحادث شكل للأفريقيين مبررا للتدخل، من أجل القيام "بواجب إنساني"، والمتمثل في تقديم يد العون للأهالي³⁴. وقد استغل الأفريقيون، هذا الوتر الإنساني الحساس لتوسيع نفوذهم التجاري، باعتماد تدابير من جانب كل من الحكومة والخواص، ممثلة في ضرورة

الإقبال على معرفة لغة الأهالي وعاداتهم، وتشجيع أعمال الخير والمحبة، وإنشاء المدارس والمستشفيات ودور العجزة، وتحويل الحصون الإسبانية إلى أسواق مفتوحة، وتثبيت الوكلاء التجاريين؛ حيث تنمية التجارة ستكون في مصلحة الشعبين. وبهذا التوجه السلمي، والاحترام تجاه الأهالي، "سنهيمن عليهم كإخوة لنا وليس كأعداء"؛ حسب تعبير "خوسي ريكار خيرلت"³⁵، لكون الحرب لن تخدم المصالح التجارية، بقدر ما سوف تؤثر عليها. إذ رأى الأفريقيين، أن قوة البلد لا تقاس بالانتصارات العسكرية، ولكن بحجم الأسواق التي تسيطر عليها، وإن الخيار السلمي أفضل وسيلة لتشجيع التجارة بين إسبانيا وإفريقيا. ويكمن الهدف الأساس، في تحقيق مكاسب اقتصادية، وليس المجد العسكري³⁶. وشكل الاختراق السلمي بالنسبة إليهم، أحسن وسيلة لتعزيز نمو التجارة، عبر إصلاح المعاهدة التجارية لعام 1861، وتحسين الخدمات الملاحية ما بين إسبانيا والمغرب، وتمديد شبكة الطرق، وحماية التجار الإسبان المستقرين في المغرب³⁷.

لقد أظهرت المصالح الاقتصادية الكطلانية (الجمعية الجغرافية لبرشلونة)، رفض ميل الاتجاه الرسمي للدولة نحو دول أمريكا اللاتينية، باعتبارها مصدر الشرور التاريخية لإسبانيا، رغم تأييدها سنة 1897م، فكرة إنشاء "معهد أمريكا اللاتينية" (Instituto Iberoamericano) في برشلونة، إلا أنه اختار أن يولي اهتماما أكبر للقضايا الإفريقية والمغربية خصوصا³⁸. وقد ألح "رودريغيث أركويا" (Rodriguez Arroquia)، سنة 1878، المنتمي إلى "الجمعية الجغرافية لمدريد"، على ضرورة التركيز على المغرب وعلى البحر الأبيض المتوسط، باعتبار ذلك مدخلا لحل مجموعة من المشاكل التي تتخبط فيها إسبانيا³⁹. وقد ازداد الخطاب الأفريقي توهجا في المناطق التي ازدهرت تجارتها مع بلدان المتوسط؛ مثل كطالونيا ومنطقة الأندلس. أما سياسيا، فقد كان

جل أنصار ذلك الخطاب تحت مظلة الحزب الليبرالي، أو ينتمون إلى تيار الوسط الجمهوري⁴⁰.

وهكذا، أبان الاتجاه الأفريقي عن حماس كبير، مقابل تعامل باهت للجانب الرسمي، في معالجة القضايا ذات الصلة بالعمل الإسباني في المغرب، فيما يخص تشجيع وتنمية التجارة، وتطوير الاتصالات الخارجية والداخلية، وإنشاء الموانئ المختلفة وتحديثها⁴¹. ومن هنا جاء الاهتمام بتحسين وضعية الميناء الطبيعي لجزر كبدانة، لما له من مميزات تعين على تسهيل الملاحة التجارية الأوربية⁴²، بالإضافة إلى أهميته الإستراتيجية، للوقوف سدا منيعا في وجه أي تسرب فرنسي انطلاقا من الجزائر، وخاصة بعد المحاولات الفرنسية لتوسيع الحدود الجزائرية نحو مليلية (1890م-1884م)⁴³. وعموما، فقد خص الأفريقيون التجارة مع الساحل المتوسطي للمغرب باهتمام كبير، وأصبحوا ينظرون إليه بوصفه مصدرا للثراء الاقتصادي، وأداة لمد النفوذ السياسي والثقافي لإسبانيا.

وسوف يلتهب النشاط الأفريقي أكثر، مع التوسع الإمبريالي في إفريقيا، وتمكن بعض القوى من احتجاز مكائنها فيها (سيطرة فرنسا على الجزائر والمجترات على مصر)⁴⁴، وخاصة في أعقاب خسارة المستعمرات الإسبانية في منطقة الكريبي والمحيط الهادي، وزيادة التنافس في المغرب. وفي هذا الإطار، ستركز أنظارها على إخضاع شمال إفريقيا، ودعوة الحكومة لرفع أداؤها للسيطرة على المنطقة، وتوسيع مناطق نفوذها في المغرب، والدفاع عن المصالح الإستراتيجية لإسبانيا في المنطقة⁴⁵. وساد اعتقاد لدى الأفريقيين، أن الهياكل الرأسمالية في إسبانيا، قادرة على تحقيق التنافس في الأسواق الإفريقية مع القوى الأوربية، وأنها تتوفر على الإمكانيات الكفيلة لتحقيق ذلك إذا ما استغلت بشكل صحيح، وإعطاء المبادرة للقطاعات التجارية والمالية⁴⁶. وتعتبر "الجمعية الجغرافية لمدريد"، عنصرا

أساسيا في التأثير على القرارات السياسية المتعلقة بالعمل الاستعماري، وتحديد ما يتعلق بالمغرب، نظرا لنفوذ أعضائها في هياكل الدولة، وسيطرتهم على المناصب العليا⁴⁷.

3. الانتقال من الأفريقية إلى "المغربية":

إن فقدان إسبانيا لمستعمراتها في أمريكا اللاتينية وشرق آسيا، واشتداد التنافس الإمبريالي حول المغرب، جعلها تعمل على تنقيح إيولوجيتها "الأفريقية". وفي هذا السياق، بدأت تتبلور حركة اهتمت بالمغرب، أطلق عليها اسم "المغربية" (El Marroquismo)، وتم تدشينها من طرف "المراكز التجارية الإسبانية-المغربية"⁴⁸، من أجل إعطاء دفعة قوية للعمل في شمال المغرب. وقد عجل بإنشائها التوقيع على الوفاق الودي الفرنسي-الإنجليزي في أبريل 1904م، والفرنسي-الإسباني في أكتوبر 1904م. وشكل الوفاق الفرنسي-البريطاني، تغيرا جذريا في موقف اثنين من أقوى الدول المهتمة بالمسألة المغربية، وكان هذا التطور موضوع دراسة ومباحثة من قبل مجلس "الجمعية الجغرافية لمريد"، وأكد أمينها العام "لويس تور إبالو" (Luis Tur y Palau)⁴⁹، أن من العار أن تخسر إسبانيا المغرب، وأن حدوث هذا الأمر يعني انهيار الصناعة الإسبانية⁵⁰.

وفي هذا الإطار، نشير إلى أن فقدان البورجوازية الصناعية الكطالونية لأسواقها في مستعمرات الكاريبي والفلبين، جعلها تبحث عن بدائل لتوسيع أسواق ترويج منتوجاتها. وجاء تأسيس هذه المراكز، بهدف اتخاذ وتنفيذ إجراءات عملية، لتجاوز الضعف الاقتصادي لإسبانيا، وتجاوز العقبات القانونية والبيروقراطية المعيقة للتجارة، وكل ما يحدها من النفوذ التجاري الإسباني في المغرب، والتي لا تتجاوز 5% من صفقات المغرب، بينما الأنشطة التجارية لفرنسا وبريطانيا وألمانيا، تفوق بشكل واضح ما حققته إسبانيا⁵¹.

لقد أنشئت هذه المراكز، تحت قيادة "إميليو كوربلا" (Emilio Corbella)، ونشطت انطلاقا من برشلونة ومدريد وقرطبة ومالقة واشبيلية وطنجة، بهدف تعزيز التغلغل الاقتصادي لإسبانيا في المغرب⁵². وأصبح "إدوارد سثيدرا" (Eduardo Saavedra)⁵³، أول رئيس لمركز مدريد. أما مركز برشلونة فترأسه "مريانو بوغ فيس" (Mariano Puig y Valls)، وطور برنامج عمل هذه المراكز، أشخاص على دراية بالحياة الصناعية والتجارية والمعرفية والنقل البحري، من أجل وضع تصور موافق لتنمية وتوسيع الأعمال التجارية والصناعية في المغرب، ويصبح المغرب سوقا لبيع المنتوجات الإسبانية نتيجة لذلك⁵⁴. وللتأثير أكثر، أسست هذه المراكز التجارية مجالات ناطقة باسمها⁵⁵؛ مثل:

- Revista Política y Comercial (Barcelona 1905).
- África, Revista Española Ilustrada (Barcelona 1906).
- España en África (Madrid 1908).
- África Espanola (Madrid 1913).

هكذا إذا غدت المراكز التجارية أبرز المؤسسات النشيطة ضمن تيار التسرب السلمي، وخاصة بعد 1898م، مع خلق جو جديد من النشاط التجاري الإسباني في المنطقة، بتشجيع من الدولة وأصحاب رؤوس الأموال⁵⁶؛ لتعزيز النفوذ الإسباني من خلال تقوية الصادرات الإسبانية. كان ذلك أيضا مفيدا لشركات النقل / الشحن والبنوك، بالإضافة إلى امتصاص فائض السكان العاطلين على العمل⁵⁷؛ ليصبح بذلك المغرب مخرجا مهما لمشاكلها الاجتماعية، وحلا لأزماتها الاقتصادية؛ فبدأت إسبانيا يوما بعد يوم تشعر "بالتعاطف" الكبير والمتزايد نحو المغرب⁵⁸.

لذا، ناضلت المراكز التجارية الإسبانية-المغربية، بحماس وإيمان ووطنية كبيرة، من أجل تجاوز حالة الركود التجاري لإسبانيا في المنطقة⁵⁹؛ إذ عملت جادة لخلق معرض دائم في مليلية للمنتوجات "الوطنية"، تم فتحه في عام 1916، وحمل في طياته بذور التوسع التجاري على نطاق واسع، من خلال الدعاية النشيطة لصالح منتوجاتها (الإسبانية) في أسواق الشمال الشرقي. ويسمح المعرض، للأوروبيين والأهالي بالإطلاع على المنتوجات الموجودة، ومعرفة المساهمات والشروط والأسعار وكل التفاصيل المتعلقة بالسلع⁶⁰؛ لتكسير العزلة التي عاشتها الحصون، ومد نفوذها التجاري إلى مناطق بعيدة، يجعلها مركز التسوق الرئيسي في المنطقة.

ومبادرة من المراكز التجارية الإسبانية-المغربية، وبحضور ممثل عن التاج الإسباني، ووزير الخارجية "خوان بيريث كبرو" (J. Perez Caballero)⁶¹ و"خوسي رويغ إيررگدا" (José Roig y Bergadà)⁶²، تم عقد المؤتمر الأول، الذي ترأسه "إدوارد سفيدرا" (Eduardo Saavedra)، وأعطى دليلا على الاهتمام الذي توليه إسبانيا للمسألة المغربية⁶³. وتلته مؤتمرات أخرى في سرقسطة (1908م)، وبلنسية (1909)، ومدريد (1910م)، مؤكدة على ضرورة تعليم اللغة العربية، ودراسة الشريعة الإسلامية⁶⁴، وتعزيز نفوذ الثقافة الإسبانية في إفريقيا، ولاسيما من خلال اللغة، وفق خطة دقيقة ومدروسة⁶⁵؛ فتمكنت المراكز التجارية، في ضوء هذه الرؤية، من بلورة حركة استعمارية امتدت إلى مختلف الحقول المعرفية، والاقتصادية، والجغرافية والتاريخية... إلخ.

وفي هذا الإطار، أقدمت المراكز التجارية الإسبانية-المغربية، بتاريخ 8 أكتوبر 1907م، على إصدار بيان أمام الكورتس (البرلمان)، من أجل تنبيه النواب إلى أنه: "من دون خطة شاملة ومركزة، سوف لن تكون كل الجهود ذات جدوى، والدعاية ستبقى عقيمة. فرغم القرب من المغرب، وممتلكاتنا الموزعة في شمال إفريقيا، والملايين من أموالنا

المنتشرة هناك، وانتشار اللغة الإسبانية أكثر من باقي اللغات الأجنبية الأخرى، لم تتمكن من زيادة نفوذنا التجاري، في حين أن فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، وإيطاليا قد اكتسحوا في غضون سنوات قليلة تلك الأسواق⁶⁶. وأرجع هذا البيان، ضعف الرواج التجاري الذي يربط بين إسبانيا والمغرب، إلى عجز التسهيلات المتاحة عن تحقيق غزو الأسواق. وأورد مجموعة من الإحصائيات المتعلقة بباقي القوى الأوروبية الفاعلة في حوض البحر الأبيض المتوسط (فرنسا، إنجلترا، ألمانيا، إيطاليا)، التي نجحت في رفع تعاملاتها التجارية مع المغرب، بفضل الترسانة القانونية المشجعة والتسهيلات المقدمة، هذا عكس إسبانيا⁶⁷. لذا اعتبرت المراكز التجارية الإسبانية-المغربية، أن مفتاح تحقيق إسبانيا لاختراق تجاري في منطقة نفوذها في المغرب، يكمن في سن مجموعة من القوانين، ومنح التسهيلات اللازمة التي من شأنها أن تجعل الصناعة الإسبانية تستفيد من أسواق شمال المغرب. وقد بذلت هذه المراكز سنة 1907م، جهودا حثيثة من أجل إصلاح المادة 229 المنظمة للرسوم الجمركية، التي اعتبرتها غير دقيقة وغير مشجعة للسفن التي تتردد على حصون شمال المغرب⁶⁸.

وتكريسا للجهود الهادفة إلى تنمية المصالح الإسبانية في المغرب، أنشئت "غرفة التجارة الإسبانية في طنجة"، بمبادرة من القنصل الإسباني في المدينة، "فرنسيسكو لوثانو مونوث" (Francisco Lozano Munoz)⁶⁹. وكان لها دور بارز في انتعاش المصالح التجارية الإسبانية؛ إذ مباشرة بعد تأسيسها، بدأت حكومة إسبانيا تطالب المغرب بتسهيل المبادلات التجارية، وأجرأة العديد من بنود الاتفاقيات التجارية الموقعة بين الجانبين، وخاصة تلك الموقعة عقب معركة تطاوين سنة 1860م، كما ألحت على مبدأ حماية مواطنيها، ومساعدة التجار الإسبان لتطوير مشاريعهم داخل المغرب. وقدمت غرفة التجارة الإسبانية في طنجة، عام 1898م، تقريرا إلى الحكومة عن حالة التجارة

الإسبانية ومستقبلها، وطالبت بتشكيل اتحاد من المنتجين الإسبان، للعمل في هذا الاتجاه، وجعل المغرب سوقا للإنتاج الإسباني⁷⁰.

وبعد إعلان الحماية على المغرب سنة 1912م، وضعت "الجمعية الملكية للجغرافيا"، سنة 1913، برنامجا لدراسة المنطقة، لتكون قادرة على احتضان القواعد اللازمة لاستغلال الساحل المتوسطي للمغرب، ووضع خطة عمل لتمدينه، بإنشاء المراكز التعليمية، واستقرار البعثات الكاثوليكية، على أساس أن زخم الحضارة يشكل الوسيلة الرئيسية لزيادة النفوذ الإسباني في المغرب. وفي نفس الوقت، أشارت تلك الجمعية إلى أنه يتعين القيام بمجموعة من الدراسات، التي من شأنها تقديم فحص دقيق لسواحل الريف وإجراء استكشاف جيولوجي ومعدني لجميع أنحاء المنطقة، ونشر البيانات والقواعد القانونية، والبنية الاجتماعية للقبائل التي تستوطن مجال النفوذ الإسباني، للوقوف على أهمية الموارد الطبيعية التي يزخر بها المغرب؛ في سبيل استغلال أفضل للموارد، وتنمية التجارة في تلك المناطق. وكانت الحاجة إلى تخطيط وتنظيم العمل بالمغرب، في مختلف الجوانب العلمية والجغرافية، تستوجب تشكيل لجنة مشتركة مع الأكاديمية الملكية للتاريخ. وفي هذا الإطار، قدم وزير الخارجية، في 1916م، مشروع اللجنة العلمية للتاريخ والجغرافيا للمغرب، إلا أنه نظرا لغياب استقرار المنطقة، بسبب اندلاع حرب الريف، كان من المستحيل تنفيذ تلك الدراسات⁷¹.

وبذلك، تكون مدريد قد وظفت كل إمكانياتها في سبيل التغلغل الاستعماري في المغرب، وكانت الجمعيات التجارية والاقتصادية، بصفة عامة، التي مثلت مصالح البورجوازية الإسبانية، من أبرز قنوات الضغط على الحكومة الإسبانية. والتي ركزت -في نداءاتها وتوصياتها- على استغلال الموقع المتميز لثغري سبتة ومليلية، في عملية التسرب

الاقتصادي إلى شمال المغرب⁷². فعملت الأفريقية والمغربية معا على تسريب النفوذ التجاري الإسباني إلى الساحل الشمالي للمغرب.

محمل القول، أنّ السلطات الإسبانية عملت على تجريب كل الآليات التي من شأنها رفع تعاملها التجاري، وإن كانت أحيانا متناقضة. فهي في الآن نفسه تدعو إلى الاختراق السلمي، وتتدخل -في المقابل- عسكريا للسيطرة على مجموعة من المناطق. فلا غرابة إن كانت الإيديولوجيا الاستعمارية الإسبانية تتسم بالضباية وعدم الوضوح، عكس الإمبريالية الفرنسية والبريطانية، التي كانت مدفوعة بتحولات اقتصادية، ومصاحبة بنضج إيديولوجي وسياسي، عكس إسبانيا.

¹ - نقصد هنا بالريف، المنطقة الشمالية للمغرب، الممتدة ما بين مصب نهر ملوية شرقا إلى مدينة طنجة غربا.

² - Aziza BENNANI, "El africanismo marroquista de la España del siglo XIXe". En: **Actas del II coloquio hispano-marroquí de ciencias históricas: "Historia, ciencia y sociedad"**. Celebrado en Granada, 6-10 Noviembre de 1989, eds. de la Agencia Española de Cooperación Internacional, Madrid 1992, p.73.

³ - Eloy MARTÍN CORRALES, "Intereses catalanes en la expansión colonial española en el Norte de África (1860-1912)". En: **Ciencia y memoria de África. Actas de las III Jornadas sobre "Expediciones científicas y africanismo español (1898-1998)"**. Dirección de Alejandro

- R. Díez Torre, Eds. Universidad de Alcalá de Henares, Madrid 2002, p. 96.
- ⁴ – Tomas GARCÍA FIGUERAS, **La acción africana de España en torno al 98 (1860–1912) (De la paz de Uadras (1860) al tratado de Paris (1898))**. Publicación de Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Instituto de Estudios Africanos, Madrid 1966, t. 1, p. 189.
- ⁵ – Eloy MARTÍN CORRALES, "El nacionalismo catalán y la expansión colonial española en Marruecos : de la guerra de África a la entrada en vigor del protectorado (1860–1912)". En: **Marruecos y el colonialismo español (1859–1912) de la guerra de África a la «penetración pacífica»**. Eds. Bellaterra, Barcelona 2002, p. 95.
- ⁶ – José Luis VILLANOVA VALERO, "La Sociedad Geográfica de Madrid y el colonialismo español en Marruecos (1876–1956)". **Documents d'analisi geogràfica**, n° 34, publicación de la Universitat Autònoma de Barcelona, Eds. Bellaterra, 1999, p. 168.
- ⁷ – M. CORRALES, "Intereses catalanes, *op. cit.*, p. 95.
- ⁸ – G. FIGUERAS, *La acción africana, op. cit.*, t. 1, pp. 190–191.
- ⁹ – G. FIGUERAS, *La acción africana, op. cit.*, t. 1, p. 108
- ¹⁰ – Joaquín Costa y Martínez (1846–1911)، حاصل على دكتوراه في القانون سنة 1874، وأخرى في الآداب سنة 1875م، من جامعة مدريد، واشتغل أستاذا مساعدا في

جامعة مدريد Universidad Complutense de Madrid . وقد اهتم في محاضراته ومقالاته، بتناول جوانب كثيرة من المجتمع الإسباني، المتأثر بصدمة الهزيمة ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وخسارة إسبانيا مستعمراتها في أمريكا اللاتينية والفلبين؛ مما حفزه على مهاجمة النظام القائم، والسعي إلى التغيير، وأضحى بذلك من أكبر متزعمي الحركة الفكرية الإسبانية خلال ق 19، المعروفة ب Regeneracionismo . وشارك في العديد من الاجتماعات والمؤتمرات الأفريقية، حول تحديد الرؤية للتجارة الإسبانية (1882)، كما شارك في تأسيس الجمعية الأفريقية الاستعمارية la Sociedad de Africanistas y Colonistas والإشراف على مجلة (la Revista de Geografía Colonial) في الفترة الممتدة بين (1885-1887).

¹¹ - Joan NOGUÉ y José Luis VILLANOVA VALERO, **España en Marruecos (1912-1956)**. Editorial Milenio, Lleida 1999, pp. 162-163.

¹² - لمزيد من التفاصيل يُنظر:

Congreso Español de Africanistas (1º. 1892-1893.

Granada): Actas y memorias del primer Congreso Español de Africanistas celebrado en Granada.

Publicación de Tip. Hospital de Santa Ana, Granada 1894.

¹³ - M. CORRALES, "El nacionalismo catalán, *op. cit.*, p. p. 175.

¹⁴ - Claudio López Bru (1853-1925)، رجل أعمال كطالوني، ولد في كومياس (كانتابريا) ونشأ في برشلونة، نال شهادة الإجازة في القانون من جامعة برشلونة. ورث عن والده لقب الماركيز وثروة كبيرة، فأصبح رئيس مجموعة الشركات التي ورثها Compañía Transatlántica Española, la Compañía General de Tabacos de Filipinas, los Ferrocarriles del Norte وقد أسس صحيفة

EL UNIVERSO التي أولت اهتماما للعمل الاجتماعي الكاثوليكي، من خلال توفير السكن والتعليم والرعاية الصحية.

¹⁵ - ولد في برشلونة في يوليو 1847م، تلقى تكوينه بحريا، وقاد عدة رحلات بحرية في اتجاه المستعمرات الاسبانية في أمريكا اللاتينية، وخاصة نحو كوبا. وبعد تأسيس الجمعية الجغرافية لمديرد، في عام 1876، من أجل إحياء السياسة الاستعمارية الإسبانية، أصبح ممثلا في برشلونة. وفي منتصف عام 1877، أسس جمعية زميله Esteban Amengual المجلة البحرية (Revista Marítima). وبعد محاولات عديدة غدا أستاذا مساعدا في المدرسة البحرية ببرشلونة (La Escuela Provincial de Nàutica). وقد أهله تكوينه البحري، لأن يكون ملما بعلاقات إسبانيا بمستعمراتها، وأنخرط في النقاش الفكري الذي كانت تعج به العاصمة الكتالونية، حول جدوى التركيز فقط على المستعمرات القديمة، وأهمية تحول الوجهة نحو الساحل الإفريقي.

¹⁶ - M. CORRALES, "El nacionalismo catalán, *op. cit.*, p. 173.

¹⁷ - M. CORRALES, "Intereses catalanes, *op. cit.*, pp. 102-103.

¹⁸ - G. FIGUERAS, *La acción africana*, *op. cit.*, t. 1, p. 190.

¹⁹ - *Ibid.* p. 190.

²⁰ - M. CORRALES, "Intereses catalanes, *op. cit.*, pp. 102-103.

²¹ - أنشئت سنة 1876م، كانت من بين أولى الجمعيات الإسبانية المهتمة بالمسألة الاستعمارية. لمزيد من التفاصيل، يُراجع:

José Luis VILLANOVA VALERO, "La Real Sociedad Geográfica y la Conferencia de Algeciras". En: **La Conferencia de Algeciras en 1906: Un banquete colonial**. Dirección de José Antonio GONZÁLEZ

ALCANTUD; E. MARTÍN CORRALES, Eds. Bellaterra, Barcelona 2007, p. 185.

- ²² – José Luis VILLANOVA VALERO, "La acción colonial española en el norte de Marruecos y la Sociedad Geográfica de Madrid". En: **Ciencia y memoria de África: Actas de las III Jornadas sobre "Expediciones científicas y africanismo español, 1898–1998"**. Dirección de Alejandro R. Díez Torre, eds. de la Universidad de Alcalá de Henares, Madrid 2002, p. 87.
- ²³ – Joaquín COSTA, **Los intereses de España y Marruecos son armónicos: discurso pronunciado por Joaquín Costa. en el meeting celebrado en el Teatro de la Alhambra el día 30 de marzo de 1884**. Imp. de España en África, Madrid- Barcelona 1906, pp. 06–07.
- ²⁴ – G. FIGUERAS, *La acción africana, op. cit.*, t. 1, p. 191
- ²⁵ – J. L. VILLANOVA VALERO, "La Real Sociedad Geográfica, *op. cit.*, p. 189.
- ²⁶ – G. FIGUERAS, *La acción africana, op. cit.*, t. 1, p. 147.
- ²⁷ – *Ibid.* p. 191.
- ²⁸ – *Ibid.* p. 191.

²⁹ – أوردده:

Ibid. pp. 190–191.

- ³⁰ – *Ibid.* p. 191.

31 - نقلا عن:

J. NOGUÉ y J. L. VILLANOVA, *op. cit.*, p. 20732 - J. COSTA, *op. cit.*, p. 30.

33 - وقد نجد أيضا صدى هذه القضية في الوثائق المخزنية، التي تؤكد الأسباب نفسها، وهذا ما توضحه هذه الرسالة الموجهة من السلطان الحسن الأول إلى ممثل المخزن في الريف الشرقي، المرابط محمد أحضري، بتاريخ 17 ربيع النبوي عام 1297هـ/ 28 فبراير 1880م. ونصها:

"وبعد، فقد وصلنا كتابك أخبرت فيه أن خديمتنا القائد المختار الغم الكلعي، بعث خيلا لأناس من مزوجة، فقبض على البعض منهم، وأخذ لهم جميع متاعهم، وفر البعض للميلية بعد أن وقع بينهم البارود، ومات رجل وفسر، وإن أولئك الفارين للميلية صحبوا معهم عيالهم، وقبلهم الصبنيول، وإنك أخبرت أن سبعة أناس من كلعية سافروا لمدريد، قصد الدخول في الحماية فرارا من ظلم عاملهم المختار، لكونه صار يترامى على ضعفائهم ويسجنهم، وترك رؤوس الفتنة والفساد ببني سيدر إلى أن أفضى الأمر إلى فرار المسلمين للاحتماء بالنصارى من تعديه وجوره، وطلبت من جانبنا العزيز أن نكتب لعننا مولاي الأمين بكفه عن ذلك، ويأمره أن يسير مع إيالته بسيرة حسنة سدا للذريعة (...).". أوردتها:

Abdelmajid BENJELLOUN, **Fragments d'histoire du Rif oriental et notamment des Beni Said dans la deuxième moitié du XIXe siècle (d'après les documents de Hassan Ouchen)**. Impr. Al Maarif al jadida, Rabat 1995, p. 390.

34 - J. COSTA, *op. cit.*, p. 07.

35 - نقلا عن:

J. NOGUÉ y J. L. VILLANOVA, *op. cit.*, p. 207.

- ³⁶ - A. BENNANI, *op. cit.*, p. 77.
- ³⁷ - Marie Claude LECUYER, Carlos SERRANO, **La guerre d'Afrique et ses répercussions en Espagne : idéologie et colonialisme en Espagne (1859-1904)**. Publications de l'Université de Rouen, Presses Universitaires de France, Paris 1976, p. 236.
- ³⁸ - J. NOGUÉ y J. L. VILLANOVA, *op. cit.*, p. 207.
- ³⁹ - J. L. VILLANOVA VALERO, "La Sociedad Geográfica, *op. cit.*, p. 169 .
- ⁴⁰ - عبد الرحيم برادة، برادة عبد الرحيم، إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية (1931-1956). أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2007، ج. 2، ص. 58.
- ⁴¹ - J. L. VILLANOVA VALERO, "La acción colonial, *op. cit.*, p. 83.
- ⁴² - G. FIGUERAS, *La acción africana, op. cit.*, t. 1, p. 190.
- ⁴³ - *Ibid.* p. 191.
- ⁴⁴ - A. BENNANI, *op. cit.*, p. 73
- ⁴⁵ - J. L. VILLANOVA VALERO, "La Sociedad Geográfica, *op. cit.*, p. 168
- ⁴⁶ - A. BENNANI, *op. cit.*, p. 77
- ⁴⁷ - J. L. VILLANOVA VALERO, "La Sociedad Geográfica, *op. cit.*, p. 171
- ⁴⁸ - أحمد مهدها، "العلاقات المغربية الإسبانية بين ضرورة الماضي واستشراف المستقبل". مجلة أمل، ع. 28-29، 2003، ص. 201-200.

⁴⁹ Luis Tur I Palau (1861-1944) سياسي وعسكري إسباني، بدأ حياته كضابط برتبة مقدم في سلاح المدفعية، انتمى إلى الحزب المحافظين، وأصبح على رأس "الجمعية الملكية للجغرافية".

⁵⁰ - J. L. VILLANOVA VALERO, "La Real Sociedad Geográfica, *op. cit.*, p. 191.

⁵¹ - J. NOGUÉ y J. L. VILLANOVA, *op. cit.*, p. 209

⁵² - Mohamed OUNIA, **Les Boqqouia : contribution à l'étude de l'histoire sociale du Rif précolonial (1860 - 1912)**. Thèse de doctorat en histoire d'Outre-Mer, Université de Provence Aix- Marseille 1 Centre d'Aix, Année 1994, p. 304. (Inédit).

⁵³ - Eduardo Saavedra y Moragas ولد سنة 1829 بطرغونا Tarragona، وتوفي بمدريد سنة 1912، تلقى تكويننا في كلية الحقوق، ثم تحول إلى مدرسة مهندسي الطرق التي تخرج منها سنة 1851، وكان أيضا عالم آثار. وحصل على عضوية في الأكاديمية الملكية للتاريخ، والأكاديمية الملكية للعلوم، ومؤسس ورئيس الجمعية الملكية للجغرافية (Real Sociedad Geográfica) سنة 1876.

⁵⁴ - **Los centros comerciales Hispano-Marroquíes y el problema de Marruecos: La elocuencia de un inventario (de 1904 a 1921)**. Imp. España en África, Madrid 1922, p. 4.

⁵⁵ - Victoriano DARIAS DE LAS HERAS, "El africanismo español y la labor comunicadora del Instituto de Estudios Africanos". **Revista Latina de Comunicación Social**, n° 46, Año v, enero 2002.

<http://www.ull.es/publicaciones/latina/2002/latina46enero/4601darias.htm>

⁵⁶ - عبد الرحيم برادة، م. س، ج. 1، ص. 103.

⁵⁷ - M. CORRALES, "Intereses catalanes, *op. cit.*, p. 95.

⁵⁸ - J. COSTA, *op. cit.*, p. 06

⁵⁹ - **Anuario-Guía oficial de Marruecos: Zona española (Comercio y turismo)**. Anuario dirigido por Manuel L. Ortega, Eds. Ibero-Americana, Madrid 1924, p. 237.

⁶⁰ - *Ibid*, p. 233.

⁶¹ - Juan Pérez Caballero y Ferrer (ولد بمدريد 1861 - توفي في سان سباستيان 1951). دبلوماسي وسياسي إسباني، كان سيناتور الباسيتي (Albacete) في عام 1905، وأصبح سيناتورا مدى الحياة في عام 1916. وكان وزير مكلفا بمهمة بين 1 و 6 يوليو 1906م، في حكومة Segismundo Moret، ليعود في وقت لاحق ليحتل المنصب الوزاري نفسه ما بين 30 نوفمبر 1906 و 25 يناير 1907 في الحكومات المتعاقبة التي ترأسها موريه (Moret)، وأنطونيو أغيلار (Antonio Aguilar)، وكوريا (Correa). وأخيرا، أصبح ما بين 21 أكتوبر 1909 و 9 فبراير 1910م، وزيرا للخارجية في الحكومة الجديدة لموريه (Moret)، ومثل بلاده في مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906)، كما شغل أيضا سفيرا لبلاده في بروكسيل وروما وباريس.

⁶² - José Roig y Bergadà تخرج من جامعة برشلونة في تخصص القانون التجاري، انتمى إلى الحزب الليبرالي الديمقراطي، وانتخب عن مقاطعة "دي سانت فيليو يوريغات" في الانتخابات العامة لأعوام 1898 و 1901 و 1905. وكان أيضا رئيس بلدية برشلونة، بين فبراير وديسمبر 1910. وعقب الأزمة الناجمة عن الإضراب العام عام 1917، أصبح عضوا في اللجنة التي شكلت لصياغة النظام الأساسي للحكم الذاتي لكاتالونيا. وفي 9 نوفمبر 1918، عين وزيرا للعدل، غير أنه استقال من منصبه في 5 ديسمبر من نفس السنة، متسببا في أزمة الحكم.

ومع ذلك، تم تعيينه في عام 1926 عضواً بمجلس الشيوخ مدى الحياة، كما شغل عميد نقابة المحامين في برشلونة ما بين 1935 و 1936.

⁶³ - **Anónimo, Actuación de los Centros Comerciales Hispano-Marroquíes con respecto a la política económica de España en África y leyes indispensables para que los sacrificios del país no resulten estériles. Publicación de Centros comerciales Hispano-Marroquíes, Impr. España en África, Barcelona 1915, p. 5.**

⁶⁴ - *Ibid*, p. 4.

⁶⁵ - J. NOGUÉ y J. L. VILLANOVA, *op. cit.*, p. 211.

⁶⁶ - *Los centros comerciales Hispano-Marroquíes, op. cit.*, p. 4.

⁶⁷ - **Actuación de los Centros Comerciales Hispano-Marroquíes con respecto a la política económica de España en África y leyes indispensables para que los sacrificios del país no resulten estériles. Publicación de Centros comerciales Hispano-Marroquíes, Impr. España en África, Barcelona 1915, pp. 11-12.**

⁶⁸ - *Ibid*, p. 06.

⁶⁹ - G. FIGUERAS, *La acción africana, op. cit.*, t. 1, p. 191.

⁷⁰ - G. FIGUERAS, *La acción africana, op. cit.*, t. 1, p. 191.

⁷¹ - J. NOGUÉ y J. L. VILLANOVA, *op. cit.*, p. 199.

⁷² - عبد الرحيم برادة، م. س، ج. 2، ص. 179 - 180.

"الاصاص" بين تأطير السكان المحليين وإفشال الثورة التحريرية (1954-1962)

أ/ عبد الهادي حسين - أستاذ بقسم العلوم الإنسانية - كلية العلوم الإنسانية

والاجتماعية- جامعة تلمسان

h_a_hadi@hotmail.fr

ملخص:

تندرج هذه المساهمة في الدراسات الخاصة بتاريخ الإدارة المحلية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، إذ حاولت تسليط الضوء على أحد جوانبها المتمثل في الفرق الإدارية المختصة "الاصاص" في الفترة ما بين نهاية سبتمبر 1955 وجوان 1962. وبينت الدراسة بأن هذه الفرق أريد لها أن تكون أداة للحرب الحقيقية، وجهازاً لتجاوز التحديات التي خلقتها الثورة، وآلية لعزل الشعب ومنعه من التفافه حول ثورته. وناقشت جملة من القضايا المرتبطة بالخلفيات و الجذور التاريخية لنشأة الفرق الإدارية المختصة، وأبرزت أهم الأخطار التي واكبت فترة نشاطها بالإضافة إلى علاقتها بمصالح الاستعلامات وموقعها من خطط الحرب البسيكولوجية التي مارستها جميع المصالح الأمنية الفرنسية. وأوضحت ارتباط تاريخ الفرق الإدارية المختصة بنشاط "الحركي" و"المخازنية" وباقي المجموعات الموالية للاستعمار وزمره المختلفة. وأيضا علاقاتها بالمعاقل المناوئة للثورة التي خلقت لجيش التحرير الوطني صعوبات جمة.

الكلمات المفتاحية: الإدارة المحلية الاستعمارية الفرنسية - الفرق الإدارية المختصة - المكاتب العربية- الجزائر الفرنسية - التأطير الثوري- الحركي - الحركات المناوئة للثورة.

Résume :

This contribution has searched the specialized studies in the history of French colonial local government in Algeria. He sheds light on one of its sides which is specialized administrative

sections within the period Ranging from late September 1955 to June 1962. The study has shown to have wanted to make these sections a tool of war and a real body for the challenges countered that created the revolution. And a mechanism to prevent the revival of the Algerian people and break the institutions of the revolution end weaken the structural map of the revolution and isolate the people and forbid him to embrace his revolution. And discussed a number of cases in connection with the thought back and the historical roots of the genesis of specialized administrative sections. The study addressed the real issues of specialized administrative sections and want to realize (assimilation) and building (the new Algeria). and showed significant danger that accompanied the period of its activity and in addition to its relationship with the intelligence services and its position in the psychological war plans has practiced all French security services and clarify the relationship history specialized administrative sections with HARKIS and EL MEGHAZNIS activity and the remaining groups are acting with colonialism and these acolytes. And its relationship with the groups against marquis during the revolution that creates several problems in the armed national liberation (A.L.N.)

Mots clefs :

L'administration coloniale française locale – les sections administratives spécialisées – bureau arabe – l'Algérie française

- les institutions révolutionnaires - le contrôle du peuple -
Harki - mouvement contre maquis.

المقدمة:

تبقى الدراسات الخاصة بتاريخ الإدارة المحلية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر في أمس الحاجة إلى البحث والتنقيح، بالنظر إلى أن مواضيع عديدة لا تزال بكرًا لم تخضع إلى الدراسة المعمّقة من ناحية، ومثيرة للخلاف والجدل من ناحية أخرى. وذلك لاعتبارات تاريخية فرضتها مرحلة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي، بعد أن استولت إدارة الاحتلال على جل الوثائق التي تشكل مادة حاما تساعد في كتابة تاريخ هذه الإدارة المحليّة. ولهذا السبب وغيره، توفّر لمدرسة كتابة التاريخ الاستعمارية رصيّدًا مهما منحها السّبق في الإطلاع على الوثائق، ومن ثمّة تدوين التّاريخ الجزائري انطلاقًا من منظورها الذي يجنّح غالبًا وفي معظمه إلى تمجيد الاستعمار الاستيطاني وتضخيم منجزاته في الجزائر مع أنّها لم تكن إلا لصالح الطائفة "الكولونيالية" إما بشكل صريح، أو بالدس المغلف والممنهج.

لأهمية البحث في هذا ساهمت بهذه الدراسة التي تسلط الصّوء على أحد جوانبها وأعني: الفرق الإدارية المختصة (Sections Administratives Spécialisées)، في إطار الفترة الزمانية الممتدة ما بين نهاية سبتمبر 1955، وحتى حلّها نهائيًا في جوان 1962، أي ثلاثة أشهر بعد تاريخ وقف إطلاق النار. استوفقت البحث في مراحل مختلفة ومساره الإشكالية التالية: هل كان إنشاء الفرق الإدارية المختصة مخرجًا لفك تناقضات الإدارة المحلية الاستعمارية في الجزائر أم محاولة لإفشال الثورة التحريرية وعزل الشعب الجزائري عن ثورته؟

تتوقف إشكالية البحث على جملة من القضايا المرتبطة بالخلفيات و الجذور التاريخية لنشأة الفرق الإدارية المختصة، وارتباطها بمصاحتي الشؤون الأهلية والشؤون الجزائرية، والمكاتب العربية البائدة. بالإضافة إلى علاقة الفرق الإدارية المختصة بأهداف دائرة الاستعلامات والمخابرات، وموقعها من خطط الحرب البسيكولوجية التي لجأت إليها جميع المصالح الأمنية الفرنسية، وتمّ بناء الموضوع وفق العناصر التالية:

أولاً: الفرق الإدارية المختصة محاولة أخرى لإدارة محلية استعمارية في الجزائر.

كشف الانتشار السريع لثورة التحرير ابتداءً من أول نوفمبر 1954 عن حالة جد متردية للإدارة المحلية¹ في الجزائر، خصوصاً في الأرياف² حملت الحكومة العامة بقيادة جاك سوستل إلى اللجوء إلى ضباط مختصين في الشؤون الجزائرية³ مهمتهم الأساسية كانت أخذ زمام إدارة السكان بيدهم، وإعادة ربطهم بالإدارة الاستعمارية، وعلاج حالة التفكك الذي ميّز العلاقة بهم، وإيجاد علاجاً للفُصور السائد في الميدان الاستعلام السياسي و الاستخبار العملي⁴.

1- جذور الفرق الإدارية المختصة (لاصاص).

دعم الجيش الفرنسي هيكله في الجزائر مُركّزاً على فكرة "الاختراق المنظم"، وتحريك آليات الاختراق الإداري التي تساهم في تدارك الفشل الذي بدأت معالمه تبرز في الأفق تحت غطاء سياسة "التهدئة" وبسط السلم. ومن تلك الهياكل الجديدة التي أحدثت ما عُرف تحت تسمية "الفرق الإدارية المختصة" التي اشتهرت شعبياً باسم "لاصاص"⁵ ولإنجاح عملها الميداني استعانت الحكومة الفرنسية بمصلحة الشؤون الجزائرية والصحراوية الملحققة بالمؤسسة العسكرية للإشراف على تكوين الإطارات المتخصصة التي تسير والإشراف في آن واحد على إدارة شؤون المصالح الإدارية المختصة⁶ مع توفير كل

الإمكانات المالية والمادية والبشرية التي تسمح لضباط هذه الفرق المختصة "لاصاص" بتنفيذ وبصفة كاملة المهام التي أسندت إليهم⁷.

ولم يتمكن الاستعمار الفرنسي من تثبيت نفوذه في الجزائر إلا بعد جمع أكبر قدر من المعلومات عن الجزائر والجزائريين⁸ لذلك عمد إلى إستراتيجية الاختراق والتشتيت. وفي إطار جمع المعلومات عن الجزائريين ومتابعة تحركاتهم، أنشأ الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر المكاتب العربية في كل مناطق البلاد، وهي مكاتب ظاهرها العمل الإداري، لكن باطنها هو استخباراتي وجمع المعلومات⁹ وترأسها ضباط عسكريون، وقد كتب هؤلاء الضباط الكثير من التقارير، بل يمكن اليوم أن نقول أن هذه التقارير التي نشرها بعض هؤلاء الضباط على شكل كتب، بأنها تشكل مصدرا مهما لتاريخ الجزائر في هذه الفترة خاصة في مجاله الاجتماعي ومختلف الصراعات القبلية والعروشية والأسرية التي عرفها المجتمع الجزائري آنذاك، والهدف من جمع هذه المعلومات هو توظيفها في إثارة الفتن بين الجزائريين واستخدام بعض القبائل والأسر لتحقيق الأهداف الاستعمارية¹⁰ وقد أثر نموذجان في تشكيل تنظيم سياسي وإداري في الجزائر بعد انهيار النظام الإداري القديم خلال سنة 1955؛ الأول كان نموذج "المكاتب العربية"، المتبلور من تاريخ التهدة في الجزائر في القرن التاسع عشر، والثاني هو نموذج التراتبية المتوازية، المطور من قبل العقيد لاشيروا¹¹ والمتمخض عن تجربة الحرب الهند الصينية¹².

ارتبطت الفرق الإدارية المختصة بتقاليد المكاتب العربية، وهي الآلية الأولى في وقتها والأكثر أهمية بضخامتها. ولأن تقاليد المكاتب العربي لم تستمر في الجزائر على عهد الجمهورية الثالثة، تحت ضغط الأقلية الأوربية، التي انتقدت الميول العربية لهذه المكاتب، وخاصة في قضية الحد من طرق الاستحواذ على الأراضي العربية من قبل الأوربيين. وتم حل المكاتب العربية خلال السنوات الأولى للجمهورية الثالثة، ولم يستمر هذا التقليد إلا

في سلك الضباط المسؤولين عن شؤون الأهلية في المغرب الأقصى وفي المناطق العسكرية في جنوب الجزائر¹³.

وصف اللواء بوشري¹⁴ المراكز الإدارية التي حافظ عليها هذا السلك من الضباط في الريف المغربي بوصف إديولوجي مبالغ فيه وأنها ذو ثقة ضعيفة¹⁵. وعلى شاكلة هذه المراكز، أقيمت الفرق الإدارية المختصة في الجزائر وهي في نفس الوقت قواعد عسكرية ومراكز إدارية. فإذا نظرنا إليها باعتبارها قواعد عسكرية كان من مهامها إنشاء تحت إدارة ضابط مجموعة صغيرة كفرقة عسكرية تدعى "المخازنية" قادرة على حماية المنشآت التي أقامتها "الاصاص" وتمّ توظيف أفراد هذه المجموعات من السكان المحليين؛ وهم بهذا يمثلون الصلة والرابطة مع السكان، وفي نفس الوقت يُوفرون لهم فرص العمل ويزودونهم بالأشغال. وإذا نظرنا إليها باعتبارها مراكز إدارية فنجدها الفرق الإدارية المختصة قد اضطلعت بدور إدارة الدولة، حيث مثلت المستوى الأدنى لهذا الدور¹⁶.

أ- المكاتب العربية وترسيخ الإدارة المحلية الاستعمارية.

قرّرت السلطات الاستعمارية إنشاء هيئة تتكلف بجمع المعلومات عن الجزائريين¹¹⁷، وجعل هذه الهيئة عبارة عن جسر يربط بين الفرنسيين والجزائريين. فأُسست هذه الهيئة في عام 1833، وسميت بالديوان العربي وأصبح وسيلة فعالة في التقاط المعلومات وجمعها والدعاية للاستعمار. وفي عام 1837 تحولت هذه الهيئة إلى "إدارة الشؤون العربية" وكانت هذه الهيئة مسؤولة عن "تسهيل عملية الاتصال برؤساء العشائر والتفاوض معهم، وإقناعهم بقبول مبدأ التعاون مع فرنسا"¹⁸. قرّر بيجو في عام 1844 أن يؤسس بصفة رسمية المكاتب العربية، ووضع لها الهياكل التنظيمية بحيث تصير هذه المكاتب هي الوسيلة الأساسية التي سيستعملها الجيش الفرنسي لإخضاع الجزائريين

والقضاء على ما بقي من مؤسسات الدولة الجزائرية¹⁹ وحسب التنظيم الجديد للمكاتب العربية التابعة للجيش الفرنسي فإنَّ إدارة الشؤون العربية على مستوى القيادة العسكرية قامت بتأسيس إدارات فرعية لها على مستوى المقاطعات الثلاثة الموجودة بالجزائر، وفي كل مقاطعة توجد وحدات للمكاتب العربية من الدرجة الأولى، ووحدات ثانوية من الدرجة الثانية، وتحولت المكاتب العربية إلى إدارات محلية للتَّحكيم في السكان والمجتمع الريفي²⁰ بلغ عدد المكاتب العربية عام 1841 في الجزائر 21 مكتباً، ثم تضاعف عددها في عام 1865 إلى 46 مكتباً، وتوزعت هذه المكاتب في أنحاء البلاد، بحيث أنشئ 14 مكتباً وثلاث ملحقات في عمالة الجزائر، و12 مكتباً وملحقة واحدة في عمالة وهران، و15 مكتباً وملحقة واحدة في عمالة قسنطينة، ثم وصل عدد المكاتب العربية في عام 1870 إلى 49 مكتباً. وكان يشرف على هذه المكاتب 200 ضابط على مستوى المقاطعات الثلاثة²¹. وتقرّر تنظيم مستخدمي المكاتب العربية بالمرسوم الوزاري المؤرخ في 01 فيفري 1844، بحيث تشكّل كل مكتب في كل مقاطعة من حوالي عشرة أشخاص، تساعد فرقة الصبايحية، تكونت من 25 فارساً فرسان من قوات المخازنية²².

وإذا كانت المؤسسة العسكرية الفرنسية هدفت من وراء القرارات والنصوص إلى إنشاء المكاتب العربية التركيز على تحقيق التهذئة الدائمة في أوساط القبائل وحماية الاستيطان الأوروبي فإن مهامها توسعت بعد ذلك وازداد نفوذها بالتدريج حتى أصبح ديوان المكتب العربي هو المركز الحقيقي للسلطة في الجزائر²³ وصارت تمارس مسؤوليات الحراسة والمراقبة والتوجيه السياسي والدعائي والمالي والعسكري والإداري، كما صارت تشكّل إدارة مستقلة حتى عن الجيش الفرنسي، وخضع لها تسعة أعشار البلاد لكن في واقع الأمر تعد المهمة الرئيسة لرؤساء المكاتب العربية بصفتهم ينتمون إلى السلطة العسكرية، هي جمع المعلومات التي تخدم الجيش الفرنسي وتساعد على تقوية نفوذه في البلاد²⁴، وتمثل هذه

المعلومات في إحصاء الأراضي الزراعية والتعرف على مجاري المياه، وأخذ فكرة عن التنظيم القبلي، ولاسيما في المناطق الخاضعة للنظام العسكري، وتحديد نوعية المداخل المالية حتى يتمكن الضباط من الحصول على أموال كبيرة عند جمع الضرائب، كما كانت مهمتهم تزويد مصالح الغابات بمعلومات تخص هذا القطاع، وتسهيل مهمة موظفي الغابات لمعاينة المناطق الغابية²⁵.

2- استنجد الإدارة الاستعمارية بتقاليد مصالح الشؤون الأهلية بعد عام

1954.

أمام تقدم الثورة وتطورها وانتشارها والتفاف الشعب حولها، عيّن الوزير الأول منداس فرانس (من الحزب الراديكالي) في بداية جانفي 1955 جاك سوستل²⁶ حاكما عاما في الجزائر خلفا لروحي ليونار الذي كان أول من فوجئ باندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954. وحلّ جاك سوستل في منتصف فيفري 1955 بالجزائر حاملا معه خطة متكاملة يسعى لتنفيذها على الميدان هدفها الحرب الشاملة على "المتمردين" على جميع المستويات والقطاعات: سياسيا وعسكريا واجتماعيا وإداريا، وغزو قلوب وأرواح الجزائريين بحضور متواصل وأعمال اتصالية لتفعيل العمليات والتأثير على الجزائريين وتحييدهم عن الثورة²⁷.

ذكر روبير بيرون²⁸ في كتابه "الدفاتر السياسية لحرب الجزائر"، بأنه حين توقف بالجزائر في 16 مارس 1955 وهو في طريقه إلى الكاميرون، استضافه الحاكم العام الجديد جاك سوستل ودار حوار حول المستعمرات والجزائر لخصه في نقطتين: أن سوستل كان مؤيدا لسياسة تضمن ترقية الشعوب الإفريقية ضمن الإطار الفرنسي. وبخصوص شؤون الجزائر؛ فيمكنها أن تكون أيسر لو قبل المستوطنون إمكانية كسب الأموال بدون توظيف إدارتهم

المطبعة لممارسة سيطرة سياسية واجتماعية مطلقة على المسلمين وكذلك الشأن لو رفض المسيريون القادمون من فرنسا غض الطرف عن الحقيقة الجزائرية²⁹.

وبعد التعرف على الوضعية العامة في الجزائر من خلال التقارير المتعددة التي تُعدها مختلف الجهات الاستعمارية، قام سوستل بجولات تفقدية، ومعاينة ميدانية قادته إلى المناطق الساخنة أو المرشحة لذلك، كالأوراس وشمال قسنطينة؛ وقد توصل من خلال جولته إلى استنتاجين أوليين حسب تقييمه للوضع:

- الأول : أن هناك تناسبا طرديا بين مستوى الفقر والاستعداد للالتحاق بجهة التحرير الوطني.

- الثاني : أن المتمردين يمثلون المقدمة للأبعاد الوطنية السياسية والدينية³⁰.
وبعد هذه المعاينات بدأ الحاكم العام سوستل ميدانيا يتحرك على جميع الأصعدة للقضاء على "التمرد".

وحملت ردود الفعل الأولى من إدارة وجيش الاحتلال خصائص الحرب الشاملة بكل وضوح، وتمثل في :

أ- تهجير السكان وقصف القرى لمنع الثوار من استخدامها قواعد للتموين والتجنيد
ب - إعلان حالة الطوارئ ابتداءً من 03 أفريل 1955، وتقسيم المنطقة إلى مربعات لتسهيل مراقبة السكان³¹.

ت - استدعاء الاحتياطي مع مطلع 1955 لمضاعفة تعداد القوات النشطة في الجزائر؛ فمن 80000 في نوفمبر 1954 إلى 160000 في جويلية 1955، إلى 190000 قبل نهاية سنة 1955.

ث - استخدام خبراء حرب الهند الصينية لتطبيق تقنياتهم وخبراتهم في الأوراس باعتبارها "البؤرة الأولى والرئيسية"³²، فقد عُيِّن بالمنطقة جنرالين لتحقيق ما اصطلح عليه باسم "التهدئة" :

- اللّواء فانوكسام³³ لإدارة الحرب على الصعيد العسكري الخالص.

- اللّواء جورج بارلانج³⁴ المستقدم من مدينة أغادير (المغرب الأقصى) والذي يُتقن العربية، لإدارة الحرب النفسية والدعائية وإعادة تنظيم الإدارة الاستعمارية في المناطق التي انتشرت فيها الثورة، لتحديد وإضعاف دور المنظمة السياسية الإدارية لجهة التحرير الوطني³⁵ واستعان ببحرة العقيد غوسو من المكتب الخامس³⁶.

ظهر لسوستيل في خريف 1955 أن يتصرّف كرجل مخابرات سابق، فوضع بالتنسيق مع مصالح "مديرية حماية الإقليم" بالجزائر خطة أمنية من خلال نشاط الفرق الإدارية المختصة (لاصاص) التي أشرف على تطبيقها بالأوراس اللّواء جورج بارلانج بمساعدة المكتب الخامس³⁷ ممثلا في العقيد غوسو.

ثانياً: الفرق الإدارية المختصة والمهام المتعددة.

1- نشأة الفرق الإدارية المختصة.

اندلعت الثورة التحريرية في أول نوفمبر 1954، ومعها عرفت البلديات المختلطة تراجعاً محسوساً في تعداد إداريتها، فمقارنة بين سنتي 1922 و 1954، نجد أن سنة 1922 كانت هناك 78 بلدية مختلطة تشرف على ثلاثة ملايين جزائري أطرها 300 إداري، أما في عام 1954 ولنفس العدد من البلديات المختلطة كانت تشرف على أربعة ملايين ونصف مليون جزائري ولم يكن تأطيرهم إلا بنحو 257 إداري³⁸. فهذه الرّداءة الإدارية حركت السلطات الاستعمارية لأجل إيجاد حلول سريعة لتدارك هذا "الانسحاب" غير المعلن³⁹.

جاءت فكرة إنشاء الفرق الإدارية المختصة (لاصاص) بعد فشل السلطات الإستعمارية في التحكم في تطور الاضطرابات الواقعة في الجزائر والتي أرجعتها إلى غياب الإدارة المحلية، وانعدام التواصل بين الجزائريين والإدارة الفرنسية ونقص المعلومات الضرورية

لتحقيق أي انتصار عسكري⁴⁰. ورأت بأنه لا يتأتى لها فهم ما يحدث إلا بإقامة نظام إداري فعال وبخاصة في المناطق الأكثر اضطرابا، يعيد الثقة والإطمئنان للسكان، ويعمل على تطبيق الإصلاحات الموعودة التي جاء بها الحاكم العام جاك سوستال. بدأ تجسيد الفكرة في ربيع 1955، وبالضبط في 30 أفريل، عندما أنشأ جاك سوستال قيادة مدنية وعسكرية في الأوراس، وتم تعيين اللواء بارلانج لقيادتها. وقد حوّل هذا المنصب للواء الإشراف على السلطات المدنية والعسكرية بما فيها الإدارة والشرطة وكل الفرق العسكرية الموجودة بالناحية الشرقية. ولما كان هذا اللواء من الضباط القدماء للشؤون الأهلية فقد كلف من قبل جاك سوستال بتفعيل عملية نموذجية قوامها 14 ضابطا من الشؤون الأهلية و09 ضباط من الشؤون الصحراوية، كان اللواء قد استقدمهم من المغرب بعد أن أحرزوا تكويننا قصير المدى يؤهلهم للقيام بالوظيفة المحددة لهم، ويكونوا "قلب فرنسا النابض في كلّ دوّار"⁴¹ وقد قام كل من المفتشين العاملين الثلاثة: بارلانج، بارتيو⁴² تيراني⁴³ وهم من قدماء مصلحة الشؤون الأهلية، بدور مؤثر على الحاكم العام، للمُضَيّ قدما في تجسيد أفكارهم، وخاصة وأنهم كانوا ضمن الحاشية المقربة له، التي تقرّر السياسة العامة الواجب اتباعها لمعالجة القضية الجزائرية⁴⁴.

يمكن تفسير اختيار المؤسسة العسكرية الفرنسية للقيام بهذا الدور، إلى قلة المختصين في مجال العمل الإداري المدني لإدارة شؤون البلديات المختلطة المستحدثة⁴⁵، وأيضا للصعوبات التي واجهت الحكومة في توفير العدد اللازم من الإداريين وبالسرعة التي تتطلبها المرحلة. ولهذا نجد أن أغلب مستخدمي هذه المصالح تمّ انتقاءهم من المؤسسة العسكرية⁴⁶. فهم إما ضباط في مصلحة الشؤون الجزائرية⁴⁷ والصحراوية، أو مجنّدون أو احتياطيون، أو ضباط عاملون من مختلف تشكيلات الجيش الفرنسي⁴⁸. وهؤلاء هم الذين سيشكلون المصالح الإدارية المختصة المعروفة اختصارا بتسمية "الاصاص La SAS"⁴⁹. وظهرت هذه التسمية رسميا في الوثائق الفرنسية لأول مرة في القرار الذي أمضاه

جاك سوستل والمؤرخ في 26 سبتمبر 1955⁵⁰. والذي أنشأ هذه المصلحة وألحقها بالديوان العسكري التابع للحكومة العامة. وقد أوضحت المادة الرابعة من هذا القرار مهام ضباط المصالح الإدارية المختصة، والتي بموجبها نقلت السلطات المدنية للإداريين إلى أشخاص عسكريين. وتوسّعت صلاحيات هؤلاء الضباط بصدر مرسوم 08 جويلية 1957⁵¹ الذي نقل لهم اختصاصات ضباط الشرطة القضائية، أما مرسوم 1019/59 المنشور في الجريدة الرسمية⁵² فقد منح لهم نظاما خاصا في الترتيبية المدنية، وحسب هذا المرسوم فإن ضابط المصلحة هو ممثل نائب العامل (سويرفي)⁵³ مما يجعله أداة اتصال بين رئيس المقاطعة ورئيس البلدية. ويساعد رؤساء البلديات على القيام بمهامهم التي يخوّلها لهم القانون، ويقترح مشاريع التطور الاقتصادي والاجتماعي للبلديات ويسهر على تجسيدها⁵⁴.

أما عن عدد هذه المصالح فقد ارتفع خلال عشرون شهرا من 30 مكتبا إلى 490 مكتبا بين شهر ماي 1955 و ديسمبر 1956، ما يعادل إنشاء 23 فرقة شهريا. ومن شهر جانفي 1957 إلى شهر جويلية 1958 وصل عددها إلى 590 مصلحة⁵⁵ ما يعادل إنشاء 5 فرق شهريا. وحسب آخر إحصائية فرنسية أصدرها المكتب الثالث² فإن هذا العدد سيرتفع ليصل إلى 688 مصلحة، وهذا إلى غاية 28 أكتوبر 1961.⁵⁶ جدول رقم(01): تطور تعداد الفرق الإدارية المختّصة (1957-1962)⁵⁷

رتب/ سنوات	1957	1958	1959	1960	1961	1962
الضباط	600	590	596	658	738	738
نقيب /ملازم	235	236	242	564	306	؟
ملازم أول	240	206	266		334	؟
صف ضباط	300	415	418	458	480	540
المجموع	1375	1447	1522	1680	1858	1278

أما إجمالي عدد العاملين في هذه المصالح من العسكريين والمدنيين فقد وصل إلى 24750 موظفاً، موزعين على النحو التالي:

- الضباط العاملون والاحتياطيون: 717 فرداً.

- صف الضباط: 566 فرداً.

- المجندون: 532 فرداً.

- الملحقون المدنيون: 3700 مدني.

المخازنية: 20189 فرداً⁵⁸.

2- تشكيل وتنظيم الفرق الإدارية المختصة.

كانت كل فرقة من الفرق الإدارية المختصة تتشكل من ضابط الفرقة، وهو رئيسها. ثم نائب الفرقة، وهو في أغلب الأحيان من العسكريين برتبة صف ضابط. وثلاثة ملحقين من مصلحة الشؤون الجزائرية مهمتهم الإشراف على الترجمة والمالية والاتصال⁵⁹. وعدد من المهندات الفرنسيات المرشدات أو المساعدات الاجتماعيات المعروفة اختصاراً باسم (ASSRA)⁶⁰ من المصلحة الأنفة الذكر مهمتهنّ التقرب من النساء الجزائريات وإدماجهن في الحياة الأوربية. وأيضاً تتكون من :
مفرزة لحماية المصلحة وموظفيها، مشكّلة من عناصر "المخازنية" و "الحركي" يجندهم ضابط الفرقة، ويتراوح عددهم ما بين 30 و 50 فرداً من المسلمين والأوربيين .
- العتاد المادي، يتمثل في عدد من السيارات والشاحنات، وجهاز إرسال واستقبال، وكمية من الأسلحة والذخيرة .

وقد تقوم الحامية العسكرية القريبة من المركز، بمد المصلحة بطبيب ومدّرس أو ممرن⁶¹. ولم يكن هذا العدد من الموظفين ثابتاً، بل يخضع لعدّة اعتبارات، منها على سبيل المثال: استتباب الأمن، عزلة المركز وبُعدها عن طرق المواصلات، ووجود المركز بالقرب من التجمعات السكانية. أما عن الأماكن التي توجد فيها الفرق الإدارية المختصة فقد اختيرت بعناية فائقة، إذ بُجدها في مزارع محصّنة وفي الدّواوير والقرى وفي بنايات أعيد تهيأتها. وفي خطوة ثانية بُنيت لها أبراج خاصة، وصل عددها حوالي 270 برجاً تُسيّر من قبل 700 فرقة تابعة للشؤون الأهلية. وتمتد مسؤولية الفرقة على مساحة تتراوح ما بين 150 كلم مربع و 250 كلم مربع، ويقطنها حوالي 2000 حتى 3000 نسمة⁶². وتضم هذه الأبراج في أغلب الأحيان تجمعا لعدد من المصالح منها مدرسة ومركزا

للتدريب، وقاعة الفحوص والعلاج موضوعة تحت تصرف طبيب، ووكالة بريدية، وسوقاً، وسكنات عائلية لهيئة الموظفين، ومركزاً إدارياً، وفلاحياً. يتم اختيار ضباط الشؤون الأهلية في أغلب الأحيان، من بين الضباط العاملين في الجيش الفرنسي المتطوعين لمدة تتراوح ما بين ستة أشهر إلى ثلاث سنوات قابلة للتجديد. أُعتمد في البداية مبدأ التطوع إلا أن السلطات الفرنسية تحلّت عن هذا المبدأ بعد أن لاحظت عدم تحمُّز الكثير من هؤلاء الضباط على الاستمرار في هذا العمل، رغم الامتيازات المادية الممنوحة لهم⁶³ وأمام هذا الأمر فتح المجال للاحتياطيين للالتحاق بهذه الوظائف. قبل التحاق هؤلاء الموظفون بمراكز عملهم، يتلقون تكويناً إدارياً متخصصاً ومبادئ اللغة العربية واللهجات المحلية، ودروساً في علم الاجتماع خاص بالمجتمع الإسلامي، زيادة على تربصات تطبيقية ورحلات دراسية، ويدوم التكوين سنة كاملة. وفي هذا السياق، كانت الدفعة الأولى المتخرجة مُشكلة من القادمين من الهند الصينية⁶⁴.

3- مهام الفرق الإدارية المختصة.

من الأمور الغامضة التي ارتبطت بنشاط الفرق الإدارية المختصة، عدم وجود نصوص ضابطة لمهام لاصاص، لذلك نجد مهامها تتقلّص أحياناً في مناطق معيّنة، وتتوسّع أحياناً أخرى في مناطق أخرى، حسب شهادات بعض ضباط لاصاص. وتقريباً لصورة هذه المهام نجملها في:

أ- المهام الإدارية.

من المهام الإدارية التي حددها المراسيم الفرنسية لضباط الفرق الإدارية الأهلية أنه يمثل السلطة المركزية ومسؤول الحالة المدنية والوسيط بين الإدارات الحكومية زيادة على إشرافه على المفاوضات الخاصة، زيادة على أنه يحدّد ويرسل إلى وكيل الوالي الاحتياجات المحلية. ومنه يتضح أن ضباط الفرقة الإدارية المختصة يلعب دور شيخ البلدية والمجلس البلدي في

آن واحد. وتحلى ذلك عندما ألغيت البلدية المختلطة في 15 جانفي 1957، ولما كان عدد البلديات كبيرا حوالي 1468 بلدية، أنشأت السلطات الاستعمارية المفوضيات الخاصة فمن بين 568 ضابطا هناك حوالي 356 منهم يشغلون رؤساء لهذه المفوضيات⁶⁵.

ومن المهام الإدارية الأخرى التي كُلفت بها هذه الفرق تحضير الانتخابات العامة والبلدية ودفع السكان للمشاركة فيها، باستخدام مختلف وسائل الترغيب والترهيب المتوفرة زيادة على ما سبق كان لهذه الفرق مهمة إدارية أخرى تمثلت في القيام بأعمال إحصائية للسكان على مستوى كل مركز، تدوّن فيه معلومات عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي لكل عائلة ومصادر دخلها ومكانتها الاجتماعية، وكل المعلومات التي تفيد الإدارة الاستعمارية في تدعيم سيطرتها على السكان⁶⁶.

ولإرغام السكان على الارتباط بالإدارة الفرنسية، سارعت الحكومة الفرنسية إلى إقامة فروع إدارية متعددة الأغراض في مراكز الفرق الإدارية المختصة، ويتم فيها الإعلان عن الوفاة والولادة واستخراج البطاقات الهوية وتقديم طلبات القروض الفلاحية، واستلام منح التقاعد وتسوية أوضاع المحاربين القدماء⁶⁷.

ب- المهام الاجتماعية والتربوية.

تمثلت في تأمين الرعاية الصحية للسكان بواسطة المساعدة الصحية المجانية⁶⁸ المعروفة اختصارا باسم (A.M.G)⁶⁹ والفرق الطبية والاجتماعية المتنقلة⁷⁰ التي يشرف عليها الجيش الفرنسي والصليب الأحمر الفرنسي⁷¹. وتوزيع المواد الغذائية مثل الدقيق والحليب ووصلات الحبوب، الملابس والأدوية⁷². وفتح المدارس ومراكز التكوين المهني المتخصص، وقد فتحت هذه الأخيرة من أجل تأطير الشباب الجزائري قبل الخدمة العسكرية، بإعطائه تربية بدنية وتربوية ومدنية تحت إشراف ضابط الفرقة.

واهتمّت مراكز لاصاص بفتح ورش لتلقين مهن مختلفة، وقد وصل عدد الورش المؤطّرة من موظفي لاصاص سنة 1960 نحو 400 ورشة تمهين للضغار والشباب و402 ورشة تمهين لكبار السن⁷³.

ولم تقتصر الإستراتيجية الفرنسية في هذا الميدان على الذكور فقط، وإنما وجهت اهتمامها بالعنصر النسوي لما له من أهمية أساسية في المجتمع الجزائري، فأنشأت عددًا من المراكز للعناية بشؤون المرأة الجزائرية وتعليمها مهنا، وتشجيعها على الخروج من البيت واستدراجها لتندمج مع قيم ومبادئ المجتمع الفرنسي والالتقاء بمثيالاتها في هذه المراكز التي تشرف عليها مشرفات مُلحقات بالفرق الإدارية المختصة⁷⁴.

ت- المهام السياسية والعسكرية.

إن الملاحظ للأدوار المتعددة للفرق الإدارية المختصة خلال الثورة التحريرية، يُدرك أن المهمة الأساسية لم تقتصر على الوظائف المدنية المشار إليها سابقا، بل حتى أن هذه الأخيرة لم تكن سوى أدوارًا ثانوية ومرحلية؛ فالهدف الحقيقي الذي أنشئت من أجله كان هو مراقبة الجزائريين والبحث عن المعلومات السياسية والعسكرية المتعلقة بالثورة، ومن ثمة تدمير التنظيم السياسي والإداري الذي أنشأته جبهة التحرير الوطني لتأطير السكان، وكذلك تشجيع الجزائريين على الانضمام إلى صفّ فرنسا فرديا وجماعيا، زيادة على المشاركة مع الجيش الفرنسي في العمليات العسكرية ونصب الكمائن لوححدات جيش التحرير الوطني⁷⁵، باعتبار أن ضابط الفرقة الإدارية المختصة هو مستشار تقني لدى السلطات العسكرية وذلك لمعرفته بالبلد وسكانه، يساعد الجيش في مهمة ما أطلق عليه بالتهدئة، وينوب عنه في استرجاع الأمن وإقراره. ولتحقيق هذا الهدف وضعت تحت تصرفه مجموعات من القوات الإضافية مشكلة من المخازنية والحركي. وفي بعض الأحيان أسندت السلطات الاستعمارية إلى هذه المصالح مهام عسكرية بحتة؛ فظهر ما

يسمى بالفرق الإدارية المدعمة⁷⁶ ووصل عددها في شهر سبتمبر 16 موزعة بين الجزائر ووهراڤ وقسنطينة.⁷⁷

كانت عملية مراقبة السكان تتم بالتنسيق مع بقية المصالح الإدارية والأمنية الأخرى مثل: المخابرات والدرك والشرطة، لمساعدتها على إلقاء القبض على المشتبه فيهم، وفرض الغرامات والتحقق في السرقات وإرسال التقارير ومنح الجوازات والرخص والشهادات.⁷⁸ وهذا ما جعلها تتحوّل إلى مراكز تعذيب واستنطاق، دفعت بعدد كبير من الشباب الجزائري إلى الالتحاق بجيش التحرير الوطني.⁷⁹ فقد كانت هذه الفرق هي الجهة المخولة في مناطق اختصاصها على منح رخص نقل البضائع وشهادات الإقامة كل الوثائق الإدارية الأخرى، كل هذا الكم من الوثائق يحمل تاريخ صدوره ومدة صلاحيته، فمثلاً رُخص المرور كانت صلاحيتها تتراوح ما بين يوم إلى ثمانية أيام ويوم واحد لأقل من عشرين يوماً.⁸⁰ والأشخاص الراغبون في زيارة ذويهم خارج قريتهم، كان عليهم إظهار شهادة الإحصاء صالحة لمدة أقصاها شهران. وكان المضيف والضيف محل تحقيق للتأكد من أنهما غير مطلوبين من العدالة الفرنسية. ومن أجل الزيادة في تشديد إجراءات الرقابة على تحركات وتنقلات السكان أخضع هؤلاء في القرى والدواوير إلى أسلوب الترييع العسكري الذي طبقه لأكوست⁸¹ على أحياء مدينة الجزائر في 04 مارس 1957 بعد سلسلة العمليات الفدائية التي تعرضت لها المدينة. وحتى السكان الرُحل لم يسلموا من هذه الطريقة، إذ كانت توضع علامات على الخيام متكونة من حرفين الأول يدل على البلدية والثاني على الدوار، وكتبت بطريقة يمكن أن ترى من الجو.⁸² وأما نقل المواد الغذائية فقد كان يخضع لمراقبة صارمة فقد كان نقل البضائع في تجاه المدن الكبيرة يتطلب إذنا بالمرور صالح لمدة تتراوح ما بين شهرين إلى ثلاثة أشهر، أما الكميات الكبيرة من المواد الواسعة الاستهلاك، مثل القهوة والسكر والزيت فقد كان أصحابها يخضعون للتحقيق.

محاولة منها لمنع وصول المواد التموينية لوحيات جيش التحرير الوطني، أخضعت السلطات الاستعمارية امتلاك الأشخاص لهذه المواد للتحديد، فكل شخص ليس له أن يمتلك أكثر من 10 كلغ من السميد في الشهر، وأقل من 100 كلغ منه للعائلة الواحدة. أما المهمة الثانية، فكانت البحث عن المعلومات على المستوى العسكري والثقافي والاجتماعي، التي تمكن السلطات الاستعمارية من القضاء على التنظيم السياسي والإداري لجهة التحرير الوطني، ومهاجمة وملاحقة وحدات جيش التحرير الوطني، وتكثيف العمل البسيكولوجي والدعائي بين السكان؛ وقد اعتمدت إستراتيجيتها للوصول لتحقيق هذه الأهداف على ما يلي :

تخصيص مبالغ مالية سرية لشراء ذمم بعض الجزائريين، وتحويلهم إلى عملاء وخونة يزودون المصالح الاستعمارية بالمعلومات التي توصلهم إلى القضاء على الثورة⁸³. ومن الأساليب المستخدمة من لاصاص استغلال التنوع العرقي وتعميق الهوة بين الأعراق وفق إستراتيجية فرق تسد⁸⁴. وكذلك المناشير الكاذبة المثبطة للمعنويات والحملات الدعائية بواسطة مكبرات الصوت في الأسواق والساحات وقاعات العرض السينمائي، وأيضا إرغام المساجين والأسرى على الاعتراف بأسرار الثورة، والتلويح لهم بالتهديد والوعيد الذي سيلحق بأسرهم في حالة رفضهم التعاون مع جلاديهم. وقد اعترفت في العديد من تقاريرها بفشل هذه الإستراتيجية، لأسباب، أولا: الإجراءات المتخذة من طرف جبهة وجيش التحرير الوطنيين ضد هؤلاء الخونة والعملاء. وثانيا: قوة ومقدرة التنظيم السياسي والإداري الذي أنشأته جبهة التحرير الوطني لتأطير وتنظيم الأوساط الشعبية، إذ يذكر أحدهم وهو في نفس الوقت ضابط إحدى الفرق الإدارية، قائلا: "نبحث عن هذا التنظيم وندمره، لكن يعيد بناء نفسه مرة ثانية، فأعضاؤه موجودون في كل مكان وعلى استعداد تام للتضحية، ورغم قتلهم فهم يتميزون بفعالية فائقة ومنظمة"⁸⁵.

ومحاولة منها لتضييق الخناق على نشاط جبهة وجيش التحرير الوطنيين في التجمعات العمرانية الكبيرة سارعت الحكومة العامة إلى إنشاء الفرق الإدارية الحضرية⁸⁶. وقد سَوَّغ الجنرال رؤول سالان⁸⁷ الإجراء بالنجاح الذي حققه هذا الأسلوب، يقصد نظام الفرق الإدارية المختصة، في القرى الداخلية، مما دفع بالسلطات الاستعمارية إلى تأسيس الفرق الإدارية الحضرية وأيضاً من أجل كسب سكان الأحياء القصدية أو العزاب المنعزلين عن وسطهم الطبيعي⁸⁸.

ثالثاً: موقف الثورة التحريرية من الفرق الإدارية المختصة.

1- الثورة في عامها الأول ورد فعل الإدارة الاستعمارية.

زار فرانسوا ميتران⁸⁹ الجزائر في نهاية سبتمبر وبداية أكتوبر 1954، وصرَّح حينها بأن "كل شيء هادئ وساكن"⁹⁰، وهو الشعور العام المعبر عنه أثناء تلك الزيارة⁹¹. واطَّلَعَ على الأوضاع التي قدَّمت إليه في صورة مطمئنة؛ فعلى مساحة 210000 كلم مربع، وهي المساحة التي تضم ثلاث عمالات (الجزائر وهران وقسنطينة)، دون المناطق الجنوب، كان يشتغل نحو 6838 موظفاً موزعاً بين مصالح الاستعلامات العامة، الشرطة القضائية والشرطة الحضرية، وهذا العدد جد قليل لتغطية ما يقارب 9 ملايين نسمة (8931137 حسب إحصاء 31 أكتوبر 1954)، من ضمنهم 974245 أوربي، بينما في فرنسا التي بلغ عدد سكانها 43 مليون نسمة كان لديها 50000 موظف في الشرطة على مساحة تقدر بنحو 550000 كلم مربع مع تطور كبير في الوسائل الاتصالات المتطورة. وهذا ما يفسر خصوصاً منذ 120 سنة من الاحتلال الفرنسي نجد بعض الدواوير لم تعرف إطلاقاً الشرطي والدركي. وهذا الغياب المقصود يوضح درجة الإهمال الذي عرفه الريف الجزائري، وطريقة التعامل العنصري للحكومات الفرنسية؛ فحيث تنعدم الفائدة والضرورة للاستعمار ترتفع درجة الإهمال والتسيب، وخاصة إذا لم يكن في المنطقة مستوطنات يمثل الاحتلال الفرنسي. أمام هذه التناقضات، شرعت جبهة

التحرير الوطني على إزالة التشويه والتزييف والانحراف وسائر الأمراض التي نفيها المستعمر داخل مختلف فئات المجتمع⁹²، وانطلقت خلال المرحلة الأولى من الثورة في تكوين مجموعة من المصالح الإدارية موازية للإدارة الاستعمارية، وذلك من أجل القيام بالمهام الإدارية المختلفة التي لها علاقة مباشرة بالجزائريين على رغم من صعوبة المهمة إلا أنها أقدمت على إنجازها لأنها أدركت أنها ستدفع بالجزائريين إلى مقاطعة الإدارة الاستعمارية مدنيا، وأمنيا، واقتصاديا، واجتماعيا، وتربويا، ولأنها قطاعات إستراتيجية لن يكون لها تأثير في إفشال المخططات الاستعمارية فقط⁹³، بل دعمت الجهد الحربي لجيش التحرير الوطني الذي بدأت ثماره تنضج. ففي مدينة الجزائر والبلديات الخمس بير مراد رايس، والأبيار، والقبة، وحسين داي، وسانت أوجان، تكفلت شرطة الدولة بحفظ الأمن التي كانت تحت تصرف "ترمود" عامل عمالة الجزائر، ساعده كاتب عام للشرطة؛ وهنا أيضا تظهر المفارقة من حيث النسبة، بين تعداد المكلفين بحفظ الأمن وعدد السكان المدنيين، وتبرز بفارق كبير؛ ففي الجزائر الكبرى التي يقطنها نحو 635000 نسمة من ضمنهم نحو 400000 من سكان مدينة الجزائر التي قسّمت إلى 12 دائرة، نجد أن سلك الشرطة الحضرية ضمت 1562 موظفا. وعلى المستوى الوقائي مكلفة بأمن الطرقات والمعارض والأسواق وحركة مرور السيارات والراجلين والنظافة والصحة. وعلى المستوى الإداري كُلفت الشرطة الحضرية بمهام كثيرة، منها، إصدار شهادات و تشكيل ملفات لجواز السفر وبطاقات الهوية، ومنح تصاريح لمواد موضوعة تحت تشريعات خاصة، ومراقبة وحجز الجرائد والمناشير.

2- إنجازات الثورة في عامها الأول.

كان المناضلون الوطنيون على اختلاف مشاربهم يوجّهون معظم مجهوداتهم لتبنيه الشعب إلى ضرورة استغلال الوقت إلى أقصى الحدود وهذا من أهم منجزات الثورة⁹⁴، وذلك ما

تحقق في المرحلة الأولى؛ فقد كانت سنة 1955 سنة التأسيس على الساخن⁹⁵ اعتماداً على عاملين اثنين: طليعة ثورية مصممة ، وشعب جاهز لاستلام رسالة الثورة. فقد كان الشعور العام عشية اندلاع الثورة ليلة فاتح نوفمبر 1954 أن من يسبق بإعلان هذه الثورة يفوز بقيادة الشعب بدون منازع، وما لبثت التطورات اللاحقة أن أثبتت في الميدان صدق هذا الشعور، وتجاوب الشعب الفوري والواسع الذي حول مفعول الشرارة الأولى إلى ما يشبه "الانشطار النووي" حسب تعبير محمد مرزوقي عضو من مجموعة ال22. واستغلت الطليعة الثورية هذه الشروط الموضوعية المواتية لتواصل عملية التأسيس على الصعيدين: السياسي، وبناء هيكل جبهة التحرير الوطني، لياشر عملية تأطير الشعب وتنظيمه لمواجهة مصيره بمسؤولية وثبات. والعسكري، وبناء المجموعات المسلحة الأولى، وضمان ارتباطهما الوثيق بالشعب الجاهز المتحفز الذي يوفر لها التموين والأمن، فضلاً عن شروط التحدد المستمر⁹⁶.

كان لانتشار الثورة بسرعة ردة فعل من جيش الاحتلال الذي رمى بكامل قوته لإطفاء جذوة الثورة التي بدأت في الانتقاد هنا وهناك. وقد أدرك للوهلة الأولى أن الأوراس هي "البؤرة الأهم" فكثف من جهوده لإخماد الجذوة الرئيسية بقصد وأد الثورة في المهدي حيث وُلدت على حد قول اللواء جورج بارلانج قائد عمليات "التهديئة" الأولى في الأوراس رفقة اللواء فانوكسام⁹⁷.

وجاءت عملية 20 أوت 1955 لتخلط أوراق الجميع وتقلب حساباتهم وتعطي الثورة الوليدة دفعة حاسمة على الصعيدين السياسي والعسكري، وحتى المؤرخون الفرنسيون أنفسهم يؤكّدون أن تاريخ 20 أوت كان نهاية مرحلة وبداية أخرى⁹⁸.

وجاءت فكرة العملية في إطار البحث عن أنجح الردود الثورية الممكنة على سياسة الحاكم العام الجديد جاك سوستيل الذي بدأ يتصل بممثلي الأحزاب والمنظمات الجزائرية بنية تشكيل "جبهة سلم" مناهضة "لجبهة الحرب" أي جبهة التحرير الوطني، وقد انساق

بعض الأعيان بالشمال القسنطيني وراء الآمال " الإصلاحية" التي كان يروج لها سوستل⁹⁹. وأيضا في إطار إحداث قطيعة نهائية بين الشعب الجزائري ومجتمع "الكولون" ونظام الاحتلال الذي يؤطّرهم، وتفنيد مزاعم الحاكم العام الذي كان يصرح قبيل الهجوم بأن الثقة قد عادت إلى البوادي وأن الفلاحين انفضوا من حول "المتمردين"، واستعادة زمام المبادرة على الصعيدين السياسي والعسكري، وتحطيم وهم "الجزائر الفرنسية"¹⁰⁰. أحدثت الهجمات انقلابا في الرأي الدولي أكثر من أحداث 8ماي 1945¹⁰¹. وحسب الحصيلة التي نشرتها المجلة الفرنسية "هيستوريا مغازين" نقلاً عن وثيقة للجيش التحرير الوطني - حسب المجلة - خلال عام من الثورة (1955-1956)، فإن هذه الحصيلة تعطينا فكرة مقرّبة وعامة عن النشاط الذي ميّز الثورة في مرحلتها الأولى، وجاءت على النحو التالي:

906 مزرعة أحرقت أو خربت

38340 رأس الغنم والبقر إما قتلت أو عُثمت

404 آلة فلاحية خربت

4432000 ساق عنب الخمر اقتلعت

359000 قنطار من العلف أتلفت

4583 هكتار من المحاصيل أتلفت

283 مدرسة أحرقت¹⁰².

ولاشك أنها حصيلة كبيرة، وإن شككت فيها الجهات الفرنسية، لأنها تبين بوضوح الجهد الكبير الذي بذله المجاهدون على الميدان، وكان له الأثر الفعّال في الإجراءات التي أحدثتها السلطة الاستعمارية لمجابهة الثورة.

3- تصدي الثورة التحريرية للفرق الإدارية المختصة.

منذ الوهلة الأولى شعرت جبهة التحرير الوطني بالخطر الذي قد يصيب الثورة، إذ لم تسارع إلى الوقوف في وجه حملات الدعاية، وزرع الرّيب والتشكيك في نفوس الجزائريين وكان أول تصدي في 24 ماي 1955 عندما قام بشير شبحاني بالقضاء على الإداري الفرنسي دوبوي¹⁰³ والاستيلاء على وثائقه، ومنها تقريره الذي أعدّه للواء بارلانج، وتلّت هذه العملية إنشاء فرق من الكوماندوس الدائم مهمته القضاء على الضباط الفرنسيين والمتعاونين معهم من الجزائريين¹⁰⁴.

ومُنِع السكان من إقامة اتصالات أو علاقات مع الفرق الإدارية المختصة وكل مخالفة يصبح صاحبها تحت طائلة العقاب، مثل رفض دعوة لاصاص لهم بالمشاركة في الانتخابات، وحضّر حمل البطاقات، وعدم الاستجابة للإغراءات المادية، وتشديد الرقابة على الإداريين والمحاربين القدماء والقياد. ولم تكتف جبهة التحرير الوطني بهذه الإجراءات بل راحت تكتف من هجماتها ضد المصالح والأهداف ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي التي أقامتها هذه الفرق وذلك بشن العمليات العسكرية ونصب الكمائن ضد دوريات المخازنية المكلفة بحماية أبراج هذه الفرق. وفي نفس الوقت أنشأت نظام المجالس الشعبية على مستوى الحي والقبيلة والعرش ثم الدّوار أو القرية، مهمته التكفل بتأطير السكان وتوعيتهم بخطر الانصياع وراء الدعاية الفرنسية، وفي نفس الوقت تكثيف الدور الاجتماعي، من خلال مساعدة عائلات المساجين والشهداء. وكانت النتيجة أن استطاعت جبهة التحرير الوطني ومن خلال جهازها السياسي والإداري، من إرغام الإدارة المحلية على الاستقالة أو التعاون مع الثورة. وحسب كلود برجر¹⁰⁵ فإن نهاية عام 1955 هي فترة التي عرفت نهاية "القياد" و"شومبيط"¹⁰⁶، وازدياد نشاط الكوماندوس التابع لجيش التحرير، مما ترك انطبعا حول جيش التحرير الوطني بأنه موجود في كل مكان وأن خطره في ارتفاع مستمر، وهذا الانتشار ينبغي مقابله بانتشار للفرنسيين وأعوانهم. أما عن الخسائر المادية والبشرية التي ألحقتها الثورة بهذه الفرق، فإن

الإحصائيات المتوفرة هي التي أعدتها السلطات الفرنسية والتي أهملت الخسائر المادية وذكرت الخسائر البشرية فقط، وحتى هذه الأخيرة أخضعت حصيلتها لما يخدم المصلحة الفرنسية، وحسب هذه الإحصائيات فإن عدد القتلى من العاملين في هذه المصالح ومنذ تأسيسها إلى غاية 09 ماي 1960 وصل إلى 77 ضابطاً، وأما عدد القتلى من الملحقين والمخازنية فقد بلغ 441 قتيلاً¹⁰⁷.

وفي هذا السياق، اعتمدت جبهة وجيش التحرير الوطني في تصديها لسياسة الحرب النفسية الممارسة من قبل الفرق الإدارية المختصة على إستراتيجية تنطوي على عدة نقاط:

- كشف السياسة الاستعمارية وفضح الأساليب الفرنسية
- توعية الجماهير إيديولوجيا وسياسيا
- مواجهة هذه المصالح ميدانيا من خلال التأطير الواسع واليومي للجماهير وإبراز دور الهياكل الإدارية والصحية والقضائية والإعلامية للثورة.
- تحذير الجزائريين من خطورة التعاون والاتصال بهذه الفرق.
- العمل على إبلاغ الجماهير بأخبار الثورة و تطورها داخليا وخارجيا، قصد الحفاظ على الصلة بين الشعب وثورته¹⁰⁸.
- ومما أكد الصعوبة التي لاقتها لاصاص أمام تصدي المجاهدين لنشاطها هو اضطرار قوات الجيش الفرنسي إلى إقرار مخطط لحماية مقرات لاصاص وإعادة نشر قواته بما يخدم هذه الخطة ، وأدى ذلك إلى الانسحاب من العديد من مواقعه المعرضة للضربات المتكررة، واللجوء إلى الأماكن الآمنة¹⁰⁹.

وأمام هذه الحيوية الميدانية، أدلى اللواء فور قائد منطقة جرجرة بتصريح اعترف فيه بأنه يتقاسم حكم المنطقة مع عميروش : "أحكمها نهارا ويحكمها ليلا". وكانت الولاية الثالثة في عهد عميروش بمثابة نواة حكومية بأتم الكلمة، تقوم ببعض المهام الحيوية، مثل التموين

والتعليم والأوقاف فقد استطاع تنظيم التعليم بطريقة أزعجت مصالح "الفرق الإدارية المختصة" إلى حد كبير، لاسيما بعد أن نجح في إرسال عدد من البعثات الطلابية إلى تونس، كما تمكن من إقامة نظام للتموين، قلل من آثار قرار تخصيص المواد الغذائية إلى حد كبير. وفي نهاية عام 1961، عين قائد الولاية الأولى مجلسا جديدا للولاية مستحدثا منصبا جديدا للشؤون الاجتماعية¹¹⁰، مما يوضح إستراتيجية الثورة في الميدان الاجتماعي وفي إفشال سياسة لاصاص، والتصدي لمؤامراتها باسم الخدمة الاجتماعية.

الخاتمة.

موضوع الفرق الإدارية المختصة (Sections Administratives Spécialisées) "لاصاص"؛ من المواضيع التي حاولت الكتابات الفرنسية احتكارها وتقدم التحليل والأجوبة التاريخية، وفقاً لرؤية المدرسة الاستعمارية وخاصة أولئك الذين لازال الحنين يشدهم إلى ذلك العهد الاستعماري.

تناولت الكتابات الفرنسية هذا الموضوع وحاولت إبقاءه رهينةً لمنطلقات وتصورات تمجد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وترسيخ نظرية "الإستعمار الإيجابي" التي لها "زبائن" كثر بين المؤرخين الفرنسيين المعاصرين للثورة أو من جاءوا بعدها.

وهي "نظرية" تُسوِّغ أعماله بمحالات وبمهرجة، مما يخدم بقاء الغموض والالتباس في القضايا التاريخية التي تستهدف إضعاف وخلخلة الشخصية الجزائرية، وسجنها في دائرة التحجيم والتحقيق والتقزيم، بإصاق كل سلبية بالجزائريين، وإلحاق كل إيجابية بالاستعمار الفرنسي. إن محاولة السلطة الاستعمارية الفرنسية تدارك ما فاتها بإنشاء "لاصاص"، وإن حاولت القراءة الفرنسية تغطية فشل "لاصاص" بإصاق تهمه إفشال عملها إلى تلك العراقيل التي وضعها "أعداء الجزائر الفرنسية" من الفرنسيين سواء كانوا مدانين وعسكريين وهي خطوة لتجاوز عبقرية الشعب الجزائري والتفافه حول ثورته وإيمانه باسترجاع سيادته. وهي

قراءات تواطأت بالسكوت عن جرائم هذا الجهاز الإداري في حق الجزائر وماضيها ومستقبلها.

التهميش

¹ يُنظر: تقرير تحقيق لجنة الدفاع الوطني مؤرخ في 24 مارس 1955، بخصوص الوضعية الإدارية والعسكرية في الجزائر.

² حسب الإحصاء العام للسكان بتاريخ 31 أكتوبر 1954، فإن عدد السكان الجزائريين بلغ 8487317 نسمة و1042409 غير مسلم (أوربي و يهودي) في الجزائر من مجموع 9529726 نسمة.

سكان المدن في سنة 1830 كان ضعيفا، وفي 1886 كان بنسبة 14 بالمائة. وفي عام 1954 بلغ نحو 25 بالمائة . 79.4 بالمائة لغير المسلمين و 18 بالمائة للمسلمين. يُنظر:

Jean Despois, «**La répartition de la population en Algérie**», Annales Economies Sociétés Civilisations, N°5, 1960, p.921-922.

³ يصف محمد البشير الإبراهيمي هذه الإدارة في مقال نشره في جريدة البصائر في أواخر نوفمبر 1948، قائلاً: " في الإدارة الجزائرية العليا مطبخة -ليست كالمطابخ- تُطبخ فيها الآراء والأفكار في كل ما دق وجل من شؤون المسلمين، والقائمون على هذا المطبخ طهارة يُحسِنون الفن، ودهاة يحكمون بأول الظن، وهم منتخبون من طراز خاص، أول الشروط فيهم أن يكونوا قد أفنوا أعمارهم في حكم المسلمين، واجتازوا المراتب الإدارية من أدناها إلى أعلاها، وقرسوا بمحكوميهم، وفهموا ميولهم واتجاهاتهم، ودرسوا مواطن الضعف والقوة فيهم، وآخر الشروط فيهم أن يكونوا استعماريين قبل كل شيء، والسيد السند من هؤلاء هو الذي يُثبت أنه حكم المسلمين حكما استبداديا وعرف كيف يُرهقهم، وكيف يُذلهم وكيف يضرب بعضهم ببعض ويمزق شملهم، وكيف يديرهم على أن يكونوا آلات صماء لا أناسا، وكيف يستلب منهم العقل والإدراك... حتى يكتسب من كل ذلك ملكة فيما يسمونه "السياسة الأهلية"...". يُنظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الثالث (عيون البصائر)، المرجع السابق، ص.87.

<http://caom.archivenationale.culture.gouv.fr>⁴

⁵ قلّة من الدّارسين الجزائريين كتبوا عن "لاصاص"، لكن بشكل مجمل، اللهم إلا ما كتبه الدكتور كريم ولد النبية، والدكتور غالي الغري. أما غيرهما فلا تكاد تجد ما يروي الظمأ. وقد علمت بوجود أطروحة دكتوراة بجامعة الجزائر حول لاصاص، وحاولت الحصول على نسخة منها، لأدعم دراستي، لكن لم أحصل عليها.

⁶ يعرف في لغة القانون الإداري بمصطلح (La spécialité du but)، وهو قصر المشروع على غرض محدد لا يجوز لصاحب الاختصاص أن يتعداه. يُنظر: **معجم القانون**، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1998، ص.460.

⁷ Mathias Gregor, **Les Sections administratives spécialisées entre idéal et réalité (1955–1962)**, L'Harmattan, Paris, 1998, p.19.

⁸ رابع لوني، "الحرب المخبرانية أثناء الثورة المسلحة"، عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي تاريخ الجزائر، جامعة وهران، العدد6، صيف 2012، ص.188.

⁹ وتغلغل هذه المكاتب دخل المجتمع الجزائري مكّنها من السطو على كم كبير من الوثائق الجزائرية، ولذلك تعرضت الوثيقة الوطنية الجزائرية إلى النهب والسلب والخطف والحرق والإتلاف من قبل هذه المكاتب لصالح جيش الاحتلال والإدارة الاستعمارية الفرنسية، بهدف لطمس وعرقلة وتعقيد إعادة كتابة التاريخ الوطني وبناء وقائعه وتصحيحه. واليوم تتمثل عملية تحرير التاريخ الوطني من الفكر الاستعماري في تصحيح الأخطاء ودحض الزيف والتشويه ورفع اللبس وملء الفجوات، يُنظر: يحي بوعزيز، "كلمة الافتتاح في يوم دراسي حول أهمية المصادر المحلية في كتابة التاريخ"، دفاتر التاريخ المغربية، معهد التاريخ، جامعة وهران، العدد02، 1988، ص.56-59.

¹⁰ رابع لوني، المرجع السابق، ص.189.

¹¹ (Lacheroy)

Elsenhans Hartmut, **La Guerre d'Algérie 1954-1962 la transition d'une France à une autre le passage de la IV à la V république**, Edition Publisud, Paris, 1999, p.p.551-552.

¹² اغتنمت الحكومة الفرنسية اتفاقيات الاستقلال الداخلي المبرمة مع المغرب وتونس عام 1956، لتعزيز وجودها في شتى المجالات بعد أن لاحظت تطور واتساع رقعة الثورة وامتدادها في كل أرجاء الجزائر، ومن ذلك إرسال ضباط الشؤون الأهلية العاملين في كلا البلدين لدعم سياسة انتشار للفرق الإدارية المختصة.

(Générale Boucherie) ¹⁴

François Lescel, « **Les SAS (sections administratives spécialisées en Algérie)** » : consulter le : 30-12-2011 , URL :

<http://www.Farac.org>,.

Elsenhans Hartmut, **Op.Cit.**, p.551. ¹⁶

¹⁷ مزيد من التفاصيل حول القوانين التي تضبط عمل المكاتب العربية وبيان أهدافها ومهامها وتركيبها، ينظر :

- E. Sautayra, **Op.Cit.**, p.p.44-52

Victor Foucher, **Les Bureaux arabes en Algérie**, Libraire ¹⁸
Internationale, Paris, 1858, p.p.12-13.

¹⁹ يرى المؤرخ الفرنسي "ياكونو كزافيي" بأن المكاتب العربية تحولت إلى هيئة مدافعة عن "الأهالي"، ولا شك أن قوله فيه شيء من المبالغة، ينظر:

Yacono Xavier. « **Quelques remarques sur la politique indigène du prince Napoléon en Algérie (24 juin 1858- 7 mars 1859)** ». Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°8, 1970. p. 203.

- C. Bontens, **les institutions Algérienne**, Alger, Faculté de droit, 1970, p. 188.²⁰
- H.-A. Warnier, **l'Algérie devant l'empereur**, Paris challamel, 1865, p.p. 238-239.²¹
- صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والإحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1871-1844، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة - الجزائر، 2006، ص.18.²²
- F. Robiou, **l'Algérie en 1871**, Paris, Victor Masson, 1871, p 81.²³
- صالح فركوس، المرجع السابق، ص.ص.19-20، 45، 53، 60.²⁴
- F. Hugonnet, **Souvenirs d'un chef de bureau Arab**, Paris, Michel levy, 1858, p 8-10.²⁵
- جاك سوستل (Jacques Soustelle) باحث إثنوبولوجي متخصص في حضارات المكسيك القديمة، إلى جانب ذلك فهو رجل مخبرات عمل مع الجنرال شارل دو غول خلال الحرب العالمية الثانية، وحافظ على علاقاته معه بعد انسحابه من الواجهة السياسية في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين. اعترض المستوطنون على تعيينه حاكما عاما للجزائر ووصفوه باليهودي الأهلي الذي غير لقبه القلم "بن سوسان". ينظر: Yves Courriere, **La Guerre d'Algérie Le Temps des Léopards**, Editions Rahma, Alger, 1993, p.13.²⁶
- Marc Besson, «**Les PRT un concept auquel la France pourrait souscrire sans se renie**», Les Cahiers du CESAT, Paris, n20, Juin 2010, p.44.²⁷
- ينصح صاحب البحث السلطات العسكرية الفرنسية بتطبيق تجربة (لاصاص) لحل الأزمة الأفغانية حاليا.²⁸
- سياسي فرنسي من يسار الحركة الجمهورية الشعبية شارك في مفاوضات إيفيان، وألّف كتابا بعنوان "الدفاتر السياسية لحرب الجزائر" (Carnets politiques de la guerre d'Algérie).

- ²⁹ محمد عباس، **دوغول والجزائر**، دار هومة، الجزائر، 2007، ص.258.
- ³⁰ Yves Courriere, *Op.Cit.*, p.p.102-103.
- ³¹ كريم ولد النبية، "مكاتب لاصاص في منطقة سيدي بلعباس 1956-1962"، تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال المرحلة الاستعمارية، الجزء الثاني، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص.163.
- ³² محمد عباس، **المرجع السابق**، ص.139.
- ³³ (Vanuxem)
- ³⁴ (Parlange)
- ³⁵ **المنظمة السياسية والإدارية (OPA-FLN)**: تعد من أهم فروع جبهة التحرير الوطني (FLN) أثناء الثورة، حسب مصطفى لشرف، وكانت تمارس نشاطها في الأرياف على الخصوص حيث تعرض إدارتها على الخصوص للملاحقة من قبل الجيش الفرنسي الاستعماري لأنهم قاموا بدور كبير خلال الكفاح الثوري. وهي تسمية أطلقتها الاستعلامات الفرنسية، وتداولتها الكتابات التاريخية. أنظر: Mostefa Lacheraf, **l'Algérie: nation et société**, S.N.E.D, Alger, 1976, p.288.
- ³⁶ محمد عباس، **المرجع السابق**، ص.140.
- ³⁷ من مصالح الجيش الفرنسي، مكلف بالحرب النفسية.
- ³⁸ Claude Collot, **Op.Cit.**, p.135.
- ³⁹ على سبيل المثال، كان تأطير البلدية المختلطة لواد الصومام والتي تبلغ عدد سكانها 150 ألف ساكن بنحو 04 إداريين في 1951، لكن نقص عددهم إلى 03 في 1954، وتناقص عدد القياد من 850 إلى 788. واعتبر كلود كولو هذا الإهمال من أسباب الثورة. يُنظر: Ibid, p.135.
- ⁴⁰ اعتبر كثير من المؤرخين الفرنسيين "لاصاص" الخصم الأول لجبهة التحرير الوطني. ينظر: François Lescel, **Op.Cit.**.
- ⁴¹ غري الغالي، فرنسا والثورة الجزائرية 1954-1958 دراسة في السياسات والممارسات، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص.174.

Partiot⁴²Teranier⁴³Elsenhans Hartmut, **Op.Cit**, p.551.⁴⁴

⁴⁵ حسب مرسوم رقم 56 - 642 المؤرخ في 28 جوان 1956 المتعلق بتحويل البلديات المختلطة في الجزائر إلى بلديات مسيرة بقانون 05 أفريل 1884، تمّ حل جميع البلديات المختلطة، وهذا التمديد وقع لأول مرة، لكنه جاء متأخرا.

Commandant de Montalembert, Souvenirs d'Algérie,⁴⁶

Bulletin historique des Anciens des Affaires Algériennes, p.02.

⁴⁷ ترأس مديرية هذه المصالح فرولييك (Vrolyck) بمساعدة العقيد لامورار (Lamourère).

⁴⁸ يذكر الرائد دو مونظالمبرت (توفي عام 2006)، بأنه تلقى تكويننا لمدة ثلاثة أشهر مع 60 آخرين ، ليصبح ضابطا للشؤون الجزائرية، وضابطا للفرق الإدارية المختصة (لاصاص)، وقد أختبروا من المركز العسكري للإعلام والتخصص لما وراء البحار (CMISOM)، وفي ذكرياته يروي كيفية التحاقه بلاصاص في الجزائر، وأعماله فيها .

S.A.S⁴⁹

⁵⁰ نشر بتاريخ 30 سبتمبر 1955 بالجريدة الرسمية للجزائر (JOA).

⁵¹ نشر بتاريخ 12 جويلية 1955 بالجريدة الرسمية للجزائر (JOA).

⁵² نشر بتاريخ 04 سبتمبر بالجريدة الرسمية (JORF)، ينظر: نص المرسوم في ملحق رقم (16).

(Sous-Préfet)⁵³Mathias Gregor, **Op.Cit.**, p.p.26-27.⁵⁴Ibid, p.p.157-158.⁵⁵

⁵⁶ غالي الغربي، المرجع السابق، ص.176.

Hartmut Elsenhans, **La Guerre d'Algérie 1954-1962 la transition d'une France à une autre le passage de la iv à la v république**, Edition Publisud, Paris, 1999, p.552.⁵⁷

⁵⁸ غالي غربي، المرجع السابق، ص.177.

⁵⁹ كريم ولد النبية، المرجع السابق، ص.ص. 166-167.

A.S.S.R.A : Adjoint Santaires et Sociales Rurales Auxiliaires ⁶⁰

CDEF, « Les Sections administratives spécialisées en Algérie ⁶¹

un outil pour la stabilisation » , Cahier de la recherche
doctrinale, Ministère de la Défense, Paris, 2005, p.p.18-19.

⁶² الغالي غربي، المرجع السابق، ص.177.

⁶³ هي امتيازات كثيرة للتشجيع والإغراء، فبالإضافة إلى الرواتب العالية التي تتراوح ما بين 70 ألف فرنك و 94 ألف فرنك، هناك المنح والعلاوات كعلاوة المناطق العملية التي تتراوح سنويا بـ24 ألف فرنك، وعلاوة الشؤون الجزائرية والتي تتراوح ما بين 9 آلاف فرنك و18 ألف فرنك، ومنحة المنصب ما بين 2.500 فرنك و5000 فرنك شهريا، ومنحة البعد عن الأهل 1600 فرنك، وتذكرة سفر سنوية ذهابا وإيابا بين الجزائر وفرنسا. ينظر :

- الغالي غربي، المرجع السابق، ص 194.

Denis Bogros, «**La révolution communale en Algérie ou ⁶⁴
le décret 56-642 du 28 juin 1956 Contre offensive
révolutionnaire** (1958) »,

<http://www.miscellanees.com/index.html>, Consulter le 12 -03-
2013 à 14h 40m

Nicolas d'Andoque, **1955-1962 Guerre et paix en Algérie ⁶⁵**

l'épopée silencieuse des SAS, SPL, Paris, 1977, p.34.

⁶⁶ جعل لكل عائلة جزائرية بطاقتين، واحدة تتضمن معلومات عن العائلة ورب العائلة، والآخرى أكثر دقة، بحيث تتضمن تفاصيل عن كل فرد من العائلة ونسب العائلة وشجرتها، ومعلومات عن

الحالة الاجتماعية والاقتصادية للعائلة ، والوظيفة، صاحب العمل، مكان العمل، طبيعة العمل، مستوى التعليمي، فرع الدوار، البصمات. يُنظر :

Gregor Mathias, **Op.Cit.**, p.46.

Cahier de la recherche doctrinale, Op.Cit., p.46⁶⁷

Assistance Médicale Gratuite⁶⁸

A.M.G⁶⁹

E .M.S.I : Equipes Médico-Sociales Itinérants⁷⁰

Gregor Mathias, **Op.Cit.**, p.p.57-58.⁷¹

كان توزيع هذه المواد يتم في مركز التجمعات السكانية، ولم تكن كافية ؛ فكل فرد له 120 غراما من الدقيق يوميا، يُنظر: الغالي غربي، المرجع السابق، ص.196.⁷²

Gregor Mathias, **Op.Cit.**, p.p.76-80⁷³

Hartmut Elsenhans, Op.Cit, p.p.557-558.⁷⁴

Mathias Gregor, Op.Cit., p.108.⁷⁵

S.A.S Renforcées⁷⁶

Cahier de la recherche doctrinale, Op.Cit., p.37.⁷⁷

Gregor Mathias, **Op.Cit.**, p.109.⁷⁸

الغالي غربي، المرجع السابق، ص.182.⁷⁹

Nicolas d'Andoque, **Op.Cit.**, p.47.⁸⁰

Lacoste , R.⁸¹

الغالي غربي، المرجع السابق، نفس الصفحة.⁸²

كريم ولد النبية، المرجع السابق، ص.ص. 167-168.⁸³

يؤكد المؤرخ الفرنسي كزافيي ياكونو بأن السياسة الاستعمارية لفرنسا كانت تعتمد هذه الاستراتيجية وهي . حسبه . طبيعية . في استغلال التنوع العرقي لصالح المخططات الفرنسية. ينظر :

Xavier Yacono, « **Ageron charles-Robert politique coloniales au Magreb** », Revue belge de philologie et d'histoire, Année1975, Vol.53, N°.4, p.1363.

Sébastien Denis, **Le Cinéma et la Guerre d'Algérie la** ⁸⁵
propagande à l'écran 1945-1962, Nouveau Monde éditions,
Paris, 2009, p.p.136-137

S.A.U : les Sections Administratives Urbaines ⁸⁶

Raoul Salan ⁸⁷

غالي الغربي، المرجع السابق، ص.185؛ كريم ولد النبية ، المرجع السابق، ص.170. ⁸⁸

Denis Baldensperger, « Un dur métier: Flic algérois », ⁸⁹
Historia magazine, n°208, 29décembre1971, p.p.475-480.

⁹⁰ ينظر: تصريح ميتران الذي نشرته الصحف في الجزائر.

⁹¹ جاء وزير الداخلية الفرنسي فرانسوا ميتران، إلى الجزائر في زيارة رسمية للاطلاع على مخلفات الزلزال الذي تعرضت له منطقة أوريونفيل (الشلف حاليا) الذي خلف خسائر بشرية قُدرت بأكثر من ثمانمئة قتيل.

⁹² محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص.50.

⁹³ أحسن بومالي، أدوات التجنيد والتعبئة الجماهيرية أثناء الثورة التحريرية الجزائرية 1954-
1956، دار المعرفة، الجزائر، 2010، ص.ص.316-317.

⁹⁴ محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،
1984، ص.50.

⁹⁵ تقرير لجنة الدفاع الوطني حول الوضعية العسكرية في الجزائر مؤرخ في 24 مارس 1955.

⁹⁶ بوعلام بن حمودة، الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر 1954 معالمها الأساسية، دار النعمان
للطباعة والنشر، الجزائر، 2012، ص.ص.279-301.

⁹⁷ محمد عباس، الثورة الجزائرية نصر بلا ثمن (1956-1962)، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص.97.

⁹⁸ أحسن بومالي، المرجع السابق، ص.ص.161-242.

⁹⁹ محمد عباس، المرجع السابق، ص.109.

¹⁰⁰ نفسه، ص.113.

¹⁰¹ Charles-Henri Favrod, **La Révolution algérienne**, Editions Dahlab, Alger, p.152.

¹⁰² Claude Berger, « F.L.N.: la terreur arme n°1 », Historia magazine, n°208, 29décembre1971, p

¹⁰³ Dupuy

¹⁰⁴ وقد قامت الفرق الإدارية المختصة (SAS) بدورٍ خطير في إستراتيجية "المعاقل المضادة"، وفي هذا الصدد، ينظر الدراسة التي قام بها :

Valette Jacques, « **Un contre-maquis durable de la guerre d'Algérie l'affaire Si Cherif 1957-1962** », GMCC , 2002/4, N 208, p.p.7-34.

¹⁰⁵ Claude Berger, **Op.Cit.**, p.453

¹⁰⁶ Garde champetre.

¹⁰⁷ نشرت بعض الإحصاءات حول الخسائر البشرية وتباينت من مصدر إلى آخر : ينظر العدد الخاص بـ "لاصاص" الذي أعدته : Cahier de la recherche doctrinale, 2005, 79p.

¹⁰⁸ وزارة المجاهدين، الموسوعة الشاملة لتاريخ الجزائر 1830-1962، القرص مدمج.

¹⁰⁹ Nicollas d'Andoque, **Op.Cit.**, p.96.

¹¹⁰ محمد عباس، المرجع السابق، ص.132.

الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين

أ.د. بلعربي خالد/ قسم العلوم الإنسانية/شعبة التاريخ/جامعة سيدي بلعباس

الملخص باللغة العربية:

نحاول في هذه الدراسة، التطرق إلى ميلاد الفكر الأنثروبولوجي عند الرحالة المسلمين وذلك من خلال عرض نماذج لهؤلاء الرحالة . الذين كان لهم دور في إرساء أسس هذا العلم، و إمادة اللثام عن الكثير من الحقائق الأنثروبولوجية عن طبيعة المجتمعات التي زاروها خلال تلك الفترة. وهذا يفند تلك الأطروحات الاستعمارية الغربية التي أنكرت هذه الحقيقة التاريخية مؤكدة عن مساهمة الأنثروبولوجيين المسلمين ركب الحضارة الإنسانية واعتبرت أن ميلاد الفكر الأنثروبولوجي ظهر على أيدي العلماء الأوروبيين، و قد تنكرت هذه الأطروحات لمجهودات هؤلاء الرحالة المسلمين و ما قدموه لعلم الأنثروبولوجيا من خدمات جليلة ساهمت في بلورة علم الأنثروبولوجيا.

الكلمات المفتاحية: الانثروبولوجيا-الرحالة- العلماء المسلمين-العصور

الوسطى.

Abstract:

Concerned about the file which intend to open in this study, the historic reputation of the birth of the thought of the Islamic anthropologist by backpackers Muslims, through the forms for those travelers who have an effective role in laying the

foundations of this science, we believe that reveal the secrets of the inward, ensures that reveals the many facts anthropological .and the nature of the societies in which they visited.

Despite recognition by some Western forensic anthropologists the role of Muslim scientists backpackers in establishing this science through treated of many social phenomena that interference in anthropology concerns, however, it was the direction of the ungrateful and overlooking to some of them this historical fact through the pursuit of, or underestimated and support this trend movement of European colonialism to the western and Islamic worlds, confirming the inability of the Arabs and Muslims on creativity and contribute to install human civilization which made aware of anthropology as recognized, overlook the studies carried out by the Muslim Scholars backpackers who wandered in the various countries in the world bright, in essence, the anthropological literature remained reviews deny the efforts of these scientists backpackers and production, and rendered Anthropology Of great services, which in our view is a gap in the history of the thought of anthropology.

مقدمة:

يهتم الملف الذي نزمع فتحه في هذه الدراسة ، تأصيل تاريخي لميلاد الفكر الأنثروبولوجي الإسلامي على يد الرحالة المسلمين ، وذلك من خلال عرض نماذج لهؤلاء الرحالة الذين كان لهم دور فعال في إرساء أسس هذا العلم ، ونعتقد أن نكشف عن خبايا تلك الرحالات ، كفيل بأن يميّط اللثام عن الكثير من الحقائق الأنثروبولوجية عن طبيعة المجتمعات التي زاروها.

وعلى الرغم من اعتراف بعض الأنثروبولوجيين الغربيين بدور العلماء المسلمين الرحالة في تأسيس لهذا العلم من خلال معالجتهم للكثير من الظواهر الاجتماعية التي تدخل في اهتمامات الأنثروبولوجيا ، إلا أنه ساد اتجاه ناكر ومنتكر لدى البعض الآخر منهم لهذه الحقيقة التاريخية من خلال السعي لطمسها ، أو التقليل من شأنها ، وقد دعم هذا الاتجاه حركة الاستعمار الأوروبي للعالمين الغربي والإسلامي ، مؤكداً عن عجز العرب المسلمين عن الإبداع ، والإسهام في ركب الحضارة الإنسانية¹ وهو ما جعل علم الأنثروبولوجيا كعلم معترف به ، يتغاضى ذكر الدراسات التي قام بها العلماء المسلمون الرحالة الذين جابوا الأقطار المختلفة في مشرق العالم ومغربه ، والحاصل أن الكتابات الأنثروبولوجية الغربية ظلت كتابة تنكر مجهودات هؤلاء العلماء الرحالة وإنتاجهم ، وما أسدوه لعلم الأنثروبولوجيا من خدمات جليلة² ، وهو ما يشكل في نظرنا ثغرة في تاريخ الفكر الأنثروبولوجي.

ولدم هذه الثغرة ، اتجه البحث الانثروبولوجي في العالم العربي والإسلامي خلال السنوات الأخيرة اتجاها إيجابيا يتمثل في استغلال كتب العلماء المسلمين الرحالة كأدوات مصدرية جديدة ، ومن أجل معرفة ما شاهد هؤلاء الرحالة عن الشعوب المختلفة التي زاروها ، لما تمثله هذه الكتب من أهمية متعاظمة في الكتابة الأنثروبولوجية في الوقت الحاضر.³

ونظرا لأن بحثنا يركز أساسا على مصنفات الرحالة المسلمين ، آثرنا بناء الإشكالية التي تطرحها هذه الدراسة ، لما تمثله هذه المصنفات من أهمية بالغة في الكتابة عن جذور الفكر الانثروبولوجي الإسلامي ذلك أن النبش في التراث الإسلامي ، والحفر في عميقا فيه ، يشكل قناة نحو تطوير البحث الانثروبولوجي الإسلامي ، ويسهم مساهمة فعالة في دحض مرتكزات بعض الدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية التي همشت العلماء المسلمين الرحالة في التأسيس لهذا العلم.

1- العلماء المسلمون الرحالة وميلاد الفكر الانثروبولوجي الإسلامي :

إذا كانت الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان ، ويدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحية الأخرى من جهة ، وأوجه الشبه والاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى ، فإنه يمكن القول أن العلماء المسلمين الرحالة قد أدركوا ذلك منذ وقت مبكر قبل أن يدركه الغربيون ، فالرحالة المسلمين كانوا أنثروبولوجيين ، لما لهذه الكلمة من معنى ، وذلك قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا ، وبالتالي لا يمكن إنكار أن الأنثروبولوجيا علم عربي إسلامي أصيل⁴ ذلك لأن الرواد من

هؤلاء الرحالة الذين جاؤوا مختلف الأقطار أنهم كانوا أنثروبولوجيين ، فقد قاموا برحلاتهم
اهتداء لقوله تعالى " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" وقوله أيضا
" وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً".

إذا تأملنا في مختلف مصنفات الرحالة المسلمين الذين طافوا العالم و درسوه ،
فإنهم يعطون لنا مادة دسمة عن حياة الشعوب المختلفة وفق نظرة علمية حسب منهج
الأنثروبولوجيا الحديث.

انطلاقا من هذه القرائن ، يتضح اهتمام الرحالة المسلمين بوصف الشعوب التي
زاروها ، حيث شكلت مصنفاتهم الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا ⁷ لقد
اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات الإسلامية اهتماما بدراسة أحوال الناس
في البلاد المفتوحة ، وسبل إدارتها حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم ،
ولذلك يبرز المسلمون في وضع المعاجم الجغرافية ، كمعجم البلدان لياقوت الحموي ،
وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر
الميلادي مثل مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، ونهاية الأرب للنويري. ⁸

وإلى جانب اهتمام هذه الكتب الموسوعية بعلم العمران وشؤونه ، فقد تميزت
مادتها بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصية ، وهذا ما جعلها مادة خصبة من
ناحية المنهج الانثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية ، وهناك من تخصص
في وصف إقليم واحد مثل البيروني

(362 _ 440 هـ) الذي وضع كتابا عن الهند بعنوان " تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة " ، وهو يمثل تجربته الشخصية والميدانية التي دامت ثلاثة عشر سنة ، وصف في هذا الكتاب المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وثقافية مع مقارنتها بمثيالاتها لدى العرب واليونان والفرس ، وأبرز البيروني في هذا الكتاب ، حقيقة أن الدين يؤدي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية ، وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات وصياغة القيم والمعتقدات ، وقد تمخضت عن هذه الدراسة حقائق وقواعد ونظريات مهمة في علم الإنسان الذي هو مجال الأنثروبولوجيا⁹ وأكدت ريادة العلماء المسلمين في شتى العلوم ، كما كانت لرحلات ابن بطوطة وكتاباتاه خصائص ذات طابع أنثروبولوجي برزت في اهتمامه بالناس ، ووصف حياتهم اليومية وطابع شخصياتهم ، وأنماط سلوكياتهم ، وقيمهم وتقاليدهم فتمما كتبه مثلا في استحسان أهل السودان ، فمن أفعالهم قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ، ولا المقيم من سارق ولا غاضب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان (البيض و الأجانب) ولو كان القناطر المقنطرة ، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه¹⁰ .

وثمة قرينة أخرى تضاف للبرهنة على أن الأنثروبولوجيا علم عربي أصيل ، فقد أورد ابن خلدون في كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " الذي نال شهرة واسعة في أوساط الباحثين بسبب مقدمته التي عنونها في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان ، والكسب والمعاش ، والمصانع والعلوم ، وتعتبر هذه المقدمة عملا أصيلا في

تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال إفريقيا ، ولا سيما العادات والتقاليد ،
والعلاقات الاجتماعية ، إلا جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كامل ما رآه من
أنظمة اجتماعية مختلفة¹¹ .

وقد شكلت هذه الدراسات التي احتواها كتاب المقدمة اهتماما منقطع النظير في
الدراسات الأنثروبولوجية ، ولعل من أهم الموضوعات التي عالجها ابن خلدون في مقدمته
، ولم ينتبه إليها الأنثروبولوجيين الغربيون إلا فيما بعد ، تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية
والظواهر الاجتماعية ، فقد ردّ ابن خلدون _ استنادا إلى تلك الدعامة _ اختلاف
البشر في ألوانهم وأمزجتهم النفسية وصفاتهم الجسمية والخلقية إلى البيئة الجغرافية التي
اعتبروها أيضا عاملا هاما في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية ، كما
تطرق ابن خلدون في مقدمته أيضا مسألة قيام الدول وتطورها وأحوالها ، وبلور نظرية "
دورة العمران " بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة
الكائن الحي¹² .

وقد سيطرت هذه الفكرة على أذهان علماء الاجتماع في الشرق والغرب _ على
حدّ سواء _ في العصر الوسيط ، حيث اعتبر ابن خلدون أن التطور هو سُنّة الحياة
الاجتماعية ، وهو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية ، يقول في هذا
الشأن : " إنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونخلهم ، لا تدوم على وتيرة واحدة ،
ومنهاج مستقر ، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ،
وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار
والأزمنة والدول " ¹³ .

لقد أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية ، ودورة الحضارات التي تمرّ بها ، ولذلك يرى بعض الكتاب المؤرخين أن ابن خلدون يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع ، بيتنا يرى بعضهم الآخر ولا سيما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون ، أن مقدمة ابن خلدون تحوي بعضا من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها ، وقد أشار " جون هونجيمان " الأمريكي في كتابه " تاريخ الفكر الانثروبولوجي " إلى أن " ابن خلدون تناول بعض الأفكار ذات الصلة لنظرية " مارفين هاريس " عن المادية الثقافية ، ونجد أن " هاريس " ذاته يذكر أن ابن خلدون ومن قبله الإدريسي ، قدّما أفكارا ومواد ساعدت على بلورة نظرية الحتمية الجغرافية التي سادت إبان القرن الثامن عشر ، وعليه يمكن القول أن الفلاسفة والعلماء المسلمين الرحالة أسهموا مساهمة فعالة خلال الفترة الوسيطة في معالجة الكثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في اهتمامات الأنثروبولوجيا ولا سيما التنوع الثقافي بين الشعوب " 14.

2- أهمية كتب الرحالة المسلمين في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة :

تعد كتب الرحالة المسلمين من أهم المصادر التاريخية التي تؤرخ لمختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والجغرافية ، التي بإمكان الباحث في الأنثروبولوجيا الاستفادة منها ، ذلك أن الفكر الانثروبولوجي المعاصر عرف ثورة منهجية أحدثت هزة كبيرة في المناهج التقليدية ، فلم يعد الباحث في الأنثروبولوجيا يعتمد على الملاحظة المباشرة فقط ، و إنما أصبح منفتحاً على جميع العلوم التي يمكن أن تساعد في بلورة بحثه ، حيث صار يقتبس من كتب التاريخ التي تعينه على فهم الكثير من الحقائق

الأنثروبولوجية ، مما شكل تلك العلاقة المعرفية والاهتمام المشترك بين الأنثروبولوجي والمؤرخ.¹⁵

لقد أثبتت الإنتاجات الأنثروبولوجية الحديثة والقراءات والمتابعات أن ثمة قلقا فعليا يراود بعض الأنثروبولوجيين الغربيين من جراء عدم توظيف الكثير من الدراسات التي قام بها المؤرخون حول كتب الرحالة والاستعانة بها في أبحاثهم ، ذلك أن الصلة وطيدة بين الأنثروبولوجيا والتاريخ ، والتداخل بين العلمين يعكس ارتباطات الفكر الأنثروبولوجي بحقول المعرفة الإنسانية والاجتماعية والطبيعية¹⁶ ولكن على الرغم من غنى العلوم في التراث العربي ، إلا أن الأنثروبولوجيا لم تلق الاهتمام في الدوائر العلمية ، والبحثية العربية ، كما هي الحال في الدول الغربية ، ويبدو ذلك راجع إلى ضعف في الإعداد العلمي والتكوين الثقافي وعدم إدراك أهمية هذا العلم في مجتمعاتنا الإسلامية.¹⁷

لقد أفرزت كتب الرحالة المسلمين عن ثروة معلوماتية هائلة كانت النور والدليل إلى ما يسمى بالكشف الأنثروبولوجي ، فلا نبالغ إذا قلنا أن التراث الإسلامي الجغرافي الذي أفرز خريطة العالم بكل معالمها و وضع القوانين و الأسس الجغرافية كان وراءها الرحالة المسلمين الذين قدموا معلومات في غاية الأهمية عن المجتمعات والشعوب والثقافات الإنسانية¹⁸ مما يشكل مادة خصبة ومفيدة لدارسي الأنثروبولوجيا.

إنه يمكن فهم الكثير عن المجتمعات العربية والإسلامية وحل الكثير من مشكلاتها ، وذلك تشجيع الدراسات الأنثروبولوجية في هذا المجال ، حيث أن المجتمعات الإسلامية و العربية في العصور الوسطى ازدهرت في ظل الدراسات التي قام بها الرحالة والعلماء المسلمون الذين أوضحوا أنماط الحياة والقيم والعادات التي كانت سائدة في المجتمعات التي

زاروها ، مما مكنهم أن يضعوا الأساس الأول للفكر الأنثروبولوجي الإسلامي¹⁹ علما أن فهم المجتمعات الإسلامية الحالية لا تكون إلا عن طريق الأنثروبولوجيا الإسلامية الأصلية البعيدة عن النظريات والمفاهيم الغربية التي تولت دراسة مجتمعاتنا ، فنحن لا نريد أن يفهمنا غيرنا ، وعلى المدارس الجاهزة لقراءة وفهم مجتمعاتنا ، فالنخبة المثقفة من الأنثروبولوجيين في العالمين العربي والإسلامي مطالبة اليوم من أي وقت مضى بدراسة وفهم هذه المجتمعات حتى نتمكن من وضع أسس علمية لعلم الأنثروبولوجيا.²⁰

وخلاصة القول فإن الأنثروبولوجيا علم عربي إسلامي أصيل ، أسسه الرحالة العلماء المسلمون الأوائل الذين جابوا الأقطار المختلفة ، وهنا تظهر أهمية كتب هؤلاء الرحالة في فهم طبيعة المجتمعات الإسلامية التي زاروها ، وبإمكاننا اليوم أن نفهم واقع المجتمعات الإسلامية الحالية عن طريق تشجيع الدراسات الأنثروبولوجية في هذا المجال.

الهوامش :

1. Blanche trapicu , les voyageurs arabes au moyen âge . Gallimard 8^{eme} , édition 1997 . p . 45
2. محمد امزيان ، تلازم الموضوعية و المعيارية في الميثودولوجيا الإسلامية ، أعمال ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي قسنطينة ، الجزائر 1989 م ، ص 68.
3. زكي محمد إسماعيل ، التأصيل الإسلامي لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، دار المطبوعات الجديدة ، مصر 1992 م ص 6.
4. زكي محمد إسماعيل ، الأنثروبولوجيا و الفكر الإسلامي ، مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى 1982 م ، ص 5.

5. سورة العنكبوت ، الآية 20
6. سورة النساء ، الآية 100
7. زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، 1981 م ، ص 6
8. نفسه ، ص 10
9. أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية (ب ت) ، ص ص 137 ، 138
10. نفسه ، ص 140
11. نوفل محمد نوري ، الروايات التاريخية في كتابات الرحالة المسلمين ، مجلة الأبحاث ، منشورات جامعة الموصل ، العدد 1 المجلد 11 ص 258
12. حسين توفيق إبراهيم و أماني مسعود الحديني ، ظاهرة الإحياء الإسلامي في الدراسات الغربية رؤية تحليلية نقدية ، مجلة منبر الحوار ، العدد 25 ، السنة السابعة بيروت ، 1992 م ، ص 8 وما بعدها.
13. إين خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان 1982 ، ص 135
- 14.
15. إبراهيم قادري بوتشيش ، اضاءات حول تراث الغرب الإسلامي (تاريخه الاقتصادي والاجتماعي) ، دار الطليعة ، بيروت ، ط 1 ، 2002 م ، ص 66
16. زكي محمد إسماعيل الأنثروبولوجيا... المرجع السابق ، ص 32،
17. نوفل محمد ، المقال السابق ، ص 252
18. Ferrand (G) , relation des voyages et textes géographiques arabes , persans et turcs relatifs a l extrême - orient du X III au XV III , paris 1913 _ 1914. P. 9

19. زكي محمد إسماعيل ، التأصيل...المرجع السابق ، ص 13
20. زكي محمد إسماعيل ، الأنثروبولوجيا...المرجع السابق ، ص 22

مقدمات الاحتلال الايطالي لليبيا 1911م

(بناء التحالفات الدولية)

أ. الحواس غربي/ قسم التاريخ كلية العلوم الانسانية والاجتماعية/ جامعة 8

ماي 1945م قالمة

gharbielhaouas@yahoo.fr

ملخص:

كانت إيطاليا آخر الدول الأوروبية التي دخلت مجال التوسع الاستعماري. وكانت ليبيا عند نهاية القرن التاسع عشر، هي الجزء الوحيد من الوطن العربي في شمال أفريقيا الذي لم يتمكن الصليبيون الجدد من الاستيلاء عليه، ولقرب ليبيا من إيطاليا جعلها هدفا رئيسا من أهداف السياسة الاستعمارية الإيطالية. وكان على إيطاليا وهي الدولة التي كانت غير محسوبة في عداد الدول الكبرى آنذاك أن تحصل على موافقة الدول الاستعمارية الأخرى لتنفيذ مشروعها لاحتلال ليبيا. وعلى ذلك فقد استطاعت في ميدان السياسة الدولية أن تحصل على مباركة وموافقة كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا خلال الأعوام 1898 - 1904م بموجب اتفاقات مع هذه الدول ومن خلال مبدأ "إن تعطني أعطك" والذي تستخدمه دبلوماسية الدول الكبرى الاستعمارية، استطاعت أن تضمن حرية العمل في ليبيا على طريق الاحتلال.

Abstract:

Italy was the last European countries that entered the field of colonial expansion. Libya was at the end of the nineteenth century, it is the only part of the Arab world in North Africa, who could not neo-Crusaders to grab him, but near Libya from Italy make it a major objective of the Italian colonial policy

objectives. It was Italy, a country that was not calculated to counter the then great powers to obtain the consent of the other colonial powers to carry out its project to occupy Libya. And he has been able to in the international political arena to get the blessing and approval of Britain, France, Germany, Austria and Russia during the years 1898 - 1904 m under agreements with these countries and through the principle "that give me Oattk" and you should use diplomatic major countries colonial, was able to ensure freedom of action in Libya on the path of .occupation

مقدمة:

بعد الاحتلال الفرنسي لتونس شعر ساسة إيطاليا بضرورة البحث عن حليف أو أكثر يعترف بأطماع السياسة الإيطالية، ويمكن الاعتماد على مسانده وتأييده، خاصة بعدما رأى هؤلاء الساسة أن التحالفات أو المعاهدات والاتفاقيات هي العرف السائد بين الدول الأوروبية لتأمين رغبتها الاستعمارية المستقبلية أو الحفاظ على مصالحها الحالية في مواجهة بعضها البعض وعلى هذا الأساس شكلت تحالفات منها:

1 . إيطاليا والحلف الثلاثي:

توجهت سياسة كل من إيطاليا والمانيا لدعم علاقتها بالأخرى، إلى عزل فرنسا والوقوف أمام توسعها من جهة، والسعي لتأمين أطماعها المتبادلة من جهة أخرى، خاصة أنه لم تكن هناك أية مشكلات بينهما تعرض العلاقات بينهما لتوتر أو خلاف، وان ألمانيا لم يكن لها اتجاه نحو الشمال الأفريقي حيث ولاية طرابلس أو تونس⁽¹⁾.

وقد واجهت الدبلوماسية الإيطالية صعوبة عي علاقتها مع النمسا والمجر، وهذل ناتج عن تعارض مصالحهما الاستعمارية في منطقة البلقان والأدريناتيكي، وسيطرة النمسا على

بعض الاجزاء من الاراضي الايطالية. هذا الذي جعل العلاقات بينهما تتقارب احيانا وتتباعد مرات اخرى⁽²⁾. وبدعم المانيا تم توقيع معاهدة التحالف الثلاثي في 20 ماي 1882م التي تضمنت عزل فرنسا وتوسيع شقة الخلاف بينهما وبين المزيد من الدول في القارة الأوروبية⁽³⁾.

وقد نصت المادة الثانية على: "إن في حالة وقوع هجوم فرنسي على إيطاليا وبدون سبب مباشر من جانبها، ومهما كان الدافع سيكون على الطرفين الأخرين المتعاقدين أن يقدموا عوناً للطرف المعتدى عليه، ونفس الالتزام يقع على إيطاليا في حالة وقوع اعتداء لم يتسبب فيه مباشرة من جانب فرنسا ضد ألمانيا"⁽⁴⁾.

وإذا كانت هذه المادة نصت صراحة على صراحة على تقديم المساعدة المتبادلة بين إيطاليا ودولتي الوسط، إلا أن هناك قيوداً تضمنه بعدم حدوث سبب مباشر من جانب أحدهما يؤدي إلى هجوم فرنسي بقصد عدم إعطاء أي من الدول المتحالفة حرية البدء في دخول نزاع مسلح قد يؤدي إلى إثارة بقية الدول الأوروبية ضدها ويعرقل بالتالي تقديم المساعدة لها.

وقد اخرجت الحكومة الايطالية من الاعمال التي قام بها الإيطاليون في الأراضي الخاضعة للنمسا والمجر، ونددوا في الصحف التي كانوا يصدرونها بموقف حكومتهم المتواطئ مع ألمانيا والنمسا والمجر، يدفعهم شعورهم بأنها تخلت عنهم ووقفت بعض الصحف الإيطالية في أنحاء متفرقة من إيطاليا تساندهم في مطالبهم، كما جرت في الوقت ذاته محاولة لاغتيال امبراطور النمسا والمجر، فخشيت الحكومة الإيطالية أن يكون لذلك ردود فعل سيئة لدى حكومة فيينا، وبادر رئيس الوزراء الإيطالي على الفور باستنكار هذه الأعمال في مجلس النواب الإيطالي عام 1883م⁽⁵⁾.

لذا لم يتوان ساسة إيطاليا أن يدلوا باستمرار بتأكيدات مطمئنة لحليفهم، ففي عام 1886م أعلن رئيس الوزراء الإيطالي: " أن الوحدة الإيطالية قد انتهت"⁽⁶⁾ وهي رغبة

منه بعدم إثارة موضوع الأراضي الإيطالية الخاضعة لها من ناحية وقطع الطريق أمام المطالبين بذلك من ناحية أخرى.

وعندما تولى "فرانشيسكو كريس" رئاسة الوزارة الإيطالية عام 1887م سيطر على سياسة حكومته خلال تلك الفترة عاملان هما:

. ضرورة الحصول على اعتراف صريح من دول الحلف بمطالب إيطاليا في ولاية طرابلس.
. أن تنال نصيبا في منطقة البلقان⁽⁷⁾.

استفاد رئيس الحكومة الإيطالية من ازدياد التوتر الألماني الفرنسي منذ عام 1886م الذي يؤدي إلى تأييد طموحات إيطاليا. وهذا حلم "بسمارك" التحالف الطبيعي بين إيطاليا وألمانيا. أما النمسا والمجر فكان اهتمامهما بمنطقة البلقان وحصولهما على مساعدة إيطالية مسلحة في حالة نشوب نزاع بين روسيا والنمسا والمجر. وقد تم تجديد المعاهدة لمدة خمس سنوات أخرى في عام 1887م رغم تباين أطراف الحلف الثلاثي، وحتى يمكن أن ترضي أطرافها فقد أُلحقت بها اتفاقيتان: الأولى بين ألمانيا وإيطاليا بشأن البحر المتوسط جاء فيه: "إنه إذا هاجمت إيطاليا فرنسا في أوروبا نتيجة توسع النفوذ الفرنسي في طرابلس فإن ألمانيا ستؤيدها بقوة مسلحة"⁽⁸⁾.

أما الاتفاقية الثانية بين النمسا وإيطاليا فكانت بشأن منطقة البلقان حيث نصت على: "أنه إذا كان من غير الممكن الاحتفاظ بالوضع الراهن في البلقان وإذا ما أخذت النمسا والمجر في احتلال أرض بشكل دائم أو حتى مؤقت فسيكون لإيطاليا الحق في تعويضها"⁽⁹⁾.

كما تم تجديد معاهدة الحلف الثلاثي للمرة الثالثة في شهر ماي 1891م وأصبح البند التاسع فيها ينص على "أن تتعاون الدول الحليفة المحافظة على الوضع الراهن في الشمال الإفريقي على البحر المتوسط، وبالتحديد في برقة وطرابلس وتونس أما إذا حدث أن اعترفت إيطاليا وألمانيا عقب فحص دقيق للحالة الدولية في تلك المنطقة بأن استمرار

الاحتفاظ بالوضع الراهن أصبح مستحيلا، فإن ألمانيا تتعهد بأن تساند إيطاليا في أي عمل إيجابي أو احتلال تقوم به الأخيرة للحصول على امتيازات" (10).

وواصلت إيطاليا إقناع ساسة فيينا بتغيير موقفهم هذا، وهو ما تحقق بالفعل في سنة 1902م عندما تم تجديد معاهدة الحلف الثلاثي للمرة الخامسة، فقد ألحق بها اتفاق نمسوي إيطالي بتاريخ 30 جويلية جاء فيه: " فيما يتعلق بالمحافظة على الوضع الراهن لأراضي الشرق فإن الحكومة النمسوية المجرية ليس لها أية مصالح معين تريد الحصول عليها في طرابلس وبرقة، لذا قررت عدم اتخاذ أي حركة أو إجراء من شأنه عرقلة أعمال إيطاليا، وفي حالة ما إذا اضطرت الملكة الإيطالية إلى اتخاذ تدابير حازمة عند تغيير حالة البلدان الشرقية" (11).

وهذا الاتفاق جاء في شكل تصريح من قبل النمسا نجحت الدبلوماسية الإيطالية في الحصول عليه ليكون بمثابة الاعتراف من حكومة فيينا بإطلاق يد إيطاليا في ولاية طرابلس.

وقد حصل "جولييتي" على تعهد بعدم تدخل ألمانيا في حالة قيام إيطاليا بغزو ولاية طرابلس مما أعطى المزيد من التشجيع للحكومة الإيطالية بالبدء في التمهيد للغزو عن طريق التوغل السلمي، واستمرت حكومة روما في سعيها خلال عام 1906م للإبقاء على مواقف حلفائها على ما هي عليه (12).

ومناسبة تجديد معاهدة الحلف الثلاثي للمرة السادسة عام 1907م أعادت كل من ألمانيا، النمسا والمجر تعهداتها السابقة لإيطاليا إلا أنه عقب الثورة العثمانية في سنة 1908م قامت النمسا بالاستيلاء على إقليم "البوسنة والهرسك" وهو ما يعد في نظر إيطاليا إخلالا بالالتزامات التي تعهدت بها فيينا من أجل المحافظة على الوضع الراهن في البلقان (13). مما دعا إيطاليا أن تصرح بأنها ستكون إلى جانب إنجلترا في حال أي صدام بين النمسا والمجر وإنجلترا، كما هددت بإثارة المشاعر الشعبية في المنطقة (14).

وقد استطاعت إيطاليا التقرب من روسيا والحصول منها على اعتراف بمصالحها الاستعمارية في ولاية طرابلس بتوقيع اتفاقية "راكوينجي" في 24 أكتوبر 1909م، فكان بمثابة أداة ضغط على النمسا والمجر، وبهذا أعادت إيطاليا علاقاتها وعملت على التفرغ للإعداد لغزو ولاية طرابلس⁽¹⁵⁾.

إلا أن إيطاليا لا بد أن تبدو في وضع القوة وتتخذ من سياسة المساومة وسيلة للوصول لأغراضها وأن تصر على رأيها وتجعل منه السبيل الوحيد لحل أي مشكلة. كما طرحت إيطاليا نظرية غريبة وهي أن الحل الوحيد لتوطيد الصداقة بين روما واسطنبول ولا استمرار قيام الحلف الثلاثي بسياسة منسقة في الإمبراطورية العثمانية لا بد من احتلال ولاية طرابلس⁽¹⁶⁾.

وتتابعت الأحداث بعد ذلك بصورة سريعة حتى شهر سبتمبر 1911م، عندما حاولت الحكومة الإيطالية أن تنال موافقة نهائية من ألمانيا فلم تتلق أي رد رسمي، لكن الحكومة الألمانية أكدت للحكومة الإيطالية أنها تحاول إقناع اسطنبول بتقديم تنازلات لها بصورة سلمية⁽¹⁷⁾.

أما في فيينا فقد أبلغ السفير الإيطالي وزير خارجيتها بموعد الغزو فطلب منه هذا الأخير ضرورة حصر العمليات العسكرية في البحر المتوسط والامتناع بقدر الإمكان عن القيام بأي عمل قد يكون له آثار في البلقان كما طلب إمهاله بعض الوقت للنظر في الموضوع قبل تقديمه للإمبراطور وإبلاغ إيطاليا بالقرارات التي ستتخذها حكومة فيينا⁽¹⁸⁾.

ووضعت الأحداث التي جرت في ولاية طرابلس حكومة فيينا أمام الأمر الواقع فجاء ردها في 29 سبتمبر من نفس العام على النحو التالي: " إن حكومة النمسا تعرب قبل كل شيء عن أسفها لتخلي الحكومة الإيطالية بهذه السرعة عن الميدان الديبلوماسي، لكنها تعتبر أن إيطاليا حليفها، لها كل الحق في أن تتخذ ما تراه مناسباً لحماية مصالحها

وأما لن تقييم أية صعوبات في وجه العمل الإيطالي في طرابلس، أملا في أن تتخذ إيطاليا كافة التدابير المناسبة لحصر عملياتها في البحر المتوسط وتجنب حدوث اضطرابات في البلقان⁽¹⁹⁾.

ومن الاستعراض السابق يمكن القول أن المحرك الرئيسي لكل طرف من أطراف الحلف الثلاثي الذي كان يحدد سياسته اتجاه الطرف الآخر هو تحقيق المصلحة القومية.

2. المساومات الإيطالية الإنجليزية:

بدأت العلاقات بين إيطاليا وبريطانيا في المجال الاستعماري عندما طلبت بريطانيا أن تشاركها إيطاليا في القيام بحملة مشتركة ضد مصر في 1881م غير أن إيطاليا رفضت الطلب⁽²⁰⁾.

وشعرت إيطاليا أن بريطانيا قد أمسكت بمنافذ البحر المتوسط، لهذا حرصت على أن تضل علاقتها طيبة معها، وبالمقابل فقد اتبعت بريطانيا سياسة إرضاء إيطاليا التي وصلت إلى القوة والوحدة وتطلب أراضي ما وراء البحار لإشباع النزعة الاستعمارية وأطماع أصحاب المصالح⁽²¹⁾.

وقد كانت قناعة الحكومة البريطانية بلا تحفظ أنها رغم صداقتها بالدولة العثمانية لا تجعلها تمنع قيام إيطاليا بغزو ليبيا⁽²²⁾.

وتحسنت العلاقات البريطانية الإيطالية حتى توصل الطرفان إلى التفاهم بينهما في 10 جوان 1887م، ستؤيد إيطاليا أعمال بريطانيا في مصر، ومقابل ذلك ستدعم بريطانيا الأعمال التي تقوم بها إيطاليا في أية ناحية من سواحل شمال إفريقيا ولاسيما طرابلس الغرب وبرقة، وفي كل الأحوال سيساعد الطرفان بعضهما البعض في جميع الأمور التي تتعلق بالبحر المتوسط⁽²³⁾.

قد حصلت إيطاليا على اعتراف مكلف من بريطانيا بحقوقها في امتلاك الولايات العثمانية، فدخلت بذلك سياستها الاستعمارية في طور عملي جديد، وجعلت ليبيا

هدفها وحرصت على أن لا تخسرها كما خسرت تونس من قبل، فلا يبقى لها منفذ في البحر المتوسط (24).

وقد حصل السفير الإيطالي من وزير الخارجية البريطاني على التصريح الآتي: (25)

. أن بريطانيا لا تنوي التدخل في الصراع.

. أنها كانت تعترف وبموجب الاتفاقيات المبرمة مع إيطاليا بالأهمية الكبرى للمصالح الإيطالية في طرابلس.

. إن بريطانيا ترغب في أن تنجح في الحصول على ما يرضيها.

. إن إيطاليا بقرارها احتلال طرابلس تتحمل مسؤولية لا يمكن لأي كان التنبؤ بها للعواقب الخطيرة الناتجة عن هذا الإجراء، وما يمكن أن يجره على السلم في أوروبا أو الارتباك، الذي يمكن أن ينتج لكل القوى بدءا ببريطانيا التي لها رعايا مسلمون كثيرون، وإنها تتمنى أن تجد حكومة الملك وسيلة تحمي بها مصالحها متماشية أكثر ما يمكن إحداث الارتباك والصعوبات للقوى الأخرى.

وهكذا رغم اعتراف بريطانيا بصحة عمل إيطاليا فإنها تفرض عليها حدودا، فقد حددت الموقف البريطاني سنة 1902م القاضي بأن الضم الكامل والعتيف لطرابلس غير صحيح لما له علاقة بوجود الرعايا المسلمين في المستعمرات البريطانية، وأكد "السير كرى" للمسؤولين الإيطاليين أن بريطانيا لا تستطيع قبول أي مسؤولية كانت في حالة ما إذا نتجت عن عمل إيطاليا عواقب خطيرة (26).

لم يكن موقف بريطانيا من حرب إيطاليا للعثمانيين موقف صديق بل موقف عدو شامت وكاره معاند (27).

أما الدبلوماسية البريطانية فقد انحازت عشية الحرب إلى جانب إيطاليا، إذ صرح القنصل البريطاني في طرابلس في سبتمبر آذار 1911م لقائد القوات العثمانية في لحظة

توتر العلاقات العثمانية الإيطالية بأن الحكومة العثمانية يجب أن لا تعبر اهتماما لما تكتبه الصحافة الإيطالية بشأن طرابلس ويجب أن لا تزيد القوات المسلحة في هذه المنطقة (28). كما أكدت بريطانيا لروسيا حيادها في قضية طرابلس وأعلن بأن رغبة الحكومة البريطانية هي أن لا تكون مضطرة إلى التدخل في هذه القضية، وقد رفض "كرئ" للمرة الثانية طلبا جديدا تقدمت به الحكومة العثمانية عشية إعلان العمليات الحربية حول توسطها في المسألة (29).

وأوضح "كرئ" موقف بريطانيا في حالة نشوب حرب بين إيطاليا والدولة العثمانية قائلا: "إن ملاحظات سابقة قد جعلته يدرك صعوبة وضع إيطاليا ومن دراسته لهذا الوضع إقتنع بأن شكواها كانت قائمة على أسس صحيحة، فإن إنجلترا لن تفعل شيئا ضدها بل سوف تمنحها عطفها المعنوي فقط، وتنتظر الوقت المناسب لتقول لأسطنبول إنها لا يمكنها أن ترجوا من إيطاليا غير هذا بعد المعاملة السيئة التي عوملت بها (30).

وهذا التصريح يعني أن الحكومة البريطانية ليس لديها أي اعتراض على أن تجاور إيطاليا مستعمراتها وأصبح من المهم الآن أن لا تقف لا إنجلترا ولا فرنسا ضد إيطاليا.

3. التفاهم الاستعماري بين إيطاليا وفرنسا:

الاستعمار الفرنسي لم يقتنع بالسيطرة على تونس لذا استولت على منطقة بحيرة تشاد ومناطق أخرى من إفريقيا الاستوائية التي تتاخم طرابلس وبرقة من الغرب والجنوب في حين كانت الممتلكات البريطانية ببرقة من الشرق، ومن المعروف أن الاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا وفرنسا في 1890، 1898، 1899م لغرض اقتحام مناطق النفوذ بين الدولتين في شمال إفريقيا ووسطها لم تشر مباشرة إلى طرابلس وبرقة بل على من ذلك ألنت الدوائر الحاكمة في كل من البلدين عن رغبتهما في احترام حقوق السلطان في هذين الإقليمين، وعلى الرغم من هذه التأكيدات أخذت فرنسا تعمل بالتدرج على

الاستيلاء على أطرافها البعيدة رغم احتجاجات الدولة العثمانية واعتراضاتها وسخط الأوساط الحاكمة في إيطاليا (31).

أما إيطاليا فإنها كانت ترى في تونس المنفذ الطبيعي لنشاط الإيطاليين ولبعث الإمبراطورية الرومانية وقد وجهت أنظارها إليها قبل أن تتم وحدتها السياسية إذ كانت الجالية الإيطالية في تونس من أكبر الجاليات الأجنبية. كما كانت اللغة الإيطالية هي اللغة الأجنبية الأولى التي يستخدمها المستوطنون الإنجليز من الممالطين، وقد تميز نشاط القنصل الإيطالي " بينا pinna " فاستطاع أن يحصل للإيطاليين على عدة امتيازات في تونس منها امتياز استخراج الرصاص (32).

خشيت فرنسا من تفاقم التوتر بينها وبين إيطاليا على الحدود التونسية الليبية إلى حرب تهدد وجودها في تونس والجزائر لذلك اضطرت إلى تطمين إيطاليا بغية تهدئة حدة التوتر والتأكيد لها بعدم وجود مصالح فرنسية في ليبيا، فقد نقل "تورنيلي" سفير إيطاليا في باريس رسالة المسيو Turnely رئيس وزراء فرنسا إلى وزارة الخارجية الإيطالية التي تؤكد على عدم تفكير حكومة فرنسا بالقيام بأي شيء في ليبيا وأكدت الرسالة " أن الذي يرحوه هو أن لا ينبعث من تلك البلدان انفجار الشعور الإسلامي الذي يشعل تونس ويمتد إلى الجزائر بالعدوى فيدخلها في غمار الحريق (33).

وحاولت فرنسا أن تحول دون معارضة إيطاليا لها في تونس فأشارت إلى أنه في وسع إيطاليا أن تحتل طرابلس فتجد فيها خير العوض عن أطماعها في تونس وأنها لن تعترض عليها إذا أقدمت على مثل هذا العمل (34).

لم يكن موقف إيطاليا مستقر، وكان جو العلاقات في صالح فرنسا أكثر منه في صالح إيطاليا لتحقيق أطماعها في تونس، وحاولت أن تقلع إيطاليا عن سياستها في مضايقة فرنسا لاسيما التي رسمها "كريسي" واثر هذه الأحداث أبرمت فرنسا اتفاقية سرية مع إيطاليا في 30 أكتوبر 1890م، أطلقت بمقتضاها يد إيطاليا في ليبيا، وتعهدت بأن

تحافظ على امتيازات الرعايا الإيطاليين في تونس، مقابل سكوت إيطاليا عن الأوضاع السائدة في الشمال الإفريقي⁽³⁵⁾.

وهكذا تحسنت العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين و أبرم الاتفاق المؤرخ في 16.14 ديسمبر 1900م في روما بشأن المغرب العربي ومنطقة طرابلس⁽³⁶⁾ بين "بارير" Ganille Barrer سفير فرنسا في روما و"فيسكونتي" Visconti Vensta وزير الخارجية الإيطالي، فقد استطاع "فيسكونتي" أن يعقد اتفاقية سرية مع فرنسا سميت باتفاقية "بارير فيسكونتي" تضمنت عدم منافسة فرنسا لها في ليبيا، كما نصت على أن تعترف فرنسا لإيطاليا بحرية اي إجراءات في طرابلس وبرقة باعتبارهما تابعين لها⁽³⁷⁾.

تعهد الطرفان بعدم التعرض لأهدافهما المشتركة في مراكش ومنطقة طرابلس، وكان الهدف من هذه التسوية إنهاء التنافس والتدافع عن طريق تقسيم النفوذ، ولم تكتف الحكومة الإيطالية بذلك بل سارت في أول نوفمبر 1902م في طريق اتفاقية سياسية لتأكيد اتفاقية 1900/12/14م بينها وبين فرنسا بقصد إنهاء أية خلافات بين البلدين بخصوص مصالهما في البحر المتوسط⁽³⁸⁾، وذلك لدراسة الوضع القائم وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بمصالحهما في طرابلس، وفي المغرب، واتفقتا على اتخاذ جانب الحياد في حالة عدوان مباشر وغير مباشر من قبل دولة واحدة أو دول متعددة⁽³⁹⁾.

أثرت المصالح المادية تأثيرا واضحا في ذلك التقارب، فقد كانت إيطاليا ترغب في القيام بالعمليات التجارية للحصول على الدخل، وكانت تعتقد بأنها لا تستطيع القيام بذلك بدون مساعدة السوق المالي في باريس، ولم تكن الحكومة الفرنسية في طرح السندات مالم تحصل على ضمانات سياسية، وزادت فرنسا من رسومها الجمركية إلى حد كبير مما أدى إلى تناقص صادرات إيطاليا إليها، وكانت هذه الأسباب الرئيسية التي دفعت الحكومة الإيطالية إلى تفسير التعهدات الموجودة في معاهدتها مع ألمانيا، علما بأنه لم يكن لديها التخطيط للانضمام إلى نظام معاد لألمانيا، كما كانت لا ترغب في التخلي عن الحلف

الثلاثي، إذ أن ذلك يهددها بالوقوع تحت تبعية فرنسا ويجعلها تفقد الميزة التي تعطي لها تحكيم ألمانيا في حالة خلاف مع النمسا، فضلا عن أنها كانت محتاجة أشد الاحتياج للسوق الألماني لتصدير منتجاتها الزراعية⁽⁴⁰⁾.

استغلت فرنسا الازمة الاقتصادية الإيطالية مما دفع إيطاليا للتعهد بعدم اتخاذ موقف معاد عند تجديد الحلف الثلاثي في 1902م، وقد كانت أضعف الأطراف المشتركة في هذا الحلف، وكانت تسعى للأكل على مائدي الحلف الثلاثي والحلف الفرنسي الروسي على حد تعبير ساسة أوروبا، لذلك لم يلبث ان أعطت وعدا بالالتزام بالحياد في الحرب التي قد تنشأ بين المعسكرين وذلك نظير إطلاق يده في ليبيا دون الارتباط بمسألة المغرب⁽⁴¹⁾.

وتحسنت العلاقات بينهما أكثر وتقربت إيطاليا من فرنسا فقد وقفت إيطاليا في مؤتمر الجزيرة⁽⁴²⁾ في سنة 1906م إلى جانب فرنسا، وحصلت منها على الضمانات السابقة بحرية تصرفها في ليبيا نتيجة موقفها هذا⁽⁴³⁾.

وقد أشار "سان جوليانو" في صيف 1911م أنه لا توجد في الوضع الدولي الحالي عقبات سياسية يمكن أن تعترضها لاحتلال طرابلس وبرقة، لأن فرنسا لا تستطيع أن تعارض بموجب الاتفاقية⁽⁴⁴⁾.

وأكد "دي سالف deselves" وزير الشؤون الخارجية الفرنسي الالتزام الفرنسي بالتعهدات المبرمة مع إيطاليا عام 1902م، حيث ضمن أن الحكومة الفرنسية ستكون ودية لتعهداتها دون شرط مع إيطاليا لأي عمل تقوم به في ليبيا كما أكد أن الحكومة الفرنسية سوف لن تعطي موافقتها على إعطاء قرضا جديدا للدولة العثمانية قبل أن تحل المشكلة الطرابلسية⁽⁴⁵⁾.

وفعلا رفضت فرنسا طلب الباب العالي للتدخل في النزاع العثماني الإيطالي لرفع فتيل الأزمة بين الدولتين، فقد أعلنت الخارجية الفرنسية بأنها لا تعتبر التوسط ممكناً في اللحظة الراهنة⁽⁴⁶⁾.

4. الاتفاق الروسي الإيطالي حول المصالح المتبادلة:

لم تكن روسيا قلقة من الحرب الإيطالية الليبية في بادئ الأمر، إلا أن أهداف الدبلوماسية الروسية لإضعاف الحلف الثلاثي لأنه يشكل خطراً على روسيا نظراً لسياستها في البلقان، جعلها تقترب تدريجياً من إيطاليا وتنشغل بالمسألة الطرابلسية⁽⁴⁷⁾. ولتهيئة الجو لعقد اتفاقية روسية إيطالية حول مشاكل البحر المتوسط، فقد عارضت روسيا الاقتراح الذي قدمه "جولو شوفسكي" وزير خارجية النمسا حول اقتحام الدول الكبرى للدردنيل بأساطيلها لإجبار السلطان عبد الحميد الثاني على تحسين معاملة الأرمن، فقد رأت الدبلوماسية الروسية أن وزير خارجية النمسا يكيد لروسيا وليس للدولة العثمانية، فاعتبرته عدواً للروس لأنه من أصل بولوني، وفسرت روسيا بأن الاقتراح يجعل الدول الأوروبية تتدخل في مشكلة المضائق العثمانية مما قد يضر مستقبلاً بمصالح روسيا، علماً بأن روسيا كانت تسعى إلى السيطرة على تلك المضائق لأنها سبيلها الوحيد إلى المياه الدافئة للبحر المتوسط، وقد اقترحت أن تقوم هي باقتحام البوسفور لإجبار السلطان عبد الحميد على ذلك، وقد عارضت الدول الأوروبية باستثناء فرنسا الاقتراح الروسي⁽⁴⁸⁾.

توصلت إيطاليا وروسيا أثناء لقاء عاهليهما في 1909م في راكونيدجي إلى اتفاق بتاريخ 24 أكتوبر 1909م سميت باسم المدينة نفسها، جاء البند الخامس منها بتأييد روسيا لمصالح إيطاليا في إقليم طرابلس وبرقة وتأييد إيطاليا لمصالح في مسألة المضائق. كما أبلغ "ميليجاري Miligari" سفير إيطاليا في بطرسبورغ، وزير الخارجية الروسي "نيراتوف Niratove" في رسالة له في 26 أوت 1911م بشكل سري عزم حكومته على وضع حد لكل الأذى الذي تسببه الدولة العثمانية في طرابلس باستمرار، وأعلن أن

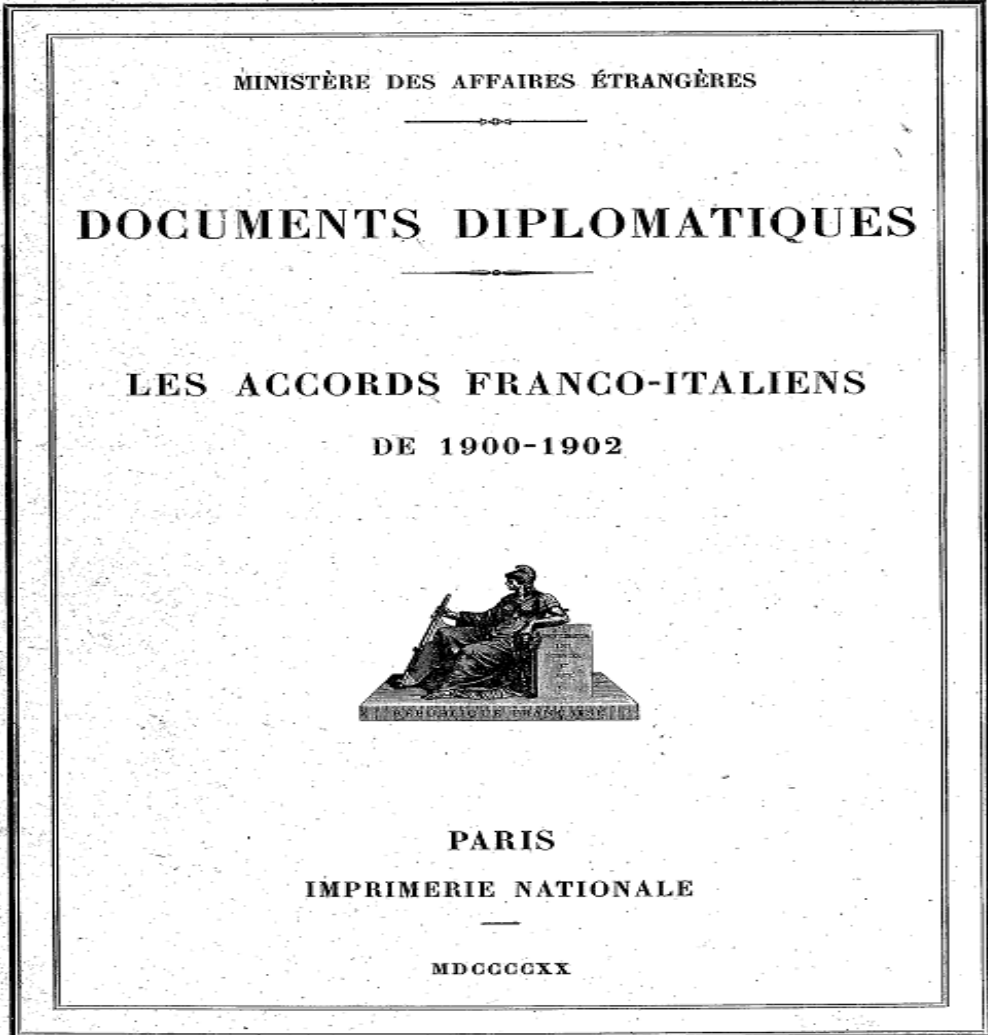
إيطاليا مستعدة لكافة الاحتمالات، ثم قال أن فرنسا وبريطانيا والنمسا والمجر ليسوا على علم بنوايا إيطاليا فقط وإنما لا يعارضون هذه النوايا أيضا⁽⁴⁹⁾.

وفكرت الحكومة الروسية في خريف 1911م، في تأييد الدولة العثمانية وطلب منها أن تستعد لإعادة النظر في وضعية المضائق الأمر الذي سيعيد حق المرور للسفن الحربية الروسية، إلا أنها غيرت فكرتها، وقد رأت أن تؤيد تحالف الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية وربما كان ذلك بدافع قومي⁽⁵⁰⁾ حيث رد نيراتوف على البلاغ الإيطالي قائلاً: " إنه طبقا لاتفاقية راكونيدجي فإنه لإيطاليا الحق في أن تترك في طرابلس برقة⁽⁵¹⁾ .

خلاصة:

هكذا استطاعت إيطاليا أن تبني بنجاح شبكة من التحالفات الدولية مؤيدة لمصالحها في ولاية طرابلس، وكان ذلك أحد الشروط الضرورية لإطلاق حملة الغزو العسكري على طرابلس الغرب في أواخر سنة 1911م.

الملاحق:



— 3 —

ANNEXE I.

M. BARRÈRE, Ambassadeur de la République française à Rome,

à S. E. M. le Marquis VISCONTI VENOSTA, Ministre des Affaires étrangères d'Italie.

Rome, 14 décembre 1900.

A la suite de la conclusion entre la France et la Grande-Bretagne de la Convention du 21 mars 1899 (1), mon Gouvernement, répondant à votre honorable prédécesseur, eut l'occasion de lui donner, par mon intermédiaire, des éclaircissements de nature à dissiper toute équivoque sur la portée de cet instrument.

Depuis, Votre Excellence a exprimé l'avis que ces assurances, réitérées d'une manière plus explicite, contribueraient à affermir les bons rapports entre nos deux pays.

J'ai été, en conséquence, autorisé par le Ministre des Affaires étrangères à faire connaître à Votre Excellence, en raison des relations amicales qui ont été établies entre la France et l'Italie, et dans la pensée que cette explication conduira à les améliorer encore, que la Convention du 21 mars 1899, en laissant en dehors du partage d'influence qu'elle sanctionne le vilayet de Tripoli, marque pour la sphère d'influence française, par rapport à la Tripolitaine Cyrénaïque, une limite que le Gouvernement de la République n'a pas l'intention de dépasser et qu'il n'entre pas dans ses projets d'intercepter les communications caravanères de Tripoli avec les régions visées par la susdite convention.

Ces explications, que nous sommes convenus de tenir secrètes, contribueront, je n'en doute pas, à consolider, sur ce point comme sur d'autres, les relations amicales entre nos deux pays.

BARRÈRE.

ANNEXE II.

M. le Marquis VISCONTI VENOSTA, Ministre des Affaires étrangères d'Italie,

à M. BARRÈRE, Ambassadeur de la République française à Rome.

Rome, le 16 décembre 1900.

La situation actuelle dans la Méditerranée et les éventualités qui s'y pourraient produire ont formé entre nous l'objet d'un échange amical d'idées, nos deux gouvernements étant également animés du désir d'écarter, à cet égard aussi, tout ce qui serait susceptible de compromettre, dans le présent et dans l'avenir, la bonne entente mutuelle.

(1) Cette Convention a fait l'objet d'un Livre Jaune publié en 1899.

الإتفاق الموقع في روما 1900/12/16.14م بين فرنسا، إيطاليا بشأن المغرب
ومنطقة طرابلس.

— 4 —

En ce qui concerne plus particulièrement le Maroc, il est ressorti de nos entretiens que l'action de la France a pour but d'exercer et de sauvegarder les droits qui résultent pour elle du voisinage de son territoire avec cet Empire.

Ainsi définie, j'ai reconnu qu'une pareille action n'est pas à nos yeux de nature à porter atteinte aux intérêts de l'Italie comme puissance méditerranéenne.

Il a été entendu également que, s'il en devait résulter une modification de l'état politique ou territorial du Maroc, l'Italie se réserverait, par mesure de réciprocité, le droit de développer éventuellement son influence par rapport à la Tripolitaine Cyrénaïque.

Ces explications, que nous sommes convenus de tenir secrètes, contribueront, je n'en doute pas, à consolider les relations amicales entre nos deux pays.

VISCONTI VEROSTA.

الاتفاق الموقع في روما في أول نوفمبر 1902م بين فرنسا وإيطاليا بقصد إنهاء أية خلافات بين البلدين بخصوص مصالح كليهما في البحر المتوسط

— 8 —

possible entre nos deux pays, vous avez été autorisé par le Gouvernement de Sa Majesté à formuler spontanément certaines déclarations destinées à préciser les rapports généraux de l'Italie vis-à-vis de la France.

J'ai l'honneur d'accuser réception à Votre Excellence et de Lui donner acte au nom de mon Gouvernement de ces déclarations.

Je suis autorisé, en retour, à formuler de la manière suivante les conditions dans lesquelles la France entend, de son côté, dans le même esprit amical, régler ses rapports généraux vis-à-vis de l'Italie.

Au cas où l'Italie serait l'objet d'une agression directe ou indirecte de la part d'une ou de plusieurs puissances, la France gardera une stricte neutralité.

Elle en sera de même au cas où l'Italie, par suite d'une provocation directe, se trouverait réduite à prendre, pour la défense de son honneur ou de sa sécurité, l'initiative d'une déclaration de guerre. Dans cette éventualité, le Gouvernement royal devra communiquer préalablement son intention au Gouvernement de la République, mais sans à même de constater qu'il s'agit bien d'un cas de provocation directe.

Je suis autorisé également à vous déclarer qu'il n'existe de la part de la France, et qu'il ne sera conclu par elle aucun protocole ou disposition militaire d'ordre contractuel international qui serait en désaccord avec les présentes déclarations.

Il est entendu enfin que, sauf en ce qui concerne l'interprétation des intérêts méditerranéens des deux puissances, laquelle a un caractère définitif, conformément à l'esprit de la correspondance échangée les 14 et 16 décembre 1900 entre le Marquis Visconti Venosta et moi, les déclarations qui précèdent et qui doivent rester secrètes, étant en harmonie avec les engagements internationaux actuels de l'Italie, auront leur pleine valeur aussi longtemps que le Gouvernement royal n'aura pas fait connaître au Gouvernement de la République que ces engagements ont été modifiés.

BARRÈRE.

N° 8.

M. PRINETTI, Ministre des Affaires étrangères d'Italie,

à M. BARRÈRE, Ambassadeur de la République française à Rome.

Rome, le 1^{er} novembre 1901.

A la suite des conversations que nous avons eues touchant la situation réciproque de l'Italie et de la France dans le bassin méditerranéen, et touchant plus spécialement les intérêts respectifs des deux nations en Tripolitaine-Cyrénaïque et au Maroc, il nous a paru opportun de préciser les engagements qui résultent des lettres échangées à ce sujet entre Votre Excellence et le Marquis Visconti Venosta, les 14 et 16 décembre 1900, en ce sens que chacune des deux Puissances pourra librement

— 8 —

possible entre nos deux pays, vous avez été autorisé par le Gouvernement de Sa Majesté à formuler spontanément certaines déclarations destinées à préciser les rapports généraux de l'Italie vis-à-vis de la France.

J'ai l'honneur d'accuser réception à Votre Excellence et de Lui donner acte au nom de mon Gouvernement de ces déclarations.

Je suis autorisé, en retour, à formuler de la manière suivante les conditions dans lesquelles la France entend, de son côté, dans le même esprit amical, régler ses rapports généraux vis-à-vis de l'Italie.

Au cas où l'Italie serait l'objet d'une agression directe ou indirecte de la part d'une ou de plusieurs puissances, la France gardera une stricte neutralité.

Il en sera de même au cas où l'Italie, par suite d'une provocation directe, se trouverait réduite à prendre, pour la défense de son honneur ou de sa sécurité, l'initiative d'une déclaration de guerre. Dans cette éventualité, le Gouvernement royal devra communiquer préalablement son intention au Gouvernement de la République, mais ainsi à moins de constater qu'il s'agit bien d'un cas de provocation directe.

Je suis autorisé également à vous déclarer qu'il n'existe de la part de la France, et qu'il ne sera conclu par elle aucun protocole ou disposition militaire d'ordre contractuel international qui serait en désaccord avec les présentes déclarations.

Il est entendu enfin que, sauf en ce qui concerne l'interprétation des intérêts méditerranéens des deux puissances, laquelle a un caractère définitif, conformément à l'esprit de la correspondance échangée les 14 et 16 décembre 1900 entre le Marquis Visconti Venosta et moi, les déclarations qui précèdent et qui doivent rester secrètes, étant en harmonie avec les engagements internationaux actuels de l'Italie, auront leur pleine valeur aussi longtemps que le Gouvernement royal n'aura pas fait connaître au Gouvernement de la République que ces engagements ont été modifiés.

BARRÈRE.

N° 8.

M. PRINETTI, Ministre des Affaires étrangères d'Italie,

à M. BARRÈRE, Ambassadeur de la République française à Rome.

Rome, le 1^{er} novembre 1901.

A la suite des conversations que nous avons eues touchant la situation réciproque de l'Italie et de la France dans le bassin méditerranéen, et touchant plus spécialement les intérêts respectifs des deux nations en Tripolitaine-Cyrénaïque et au Maroc, il nous a paru opportun de préciser les engagements qui résultent des lettres échangées à ce sujet entre Votre Excellence et le Marquis Visconti Venosta, les 14 et 16 décembre 1900, en ce sens que chacune des deux Puissances pourra librement

— 9 —

développer sa sphère d'influence dans les régions susmentionnées au moment qu'elle jugera opportun, et sans que l'action de l'une d'elles soit nécessairement subordonnée à celle de l'autre. Il a été expliqué à cette occasion que, par la limite de l'expansion française en Afrique septentrionale, visée dans la lettre précitée de Votre Excellence du 14 décembre 1900, on entend bien la frontière de la Tripolitaine indiquée par la carte annexée à la déclaration du 21 mars 1899, additionnelle à la Convention franco-anglaise du 14 juin 1898.

Nous avons constaté que cette interprétation ne laissait subsister actuellement entre nos Gouvernements aucune divergence sur leurs intérêts respectifs dans la Méditerranée.

À l'occasion de ces pourparlers, et pour éliminer d'une manière définitive tout malentendu possible entre nos deux pays, je n'hésite pas, pour préciser leurs rapports généraux, à faire spontanément à Votre Excellence, au nom du Gouvernement de Sa Majesté le Roi, les déclarations suivantes :

Au cas où la France serait l'objet d'une agression directe ou indirecte de la part d'une ou de plusieurs puissances, l'Italie gardera une stricte neutralité.

Il en sera de même au cas où la France, par suite d'une provocation directe, se trouverait réduite à prendre, pour la défense de son honneur ou de sa sécurité, l'initiative d'une déclaration de guerre. Dans cette éventualité, le Gouvernement de la République devra communiquer préalablement son intention au Gouvernement royal, mais ainsi à même de constater qu'il s'agit bien d'un cas de provocation directe.

Pour rester fidèle à l'esprit d'amitié qui a inspiré les présentes déclarations, je suis autorisé, en outre, à vous confirmer qu'il n'existe de la part de l'Italie, et qu'il ne sera conclu par elle aucun protocole ou disposition militaire d'ordre contractuel international qui serait en désaccord avec les présentes déclarations.

J'ai à ajouter que, sauf en ce qui concerne l'interprétation des intérêts méditerranéens des deux Puissances, laquelle a un caractère définitif, conformément à l'esprit de la correspondance échangée, les 14 et 16 décembre 1900, entre Votre Excellence et le Marquis Visconti Venosta, les déclarations qui précèdent étant en harmonie avec les engagements internationaux actuels de l'Italie, le Gouvernement royal entend qu'elles auront leur pleine valeur aussi longtemps qu'il n'aura pas fait savoir au Gouvernement de la République que ces engagements ont été modifiés.

Je serais reconnaissant à Votre Excellence de vouloir bien m'accuser réception de la présente communication, qui devra rester secrète, et m'en donner acte au nom du Gouvernement de la République.

PRINETTI.

التهميش:

- (1) ز، ب، ياخيموفتش، الحرب التركية الإيطالية، ت، هاشم صالح التكريتي، منشورات الجامعة الليبية، بيروت، ط1، 1970م، ص 43.
- (2) جلال يحيى، المغرب الكبير في العصور الحديثة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1966م، ص 724.
- (3) بير نوفان، تاريخ العلاقات الدولية 1815. 1974م، تر جلال يحيى، دار المعارف، القاهرة، 1971م، ص 586، 587، 593.
- (4) سمعان بطرس فرج الله، العلاقات السلمية الدولية في القرن العشرين، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط1 1974م، ص 287.
- (5) نور الدين حاطوم، حركة القومية الإيطالية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط1، 1971م، ص 185، 186، 189.
- (6) نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 189.
- (7) انظر رسالة وزير الخارجية الإيطالي إلى سفيره في برلين بهذا الخصوص.
- (8) Ponteil ,F, **La méditerranée et les puissance depuis l'ouverture jusqu'à la nationalisation du canal suez**, Paris, Payot, 1964, p 57.
- (9) Ibid, p 58.
- (10) محمد مصطفى بازامه، العدوان، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ط1، 1965م، ص 23.
- (11) Auter. M. H., **Histoire diplomatique de L europe 1871-1914**, paris, les presse universitaires de France, 1929, p 197.

- (12) خليفة عبد المجيد المنتصر، ليبيا قبل المحنة وبعدها، وزارة الأنباء والإرشاد، طرابلس، ط1، 1963م، ص37.
- (13) Grand. A. J. and Temperley. H, **Europe in the nineteenth and twentieth centuries 1789–1917**, london, rongman croup limited, 1971, p 360.
- (14) Auter.M.H, op cit, pp 114, 115.
- (15) Auter.M.H, op cit, p 120.
- (16) خليفة محمد التليسي، مذكرات جوليت الأسرار العسكرية والسياسية لحرب ليبيا، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ط1، 1976م، ص 51.
- (17) نفسه، ص 66.
- (18) ز، ب، ياخيموفتش، المصدر السابق، ص 70.
- (19) خليفة محمد التليسي، مذكرات جوليت الأسرار العسكرية والسياسية لحرب ليبيا، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ط1، 1976م، ص65.
- (20) محمود العرفاوي، مخاض الإمبريالية والفاشية الإيطاليتين 1882 – 1912م، ج2، ترجمة عمر الطاهر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 1991م، ج2، ص 352.
- (21) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث 1800 – 1918م، مطبعة النهضة الجديدة، أسيوط، دت، ص213.
- Ajay.J.F, **General of Afica**, vol 1, california, university press, و 1969, p 747.
- (22) محمد عبد الرزاق مناع، جذور النضال العربي في ليبيا، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ط2، 1972م، ص15.
- (23) ساطع الحمري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، 1965م، ص175. فرانسيس وينوار، إيطاليا شعبها وأرضها، ترجمة محمد نظيف، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1963م، ص20.

- (24) هنري أنيس ميخائيل، **العلاقات الإنجليزية الليبية**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ط1، 1970م، ص15، 45 .
- (25) محمود العرفاوي، المرجع السابق، ص 19.
- (26) محمود العرفاوي، المرجع السابق، ص 25.
- (27) حسين ليبب، **تاريخ المسألة الشرقية**، دار الهلال، القاهرة، ط1، 1921م، ص 116.
- (28) ز. ب. ياخيموفيتش، المصدر السابق، ص 61.
- (29) نفسه، ص65.
- (30) خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص 61.
- (31) H. Hearder and D. P. vrabey, **A short History of Italy**, Cambridge university press, London, 1962, p 187.
- (32) Denys Hays, **The Italian Renaissance in its historical bak ground**, cambridge university press, 1963, p 186.
- (33) محمد مصطفى بازامة، المصدر السابق، ص139.
- (34) Denys Hay , op cit, p 186.
- (35) محمد عبد الرزاق مناع، **جذور النضال العربي في ليبيا**، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ط2، 1972م، ص 15،
- (36) ينظر الملحق ، الإتفاق الموقع في روما 1900/12/16.14م بين فرنسا، إيطاليا بشأن المغرب ومنطقة طرابلس. انظر
- D D F , Les Accords Franco-italiens 1900-1902,N 1, p3 , 4 .
- (37) أنوري روس، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م**، تر خليفة محمد التليسي، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1974م، ص 366.
- (38) الملحق الاتفاق الموقع في روما في أول نوفمبر 1902م بين فرنسا وإيطاليا بقصد إنهاء أية خلافات بين البلدين بخصوص مصالح كليهما في البحر المتوسط.

D D F , Les Accords Franco-italiens 1900-1902, N 7- 8, p 7-9 .

(39) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الغزو الإيطالي 1882م. 1911م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1971م، ص 324.

(40) جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، مؤسسة المعارف، الاسكندرية، 1976م، ص

(41) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث 1800 - 1918م، مطبعة النهضة الجديدة، أسيوط، د ت، ص 204

(42) حول المؤتمر(الجزيرة: مدينة الجزيرة الخضراء الإسبانية على مضيق جبل طارق، انظر، روم لاندو، تاريخ المغرب العربي في القرن العشرين، ت، نيقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، 1963م، ص 92،93، وتايلر، أ.ج.ي، الصراع على السيادة في أوروبا 1848.1918م، ت، كاظم هاشم النعمة، يوسف عزيز، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر. بغداد، 1980م، ص 499.

(43) نعمة السيد، المغرب العربي، دار الحرية، بغداد، 1979م، ص 194.

(44) نفسه، ص 58.

(45) محمود العرفاوي، المصدر السابق، ص 24.

(46) ز.ب. ياخيموفتش، المصدر السابق، ص 64.

(47) بيير رونوفي، تاريخ القرن العشرين، ت، نور الدين حاطوم، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ط2، 1960م، ص 19.

(48) Auter .M.H,op cit, pp 117,118.

(49) ز.ب. ياخيموفتش، المصدر السابق، ص 61، ومحمود العرفاوي، المصدر السابق، ص 46.

(50) جلال يحيى، المرجع السابق، ص 47.

(51) محمود العرفاوي، المصدر السابق، ص 25.

الحركة الإصلاحية بمنطقة الحضنة (1931 – 1954م)

ودور الشيخ نعيم النعيمي فيها.

أ. نورالدين مقدر/ قسم التاريخ / جامعة محمد بوضياف / المسيلة.

megder1970@gmail.com

ملخص باللغة العربية:

شهدت الساحة الجزائرية مطلع الثلاثينات من القرن العشرين ظهور حركة إصلاحية، دينية، تعليمية (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، ساهمت بقدر كبير في تحريك الساحة السياسية في كامل ربوع الوطن. وكانت لمنطقة الحضنة نصيب هام حيث برزت بعض الشخصيات 5 موسى الأحمدى نويوات، أبو القاسم الحفناوي، علي بوديلمي، محمد العدوي، محمود أرسلان، الشيخ نعيم النعيمي وغيرهم) ومن الأسماء التي كان لها دورا كبيرا في بلورة العمل الاصلاحى والحركة السياسية بمنطقة الحضنة ما بين (1931 – 1954) وفي هذا المقال سنسلط الضوء على نشاط الحركة الاصلاحية في منطقة الحضنة ما بين (1931 – 1954) والدور الذي لعبه الشيخ نعيم النعيمي فيها.

Résumé:

A L'aube des années 30 du 20^{eme} siècle, L'Algérie a connu la naissance d'un mouvement réformiste, religieux et éducatif (association des oulamas musulman algériens). Cette dernière a participé d'une manière très importante dans le mouvement du champ politique à travers tout le territoire algérien. La région d'El Hodna avait sa part dans cette participation car des

personnalités surgissaient tel que (Moussa Al ahmadi Nouiouett, Abou El kacem El Hafnaoui, Ali Boudilmi, Mouhamed El Adoui, mahmoud Arsalen, cheikh Naïm El Naïmi et d'autres ...). ces derniers avaient un grand role dans l'organisation du travail réformiste et le mouvement politique dans la région d'El Hodna entre (1931 – 1954).

Dans cet article nous allons mettre la lumière sur l'activité du mouvement réformiste dans la région El Hodna entre (1931 – 1954) et le rôle qui a joué cheikh Naïm El Naïmi.

شهدت الساحة الجزائرية مطلع الثلاثينات من القرن العشرين ظهور حركة إصلاحية، دينية، تعليمية (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، ساهمت بقدر كبير في تحريك الساحة السياسية في كامل ربوع الوطن.

وكانت لمنطقة الحضنة¹ نصيب هام حيث برزت بعض الشخصيات منها: موسى الأحمدى نويوات، أبو القاسم الحفناوي، علي بوديلمي، محمد الدراجي ميهوي، محمود أرسلان، الشيخ نعيم النعيمي وغيرهم من الأسماء التي كان لها دورا كبيرا في بلورة العمل الإصلاحي والحركة السياسية بمنطقة الحضنة ما بين (1931 – 1954).

وتتمحور إشكالية هذا المقال حول نشاط الحركة الإصلاحية بمنطقة الحضنة بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931م ودور الشيخ نعيم النعيمي فيها، والاشكالية المطروحة: ما نشاط الحركة الإصلاحية بمنطقة الحضنة بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931؟ وما الدور الذي لعبه الشيخ نعيم النعيمي في نشاط الحركة الإصلاحية وبلورة العمل السياسي بمنطقة الحضنة حتى 1954؟

وفي هذا المقال سنسلط الضوء على نشاط الحركة الإصلاحية في منطقة الحضنة ما بين (1931 - 1954) والدور الذي لعبه الشيخ نعيم النعيمي فيها.

شعبة جمعية العلماء المسلمين بمنطقة الحضنة:

إذا كانت الفترة الممتدة بين: 1931م تاريخ تأسيس الجمعية و1944م تاريخ تأسيس حركة أحباب البيان والحربة بالنسبة لمنطقة الحضنة قد امتازت بتشتت الجهود وفردية العمل وقلة الأثر على نفوس الأهالي فقد تميزت الفترة الثانية من عمل شعبة جمعية العلماء ما بين (1944 - 1954) بتطور العمل الجماعي المنظم، الموجه من قبل جمعية العلماء المسلمين التي أصبحت تتكفل بتغطية إقليم الحضنة من حيث: تقديم الوعاظ والمرشدين وساهمت عوامل جديدة في بروز هذا التوجه الجماعي المنظم للحركة الإصلاحية بقيادة الجمعية،

منها دور أصحاب أحباب البيان في جمع العناصر الوطنية والتقاءها ومباشرتها العمل الجماعي المنسق وأثر الحرب العالمية الثانية على إقليم الحضنة التي تأثرت اجتماعيا كثيرا من صعوبة المعيشة وسوء الحال، ودفعت فئات الشعب التآزر والتضامن لرفع الغبن والبؤس عن الشعب، ومن جهة ثانية ساهمت عملية عودة المهاجرين إلى الحضنة في بلورة العمل الجماعي في إطار الحركة الوطنية وتضافرت جهود أعضاء جمعية العلماء بالحضنة من أمثال: محمد الطاهر لطرش، ونعيم النعيمي، وموسى الأحمدى نويوات، ومشتي السعيد، وعيسى المعتوقى، ومحمد الدراجى العدوي في بعث الحركة التعليمية والفكرية رغم الإمكانيات الضعيفة ومحاصرة الإدارة الاستعمارية لنشاطهم، إلا أن نشاطهم الإصلاحى كان جزءا من العمل السياسى الوطنى الذى ساهم فى توحيد الجهود ودفع الشرور ولمّ الشمل مع باقى الحركات الوطنية بالمنطقة وكان من أولى ثمار هذا التوجه المبادرة فى تأسيس ركن هام لأى حركة أو نهضة وطنية وهو المدرسة، لا يجب فى هذا المقام التنويه ببعض رجال المسيلة الذى تركوا بصمات فى سلك التعليم والتربية والكتابة منهم الكاتب: يوسف معلوفى الذى كان يدرس ضمن حركة العلماء الإصلاحيين وكان يكتب دائما باستمرار باللغة الفرنسية فى جريدة صدى الجزائر: Lécho d'Alger فترة الثلاثينيات قبل أن ينتقل إلى العاصمة مدينة شرشال، وقبل انتقاله حضى بمدينة المسيلة بحفل تكريمى له فى: 03 ماي 1932 بقاعة الغربية (إبراهيم بن الموهوب) حضرها علماء وأعيان المسيلة نذكر

منهم: موسى الأحمدى نويوات وعمار بن بلال وزغلاش البشير ومحمد سلامي
وعبد القادر بن الطيب واخروف وآخرين².

كما كان إلى جانبه الأديب علي بن يعيش المعروف عند العلماء
بالمسيلي والذي كان منزله يمثل ملتقى طلاب العلم والقراءة ومقر لإكرام عابري
السبيل والفقراء، وهو معروف في أوساط كبار المسيلة وشغل مناصب عديدة
ومسؤوليات في نادي الحضنة وجمعية المساعدة للتكافل الاجتماعي ورئيس
ودادية قدماء تلاميذ المسيلة بعد الحرب العالمية الثانية، وقد أشادت بدوره
الاجتماعي والوطني جريدة النجاح في عددها 06 لشهر ماي 1932م.

إلى غاية سنة 1950 لم نعثر في وثائق وسجلات الأرشيفات
الاستعمارية ولا حتى في ذاكرة من عايشوا النشاط العلمي لجمعية العلماء عن
تاريخ سابق لتكوين شعبة جمعية العلماء المسلمين بالمسيلة كهيئة رسمية علنية
باعتبار قانونية الجمعية عكس خلايا حزب الشعب التي بقيت تراود السرية
والتقرير الذي يكاد يكون الوحيد حول مسألة تأسيس شعبة الجمعية يعود إلى:
1950/01/14، حيث أشار إلى وجود 41 عضو من أعضاء جمعية العلماء
بالمسيلة وأن مناسبة تأسيس هذه الشعبة كان قدوم السيد السعيد بولكجات

المدعو الشيخ البيباني وهو من مدينة تابلاط وكان يشغل مدير مدرسة التهذيب بباتنة، وقد استطاع أعيان المسيلة جمع مبلغ: 7000 فرنك للشيخ البيباني.

إلا أنه توجد في سجلات البصائر ما يشير إلى وجود شعبة جمعية العلماء ببلدة المسيلة ولو بصورة أشخاص عاملين حيث أشارت جريدة البصائر إلى مسألة حضور بعض النشطاء الإصلاحيين من المسيلة إلى الاجتماع العام للجمعية بالجزائر العاصمة سنة: 1938. وقد أشار في هذه الفترة أحد أبناء المنطقة إلى رغبة الإصلاحيين من المسيلة في حضور اجتماع الجمعية بنادي الترقى وهو السيد بعجي المبارك الذي كان شديد التعلق بالجمعية إلى جانب بن يعيش والسيد الطاهر لطرش واستطاعت هذه العناصر مع آخرين عقد اجتماع بحي خربة تليس بالمسيلة لتأسيس خلية الجمعية بالمدينة سنة: 1950 وتكون مكتب الشعبة على النحو التالي:

مصطفى بن يحيى: رئيسا، مشتي السعيد: نائبا، كبوية عيسى: كاتب عام، محمد بلحسين: نائبا له، الحاج الطاهر لطرش: أمين مال، أحمد حجاب: نائبا له، المسعود عكة: مراقب إلى جانب الأعضاء: ابن يحيى إبراهيم، ابن خليل العمري، لدغم شيكوش محمد، عمرون ساعد، داوود إبراهيم³ ويضيف الحاج الطاهر لطرش حول مسألة تأسيس الشعبة: شرعنا في توسيع دائرة الإصلاح

وتعميمها على الجماعات بعد أن كانت مقصورة على الأفراد وانعقدت بعد ذلك الكثير من الاجتماعات وقوي الإحساس بالجمعية وعلمائها.

وكدعم لجمعية العلماء المسلمين قدّم مثقفو وأعيان وعلماء مدينة المسيلة خلال الحرب العالمية الثانية طلب بناء⁴ وإنشاء مدرسة باسم جمعية العلماء المسلمين تكون منارة للتعليم والإصلاح وتكون هيئتها ومكتبها وأعضائها. ويبدو هذا التوجه لبناء مدرسة باسم الجمعية، إنما هو نابع من رغبة الأهالي في التمييز عن المدارس الفرنسية الموجودة منذ نهاية القرن التاسع عشر بالمسيلة والتي يراها الأهالي كوجه للاحتلال ووسيلة في تغريب أبناء المنطقة وهذا ما أدى بأغلبهم إلى تجنب ذهاب أبنائهم إلى هذه المدارس.

كان التفكير في بناء هذه المدرسة جزء من مشروع جمعية العلماء المسلمين في توسيع حركة التعليم العربي الإسلامي وتنشئة الشباب على النهج الصحيح لذلك ساهمت العناصر الطلابية التي انتقلت من منطقة المسيلة إلى قسنطينة نهاية الثلاثينيات في حمل هذه الرسالة على عاتقها، وبدأت عملية جمع التبرعات والتفكير في منطقة تكوينها إلا أنّ الإدارة الاستعمارية حالت دون الإسراع في السماح بإنجازها.

أدى هذا التعنت من قبل الإدارة إلى طلب أهل المسيلة في مكتب جمعية العلماء بقسنطينة بضرورة إرسال أحد أعضائها ليقوم بمهمة الإرشاد والوعظ والدعوة للسكان خاصة خلال شهر رمضان فكانت الموافقة على الشيخ نعيم النعيمي.

دور الشيخ نعيم النعيمي (1950-1954):

يعتبر الشيخ نعيم النعيمي من أهم شخصيات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين عملوا في إطار برنامج الجمعية على تنشيط الحركة الإصلاحية بمنطقة الحضنة⁵، انطلاقاً من مساجدها وساحاتها العمومية التي مثلت الفضاء الملائم لخطبه ودروسه.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ النعيمي سنة: 1909م ببلدة سيدي خالد بأولاد حركات بيسكرة، درس بزواوية المختار ببلدة أولاد جلال ثم التحق بتونس عام 1923م لكنه لم يدم طويلاً لينتقل ويعود للجزائر بعد سنتين، وظلّ ينتقل في مدن الشرق الجزائري ووسطها حيث اتصل بالعلماء وشيوخ الزوايا وزار الكثير من المدن كالمدينة والجلفة والأغواط وتيارت ومعسكر وغيليزان وقصر البخاري بعد أن

أصبح عضواً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي كلفته بتولي مهمة التعليم والوعظ والإرشاد باسمها في هذه المدن ومنها مدينة المسيلة التي حلّ بها سنة 1952 موفداً من قبل الجمعية.

استطاع الشيخ النعيمي بعصاميته أن يكون ثروة لغوية وفصاحة خطابية وكون مكتبة ثرية (هي الآن محفوظة بمكتبة الشيخ بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة). وكان خلال تنقلاته سواء بالجزائر أو بالمشرق العربي عندما أراد الحج سنة 1961 يقوم بجمع الكتب النادرة، وكون علاقات مع علماء الشام والحجاز، كما تلقى دروساً من الشيخ الألباني والشيخ عبد العزيز آل عيون السود.

ومن المناصب التي تولّاها الشيخ النعيمي بعد الاستقلال مهنة التفتيش بوزارة الشؤون الدينية بقسنطينة وسطيف.

ومما اشتهر به الشيخ النعيمي حبه للشعر، حيث نظم كتاباً شعرياً سمّاه "قطر الندى" وقال فيه الشيخ البشير الإبراهيمي: "أمّا الشيخ نعيم النعيمي فهو عصامي في العلم وحجة على الذكاء والاستعداد يأتيان مع قليل من التعليم بالعجائب، والرجل مجموعة مواهب لو نُظمت في الصغر ووجهت لجات شهادة قاطعة على أن لا مبالغة في كل ما يروى عن أفاض المتقادمين، فهو يحفظ

الأحاديث بأسانيدھا - لا عن طريقة عبد الحي - ويحفظ عدة ألفيات في السير وعلوم الأثر وعلوم النحو وغيرها".

كما ارتبطت حركة وجهود الشيخ النعيمي بمساعدة ثلة من أعيان وتلاميذ الجمعية من أهالي الحضنة أمثال الشيخ محمد العدوي الذي اشتغل بالتعليم والإرشاد في مناطق أخرى باسم الجمعية خاصة بسيق، باريقو، تلييات والمناطق الغربية منها ضواحي تيهرت⁶. وكذا الشيخ الحاج الطاهر لطرش، والشيخ بن عيسى محمد بن النذير، وكل هؤلاء ساهموا بأموالهم ونشاطهم مع بقية نشطاء الحركة الوطنية بمختلف مشاربها على إحياء التعليم العربي الإسلامي وبت الروح الوطنية والإصلاحية لدى السكان في المساجد والساحات العامة والنوادي.

تلقت جمعية العلماء المسلمين طلب من وفد مدينة المسيلة نهاية الأربعينيات لإرسال أحد العلماء لإلقاء الخطب المسجدية والإرشاد الديني لأهالي البلدة الذين كانوا في حاجة ماسة لها في ظل انتشار الجهل والأباطيل، وقد وقع اختيار الجمعية على الشيخ النعيمي، الذي صار ينتقل بين مدينة المسيلة وبوسعادة يقدم الدروس خلال شهر رمضان وأيام السنة، وعادة ما كان يمكث شهر رمضان بكامله بمدينة المسيلة يتجول بين مساجدها في رأس الحارة

والشتاوة، وخربة تليس، حتى أنّه عاش بالمدينة ثلاث سنوات كاملة قبيل الثورة التحريرية، أصبح من شخصياتها الدينية الهامة التي أحييت ليالي رمضان بالإيمان والتضامن، أقام الشيخ النعيمي علاقات حميمة بشخصيات المنطقة من العلماء والأعيان ونشاط الحركة الوطنية مثل الشيخ لطرش تلميذا جمعية العلماء، وفلوسية علي وبن يحي محمد وبن عيسى محمد بن النذير، وكان يؤمّ المصلين خلال التراويح وتستغل العناصر المختلفة في الأحزاب الوطنية أمثال ميلي احمد ومشقي السعيد وبرة عبد الرحمان من حزب الشعب الجزائري، وكبوية إبراهيم، كبوية المدني وشيكوش الحاج عيسى، ونوي مهيدي على أنصار البيان الديمقراطي، تستغل وجوده وإطار نشاطه القانوني - البعيد عن السياسة حسب فرنسا - في مناقشة المسألة الوطنية وسبل النضال⁷.

ورغم أنّ خطب الشيخ النعيمي كانت بعيدة عن التعرض إلى السياسة كما تشير إليه التقارير الفرنسية إلا أنّه استطاع أن يوحد اتجاهات الحركة الوطنية بمنطقة الحضنة التي ربما كان البعد الديني أوسع وأشمل غطاء لأي جهد وطني عندهم، واستطاع أن يكون الرجل المحوري في خدمة المشاريع الخيرية كالمدارس والجمعيات، وقد تجسدت أعماله الخيرية في نواحي عديدة نذكر منها: تحويل

مقبرة الجعافرة إلى مسجد، والتعجيل في تنفيذ مشروع جمعية العلماء ببناء مدرسة باسم الرجاء بالمسيلة، وفض نزاعات عديدة بين الأهالي ولمّ شمل السكان⁸.

لقد كانت الإدارة الاستعمارية من خلال أعينها الراصدة لتحركات الشيخ النعيمي من الشرطة والدرك والقيادة تتابع كل حركة للشيخ بمنطقة الحضنة وترسل التقارير الدورية عن أعماله وخطبه ومضامينها⁹.

دور النعيمي في بناء مدرسة الرجاء:

تعود فكرة بناء مدرسة أهلية ذات بعد عربي إسلامي في إطار المدارس التي تمّ إنجازها من قبل جمعية العلماء المسلمين إلى الحرب العالمية الثانية 1944 عندما تمّ إيداع طلب تأسيس مكتب لها لدى الإدارة الاستعمارية¹⁰.

ولم تكن الإدارة أن تسمح بذلك في ظلّ تنامي الحركة الوطنية بعد تأسيس حركة أحباب البيان والحركة التي شارك فيها تقريبا كل أعضاء المكتب المكون لهذه المدرسة وتأخّر موعد إنجازها إلى حين مجيء الشيخ النعيمي سنة 1951 والذي كان يدعو إلى مثل هذه المنجزات الحضارية خلال خطبه

بمساجد أحياء مدينة المسيلة، بالكوش والكراغلة والشتاوة، وخلال محاضرة قدمها بمسجد حي الكوش خلال رمضان (08 جوان إلى 16 جوان 1952) طرح الشيخ النعيمي مسألة بناء مدرسة قرآنية باديسية بالمدينة، وكان حماس الحضور كبيرا جدا وتمت بسرعة عملية أولية لجمع التبرعات والأموال.

كانت بدايتها حي الكوش¹¹، حيث طرحت مسألة الأرض التي تقام عليها المدرسة التي وقفت المشروع إلى حين عودة الشيخ النعيمي إلى المسيلة في 09 سبتمبر 1952 حيث أقام بها إلى غاية 13 سبتمبر من أجل تنشيط عدة دروس ومحاضرات والتقى بأعيان المدينة ورموز الحركة الوطنية من بينهم: فلوسية علي الذي دعاه إلى إلقاء درس لنفس الهدف بجامع سيدي صالح بجي رأس الحارة (الكراغلة) الذي كان يشرف عليه الشيخ الوقور مشتي السعيد، وحضر الدرس لتلاميذ جمعية العلماء أمثال لطرش الطاهر، بن عيسى محمد، حجاب احمد وأعضاء الأحزاب الوطنية الأخرى.

وتحرك السكان لنداء الشيخ النعيمي حيث جمعوا مبلغ: 2300.00 فرنك، خصص جزء منها لشراء الأرض المخصصة للمشروع من عند السيد شيكوش الحاج عيسى (صاحب الأرض)¹² وبقية المبلغ 50000 للبناء.

وتكونت لجنة مؤقتة من أجل القيام بالمشروع الذي عرف في التقارير الفرنسية
بمشروع النعيمي¹³.

تضافرت جهود المحسنين وأعيان المدينة في التعجيل في إنهاء أشغال
المدرسة، وتم خلال سنة 1953 فتح مدرسة وجزت بوسائل متواضعة بمدرستين
لتعليم العربية وعلوم القرآن وأصبحت هذه المدرسة رمز الهوية الوطنية والوحدة
الاجتماعية، بحيث ساهم المجتمع الحضني بمختلف فئاته ومناطقه بتقديم
المساعدات المالية والمعنوية لهذا الصرح الحضاري الذي اعتبر مفخرة المنطقة التي
غطت على باقي المدارس الفرنسية التي بنيت في إطار الاحتلال الفرنسي
كمدرسة الذكور المركزية ومدرسة الإناث بالمسيلة.

واستمر الشيخ نعيم النعيمي في جهوده الإصلاحية بمنطقة الحضنة إلى
ما بعد اندلاع الثورة التحريرية وحتى بعد إغلاق الإدارة الاستعمارية لمدرسة
الرجاء وتحويلها إلى ثكنة عسكرية¹⁴.

ومن بين شخصيات الجمعية الذين قدموا جهود التربية والإصلاح
الشيخ الطاهر طاهري من عرش أولاد سيدي عيسى إبراهيم أحد مؤسسي

مدرسة الجمعية بالديس¹⁵، والذي أصبح معتمدا من جمعية العلماء في إطار العمل المثمر لصالح الجمعية وفائدتها المالية والأدبية خلال شهر أوت 1954 وكان له جهود تعليمية بمدينة سيدي عيسى وبوسعادة¹⁶.

وقد تداول على منطقة الحضنة من جمعية العلماء كل من الشيخ بوعلام باقي والشيخ النعيمي إلى جانب الحضور المستمر للشيخ السعيد صالحى ومحمد العدوي باعتبارهما من منطقة أولاد دراج بالحضنة.

كما حضيت منطقة المعاضيد بجبال الحضنة بجهود شخصية هامة تضمن أنّها لم تحض كذلك بتعريف وافي لجهودها الإصلاحية وهو الشيخ العلامة محمود أرسلان الذي تعلم على الطريقة الحملاوية قبل انتقاله إلى معهد باديس ثم جامع الزيتونة وكذا الأزهلا الشريف ولد الشيخ العلامة محمد أرسلان في شهر ماي 1919 ببلدية المعاضيد وينحدر من أسرة أرسلان العريقة، وقد جاء جده الأكبر مع الحاكم العثماني في الجزائر واستوطن في المعاضيد وبعد وفاة والده كفله، وبدأ تعليمه في الزاوية الحملاوية ثم انتقل للدراسة في معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس فنبغ وتفوق وحقق الارتقاء في مراحل العلم والنجاح بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس انتقل إلى الزيتونة ثم الأزهر، عمل رفقة الشيخ العربي التبسي في مدينة تبسة وكان عمره آنذاك 20 سنة.

انطلق من مدرسة تهذيب البنين وظل على التدريس إلى غاية 1950م وذلك عندما قامت السلطات الاستعمارية بغلق المدارس بحجة لا تدريس بدون رخصة بعدها قام بفتح قسمين للدراسة يدرس فيها التلاميذ. وفي سنة 1953م تكونت جمعية الهداية القرآنية ونظرا لشغفه بالتعليم فقد أسس مدرسة الهداية 1953م بقسمين¹⁷. وإلى جانب هؤلاء الرجال سطع اسم أحبه ابن باديس وقربه علماء الجمعية وقدم جهدا عظيما في حركة الإصلاح والتربية والتعليم ونقصد به الشيخ محمد العدوي (1904-1957م).

ولد الشيخ محمد بن العيد جعفر الشهير بالعدوي عام 1904م بمنطقة أولاد عدي لقبالة (المسيلة) إحدى فرق عرش أولاد دراج الكبير، بدأ تعليمه الأول بالمنطقة حيث اتصل في بداية العشرينيات بالشيخ محمد بوديلمي شيخ زاوية الرحمانية بالمسيلة¹⁸، الذي كان ضالعا في علم الفقه وعلى اتصال بشيوخ وأساتذة جمعية العلماء المسلمين¹⁹، مثل عبد القادر الجاوي، انتقل بعد الحرب العالمية الأولى إلى تونس حيث درس بجامع الزيتونة وتحصل على الشهادة العالمية منه، ثم التحق بمعهد ابن باديس مع بداية الخمسينيات وكان له نشاط واسع مع الطلبة والجماهير من خلال الدروس التي كان يقدمها وحلقات والوعظ والمحاضرات بمساجد المدينة ثم عاد وأكمل عمله في الحركة الإصلاحية بالمسيلة

والمناطق المجاورة بتوجيه من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين واستمر في نشاطه حتى بعد اندلاع الثورة التحريرية واستشهد عام 1957م.

وخلاصة القول أن منطقة الحضنة شهدت حركة إصلاحية ساهمت بشكل كبير في الوعي الوطني وبلورة النشاط السياسي بها واتسم هذا العمل خاصة بعد 1944م بالعمل الجماعي المنظم، الموجّه من قبل جمعية العلماء المسلمين التي أصبحت تتكفل بتغطية إقليم الحضنة من حيث: تقديم الوعاظ والمرشدين وساهمت عوامل جديدة في بروز هذا التوجّه الجماعي المنظم للحركة الإصلاحية بقيادة الجمعية، منها دور أصحاب أحباب البيان في جمع العناصر الوطنية والتقاءها ومباشرتها العمل الجماعي المنسق، وساهمت الكثير من الشخصيات من المنطقة ومن خارجها بتوجيه من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ذلك النشاط على غرار الشيخ نعيم النعيمي الذي جاء للمنطقة في أواخر الأربعينات وصار ينتقل بين مدينة المسيلة وبوسعادة يقدم الدروس خلال شهر رمضان وأيام السنة، وعادة ما كان يمكث شهر رمضان بكامله بمدينة المسيلة يتحوّل بين مساجدها في رأس الحارة والشتاوة، وخربة تليس، حتى أنّه عاش بالمدينة ثلاث سنوات كاملة قبيل الثورة التحريرية، أصبح من شخصياتها الدينية الهامة، أقام الشيخ النعيمي علاقات حميمة بالكثير من شخصيات المنطقة من العلماء والأعيان ونشطاء الحركة الوطنية مثل الشيخ لطرش الذي كان طالبا بجمعية العلماء، وفلوسية علي وبن يحي محمد وبن عيسى محمد بن

الندير، وكان يؤمّ المصلين خلال التراويح وتأثرت به الكثير من العناصر خارج الحركة الإصلاحية من الأحزاب الأخرى أمثال ميلي احمد ومشتي السعيد وبرة عبد الرحمان من حزب الشعب الجزائري، وكبوية إبراهيم، كبوية المدني وشيكوش الحاج عيسى، ونوي مهدي علي أنصار البيان الديمقراطي، واستمر الشيخ نعيم النعيمي في جهوده الإصلاحية بمنطقة الحضنة إلى ما بعد اندلاع الثورة التحريرية وحتى بعد إغلاق الإدارة الاستعمارية لمدرسة الرجاء وتحويلها إلى ثكنة عسكرية.

الإحالات والتهميش:

- ¹ - الحضنة: أطلق العرب اسم الحضنة على السهل الواسع الذي يمتد من السبخة المالحة (شط الحضنة) جنوبا وبين السلسلتين الجبليتين التلية والصحراوية من جبال الأوراس شرقا الى جبال ونوغة غربا عبر جبال بوطالب، وسميت بالحضنة لاحتضانها وسط جبلي الأطلس التلي والأطلس الصحراوي، وتشمل الجزء الغربي من ولاية باتنة والجزء الأكبر من ولاية المسيلة، وحاليا يطلق على المسيلة عاصمة الحضنة.
 - ² - كمال بيرم ، الحركة الوطنية بمنطقة المسيلة، دار الأوطان، الجزائر، 2012، ص 114.
 - ³ - الطاهر لطرش، "المسيلة تنهض نخضة مباركة"، البصائر، المجلد 09، العدد 212، عام 1953، ص 259.
 - ⁴ - قدّم طلب بإنشاء مدرسة باسم الرجاء من طرف أعيان المسيلة بتاريخ: 01 أفريل 1944م، وتكون مجلسها الإداري كالتالي: الرؤساء المشرفون: الحاكم، قاضي السلم، آغا المسيلة، الضابط Michel. الرئيس الفعلي: كبوية مدني، النائب: مهدي علي، النواب: عريوة مبارك، خوجة بويكر، دريد إبراهيم، شيكوش الحاج عيسى.
- الأمين العام: زغلاش البشير، أمين المال: بوديعة بلقاسم، النائب: خوجة علي،

الأعضاء: طالب مصطفى، مسلم العيهار، كرميش كرميش، زغلاش لخضر، خشعي مصطفى، بن عيسى محمد مشتي السعيد، بن موسى إبراهيم، ميلي أحمد، فلوسية علي، لخضر حمينة، بن الذيب العربي، بن لدغم شيكوش محمد.

⁵ - كمال بيرم، المرجع السابق، ص 117.

⁶ - جريدة البصائر، العدد 282، ص 359.

⁷ - كمال بيرم، المرجع السابق، ص 119.

⁸ - كمال بيرم، المرجع السابق، ص 120.

⁹ - Archive de la Commune Mixte de M'sila, letter de l'administrateur de M'sila a monsieur sous / préfet de Sétif (sur les activités de Naimi 20/10/1952).

10 - تكون أول مكتب لبناء المدرسة العربية الإسلامية لجمعية العلماء (مدرسة الرجاء) بالمسيلة من: كبوية المدني: رئيس، مهدي علي وعريوة مبارك وخودة بوبكر، دريد إبراهيم، شيكوش الحاج عيسى: نواب، زغلاش البشير: كاتب عام، بن يونس الهاشمي: نائب الكاتب، بودجة بلقاسم: أمين المال، خوجة يحي: نائب، والأعضاء: طالب حسين مصطفى، مسلم العيهار كرميش، كرميش، زغلاش لخضر، حشفر الصديق، بن عيسى محمد، بن يحي عثمان بن يحي إبراهيم مشتي السعيد، فلوسية علي، حمينة لخضر، بن الذيب العربي، لدغم شيكوش محمد ينظر

Archive de la Commune Mixte de M'sila: edification d'une medrsa a M'sila, rapport de 16/06/1952

11 - رغم فقر السكان بهذا الحي فقد جمعوا ما قيمته 300.000 فرنك فرنسي أثناء وجود الشيخ

النعيمي الذي كلف بمهذه العملية ينظر: (Archive de la Commune Mixte de

M'sila, rapport de commissariat de police M'sila, Rapport

spécial, Edification d'une medrsa a M'sila, rapport de

16/06/1952.

¹² - Archive de la Commune Mixte de M'sila, rapport gendarmerie, 17/09/1952 .

13 - تكونت اللجنة المؤقتة للمشروع في الأعضاء الأوائل الذين حضروا للمشروع سنة 1944 مع أسماء أخرى مثل شاكر بلقاسم (الحزب الشيوعي)، ينظر: rapport 16/10/1952 Archive de la Commune Mixte de M'sila, ¹⁴ - جريدة البصائر، العدد 283، ص 22.

¹⁵ - Archive de la Commune Mixte de M'sila, rapport commissariat de police de M'sila du /6/8 au 31/8/1955.

¹⁶ - من الأرشيف الخاص بعائلة الشيخ محمود أرسلان المحفوظ بالمركز الثقافي بالمعاضيد وقد عمل الشيخ محمود أرسلان بتكليف في جمعية العلماء مع العربي الشتي في مدرسة تهذيب البنين إلى غاية 1950.

¹⁷ - من الأرشيف الخاص بعائلة الشيخ محمود أرسلان المحفوظ بالمركز الثقافي ببلدية المعاضيد. وقد عمل الشيخ محمود أرسلان بتكليف من جمعية العلماء مع العربي التبسي في مدرسة تهذيب البنين إلى غاية 1950.

¹⁸ - جريدة الشهاب العدد 11، نوفمبر 1933.

¹⁹ - من بين مشايخ العلماء بالحضنة الذي عمل إلى جانب الشيخ محمد العدوي الشيخ موسى زفاف بن محمد الطاهر البريكي رائد الحركة الاصلاحية الدينية بيريكة وصاحب رسالة تعليمية وتربوية بها، ومدرسا وإماما وناشرا للوعي والمعرفة ومحاربا للشعوذة والطريقة حتى لقب بالأستاذ الإمام بكامل منطقة الحضنة. ولد الشيخ موسى زفاف سنة 1905م بدشرة العلية التابعة لبلدية الجزائر في أسرة دينية محافظة، ودرس بمعهد ابن باديس بقسنطينة وتأثر بفكر ابن باديس، وأكمل دراسته بجامع الزيتونة، ثم عاد للجامع الأخضر بقسنطينة ليكمل مشواره التعليمي ثم عاد إلى منطقة الحضنة لنشر العلم والتوعية الدينية، وزار الشيخ عبد الحميد بن باديس مدين بريك سنة 1935م واستقبل بحفاوة كبيرة من أهلها ونصب

الشيخ موسى زفاف إماما لمسجد بريكة العامر بالحركة الاصلاحية الباديسية، وعمل الشيخ موسى زفاف على تربية الناشئة والوعظ والارشاد وأسس مدرسة السنة لتدريس العلوم واللغة العربية والعلوم الشرعية. توفي سنة 1942، ينظر: ن. مسمودي جريدة الخبر ، يوم 28 أوت 2010.

عوامل التطور والتنظيم الصحي للثورة التحريرية (1956-1962).

أ. عائشة مرجع / قسم التاريخ / جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.

jaalabaicha@gmail.com

الملخص :

يعالج هذا المقال موضوع في غاية الأهمية ،اذ يبرز تطور التنظيم الصحي للثورة التحريرية ،ذلك أن الثورة عاشت في مرحلتها الأولى (1954-1956) نقص فادح في توفر الخدمات الصحية واعتمادها على الوسائل التقليدية ،ونظرا لتطور الأحداث وزيادة عدد الجرحى والمرضى في صفوف المجاهدين و المدنيين على حد سواء ،كان لابد من تأسيس تنظيم صحي ،هذا الأخير ساهم في تأسيسه وتطويره عوامل عدة يمكن طرح أهمها كالتالي :بداية بالإضراب اللامحدود للطلبة الجزائريين 19 ماي 1956 ،الذي زود الثورة بإطارات طبية متعددة من أطباء وصيادلة وممرضين ،ثم مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 ،الذي عمل على تنظيم الثورة في جميع الجوانب ،ليحضى جانب الصحة هو الآخر بمجموعة من القوانين والقواعد التنظيمية ،كما كان لتأسيس الهلال الأحمر الجزائري دور مهم في الصحة بتوفير الأدوية والعلاج والتكوين ،ولا يمكننا صرف النظر عن الدعم الخارجي للصحة سواء الدول الأجنبية أو العربية والقواعد الخلفية التي كان لها دور جد مهم في إنعاش القطاع الصحي للثورة التحريرية ،وكذا المنظمات الانسانية .

الكلمات المفتاحية :

الثورة ،الصحة ،الهلال الأحمر الجزائري ،الأطباء ،الجرحى ،المراكز الصحية .

الملخص باللغة الانجليزية :

This article deals with a very important topic .It shows the revolution of the health organization of the Algerian war of independence .In fact , first phase of that revolution ,which lasted from1956 to 1962,head seen a fatal deficiency in the availability of health service because of the reliance on the traditional methods .After the growing of the war events and the increase in the number of the sounded and the injured in the ranks of the fighters and civilians as well ,it was necessary to establish a well-organized sector for health .this letter was achieved and developed due to many factors.

First ,the start of unlimited strike ,lead by the Algerian students on the 19th of my 1956,provided the revolution with multiple medical aid rich as doctors ,pharmacists and nurses .Second ,the appearance of the Soumam congress in August 20th,1956 gave a new order and well-structured organization in various aspects like "health" .In addition to this ,the establishment of the Algerian red crescent had played an Important role as it provided medicines ,treatments and training for soldiers .Most importantly ,it' s impossible to deny the external support which

came from either the foreign countries or the Arabes ones in addition to the "rear" bases and the humanitarian organizations that had an active role in enhancing the health field of the Algerian revolution .

key words

The Revolution. The Health, the Algerian Red Crescent, the doctors, the wounded, the health centers.

المقدمة :

انطلقت ثورة الفاتح نوفمبر سنة 1954 ، بتنظيم عسكري وسياسي تطور مع تطور الثورة ، ليشمل فيما بعد جميع جوانب الحياة .

تعددت الدراسات الأكاديمية والكتابات التاريخية التي تناولت الثورة بأقلام جزائرية وأجنبية ، غير أن اهتمام هذه الكتابات في مجملها تتمحور حول الجوانب العسكرية والسياسية ، وأغفل أصحابها بذلك الجوانب الأخرى من الثورة ، مثل الجانب الصحي الذي يعتبر من المقومات الأساسية في الكفاح المسلح .

وقد عرف القطاع الصحي خلال الثورة التحريرية بمرحلتين :

المرحلة الأولى بدأت مع اندلاع الثورة التحريرية وعرفت بالمرحلة البدائية استمرت الى سنة 1956 ، والمرحلة الثانية التي عرفت بمرحلة التطور والتنظيم ، الذي كانت ثمرة لمجموعة من العوامل تغطي الفترة التاريخية ما بين سنة 1956 وسنة 1962 .

أحاول في هذا المقال تسليط بعض الأضواء على قطاع الصحة خلال الثورة التحريرية من حيث نشأته و أسباب وعوامل تطوره و تنظيمه .

1- الوضع الصحي في بداية الثورة التحريرية :

مع اندلاع الثورة التحريرية كان قطاع الصحة بصورة عامة منعزلا تماما وحتى الإطارات الطبية في هذه المرحلة كان تكوينها في معظمه بدائيا¹، نظرا للظروف التي اندلعت فيها العمل المسلح.

فمن المعلوم أن قادة الثورة الذين أشرفوا على التحضير للعمل المسلح، كانوا يعملون في سرية تامة، وكان شغلهم الشاغل في تلك المرحلة التحضير للكفاح المسلح، وتوفير الوسائل المادية² الكفيلة بإنجاح عملية الانطلاق، الأمر الذي جعل قادة الثورة لا يولون وسائل التمريض الأهمية الكبرى إلا بعد أن لاحت الخسائر البشرية من جرحى ومرضى جراء العمليات العسكرية .

لذلك فإن المرحلة الأولى من عمر الثورة والممتدة ما بين 1954-1956، لم تسجل أي تنظيم صحي ولا توفر للوسائل البشرية والمادية²، وهذا لا يعني أن الثورة في هذه المرحلة كانت بدون غطاء صحي وإنما كان ذلك متوقفا على مجهودات واجتهادات كل منطقة في استغلال الوسائل والإمكانات المتاحة.

بقيت الحاجة الماسة إلى تنظيم صحي، تؤكدته وتفرضه المشاكل الجديدة التي تطورت مع تطور الكفاح المسلح، تخصص مستلزمات العناية الصحية: كالأدوية

والضمادات ووسائل الجراحة البسيطة وكيفية التكفل بالجرحى والمرضى وطرائق نقلهم وعلاجهم وإيوائهم والحاجة إلى إطارات متخصصة.

وأمام الواقع الصحي المتردي لم يكن أمام جبهة التحرير الوطني سوى الاستعانة بأطباء وممرضين متطوعين يقومون بإسعاف المرضى، غير أن الرقابة الاستعمارية الشديدة زادت من حدة المشاكل، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك منها ما جرى مع الدكتور "بن عودة بن زرجب"³، الذي عمل على إسعاف الجرحى وعلاجهم، وتوفير الأدوية والدعم اللوجيستكي للثورة، لكن السلطات الاستعمارية منعتة من مواصلة عمله النضالي باغتياله في 17 جانفي 1956⁴.

وأما هذه التحديات انصب الاهتمام على ضرورة انشاء مصلحة الصحة بدأت تظهر معالمها منذ سنة 1956

2 - إضراب 19 ماي 1956:

ان الاضراب التاريخي للطلبة الجزائريين في 19 ماي 1956، جعل كثيرا من طلبة الطب والصيدلة يلتحقون بهذا الاضراب، فكان الطلبة متحمسون لفكرة العمل المسلح وأرادوا العمل من اجل مساندة الثورة، فقرروا الاضراب عن الدروس والامتحانات⁵، الى أجل غير محدود وطالبوا الالتحاق بالمجاهدين في الوعار والجبال، وهكذا تركوا الجامعات والمعاهد العلمية قريب موعد الامتحانات التي كانت للعدد الكثير منهم المرحلة الأخيرة لإنهاء دراستهم⁶.

حيث وصف ذلك أحد الطلبة الجزائريين "عبد الرحمان شريط" قائلا: "كنا منذ المؤتمر الثاني، نشعر بأن الثورة أصبحت في حاجة إلى فئات متعلمة، ونحس بأننا بدراستنا في الجامعات أصبحنا نعتبر بأننا لسنا في الثورة، ولذلك أصبح لدينا شعورا بضرورة مغادرة الجامعة، والقيام بعمل يبعد عنا هذا الإحساس، وأصبحنا نرى بأنه ليس هناك من جدوى لمواصلة العمل في الجامعات في الوقت الذي تحصد فيه فرنسا العديد من الأرواح..."⁷.

قد تم قرار الإضراب بالإجماع، بعد اجتماع أعضاء اللجنة الجزائرية للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في 19 ماي 1956، بنادي سعدان الموجود بالقصبة السفلى وقد صوت الحاضرون على لائحة تطالب بالإضراب العام اللامحدود وتدعوا الطلبة للانخراط في صفوف جبهة التحرير الوطني⁸، وخرج الطلبة من اجتماعهم المذكور ببيان يعلنون فيه عن الدخول في إضراب لا محدود عن الدروس والامتحانات ابتداء من 19 ماي 1956.

قد استجاب الطلبة فعلا، بحيث قام الطلبة بالإضراب على المستوى الداخلي و الخارجي، بل تعدى ذلك المحيط الجامعي من خلال التحاق عدد هائل من تلاميذ الثانويات بالإضراب، حيث تقلص عدد الطلبة الجزائريين بالجزائر من 684 سنة (1955-1956) إلى 276 طالب خلال سنة (1956-1957)، وبفرنسا تشير التقديرات بان ما يقارب 700 طالب جزائري مسجل بالجامعات الفرنسية شارك في الإضراب⁹، وقد أخذت هذه الأرقام منحى واضحا في طلبة الطب والصيدلة.

والتحق عدد كبير منهم بالثورة نذكر منهم على سبيل المثال : وجدي دمرجي، تيجاني، ومراد طالب ، رابح علواش ، جليل حسن ¹⁰ ، عبو بجاوي، عبد الوهاب حسن ¹¹ ، عبد الرحيم كمال، شريف مولاي إدريس ، إضافة إلى عدد هائل من الممرضين، فاختلفت مهمتهم في الثورة فهناك من مارس عمله في الملاجئ والقواعد الخلفية، وهناك من التحق بالجبال، حيث يقول الدكتور بن سالم "كان الاضراب ذا دلالة معتبرة، مفرزا نتائج ثقيلة، فهمنا أن مهمات عظام بانتظارنا.."¹²

قبل التحاق هؤلاء الطلبة بعملهم كانوا يخضعون لتكوين أولي في مجال الطب و التمريض، وتعددت مهماتهم بين علاج المرضى والجرحى والتكفل بهم و تقديم الخدمات لسكان المناطق المعزولة والقرى و المداشر، وممن أشرف على تكوين الطلبة نجد الدكتور محمد الصغير النقاش. "¹³

وبهذا ساهم الطلبة في تحسين الوضع الصحي، سواء من حيث التنظيم و الهيكلة، أو من ناحية الخدمات المقدمة من علاج المجاهدين والمدنيين بوسائل بسيطة تطورت تدريجيا، ليتمكنوا بهذا من تعزيز النظام الصحي للثورة التحريرية وتدعيمه سواء داخل البلاد أم خارجها.

2 - قرارات مؤتمر الصومام في المجال الصحي :

جاء المؤتمر بعد مرور عامين من اندلاع الثورة التحريرية، فكانت هناك عوامل عدة دفعت القيادة العليا للثورة إلى اخذ قرار عقد مؤتمر وطني تقوم فيه جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير بوضع قاعدة أساسية تقوم عليها إستراتيجية العمل الثوري ومن اجل إعطاء الثورة صبغة نظامية على جميع الأصعدة (سياسيا، عسكريا، وإداريا....)، وقد

ظل اختيار الزمان والمكان لعقد المؤتمر مشكلا يطرح نفسه حتى استقر الأمر في الأخير بالاستعداد لعقد أول مؤتمر وطني وذلك يوم 20 أوت 1956¹⁴ ، بقرية افري دوار أوزلاقن غابة أكفادو في سفوح جبل أزرو. طرحت مجموعة من القضايا في المؤتمر ليخرج بمجموعة من القرارات التنظيمية مست جميع الجوانب من أجل إعطاء قوة للثورة.

ما يهمننا في هذا الموضوع هو قرارات المؤتمر في مجال الصحة ،فقد جاءت قرارات مؤتمر الصومام لتنظيم هذا الجهاز الخاص ،و تأطيره وتحديد مهامه وصلاحيات أطره ،والبحث عن الدعم له في الخارج لاقتناء احتياجاته وتكوين طاقمه واستقبال الجرحى والمرضى وعلاجهم، حيث أكد المؤتمر في قراراته على تنظيم الخدمات الصحية ، وهيكله المصالح الصحية بشريا وماديا، بالتنسيق مع المستشفيات ومراكز العلاج وتوفير الأدوية ،وعلاج الجرحى والمرضى ،وتقسيم المهام مثلما جعل من مهام المسبل التموين بالأدوية والاعتناء بالجرحى ، كما أكد المؤتمر على ضبط النظام الصحي داخليا وسن الحقوق و الواجبات .

وبمقتضى قرارات مؤتمر الصومام كانت قاعدة الهرم الصحي موكلة إلى المحافظ السياسي¹⁵ ، الذي كان يجمع بين وظائف عدة لصالح الثورة، إضافة إلى جهاز الصحة ومستلزماته من أدوات طبية وأدوية، وبعد ذلك قامت قيادات الثورة بالحرص على نظام الصحة مثل قانون الجريح المتعلق بالجروح والعلاج والسلوك ونظام المعيشة والخروج والعقوبات¹⁶ ، كما خصص المؤتمر رواتب لإطارات الصحة اذ تم منح الأجور حسب درجة ومستوى الموظف في المصلحة الطبية:

1 الممرضون والمرضات مثل العريفون: 1500 فرنك فرنسي قديم

2 مساعدا الأطباء مثل الملازم: 2500 فرنك فرنسي قديم

3 أطباء راتبهم مثل الضابط الأول: 4500 فرنك فرنسي قديم .¹⁷

وتطبيقا لقرارات مؤتمر الصومام تم تأسيس إدارة حقيقية تعنى بشؤون الصحة سنة 1957¹⁸، أوكلت مهمتها للدكتور محمد نقاش، هذا ما أضفى صبغة نظامية للصحة يمكن ملاحظتها في تنظيم المستشفيات بالقواعد الخلفية لمساعدة المجاهدين واللاجئين.

فقد أكد المؤتمر على أهمية جهاز الصحة وضرورته، ما يؤكد ذلك اهتمامه بصحة المجاهد وتبين ذلك في محضر المؤتمر بان كل مستوظف جديد سيفحص أن أمكن.¹⁹ وبهذا

استطاع المؤتمر أن يغير بالوضع الصحي للأحسن، وهذا ما ظهر على أرض الواقع حيث أصبح للثورة تنظيم صحي يشمل مختلف الهياكل الطبية وطب الأسنان والصيدلة، هذه الأخيرة التي واجهت فيها الثورة مشاكل عدة، فقد كانت هناك حاجة ماسة للأدوية التي كان يتم شرائها وجمعها عن طريق المساعدات الخارجية .

أما بداخل الجزائر فكان هناك تنسيق فيما بين الولايات والمناطق بطريقة منظمة وموثقة هذا ما تؤكد به بعض الوثائق الأرشيفية مثل مساعدة المنطقة 7 الى المنطقة 3 من الولاية الخامسة بمجموعة من الأدوية التي كانت تحتاجها عن طريق رسالة ادارية²⁰.

كما دعى المؤتمر الى تسيير شؤون السكان من احصاء، وجمع الاشتراكات والبحث عن ينابيع الماء، تأمين وسائل معيشة الشعب والسهر على صحتهم، بإيفاد الممرضين

والممرضات الى كل منزل في البادية وتوزيع الأدوية ومعالجة الأمراض ، فلم يقتصر عمل هؤلاء الممرضين على اسعاف المجاهدين فقط ، بل حتى المدنيين يسعفون ويتلقون منهم كل العناية²¹.

3- الدعم الخارجي والهجرة :

أ-على مستوى القواعد الخلفية :

لا يمكننا تجاوز دور اللاجئيين الجزائريين في المغرب وتونس في تعزيز وتطوير الخدمات الصحية لجبهة التحرير الوطني ، فقد كان لطلبة الطب والأطباء المهاجرين دور مهم في القواعد الخلفية حيث عملوا على تأسيس مراكز صحية للعلاج والنقاهاة والتكوين في مجال الصحة، بحيث تبقى أفضل المدارس العسكرية للتمرير هي التي كانت توجد في القواعد الخلفية سواء في تونس أو المغرب²²، فقد استقبل المغرب الأقصى عددا هائلا من اللاجئيين ووفر لهم الدعم في مختلف المجالات.

فقد كان لتعاطف الشعب المغربي مع القضية الجزائرية، دفعا قويا مكن من الانجاز التدريجي لقاعدة لوجستكية جد مهمة، وفتح الحدود الجزائرية المغربية أمام الجزائريين من لاجئين ومحروحين ومرضى، حيث تمكن الأطباء والمجاهدين الجزائريين من تأسيس العديد من المراكز التدريبية والصحية التابعة لجبهة التحرير الوطني (مركز العرايش،قاعدة بن مهدي،مركز زغنغن، دار الكبداني، مركز بوصافي.....)، ومن الأطباء الذين التحقوا بالقاعدة الغربية لجبهة التحرير الوطني : مصطفى علال، رابح علوش،علي باشا بلخروبي، بن ديمراد، عبد السلام تيجاني هدام،محمد أمير بن عيسى الذي قام بتأسيس المدرسة العسكرية للممرضين²³، زيادة على ذلك استقبال مستشفيات المغرب

عدد من المرضى والجرحى الجزائريين وهذا ما أكده ملك المغرب في زيارته الى وجدة بقوله: "المستشفى الرئيسي... في وسط المرضى اعتنى بالعديد من الجرحى الجزائريين .."²⁴.

أما القاعدة الشرقية فهي الأخرى هاجر إليها عدد هائل من طلبة الطب والأطباء الذين عملوا على مواصلة عملهم ضمن جبهة التحرير الوطني، وقد بلغ عدد الأطباء وطلبة الطب حوالي 45 بتونس، وتم تعيين مجموعة من الأطباء الجزائريين في المستشفيات التونسية من بينهم الدكتور علي عقبي، بشير منتوري، بلعباس بوذراع، مراد بيليم، كما تم تدعيم معسكر الملاجئ بمراكز للصحة "غارديماو"، "تاجورين"، "تهالا" إضافة إلى مراكز صحية مشتركة بين تونس والجزائر يكمن دورها في تقديم العلاج المناسب وتمويل جيش التحرير الوطني بالدواء مثل: مركز الحبيب ثامر، مركز باجة، تبرت، مدين، الكاف، القصيرين، قابس²⁵.

ولم تقتصر وظيفة المراكز الموجودة في المغرب وتونس على علاج الجرحى والمرضى فقط، بل فتحت مجالاً لتكوين الممرضين والممرضات، وقد كان لكل مركز برنامج تكوين خاص به، مثلما قام الدكتور محمد أمير بن عيسى ببرنامج خاص للتكوين، فقد كان التكوين الطبي في المدرسة العسكرية يشتمل على مراحل وتقنيات بيداغوجية محكمة، كان هدفها الحصول على ممرضين ذوي كفاءة عالية في أقصر مدة زمنية لتقليص العجز في الموارد البشرية الطبية في الداخل²⁶.

في إطار الحديث عن الدعم المغاربي للثورة لا يمكننا أن نغفل مشاركة أطباء المغرب وتونس في الثورة، ومساندة جبهة التحرير الوطني، فهناك العديد من الأطباء التونسيين

الذين نلزم أن ننوه بأسمائهم مثل الدور الكبير الذي لعبه الدكتور حجري، والدكتور بن قطاف، وزهير الصافي.

أما في المغرب فهناك أيضا العديد من إطارات الصحة الذين ساندوا الثورة من بينهم الدكتور عبد الرحمان التازي الذي كان يعالج الجرحى في عيادته والدكتور أحمد الخطيب.

ب- الدعم العربي والأجنبي:

لا بد من الحديث عن الدعم الذي قدمته بعض الدول في هذا المجال، فقد كان لأطباء العرب مشاركة في الثورة التحريرية مثلما حدث مع الأطباء السوريين الستة "نور الدين العطاسي، يوسف الزعيم، سفوح العطاسي، صالح السيد، رياض برمادة، ابراهيم محوس" الذين سافروا إلى تونس للالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني كمتطوعين²⁷. ومن مظاهر الدعم الأجنبي، الاسبان من خلال المستشفى الاسباني بالناظور الذي كان يستقبل الجرحى منذ 1959، وألمانيا التي بفضلها تمت عمليات عبور جزء كبير من المساعدات الاشتراكية الأوربية (الأدوية، الأجهزة الطبية والأغطية)، السويد التي قدمت العون للاجئين على طول الحدود المغربية والتونسية، ونقل أكبر المصابين من جيش التحرير الوطني، عبر ميناء طنجة في سفن نحو يوغسلافيا وبلغاريا وروسيا من أجل إجراء عمليات جراحية أو وضع أعضاء اصطناعية²⁸، وحسب النقيب الطيب النهاري أن البلدان التي قبلت بتلقي الجرحى الجزائريين لتزويج الأعضاء الاصطناعية هي: مصر، البلدان الشرقية (يوغسلافيا، هنغاريا، تشيكوسلوفاكيا، الاتحاد السوفيتي، ألمانيا الغربية) كوبا، الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قدر عدد الجرحى المعطوبين الذين نقلوا إلى

الخارج عبر الدار البيضاء ب700 جريح، ولم تشمل مساعدات الدول الغربية استقبال الجرحى بل تعدت ذلك الى ارسال الأدوية والعتاد²⁹.

كما ساندت المنظمات العالمية الثورة الجزائرية مثل : الجامعة العربية التي عملت على تقديم الدعم المالي والمادي والدبلوماسي ،فقد أولت الأمانة العامة كبير عنايتها لمأساة اللاجئين الجزائريين في تونس والمغرب نتيجة لعوامل الطبيعة القاسية ونقص التغذية وازدحامهم في أمكنة غير صحية وقامت بالمساعي الكفيلة بتقديم المساعدة اللازمة لهم³⁰ ، واللجنة الدولية للصليب الأحمر التي عملت على زيارة السجون والملاجئ ،وقد كان ممثلوا اللجنة مرفقين بأطباء حتى يؤكدوا التقارير الملاحظة ،كانت هذه اللجنة تخفي حقيقة الأوضاع في بداية الأمر لكن بعد الزيارات المستمرة للسجون والمخيمات استنتج أعضائها ،أن قوانين الحرب بعيدة جدا عن الاحترام³¹ ، فاستطاعت مساعدة اللاجئين والسكان المدنيين في مخيمات التجميع من خلال مهمات التمريض وتوزيع المساعدات الاجتماعية.

4- تأسيس الهلال الأحمر الجزائريين :

بعد أن تم تنظيم قطاع الصحة لجهة التحرير الوطني منذ 1956، والظروف القاسية التي كان يعيشها الجزائريون، والسياسة الاستعمارية، وزيادة عدد اللاجئين على مستوى الحدود الشرقية والغربية كان لا بد من ضرورة وجود هيئة اجتماعية للتكفل بمشاكل الايواء والسكن والغذاء والصحة ،بهذا بادرت جبهة التحرير الوطني إلى تأسيس الهلال الأحمر الجزائري في مدينة طنجة من قبل مجموعة من إطارات الصحة

لجبهة التحرير الوطني "الدكتور بومدين بن إسماعيل³² والصيدلي مراد عبد الله في 11 ديسمبر 1956³³، واضعة الشروط التالية :

* عدم تعيين رئيس شرقي للجمعية

* اقتصاره على الجزائريين

* على أن تكون جلساتها علنية

* ضرورة استقالة أعضاء اللجنة الميسرة فور انتزاع الجزائر لاستقلالها

كما كان للهلال الأحمر الجزائري مكاتب فرعية بالمغرب حيث أمر بوصوف قائد الولاية الخامسة بإعادة تنظيم 4 مكاتب للهلال الأحمر الجزائري تحت إشراف الحاج عبد السلام ومساعدة بن عودة³⁴ واختيار مدينة طنجة مقرا لتأسيس هيئة الهلال الأحمر الجزائري لم يكن محض صدفة، فقد كان ميناء طنجة مقرا لانطلاق الجرحى المجاهدين في السفن باتجاه يوغسلافيا وبلغاريا وروسيا، لكي يتم علاجهم وإقامة عمليات جراحية.

بدأت لجنة الهلال الأحمر الجزائري العمل بإقامة علاقات مع الاتحاديات المماثلة لها في العالم مثل: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وذلك من أجل تحقيق أهدافها التي حددت منذ البداية وأعيد التذكير بها بعد حصول اللجنة على وصل الاستلام في 9 جانفي 1957³⁵، الذي كان يمثل الموافقة على إنشاء الهلال الأحمر الجزائري و تمثلت أهدافها في:

● انتزاع الاعتراف الدولي بمعاناة الشعب الجزائري وحقه في الحرية والاستقلال

● العمل على افتتاح اعتراف اللجنة الدولية للصليب الأحمر

● الحصول على مساعدات من المنظمات الإنسانية والدول الشقيقة والصديقة لمواجهة الوضعية الصعبة التي كان يعاني منها الشعب الجزائري³⁶

شملت نشاطات الهلال الأحمر برامج عدة ، كانت أهدافها إنسانية ، بحيث لعب دورا أساسيا في تحسيس الدول بمضاعفة العمل من أجل إغاثة اللاجئين والجرحى الذين فقدوا أطرافهم بسبب الحرب وخطوط الأسلاك الشائكة و المكهربة ، وقد استجابت العديد من الدول الأجنبية لهذا النداء .

في سنة 1957 إعادة هيكلة الهلال الأحمر الجزائري وتم تعيين عمر بوكلي حسان رئيسا لها ومصطفى بن أحمد نائبا له³⁷ ، ومن الأسباب التي أدت إلى إعادة الهيكلة هي إعادة النظر في تنظيم فروع الهلال الأحمر الجزائري والذي كان أولها يتمثل في مصالح الصحة لجيش التحرير الوطني ، وبعد تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية تم نقل مقر الهلال الأحمر الجزائري إلى العاصمة التونسية في أكتوبر 1958 ، وتم تعيين المحامي بابا أحمد رئيسا³⁸ ، لتواصل نشاطات الهلال الأحمر في كسب التأييد العالمي ، وتوفير الدعم اللازم من أجل صحة جيش التحرير الوطني والجزائريين بالداخل والخارج ...

5 - مظاهر تطور وتنظيم الصحة بعد 1956:

تهيكلت وتوسعت الشبكة الصحية للثورة التحريرية بفعل تظافر عوامل مختلفة، انسانية ووطنية وتضامنية، فبدأت تظهر معالم التنظيم الصحي من خلال انشاء المستشفيات والمراكز الصحية داخل البلاد وعلى مستوى القواعد الخلفية بتونس والمغرب..

أسندت مهام الاشراف على السلك الصحي في البداية الى الحكيم محمد الصغير نقاش بتونس³⁹، الذي عرف بحبه للعمل وروح المسؤولية والقدرة العالية على التنظيم، مكنه ذلك من ارساء تغطية صحية مست كل أشكال الاسعاف والعلاج من خلال تكوين المرضين.

أصبح من الضروري أمام النقص الفادح من الاطارات التي عليها القيام بدور التمريض، أن يكون جيش التحرير الوطني اطاراته بنفسه، فباشرت قيادة الصحة عبر الولايات التاريخية الست بفتح مراكز تكوين في الجبال والمناطق النائية أو البعيدة، يتلقى فيها الممرضون والممرضات تكويناً نظرياً لمدة ثلاثة أشهر متبوع بتربص تطبيقي مدته تسعون يوماً باللغة العربية والفرنسية يخص الاسعافات الأولية والعلاج الضروري⁴⁰.

وقد ساهم الهلال الأحمر الجزائري هو الآخر في عملية التكوين من خلال طبع كتيب للممرضين، عرف بدليل الممرض (Guide d'infirmiere)⁴¹، يتضمن اساليب العلاج المختلفة، ووصفات الأدوية و أنواعها، وقواعد النظافة والوقاية .

كما قامت جبهة التحرير الوطني، بتأسيس مراكز التكوين والتعليم الطبي بالقواعد الخلفية، تولى مسؤوليتها أطباء التحقوا بالثورة، مثل المدرسة الصحية العسكرية "بزغنغن" لتكوين الممرضين بالمغرب الأقصى، تحت الاشراف المباشر للدكتور

محمد بن عيسى أمير في 1959⁴²، والتي يقول عنها: "ليست تجربتنا هي الأولى فقد سبقنا الدكتور "هدام عبد السلام" و "علواش"، بتجربتهما في تكوين الممرضين في وجدة، وما قمنا به هو فقط محاولة تكوين مدرسة عسكرية شبه طبية لجيش التحرير الوطني .."⁴³، والمبادرة التي تم إطلاقها من طرف الدكتور "نقاش"، المتمثلة في تأسيس مراكز إعادة التأهيل لفائدة معطوبي جيش التحرير الوطني في "ناسن" بتونس، وتأسيس مدرسة للتدخل و الإسعاف تحت اسم الزاوية البكرية⁴⁴، وكانت تخضع عملية التكوين الى دروس نظرية وتطبيقية.

وفيما يخص القوانين الصحية والنظام الداخلي، قام كل من جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني بعد مؤتمر الصومام 20 أوت 1956، بوضع قوانين ونظم للعمل العلاجي، هذا ما أدى الى تشابه المنظومة الصحية بين الولايات، عدا بعض الاختلافات فيما يخص الامكانيات الطبية وبعض الاختلافات الهيكلية القريبة .

كما عمل المؤتمر على ضبط المسؤوليات فأصبح هناك مسؤول ولائي للصحة، مسؤول منطقة، مسؤول ناحية وأخيرا مسؤول للقسم الذي يشرف على الوحدة الصحية.

اما بالنسبة للمنشآت الصحية، فقد استطاعت جبهة التحرير انشاء المستشفيات في أماكن آمنة في الكهوف والمغارات والأكواخ وسط الغابات، كانت تحتوي هذه المستشفيات على قاعة للطبخ وقاعات خاصة بالمرضى، على كازمة الأمن السرية التي لا تعرف إلا من طرف البعض، تحتوي على أسرة استقبال للجنود ذوي الاصابات الخطيرة الذي لم يكن في وسعهم نقلهم، وأدوية وأغذية التي لا يجب استخدامها إلا في حالة التدخل⁴⁵.

فعلى غرار المشافي قامت جبهة التحرير الوطني بتأسيس مراكز صحية داخل البلاد، مثل الولاية الثالثة التي قامت بتخصيص مركز صحي لكل ناحية، يسير من طرف طبيب أو مجموعة من الأطباء ومراكز صحية وتكوينية بالقواعد الخلفية، كما عملت الولاية الرابعة على تأسيس مراكز عدة عبر مناطقها الست (بني رزمان قرب تابلاط، ولد أنيد بوطالب، عمرونة، بيصة، الصباح⁴⁶..)

وقد تميزت بداية التنظيم الصحي بتسيير ايجاد ما تقتضيه المراكز من مستشفيات طبية وإطارات طبية ومواقع جغرافية آمنة، مع سهولة التحرك، لكن على الرغم من ذلك كانت هناك رقابة استعمارية على اماكن صحية مختلفة، وذلك بعض حصول السلطات الاستعمارية، على وثائق تتعلق بالجانب الصحي، هذا ما أكد لها على أن هناك علاقة بين الطب وجبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني، وتكثيف المراقبة في المراكز الحدودية والقواعد الخلفية، هذا ما مكنها من اكتشاف مواقع العديد من المستشفيات والمراكز الصحية، مثل اكتشاف العديد من المواقع العلاج لجبهة التحرير الوطني في المغرب الأقصى (بوعرفة، تاندره، جرادة، بركان، عين الصفا)⁴⁷.

أما الفترة التي رافقت قيام الجمهورية الخامسة، أصبحت صعبة وعسيرة للمصالح الصحية، نظرا لتشديد الرقابة وعزل الثورة بالأسلاك الشائكة والمكهربة في الحدود الغربية والشرقية، فضايق الخناق على الثورة وزادت مهمة المصالح الصحية لجبهة التحرير الوطني، بازدياد عدد المجروحين على مستوى هاته المشافي وتعدد الاصابات الخطيرة (شظايا القنابل، النبالم...).

خاتمة :

وما استخلصته في الأخير أن تطور وتنظيم الصحة جاء متزامنا مع تنظيم الثورة التحريرية، بحيث كانت سنة 1956، مرحلة ثانية مكنت من بلورة سياسة صحية مبنية على التنظيم المحكم والدقيق، واحترام المسؤوليات، وبذلك تبلور النشاط الصحي وأصبح منظما مستتيرا داخل الولايات التاريخية وعلى مستوى القواعد الخلفية.

ورغم كل الصعوبات وقلة الوسائل الطبية ومباغثة قوات الاحتلال مراكز العلاج وخنق الثورة من خلال الأسلاك الشائكة ومنع الوصول إلى المراكز الموجودة في القواعد الخلفية، إلا أن تصميم الأطباء والممرضين على تأدية واجبهم الوطني أثناء الثورة التحريرية لم يخمد بل تواصل حتى بعد الاستقلال.

التهميش :

1 خياطي، مصطفى : المآزر البيضاء خلال الثورة التحريرية ، ترجمة نسيمه غربي، منشورات ، الرويبة 2013، ص.14،

2تومي، محمد:طبيب في معاقل الثورة حرب التحرير 1954-1962، ترجمة :حضرية يوسف، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين،2009،ص 45.

3الدكتور بن عودة بن زرجب: من مواليد 9 فيفري 1921 بتلمسان، نشأ وترى وسط عائلة محافظة، زاول دراسته الابتدائية بمسقط رأسه الابتدائية و الاكاديمية بمؤسسة de slane ،تحصل على شهادة الباكلوريا شعبة رياضيات سنة 1941 مكنته من الالتحاق بكلية الطب بالجزائر العاصمة أين واجه الكثير من الممارسات و التصرفات العنصرية من جانب الطلبة الأوروبيين أبناء المستوطنين ، فقرر السفر إلى فرنسا و التحق بكلية الطب بمونبوليه Montpellier ، ليواصل بعدها دراسته بباريس حيث ناقش أطروحته في الدكتوراه سنة 1948 بعنوان " مشكلات اللوكيميا

و الأورام من خلال حالات الكلوروميلان " و بالموازاة انخرط في العمل النضالي الطلابي حيث شارك في مشروع تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا ، و أنتخب أمين للمال في الاتحاد . كما ينشط ضمن لجنة فلسطين العربية ، وفي صفوف حزب الشعب - حركة الانتصار لحريات الديمقراطية PPA-MTLD منذ عودته إلى تلمسان أين فتح عيادته الطبية ، بعد اندلاع الثورة التحريرية ربط الاتصال مع جبهة التحرير فعمل على مد العون من خلال علاج الجرحى والمرضى وتقديم المساعدات المادية، وفي إطار عمله النضالي قام بشراء آلة رالأبشع أنواع التعذيب حتى اغتياله في 16 جانفي 1956. انظر : DR Ben Zerdjeb Cdt : Bellahsene Bali : Djaber et Colonel Lotfi , thala Edition , p p (5.6.7)

⁴ -l'echo Oran , Importation CHEF du FLN DE TLEMEN .
LE DECTOUR Benzerghe abattu près de sebdou Alors qu'il
tentait se février 1956, N : 30439.

⁵ 1h1560-d1 : Organisation générale de F L N (Ministère des
affaire scolaire et culturelles U.G.E.M.A en France et à
L'étranger Fichier N : A 47-7.(09-03-1960)

6 جريدة المجاهد ، الجزء الأول ، العدد الأول ، تلبية الطلبة لنداء الوطن ، 1956 ، ص 19 .

7 عقيب ، محمد السعيد : الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ودوره في الثورة 1955-
1962 ، الطبعة الأولى ، الشاطبية للنشر والتوزيع ، 2012 ، ص 91 .

8 خياطي مصطفى : المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية ، المرجع السابق ، ص 86 .

9 نفسه ، ص 89

10 برنو ، توفيق : الدكتور محمد بن عيسى أمير الطبيب المناضل 1926-1990 ، مذكرة نيل

ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية ، 2006/2005 ، ص

128

¹¹ Khiati ,Mostefa :Dictionnaire Bibliographique du corps de la santé(1954/1962),Edition ANEP ,2011, pp 19-17

¹² Djamel Eddine ;Bensalem :Voyez nos armes ,Voyez nos médecine ,Edition Regaia ;ALG ;2009 ;p 15.

13 يصف ذلك الطالب "لمين خان" كيفية التحاقه بالثورة قائلا : "أذكر أننا كنا مجموعة طلبية الجزائر العاصمة، وقد دخلنا مرحلة السرية منذ بدء سريان الإضراب 19 ماي 1956، حيث خضعنا بعدها لفترة تدريبية بأمر، وتحت إشراف الأخ الدكتور محمد صغير النقاش، ودام التدريب أزيد من أسبوع في منزل الأخ الدكتور بوضربة محمد، وقد تلقينا خلال ذلك تدريبات على استخدام وتفاسيم العلاج الأولي، مع بعض التوجيهات التي تدخل في مجال التوعية والتعبئة ثم بعدها التحقنا بالجبال..أنظر عقيب، محمد السعيد: المرجع السابق، ص 106.

¹⁴ أمال، شليبي : التنظيم العسكري في الثورة التحريرية الجزائرية، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، باتنة، 2005-2006، ص 394

15 شتوان، نظيرة: الثورة التحريرية 1954-1962، الولاية الرابعة نموذجاً، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة أبو بكر بلقايد، كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، 2008/2007، ص 336

¹⁶ FR.CAOM :ORAN 299 ;service sanitaire ;règlement de blesse. wilaya d'oran.

¹⁷ Etat major l'armée de terre :1h2582 ;FLN/C.N.R.A1956-1958

¹⁸ شتوان، نظيرة: المرجع السابق، ص 336

¹⁹ دحلب، سعد: المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب، ص 238

²⁰ Etat major l'armée de terre .service

historique :1h1594/D1 :wilaya5 :la zone 7.Détail des médicaments.29/05/1961.

²¹ المجاهد، جيش التحرير الوطني بين الأمس واليوم -مصلحة الصحة -، عدد 11، ص 10.

²² شتوان، نظيرة: المرجع السابق، ص 346.

²³ برنو، توفيق: المرجع السابق: ص 135 .

²⁴ 1h1594-d1 : Maroc. Aïd logistique, Fiche N : A.M

13(3)/28.09.1956.

²⁵ عسول، صالح: اللاجئون الجزائريون بتونس ودورهم في الثورة 1962/1956، رسالة مقدمة لنيل

شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الحاج لخضر باتنة ، كلية الآداب والعلوم الانسانية قسم

التاريخ وعلم الآثار، 2008-2009، ص 93 .

²⁶ برنو، توفيق: المرجع السابق، ص 143 .

²⁷ حياطي، مصطفى: المرجع السابق، ص 502.

²⁸ نفسه، ص 444.

²⁹ مثل ألمانيا التي كانت ترسل الأدوية، مثل ارسال الصليب الأحمر الألماني سيارة اسعاف للهلال

الأحمر الجزائري في ديسمبر 1957، انظر:

Etat major l'armée de terre:1 h1586..croissant- rouge D4 fiché

n° :5(4)5-12-1957

³⁰ أحمد، بشيري: الثورة الجزائرية والجامعة العربية، منشورات تالة، الجزائر، 2005، ص 126.

³¹ مصطفى، حياطي: حقوق الانسان في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، منشورات

، الروبية، 2013، ص 445 .

³² الدكتور بومدين بن سماعيل :من مواليد 13 جويلية 1916 في مسنغام، حصل على البكالوريا

1938، وقرر أن يكمل دراسته العليا في فرنسا، ناقش مذكرته في الطب في 30 جويلية 1946، فتح

عيادته الطبية في وهران ثم انتقل الى العمل في مسنغام ،انخرط في العديد من الأحزاب السياسية بداية

من نجم شمال افريقيا حتى حزب الشعب الجزائري، في سنة 1956 غادر الى المغرب ووضع نفسه في

خدمة تنظيمي جبهة وجيش التحرير الوطنيان أنظر: المرجع نفسه، ص 484 .

³³ حياطي، مصطفى، المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية، المرجع السابق، ص 443.

³⁴ Ibid.: fichier n° :B.5(1).20/08/1957

- 35 حفظ، عاشور: نشأة الهلال الأحمر الجزائري ودوره في قضية الأسرى إبان الثورة التحريرية 1957-1962، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، العدد 13، جانفي، 2015، ص 109
- 36 نفسه، ص 109.
- 37 Ibid. :fichier n° :5.(4)11/04/1957
- 38 خياطي، مصطفى: حقوق الإنسان في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص 476.
- 39 Gilbert ;Meynier : Histoire Intérieure Dy FLN 1954-1962. CASBAH Editions. 2003. algre. 496.
- 40 Gantari ;Mohamed : Organisation politico administrative et militaire de la révolution algérienne 1954-1962 ,volume 1,Alger.2000,p 298.
- 41 SHD ; G R1H.1648 ;Croissant Rouge Algérienne ;service de la sante. Guide d'infirmiers
- 42 برنو توفيق : المرجع السابق، ص 135 .
- 43 نفسه، ص 135.
- 44 خياطي، مصطفى : المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية ،المرجع السابق، ص 29.
- 45 المرجع السابق ، ص 42.
- 46 صايكي، محمد : شهادة تائر من قلب الجزائر، مذكرات النقيب محمد صايكي ،دار الأمة الجزائر ، ص 159 .
- 47 1h1691.d2Organisation du FLN –ALN. Service sanitaire (Note renseignements)Alger le 1 juin 1957.

الكتابة التاريخية عند أبي زكرياء يحيى الوارجلاني (ت474هـ/1081م) (1)

أ. الزرويل صالح/ قسم التاريخ/ جامعة غرداية

salahistory@gmail.com

ملخص المقال:

يتناول البحث حياة الشيخ أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني ومنهجه في الكتابة التاريخية، وهو مؤرخ من مؤرخي العصر الوسيط والذي لم يتم تسليط الضوء عليه بعد لأسباب عدة، لذا رأيت من الأجدد الكتابة والبحث في حياته وعصره في جزء أول، ثم التطرق إلى مؤلفاته ومنهج الكتابة لديه في جزء ثان، هو من أوائل المؤرخين الإباضيين في بلاد المغرب الإسلامي بشهادة المستشرقين والمؤرخين المعاصرين ولا أدل على ذلك كتابه: السيرة وأخبار الأئمة الذي يعتبر من أقدم ما كتب عن إباضية المغرب عامة والمغرب الأدنى والأوسط. وهو عمدة الكتابات التاريخية الإباضية.

هو من إحدى قرى وارجلان-ورقلة حاليا جنوب الجزائر-التي كانت حلقة وصل تجارية بين غانا وتيهرت والقيروان، أين شب وترعرع وتعلم في كُتَّابها ومساجدها العامرة على يد مشايخ أجلاء، ثم انتقل بعد ذلك إلى ربوع الإباضية طلبا للعلم، في وادي ريغ، وسوف وبلاد الجريد ونفوسة وغيرها، عاش الوارجلاني عصر الازدهار والحركة العلمية في أوجها فمنطقة بلاد المغرب كانت تعج بالمشايخ والعلماء، الذين جلس بين أيديهم وسمع منهم مختلف العلوم والفنون كالتاريخ والسير والفقهاء وعلم الكلام، وأخص بالذكر منهم شيخه: أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي القابسي.

كان معروفا بورعه، وفضله وسعة فنونه، وغزارة علمه، كما شهد له بذلك من أخذوا عنه، منهم الشيخ ابو العباس الدرجيني، وقد ترك مؤلفات عدة في علم الكلام والفقهاء وغير ذلك، معظمها في عداد المفقود، لم يبق منها سوى مؤلفه التاريخي: سير أبي زكرياء أو كتاب السيرة وأخبار الأئمة.

عاش فترة من حياته متنقلا بين القرى والتجمعات الإباضية، الى أن عاد الى وارجلان مسقط رأسه حيث توفي ودفن هناك على الأرجح سنة 474هـ/1081م.

Le résumé

Cet article traite la vie de cheikh Abou Zakaria Yahia bin Abi Bakr Al-ouargelani et ça méthodologie en histoire, historien des historiens du Moyen Age et qui n'a pas encore été mis en évidence, pour diverses raisons, de sorte que je vis la meilleure pour l'écriture et la recherche dans la vie et l'époque dans la première partie, puis adressé ses écrits et approche de l'écriture a une deuxième partie , il est l'un des historiens premiers Ibadites dans le Maghreb islamique selon le témoignage des orientalistes et des historiens contemporains, avec son livre: Sira wa akhbar el Aïmma qui est l'un des plus anciens livres sur les Ibadhies du Maghreb en générale, et le Maroc central et Ifriqiya, en particulier, il était la source des écrits historiques ibadite.

Est l'un des villages et Ouargelan (actuellement Ouargla) au sud d'Algérie qui a été l'épisode un lien commercial entre le Ghana et Tihart et Kairouan- Où élevé et instruit dans ses mosquées sous les mains des anciens Oulamas, puis déplacé à toute demande ibadite d'information, dans la vallée du Rig, et Souf (sud-est d'Algérie) et Eljarid (au sud de la Tunisie) et Nafussa (nord-ouest de la Libye) et d'autres, Al-ouargelani ère de

prospérité et de mouvement scientifique vivaient à l'apogée de la région du Maghreb grouillait de ses savants et les masheikhs, qui étaient assis dans leurs mains, et les entendre diverses sciences et des arts tels que l'histoire, Siar, la jurisprudence, la théologie et les mentionner Sheikh spéciale: Abu Rabiaa Sulaiman bin yakhlouf Almazzati AlGabissi.

Il était connu par sa générosité et sa capacité des arts, et l'abondance de ses sciences, et lui si Sheikh Abul Abbas Aldrgeni et d'autres a vu, a laissé plusieurs ouvrages sur la théologie et la jurisprudence et ainsi de suite, la plupart du temps en perte de compte, seul ouvrage historique: Sir Abu Zakaria ou biographes .

Il a vécu une grande partie de sa vie à voyager entre les villages et les communautés ibadite, à retourner dans sa ville natale, où il est mort et il a été enterré probablement 474 AH / 1081 AD.

أبو زكرياء يحيى الوارجلاني ومنهجه في الكتابة التاريخية

حياته وعصره:

هو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر بن سعيد اليهراسني (اليراسني) الوارجلاني،¹ نسبة إلى بني يهراسن أو يراسن،² وهي قبيلة بربرية امتدت مضاربها ما بين جزيرة جربة، و جبل نفوسة و بلاد الجريد، ونسبته إلى هذه القبيلة، لتدلّ على أصله ولغته الأمازيغية الأم، وإن

كان ذلك لم يكن ليؤثر كثيرا على أسلوب كتابته ولغتها، إذ سنجده يكتب باللغة العربية التي يبدو أنه أتقنها إلى حد بعيد.

وُلد بوارجلان³، أو بقرية تماوط على حد تعبير تاديوسليفيتسكي TadeuszLewicki، كما نستدلّ من نسبته إليها و منها أصله، وقد يكون أحد أجداده قد انتقل للعيش فيها في فترة ما، وتسكت المصادر عن سنة ميلاده، ويمكن القول بأنه من مواليد نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري/ العاشر والحادي عشر للميلاد.

تُحدّد المصادر منشأه في وارجلان، التي عاش فيها،⁴ أو في إحدى قرأها العامرة، مدة من الزمن قبل أن ينتقل إلى بلاد أريغ لتلقّي العلم، ولا نملك أيّ تاريخ دقيق له، ولا هو ذكر أو لميح إلى ذلك في سيره، وقد ذكر أبو عمار عبد الكافي التناوقي الوارجلاني في قائمته شيخاً عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد، واسمه يحيى بن أبي بكر وهو على الأرجح أبو زكرياء.⁵

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن تاريخ سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين سنة 296/909م، لم يكن ببعيد عن فترة حياة الوارجلاني إذ أنه من المحتمل أن يكون قد عاصر آخر أيامها،⁶ وهذا مستبعد بالنظر إلى الفارق الزمني الشاسع بين التاريخ المذكور، وتاريخ وفاته في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد.

لم نجد في بطون المصادر والمراجع سوى النزر اليسير عن أفراد أسرة أبي زكرياء، التي كانت مقيمة على الأرجح في وارجلان، أو في ضواحيها القريبة، وبالذات قرية تماوط التي ذكرها ليفيتسكي فالشيخ أبو زكرياء قد طالت مدة غيابه عن مسقط رأسه طيلة سنين تعلّمه، وهو في بلاد أريغ،⁷ وتشير المصادر إلى بعض أفراد عائلته دون ذكر للتفاصيل، فقد اشتهرت أسرته بالعلم والعلماء، وهم دار علم وتقى وشهرة في الخير، ولم ينقطع الإسلام منهم، ومن هؤلاء: أخوه أبو يحيى زكرياء بن أبي بكر بن سعيد اليراسني

(ت508/1114م) -الذي يبدو أنه أصغر منه سنًا- وهو عالم فقيه وشيخ تقيّ، سكن درجين ببلاد الجريد التونسي، ثم انتقل إلى وارجلان، وكان معاصراً لأبي عمّار عبد الكافي التناوتي الوارجلاني، وله باع طويل في المناظرة، ومأثورات وأقوال خالدة متناثرة في بطون الدفاتر والسير، روى عنه أبو يحيى إسماعيل، واستشهد أبو عمرو عثمان السوفي بأقواله وآرائه، وكان يُقصد للفتوى، فكان من الفضلاء والأبرار الأتقياء، كان أبو يحيى زكرياء بن أبي بكر وارجلاني المولد، وريغي التعلّم، أما وفاته فكانت في جزيرة جربة.

ومن أقاربه المذكورين في كتب المصادر: خاله أبو حمزة إسحاق بن إبراهيم بن أبي طاهر إسماعيل بن أبي زكرياء اليزماتي المزاتي، الذي تلقى عنه نصيباً من العلم، وابنه إبراهيم بن يحيى بن أبي بكر بن سعيد اليهراسني الوارجلاني، وهو من الطبقة الحادية عشرة (500-550م/1106-1155م)، والذي كان من شيوخ وارجلان.

أمّا باقي أفراد أسرته مثل أبيه أبي بكر، فلا تطلّعنا المصادر عليهم، ويمكن القول بأن أسرته كانت مستقرة، وتمارس حياتها في وارجلان، أو في إحدى قرأها القريبة، بدليل أن ابنه إبراهيم كان من شيوخها، فلاشكّ أنه كان مقيماً مع عائلته فيها، ويمارس حياته كعالم، وواعظ في المسجد، كما هو لدى نظام الإباضية، في حين أن أباه كان يرتحل للعلم والتعليم، مبتعداً عن شواغل الأهل، متفرغاً للتحصيل، تاركاً عائلته في مسقط رأسه، وهذا دأب معظم المشايخ، فهم في رحلات إما داخلية نحو المراكز العلمية المنتشرة في بلاد المغرب الأوسط والأدنى، أو في رحلات خارجية، قد تمتد وجهتها إلى المشرق حيث البقاع المقدسة، والأندلس حيث العلم والعلماء.

كان الوارجلاني مثله مثل معظم سكان الواحة يشتغل بالزراعة للاستزاق، فلم يشغله العمل العلمي والاجتماعي عن السعي لكسب الرزق، ويبدو أنه كان صاحب ضيعات زراعية وخيرات كثيرة، بدليل أن المصادر وصفته بأنه كان فلاحاً كريماً وسخياً، ينفق في سبيل العلم وطلبته، فهذا أبو عبد الله محمد بن بكر قد امتلك عدة ضيعات،

وأصبح يستضيف العزابة عنده،⁸ لكن لانعلم فيما إذا كانت مزارعه في وارجلان، أم في وادي أريغ، التي مكث بها مدة ليست باليسيرة، وعلى الأرجح كانت في وادي أريغ، ونستشف ذلك من حلقات العلم التي كان يعقدها في تلك الديار، ولطول فترة بقائه فيها.

وهناك إشارة في سير الوسياني مفادها " أنَّ الشيخ أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر حصد عنده العزابة،، وهذا في غابته المنسوبة إليه." ⁹ وهذا دليل واضح بأن للوارجلاني حقلًا ذو أشجار وغلات يملكه، وأنه كان يمارس الزراعة فيه بنفسه أو لديه مستأجرين يخدمونه، ويبدو أنه أيضا كان يستضيف العزابة فيه، إلى جانب ذلك فقد كان له قطيع من الغنم يطلقها صباحا لترعى في المزارع وتعود إليه دون أذى،¹⁰ وكان هذا حال أغلب مشايخ عصره، بين جِلِّ مؤقت، و ترحال مستمرّ بين القرى والمدن العامرة بالإباضية وقتذاك، كوارجلان ووادي أريغ، وبلاد الجريد ونفوسة،¹¹ وحتى جربة، حيث تجدهم مقبلين على العلم والتعليم والعبادة، مدبرين عن الدنيا ومفانئها، زهاداً، مكتفين بما يسدّ رمقهم، منفقين بأموالهم في سبيل الله.

الحياة العلمية في عصره:

لم يكد يأفل نجم الدولة الرستمية بتبهرت، حتى عمّجت منطقة أسوف، وأريغ، ووارجلان، والجريد¹² وحتى جربة¹³ بالعلماء، خاصة بعد اهتمامهم بإنشاء حلقات العلم والتأليف، ما بين (ق 3-7/9-13م)، فالإباضية في هذه الفترة، قد أثروا الحياة الثقافية في بلاد المغرب، فازدادت حركة التأليف، إذ أن انتقالهم من إمامة الظهور إلى إمامة الكتمان جعلهم يهتمون بتدوين وتأليف الكتب، في مختلف المجالات خاصة الفقهية منها، حفاظا على استمرار مذهبهم وتراثهم الثقافي، فقد ظلوا محافظين على تقاليدهم المذهبية التي انعكست على فكرهم التاريخي، وكانوا بحاجة لكتب الفقه والعقيدة أكثر من حاجتهم إلى كتب التاريخ؛ التي كانت تدرّس جنبا إلى جنب مع باقي العلوم الأخرى

خاصة ما تعلق بتاريخ مذهبهم وأخبار الدعاة الأوائل، وأئمة الدولة الرستمية وسير علمائهم.¹⁴

وأصبحت من بين مراكز العلم المنتشرة آنذاك في إفريقية، والمغربين الأقصى والأوسط، كالقيروان وفاس وتلمسان، وما امتازت به هذه المنطقة -وارجلان- عن باقي المناطق أنّها كانت أكثر أمناً و أماناً، فكلّما تأزّمت الأمور يفرّ إليها المشايخ، من الظلم والجور لسلامتها، طلباً للاستقرار والطمأنينة والأمن.¹⁵

ولقد شهدت المنطقة حركة علمية متميزة، برز فيها علماء أجلاء في مختلف الفنون العلمية، نذكر منهم مشايخ الطبقة التاسعة، والعاشرة حسب تصنيف صاحب كتاب الطبقات أبي العباس الدرجيني، وهي الموافقة لفترة البحث:¹⁶
من علماء الطبقة التاسعة (400-450هـ/1009-1058م):

1- أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي (345-440هـ/956-1049م)

2- أبو الخطاب عبد السلام بن منصور بن أبي وزجون المزاتي (ت 440هـ/1009م)

3- أبو عمران موسى بن زكرياء المزاتي الزميري (حي 405هـ/1014م)

4- أبو زكرياء يحيى بن ويجمن الهواري (ت 467هـ/1074م)

5- أبو يعقوب يوسف بن سهلون (400-450هـ/1009-1058م)

من الطبقة العاشرة (450-500هـ/1058-1106م):

6- أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي القابسي (ت 471هـ/1078م)

7- أبو محمد ماكسن بن الخير بن محمد الجرامي الوسياني (ت 491هـ/1097م)

8- سحيمان بن سعيد الصاويني (ت 513هـ/1124م)

هؤلاء ثلّة من مشايخ وارجلان وقراها، ووادي ريغ وقراه، والقيروان، منهم من كانت المنطقة مسقط رأسه، ومنهم من جاء من نواحي أخرى وتعلم فيها، ومنهم من كانت له صلة بالوارجلاني إما شيخاً له أو من معاصريه.

وبالعودة إلى الحركة العلمية في وارجلان والحواضر الإباضية الأخرى، في فترة القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، نجد أن ما يميزها كثرة المساجد ودور العبادة،¹⁷ التي لم تكن تؤدي دوراً دينياً كإقامة الصلوات، وعقد مجالس الذكر، ونشر مبادئ الإسلام والثقافة الإسلامية فحسب، وإنما كان لها دور تعليمي، تمثل في تعلم العلوم الشرعية واللغة العربية، وسائر الفنون والعلوم الأخرى، خاصة وأن جلّ سكانها من بربر زناتة وغيرها من القبائل التي لا تجيد اللغة العربية، وعلومها، فقد دأبوا على تعلّمها وتعليمها، لفهم القرآن وأحكامه، والسنة النبوية، وآثار الأولين من الصحابة والتابعين.

فتأخذوا من المساجد مدارس، لحلق العلم بنظام صارم دقيق، يجعل طالب العلم يخضع لقوانين في هيأته، وسلوكه ومعاملاته، وطريقة تحصيله، ومما ساهم في تكريس هذه الطريقة نشأة نظام الحلقة¹⁸ أو نظام العزابة سنة (409/1018م) في غار تينيسي أو الغار التسعي بأريغ، على يد أبي عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي،¹⁹ النظام الذي جمع بين التعليم والدين.

وبما أن عصر الوارجلاني كان من أزهى العصور، فقد عاش في كنف منطقة هي قبلة للعلم والعلماء، ويبدو أنه كان واحداً من علماء عصره، الذين ملؤوا وارجلان وأريغ ونفوسة بحلقات العلم، فمن هذا الباب يجمل بنا أن نعرّج على ذكر جملة من المشايخ الذين كانوا معاصرين له، وقد يكون له اتصال بأغلبهم، إما كزملاء أو أصدقاء الدراسة، أو قد سمع شيئاً من أخبارهم، منهم المذكورون آنفاً من الطبقتين التاسعة والعاشرية حسب

- تصنيف الدرجيني، والمصادر والمراجع التي بين أيدينا لا تطلعنا على الكثير من جوانب حياتهم، والترجمة لحياتهم بلا شك ميدان خصب للبحث والدراسة:
- 1- موسى بن علي بن أبي علي الياجراني أبو عمران (450-500هـ)
 - 2- جنون بن علي بن أبي علي (450-500هـ)
 - 3- يعقوب بن أبي القاسم بن يونس بن وزحين الويليلي (ق5/11هـ)
 - 4- علي بن منصور اليراسني (ق5/11هـ)
 - 5- إبراهيم بن يوسف أبو إسحاق
 - 6- أبو محمد ماكسن بن الخير الجرامي الوسياني
 - 7- أبو القاسم يونس بن أجاج (عاش في النصف الثاني من القرن 5/11هـ)
 - 8- أبو موسى عيسى بن يرسوكسن الويليلي (450-500/1058-1106هـ)
 - 9- أبو محمد عبد الله بن محمد اللثي (500-550هـ)
 - 10- أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرستائي النفوسي (ت: 504/1111هـ)
 - 11- أبو هارون موسى بن علي
 - 12- أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي الوارجلاني (ت قبل: 570/1174هـ)
 - 13- عبّود بن منار الهزّاني أو المزاتي (عاش في النصف الثاني من ق5/11هـ)
 - 14- معاذ بن أبي علي (ق: 5/11هـ)
 - 15- يعقوب بن أبي يعقوب
 - 16- يعقوب بن يوسف الياجراني
 - 17- أبو الربيع سليمان بن موسى بن عمر الزلغيني الدرجيني (400-450هـ)
- رحلته في طلب العلم:

ترعرع أبو زكرياء في وارجلان وشبّ فيها، حيث كانت هناك نهضة علمية قوية وسلطة روحية، انتقلت إليها إثر سقوط الإمامة في تيهرت لكونها بعيدة عن التيارات السياسية والدول المتنافسة، ولكونها حلقة وصل تجارية بين غانا وتيهرت والقيروان، فقد كانت وارجلان مسبكة الذهب، فأتمها الناس من شتى الجهات طالبين فيها الرخاء والأمن والاستقرار، وبذلك جمعت بين العلم والتجارة، ولاشكّ في أن الوارجلاني قد أمضى سنين طفولته فيها بين أقرانه، وتدرّج في مراحل التعليم الأولى من المحضرة إلى الكتاب فالمسجد، وهذا حال معظم مشايخ الإباضية.

وفي فترة شبابه انتقل إلى وادي أريغ لتلقي العلم، على يد نخبة من العلماء أبرزهم: أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، فعلى حدّ قول الجعبي فإن هناك من المدارس ثلاثة: في الأولى شيخ من الأشياخ يعلم التلاميذ الأدب والسير، وفي الثانية يتم تعليمهم القرآن والإعراب، والنحو، وفي الثالثة يصلون إلى من يعلمهم الدين والعلم والأصول،²⁰ ولعلّ هذه الطريقة كانت معروفة آنذاك ومنتشرة في أغلب مواطن الإباضية، وقد تكون هناك أسباب أخرى دفعته للخروج من وارجلان .

وعلى كلّ فقد زاول دراسة التاريخ والسير (الآثار) في وارجلان، وفي وادي أريغ على يد خاله الشيخ أبي حمزة إسحاق بن إبراهيم، ويذكر أبو زكرياء في سيره، أنه قد ترك هذه الواحة-وارجلان- سنة 460/1067¹، وانتقل الى بلاد طرابلس، وكان في بداية عام 461/1068² يسكن تمولست²¹ ببلاد الجريد،²² حيث كان يدرّس الراوي الشهير والمؤرخ الاباضي أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، وتابع دروس هذا الشيخ لمدة عشر سنين.

وفي عام 471/1078³، أراد هو ومن معه العودة إلى وارجلان، وترك تمولست والافتراق عن معلّمه، فشيّعهم الشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي ووصّاهم، وقد توفي بعد ذلك بقليل في السنة نفسها، وعلم بذلك أبو زكرياء في تين وال-محلة قريية من

أجلو- حيث كان قد استقرّ لبعض الوقت، واختلط بالعلماء البارزين في هذا البلد، منهم: الشيخ ماكسن، و الشيخ مزّين⁽²⁾. يبدو أن أبا زكرياء كان قد وصل أجلو وهو في طريقه، هو ومن معه إلى وارجلان لما جاءه خبر وفاة شيخه، والملاحظ أنه حتى في طريق عودته إلى مسقط رأسه لم يضيع أية فرصة للقاء مشايخ أجلو، وقد يكون الحال كذلك مع جلّ مشايخ القرى التي مر بها.

وفي سنة 474هـ/1081-1082¹ ترك وادي ريغ واستقرّ في واحة وارجلان، في قرية تماوط التي كانت مسقط رأسه، ومن المحتمل أن روايات ليفيتسكي صحيحة في مسار تنقلات أبي زكرياء، فكان شيخه أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي قد أخذ العلم عنه خلق كثير لاتخاذة حلقة متنقلة بين مواطن الإباضية ويخرج معه من تلامذته النجباء بدءاً من جربة في الشرق، ووصولاً إلى وارجلان في الغرب، مروراً بجبل نفوسة، فتمولست ثم قلعة بني علي، ثم أسوف، فوغلانة، ثم تماسين، ثم وارجلان في عام الزيارة سنة 449هـ/1057²، ثم البكرات -ربوات رملية جبلية تقع شرق وارجلان- في بداية 450هـ/1058³، ثم يعود إلى زنزفة، ثم الجبل حيث منزله بتمولست سنة 462هـ/1069⁴ ثم بتونين، وفي كل بلدة يبقى للتعليم والتعليم يجتمع عليهم أهلها وكثير من طلاب العلم، وهذا دأب مشايخ عصره في ترحال دائم لا يُعرف لهم مستقر، وما إن يصل خبر قدوم أحدهم إلا وتجد التلامذة يتسابقون لحضور حلقاته، والاعتراف من علمه وأخلاقه.

من هذا نستخلص أن أبا زكرياء قد تعددت تنقلاته، ما بين بلاد أريغ وتمولست وطرابلس، وهو يقدم لنا مثالا حياً لظاهرة تنقل العلماء في العالم الإسلامي الوسيط.

وقد تتلمذ على يد أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، ولا تشير المصادر إلى مناطق أخرى من المحتمل أن يكون قد زارها، ولو لفترة وجيزة، كجبل نفوسة وجزيرة جربة، فقد أصبح من المؤلف أن يعمد المؤرخ إلى التجوال، ليس لطلب العلم فحسب في

الحواضر الشهيرة، ولكن تلمّساً للحقيقة التاريخية من منابعها، وهذا ما ظهر جليا في سيره التي دوّنها.

ومما يُروى عن أبي زكرياء، -و على لسان أحد تلاميذ أبي الربيع- أن تلاميذ أبي الربيع سليمان بن يخلف أرادوا الطلوع إلى جبل دُمر²³ من تمولست، لمدارسة الكتب، ولم يعجب ذلك الشيخ أبا الربيع ولا أبا زكريا يحيى بن أبي بكر، فمضوا على ذلك، فشيعهم أبو زكرياء فقال: "اعلموا أن سوء الرأي، إنما يخرج منه من دخله بالرجوع على أثره لا بالتمادي فيه"²⁴، وهذا منه تحريض على طلب العلم، والاستزادة منه، وعدم التوقف قبل إتمام الدراسة، وكان كثيرا ما يوصي ويقول: "إياكم وقبول صنائع الناس وهداياهم وجميلهم فإنه قيل: "كن عبد الله و لا تكن عبد الناس"، وأنشد في هذا المعنى:

ولست وإن قُربت يوما ببائع لديني وأخلاقِي رجاء التقرب

ويعتاده قوم لقوم تجارة ويمعني من ذلك ديني ومنصبي

اشتهر أبو زكرياء بالصفات والأخلاق الحميدة، فهو شيخ داعية قبل أن يكون شيخ حلقة، والداعية يجب أن يكون قدوة في المقام الأول، فالرجال يُعرفون بأخلاقهم قبل أعمالهم، وما جلوس التلاميذ بين يديه، كبيرهم وصغيرهم، وحتى النساء، إلا دليل على تواضعه ودمائة أخلاقه، فهذا يسأله عن مسألة فقهية، وذلك عن سيرة شيخ من المشايخ، وآخر عن تفسير آية أو حديث نبوي، ورابع عن علم الكلام الذي كان له فيه باع طويل.

فالدرجيني في طبقاته يصفه هو وأخوه أبو يحيى زكرياء قائلا: "كانا من الأفاضل، المقتفين آثار الأوائل..."²⁵ وكان معروفا بورعه، وفضله وسعة فنونه، وغزارة عيونه.... وفضل كتاب الشيخ بفضيلة الشيخ..... وهذا أطف ما يكون من الإشارة، كما عبّر البرادي.²⁶

آثاره العلمية:

كان الوارجلاني وأخوه زكرياء من العلماء المشهورين في وارجلان وفي غيرها من مناطق الإباضية، فالدرجيني يقول واصفاً أبا زكرياء يحيى وأخاه أبا يحيى زكرياء: " ... لم يزل نفسُ الدِّبَانَةِ بجياهما حياً... وطلب علوم المذهب وسير من تنسك تهرب [قائمة]، ولهما في علوم النظر أطول باع، بأدلة ذات إقناع، وحجج تملأ القلوب والأسماع، وتُغني عن المحاضرة ما لا تُغني المشرفة عند القراع، فكانا مُتراءى التَّارين، على تباعد الدَّارين"،²⁷ وهو وصف يدل على شهرة الأخوين وذيع صيتهما عند إباضية المغرب، وما شهرتهما إلا بأخلاقهما وعلمهما وتواضعهما وهذا من شيم العلماء.

ويروي الشيخ علي يحيى معمر أن عائشة بنت معاذ قد جمعها يوماً مجلس مع أبي زكرياء فناقشته في كثير من مسائل علم الكلام،²⁸ منها يتضح أن أبا زكرياء لم يكن مؤرخاً فحسب كما هو معروف، بل كان من المتفقيين في الشريعة الإسلامية على المذهب الإباضي، وصاحب فتوى، وله مسائل كلامية، ورسائل فقهية متعددة، وقد تكون له مؤلفات في هذا المجال، إما كتبها بنفسه أو أملاها على تلاميذه فتلك طريقة شائعة في زمانه، وهو من المتكلمين، أي المتخصصين في علوم النظر وهي: علم الكلام، ودليل ذلك المسائل الفقهية المتعددة التي سُئِل عنها وأفتى فيها، ومن جهة أخرى فقد كانت حلقاته مفتوحة حتى للنساء، اللواتي يحضرن لتلقي العلم ومساءلة الشيخ عن مسائل فقهية وغيرها، ويبدو أن الشيخ يخصص لهن وقتاً خاصاً لذلك.

وقد رَوَّج البرادي أن أبا زكرياء قد أَلَّف عدداً من الرسائل في الفقه والمسائل، غير أنه (البرادي) لم يحددها، ويبدو أنها قُتِدت، إضافة إلى رسائل وبيانات متعلقة بعلم الكلام العقائدي، كما كان قد أعلن عن مؤلف آخر ذي أهمية كبرى سوف يبحث في الفرق التي نشأت ضمن الإباضية؛ ويبدو للأسف أنه لم يكتب هذا المؤلف أبداً، إذ لم يُبق له أي أثر، كما لم تذكره الآثار الأدبية الإباضية، وقد تكشف الأيام عنها أو عن بعضها، في مكتبة عامة أو في خزانة خاصة، أو في أي مكان آخر.

رغم غياب وفقدان العديد من المؤلفات الفقهية لأبي زكرياء، إلا أن مؤلفه التاريخي: سير أبي زكرياء، يبقى لحدّ الآن أهمّ مؤلف تركه أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني، وعليه اعتمد كل أصحاب السير، والطبقات الإباضية، والمتخصصين منهم في التاريخ الإباضي، الذين جاؤوا من بعده إلى يومنا هذا، وله فضل السبق في ذلك. وما المسائل الفقهية المذكورة فيه إلا إشارة إلى ضلوعه في الفقه، وعلم الكلام، والظاهر أنه أضاف تلك المسائل إلى كتابه إيمانا منه بالارتباط الوثيق بين السيرة والتاريخ والفقه، وليكون موسوعة يستفيد منها طالب العلم في مختلف حواضر بلاد المغرب، ويذكر البرادي نقلاً عن الدرجيني أن سبب تأليف كتاب الطبقات هو أن جماعة من عُمان قدموا جربة، يطلبون كتاباً يتضمن سير الأوائل، ومناقب الأسلاف من أهل المغرب، فنظروا في كتاب أبي زكرياء فوجدوه مخالفاً ببعض التفصيل قاصراً دون أمد التحصيل، فلم يروا أهلاً لهذا التصنيف غير أبي العباس.

من هنا يمكن القول بأنّ كتاب سير أبي زكرياء كان يُعتمد للتدريس، وقد تكون هناك مصنّفات أخرى، إما في التاريخ والسير أو في مجالات أخرى، وهو معروف لدى طلبة ومشايخ جزيرة جربة، فضلاً عن تلاميذ ومشايخ وارجلان والمناطق الأخرى، فقد ذاع صيته وانتشر في مختلف تلك الربوع، ويبدو أنه من بين الكتب القليلة، إن لم نقل الوحيد في مجال التاريخ والآثار والسير، الذي كان يُتداول بين التلاميذ والمشايخ. وهو أقدم أثر تاريخي ذي قيمة للإباضيين في المغرب الإسلامي حتى عصر المؤلّف، وللكتاب ترجمة ملخصة إلى الفرنسية.

شيوخه وتلاميذه:

تلمذ أبو زكرياء على يد شيوخ كبار أجلاء - قد سبقت الإشارة إلى بعضهم - ، والذين كان لهم الفضل في نبوغه وبروزه، وشهرته كمؤرخ وفقهه ومناظر في علم الكلام، في مساجد وارجلان، ووادي أريغ، وبلاد الجريد وطرابلس ومن بين هؤلاء المشايخ نذكر:

- 1- أبو حمزة إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الزلغيني
- 2- أبو الربيع سليمان بن يخلف الوسلاقي القابسي المزاتي النفطي (ت471هـ/1078م)
- 3- أبو زكرياء يحيى بن الخير بن أبي الخير الجناوني (ق5^{هـ}/11^م)
- 4- أبو عبد الله مزين بن عبد الله الوسياني (450-500^{هـ}/1058-1106^م)
- 5- أبو يحيى زكرياء بن أبي زكرياء فضيل بن يسجا بن يوجين اليراسني (ت508^{هـ}/1114^م)

على هؤلاء المشايخ وبين هؤلاء الأعلام، تتلمذ ونشأ أبو زكرياء، وأخذ عنهم علومه بمختلف أنواعها سواء في وارجلان، أو بلاد أريغ، أو نفوسة، وكان لهم الفضل الجليل لنبوغته هو وأقرانه في زمانه، ول هؤلاء أثرهم البالغ في تكوينه العلمي وسموه الخلفي، وجمع في شخصه كثيرا مما تفرق بينهم، من مميزات وخصائص العلم والأخلاق.

ولا يمكن القول بأننا أحصينا كل العلماء و المشايخ -أساتذته- فقد يكون هناك العديد ممن لم نصل إلى التعرف عليهم، وترجمة حياتهم، وبما أنه كان تلميذا يتلقى العلم منهم، فقد ترقى في الدرجات، حتى صار هو كذلك من طينتهم التي لا تكاد تنطفئ، حتى تخلف أجيالا من العلماء.

قرأ على يد أبي زكرياء جماعة من التلامذة فنجبوا، وطلبوا ففازوا بما طلبوا، وهم مجموعة من كبار العلماء والفقهاء، والمؤرخين وكاتب السير، حملوا مشعل العلم من بعده وتخلقوا بأخلاقه وصفاته، وصلتنا عنهم روايات في كتب التراث منهم:

- 1- أبو نوح صالح بن إبراهيم بن يوسف الزميري المزاتي التجمي (حي) في: 557^{هـ}/1161^م)
- 2- أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني (حي في 557^{هـ}/1161^م)
- 3- أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي المارغني (500-550^{هـ})

4- إبراهيم بن أبي إبراهيم مطكوداسن بن يخلف بن مالك الدجمي المزاتي الغرمانى (ت قبل 504هـ/1110م)

5- سعيد بن عمّار الزواغى (النصف الثانى ق 5هـ/11م)

6- عائشة بنت معاذ بن أبى على (ق 5هـ/11م)

7- أبو عمار عبد الكافى بن أبى يعقوب التناوتى الوارجلانى (ت قبل 570هـ/1174م)

8- أبوسهل يحيى بن إبراهيم بن سليمان بن زرقون بن ويجمان (550-600هـ/1155-1203م)

9- أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراى الوارجلانى (ت 570هـ/1174م)

هؤلاء ثلثة من تلاميذ الشيخ أبى زكرياء، قد يكون عددهم أكبر من ذلك بكثير، فمن المؤكد أن مجالسه وحلقه العلمية فى أى منطقة زارها من مناطق الإباضية كانت تعج بالتلاميذ، بعد سماعهم بقدم الشيخ الوارجلانى إلى قريتهم، وهم يستعدون لذلك أياما قبل مجيئه، وتلك الحلق كان يحضرها الكبار والصغار وحتى النساء من مختلف الأعمار، وقد يحضرها حتى تلاميذ من مدن أخرى رغبة فى لقاء الشيخ والنهل من معارفه.

هذا ويمكن القول بأن معظم من عاصر الشيخ أبا زكرياء تجده إما شيخا له، أو أحد تلاميذه، أو التقى به فى إحدى الزيارات المتعددة للمشايخ، التى كانوا يقومون بها لتفقد أحوال بعضهم بعضاً فى مناطق وجودهم، بين جربة ونفوسة، وبلاد الجريد إلى وارجلان، مرورا بأريغ وسوف، وقد تتضارب الأخبار بين المصادر عن الشيخ وتلميذه، أى الجواب عن السؤال: من علّم من؟ ومن أخذ عنّ من؟، ففي أحيان كثيرة نجد شيخا لأبى زكرياء، وفى نفس الوقت تلميذا له، حيث تذكر المصادر أنه أخذ عنه، أو روى عنه روايات، فلا نعلم من الشيخ؟ ومن التلميذ؟ فى مثل هذه الحالات.

هـ- مكانته التاريخية:

إن الحديث عن مكانة الشيخ أبي زكرياء يحيى الوارجلاني التاريخية يجزئنا إلى ذكر صفاته الخلقية، فقد عُرف بالفضل وسعة العلم، وجزارته وتواضعه، وورعه وصلاحه، وقد اقتفى آثار الأوائل، فتمتع بمكانة علمية مرموقة،²⁹ ولا أدلّ على ذلك حجم الروايات التي نُقلت عنه، وهي تدلّ على مدى الثقة التي اكتسبها عند المؤرخين والإخباريين، المعاصرين له أو المتأخرين عنه، فكلامه يُعدّ من أوثق الأخبار، وخير مثال على ذلك الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني الذي لم ير غير مؤلّف أبي زكريا أهلاً لإرساله إلى إخوانه الإباضية في المشرق، فلم يكلف نفسه عناء تأليف كتاب جديد، وإنما اعتمد الجزء الأول من كتاب الطبقات على كتاب السيرة بعد تهذيبه وتنقيحه.

فهذا أبو القاسم البرادي يقول فيه أنا: "متيقن أن الماء يطيب بطيب مورده وإن كان أجاجاً..."³⁰ وهو مثل ضرب في كتاب أبي العباس وكتاب أبي زكرياء، ويضيف في موضع آخر: "وفضل كتاب الشيخ بفضيلة الشيخ لا بفضيلة الكتاب"³¹ من هنا نستدل على قيمة الوارجلاني الأخلاقية التي يتمتع بها بين علماء عصره، فقد كان ذا فطنة وبصيرة وهي من سمات العلماء، وله مواقف عديدة جمعها الدرجيني في طبقاته منها:

جوابه عن حال أهل وارجلان لما سُئل عنهم فقال: "أما أنا ذهب بصري فلا أرى شيئاً، ولا رأيت أحداً، وأما وارجلان خلت فما بها أحد."³² أو كما أجابهم أيضاً لما طلبوا منه الإقامة ليتأنسوا به: "قولوا أقم عندنا قليلاً يمتّ قلبك"³³ وذلك لما آل إليه أمر وارجلان وتغيّر أحوالها.

وكان نصوحاً محباً للعلم، إذ كان يحث تلاميذه على عدم الاكتفاء بالقليل من العلم، فقد قال لتلاميذه يوماً، وقد جاؤوا لموادعته: "إن مضيتم إلى أهاليكم على هذه الحالة، فأنتم كمن ترك الإسلام عمداً"³⁴ وهذا ذنب عظيم.

وبالفعل كان أبو زكرياء مؤرخاً ورعاً، حبسه مذهبه الإباضي عن الافتراء، أو المبالغة لأن كل ذلك كذب، والكذب كبيرة تخلّد صاحبها في النار.

أما عن مكانة كتاب أبي زكرياء التاريخية بين كتب السيرة الإباضية الأخرى، فلاشك في أن له موقعا خاصا بينها، وهو موقع الصدارة، وأنه أرقى وأوفى مؤلف مكتوب عن إباضية المغرب،³⁵ كيف لا وهو بمثابة أم كل كتب السير والمناقب الإباضية خاصة، والتي أُلِّفت من بعده، كالوسياتي والبغطوري والدرجيني والشماخي، فقد ساهم به الوارجلاني في إنقاذ جزء من التراث الإباضي الشفهي في تلك الفترة، وإخراجه من حيز الرواية الشفوية إلى المكتوبة، وكتابته تم وتعبّر عن معطيات الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري³⁶ للإباضية.

وفاته:

كما كان تاريخ ميلاده غامضا، فقد اختلفت المصادر في تحديد تاريخ وفاته، فالدرجيني في طبقاته قد صنّفه ضمن علماء الطبقة العاشرة (450-500هـ/1058-1106م)، وذكر الوسياني في سيره أنه توفي بعد سنة 474هـ/1081م، في حين أنّ هناك بعض المراجع التي ذهبت بعيدا في تحديد تاريخ الوفاة إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد، وبالتحديد بعد سنة 504هـ/1110م، أو قبل ذلك بكثير، وقد يكون هناك خلط في تاريخ وفاته بينه وبين أخيه أبي يحيى زكرياء بن أبي بكر والمتوفى سنة 508هـ/1114م، ويبدو أن أقرب تاريخ لوفاة هو سنة 474هـ/1081م، لأنه آخر تاريخ مذكور له في كتاب السيرة.

ويفيدنا ليفيتسكي³⁷ T . Lewicki أن الروايات الإباضية بوارجلان تذكر أنه دُفن إما بوارجلان أو بسدراتة، وذلك اعتماداً على زيغموننتسموغورفسكي Zygmunt Smogorzewski، ولم يتحقق من ذلك، كما أشار فيما سبق الى مسقط رأسه بقرية تماوط في ضواحي وارجلان.

1- بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية من ق (1-15هـ)، قسم المغرب، 4 أجزاء، المطبعة العربية، غرداية، ط1، 1999، 948/4، تر984. أما نسبة الوارجلاني فكلّ المصادر تذكره بذلك نسبة إلى وارجلان، أو ب: الوارقلي نسبة إلى ورقلة ينظر: أبوزكرياء يحيى بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح و تع. إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979، ص13. مؤلف مجهول: كتاب المعلقات في أخبار و روايات أهل الدعوة، دراسة وتح الحاج سليمان بن ابراهيم بابنيز الوارجلاني، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ط1، 2009، ص92.

2- بنو يراسن أو يوراسن أو يهراسن: هم من قبائل البربر الخارجة عن صلب زناتة، و يبدو أنّها كانت تعيش بين الجنوب الشرقي التونسي و الغرب الليبي. وهذا يدلنا على بربريته، وقد يكون ذكر أبي زكرياء لفضائل البربر من المعجم في بدايات سيره تلميح منه إلى نسبه. انظر: أبو القاسم بن حوقل النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص102.

3- وارجلان أو وورجلان أو ورقلة أو ورغلة أو ورجلة أو واركلا وواركلي عند ابن خلدون في عدة مواضع بفتح الواو وبعد الألف راء مفتوحة ثم كاف ساكنة وبعد اللام ألف ونون، أو أوريكليانامانوس Ureceliana Manus الذي يماثل تقريبا العرق الأمازيغي القديم: وركلان Warjlan، أو Warglan، اسمها القديم هو: فجوهة، وبنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناتة من ولد فريبي بن جانا (من البربر ومجانة)، إضافة إلى مزاتة، وبنو يفرن ومغراوة، ورئيسهم يعرف بالسلطان، كانت مواطنهم قبلة الزاب إلى الجنوب منه، واختلطوا المصر المعروف بهم، وتقع بين إفريقية وبلاد الجريد على ثماني مراحل من بسكرة في القبلة، وهي مدينة في طرف الصحراء -جنوب الجزائر- وهي بلد خصيب كثير النخل والبساتين، بنوها قصورا متقاربة الخطّة وفيها سبعة حصون للبرابر، كانت عاصمة لقرى كثيرة تتجاوز 120 بلدة بعضها مدينة وبعضها قرية، وأهلها أغلبهم من الإباضية، وهي بوابة التجارة إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان. أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، بلا ت، ص182. الشريف الادريسي: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، 1863، ص121. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، 5 أجزاء، دار صادر، بيروت، 1977، 371/5.

- 4- أبوزكرياء: المصدر السابق، انظر مقدمة المحقق ص15. تاديو سيليفيتسكي: المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، تر. ماهر جرار وريما جرار، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 2000، ص134-135. عمر سليمان بوعصباة: معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان، دار نزهة الالباب، غرداية، ط2013، ص2، 110. ينفرد ليفيتسكي بتحديد القرية التي كانت مسقط رأس الوارجلاني بقوله: "استقرّ في قرية تماوط والتي كانت مسقط رأسه على ما يبدو". ولا نعلم من أين استقى هذه المعلومة؟ ليفيتسكي: نفسه، ص135.
- 5- ليفيتسكي: المرجع السابق، ص134.
- 6- ومعلوم أن سقوط الدولة الرستمية كان في أواخر القرن الثالث الهجري 296/909م، ووفاة أبي زكرياء كانت حوالي سنة 474هـ/1081م.
- 7- بلاد أريغ أو وادي ريغ : معناها السبخة بالبربرية، وتسمى بالزاب الأصغر أيضا، تُنسب إلى قبيلة بني ريغة التي يتصل نسبها ببني مغراوة، وجدّهم الأوّل الديرث بي جانا، أي: جاناتن، أي زناتة. نزل الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا، فاحتطوا قرى كثيرة في عدوة وإدٍ ينحدر من الغرب إلى الشرق، وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء، وبهم تُعرف لهذا العهد، وهم أكثرها. وهي الآن مدينة تفرقت وضواحيها. انظر: الوسياني: الحموي: معجم، 113/3، 124. ابن خلدون أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد: العبرو ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمّان، الأردن، 2000، 1827/6، 132. إبراهيم بن صالح بابا حمو أعزام: غصن البان في تاريخ وارجلان، دراسة وتح إبراهيم بحاز وسليمان بومعقل، مطبعة العالمية، غرداية، ط1، 2013، هامش رقم: 2 ص103.
- André Rober: Le Souf monographie, Algérie, 2004, p32
- 8- فرحات الجعيري: نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، 1975، ص45.
- 9 - الوسياني أبو الربيع سليمان بن عبد السلام: سير الوسياني، دراسة وتح. عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصباة، 3 أجزاء، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ط1، 2009، 270/1.

- 10- سعد زغلول عبد المجيد: هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب (دراسة لكتاب السير) أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، ج1، الجامعة التونسية، تونس، 1979، ص 71.
- 11- نفوسة: جبال عالية منيعة بالمغرب الأدنى-ليبيا-طوها مسيرة ثلاثة أيام، بينه وبين القيروان 6 أيام، وهو اسم قبيلة بربرية منسوبة إلى أبناء نفوس بن زحيك بن مادغيس الأبتري، ضاربة جذورها في الجبل المنسوب إليها، وفيه نحو ثلاثمائة قرية، وعدة مدن منها: مدينة جادو وهي أم قراه، وشروس، وبه معشر الإباضية الوهبية، وهم قوم عجم الألسن، وبها قبيلة بنو زَمُور، وقبائل أخرى منها: زناتة وزواغة. انظر: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة: المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1889، ص 90. أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح اليعقوبي: كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1860، ص 135. ابن حوقل: المرجع السابق، ص 92-93. مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تح سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1985، ص 144. صالح معيوف: جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية (من منتصف ق 2هـ إلى أواخر ق 3هـ)، منشورات مؤسسة تالوت الثقافية، دم ن، 2006، ص 21 وما بعدها. وانظر أيضا: Jean Despois : Le Djebel Nafoussa (tripolitaine) ; étude géographique, édition la rose paris, 1935. P46.
- 12- عمر سليمان بوعصبانة : الحياة العلمية بمنطقة أريغ ، دورية الحياة، ع.11، 2007، ص 141. سامية مقري: التعليم عند الإباضية في بلاد المغرب من سقوط الدولة الرستمية إلى تأسيس نظام العزابة (296-409هـ/909-1018م)، ماجستير إشراف د.بوبة مجاني، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص 52.
- 13- جربة: كبرى الجزر في جنوب شرق تونس، مجاورة لليابسة، كانت أهلة بالإباضية منذ بدايات القرن 2^{هـ}/8^{هـ}، فقد كانت تابعة لإمامة أبي الخطاب ثم لإمامة الرستميين، أغلب سكانها من قبيلة لماية البربرية، برز دورها في الحركة الثقافية لبلاد المغرب الاسلامي. البكري: المرجع السابق، ص 19-85. مجموعة من الباحثين: معجم مصطلحات الإباضية، جزأين، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، عُمان، 2008، 1/178.

- 14- مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب الأوسط، جمعية التراث، القرارة، 1996، ص248،250.
- 15- عمار غرايسية: المدينة الدولة في المغرب الأوسط - وارجلان نموذجاً- (ق4-6)، رسالة ماجستير، إشراف د. عبد العزيز الفيلاي، 2008، ص52.
- 16- نكتفي بذكر أسمائهم وللمزيد عن حياة هؤلاء الأعلام يمكن العودة إلى مختلف كتب السير والتراجم الإباضية.
- 17- بوعصبانة: معالم، المرجع السابق، ص112.
- 18- عن نظام التعليم وطريقة سيره. ينظر: أبو العباس احمد الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي، جزأين، دن، غرداية، ط2، 2007، 168/1-184. الجعيري: نظام، المرجع السابق، ص ص 117-148. بوعصبانة: معالم، المرجع السابق، ص 112 وما بعدها. سامية مقري: المرجع السابق، ص ص 71-81.
- Brahim Fekhar :les communautés ibadites en Afrique du nord depuis les fatimides ; thèse de doctorat d'état, rap .P. Chen, univ de Paris, faculté des lettres et des sciences humaines, p.83.
- 19- الجعيري: نظام، المرجع السابق، ص36. مسعود مزهودي: جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (21-442هـ) (642-1053م) ، مكتبة الضامري، عُمان، ط1، 2010، ص395 وما بعدها.
- 20- الجعيري: نظام، المرجع السابق، ص ص 44-45.
- 21- تمولست أو تمولسة أو تمولست: تقع بين سلسلة جبال تمتد من الجريد التونسي الى جبال الحوايي بجنوب شرق تونس (منطقة بني خداش). انظر: أبوزكرياء: المصدر السابق، هامش رقم:4 ص 253. الجعيري: نظام، المرجع السابق، ص 187. بوعصبانة: معالم، المرجع السابق، هامش رقم:3 ص136
- 22- بلاد الجريد: سميت كذلك لكثرة النخيل بها، وتسمى أيضا ببلاد التمر، وهي مدن كثيرة، وأفطار واسعة وعمائر متصلة، منها قابس وقسطيلية و نفزاوة ودرجين - بجنوب غرب الجمهورية

التونسية -، وهي آخر بلاد إفريقية على طرف الصحراء كانت أهلة بالإباضية في العصور الوسطى. انظر: اليعقوبي: البلدان، ص 139. ابن حوقل: المرجع السابق، ص 92. شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ط 2، ليدن، 1906، ص 217، 230.

23- حسب الدرجيني: فقلعة بني علي هي نفسها زنزفة، الواقعة بين بلاد الجريد التونسي وجبال دمر إلى الجنوب الشرقي من تونس.

-تونين أو عيون تونين: قرية من قرى جبل نفوسة، ويبدو أنها لا تبعد كثيرا عن تمولست، أي أنها في أقصى الجزء الغربي لجبل نفوسة، على وادي لالوت أو نالوت الحالية.

-جبل دُمر: سلسلة جبلية تمتد من جنوب طرابلس إلى جنوب قابس، وتطلق كلمة: دُمر خاصة على الجهة الغربية، وهي تقابل جهة بني خدّاش الآن، وتعتبر امتداداً لجبل نفوسة، سكانها من بني دمر الزناتيين من ولد ورسيك بن الديرت بن جانا، ولهم بطون كثيرة.

24- أبو زكرياء: المصدر السابق، ص 372، وأما في تحقيق إسماعيل العربي فيضيف إليه: "وإنكم إن عمدتم إلى أهاليكم على هذه الحال، فأنتم كمن قصد إمارة الدين"
25-الدرجيني: المصدر السابق، 2/272.

26-البرادي أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم: الجواهر المنتقاة فيما أحلّ به كتاب الطبقات، نسخة مصورة، ورقة 12.

27-الدرجيني: المصدر السابق، 2/272. يقصد بالعبرة: (ما لا تغني المشرفة عند القراع) أي أن أدلتها تغني عن السيوف عند المضاربة، كناية عن قوة الحجة والبرهان. ابن منظور محمد بن مكرم بن أبي القاسم: لسان العرب، تح مجموعة محققين، دار المعارف، القاهرة، د ت ن.، مادة: المشارف، ص 2244 ومادة: القراع، ص 3597.

28-علم الكلام: هو علم يعبر عنه ابن خلدون بأنه يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية-يبحث في ذات الله وصفاته-، بالأدلة العقلية والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات، وهو من العلوم الشرعية المدوّنة. ابن خلدون: العبر، ص 479.

29-الدرجيني: المصدر السابق، ص 272.

30-البرادي: المصدر السابق، ص12.

31-نفسه، نفس الصفحة.

32-الدرجيني: المصدر السابق، 2/272.

33-نفسه، نفس الصفحة.

34-ابوزكرياء: المصدر السابق، ص372.

35-محمود اسماعيل: المرجع السابق، 4/188.

36-نفسه، 4/187.

37- Lewicki Tadeusz: Les historiens, bibliographes et traditionnistes ibadites wahbites de l’afrique du nord du XIIIème au XVIème s, Foliaorientalia ; vol.3(1961) p.1-134, bioth19.p.98

ابن حمادوش الجزائري وأبو راس الناصري يؤرخان للعلاقات التجارية

بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن 18م

أ/ مشوشة سمير - جامعة عباس لغرور - خنشلة

s.mechou@yahoo.com

ملخص :

يعتبر القرن 12هـ/18م قرنا محوريا في تدوين الرحلات المغاربية فلا يمكن لأي باحث في هذا التخصص تجاوزها، فهو يحتوي على رصيد هام منها فهي بمثابة مادة علمية خام لدراسة مختلف الجوانب، فهذا القرن لم يكن نقطة بداية تأليف وكتابة الرحلات لا من قبل المغاربة ولا من الأوربيين الذين زاروا بلاد المغرب، فلو قمنا بعملية مقارنة بسيطة بين ما كتبه وألفه لوجدنا أن مؤلفات المغاربة في هذا الإطار لا تنافس ولا تزاحم أبدا ما ألفه نظرائهم من الأوربيين، خاصة ما تعلق بتاريخ بلاد المغرب خلال العهد العثماني، فلو رجعنا إلى ما جاء به القرنين (10-11هـ)/(16-17م) من كتب الرحلات⁽¹⁾ لوجدنا أنه وفر للباحثين مادة تاريخية قيمة في التعريف بأخبار المدن والتل والصحراء والطرق التجارية ومختلف القبائل، ومن كتب الرحلة خلال القرن 12هـ/18م نجد رحلة ابن حمادوش الجزائري والموسومة بـ : " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال " (1156هـ/1743م) وأيضا رحلة أبو راس الناصري الجزائري و المعنونة بـ " فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" والتي ألفها سنة

(1204هـ/1789م)، فاستطاعا من خلالها إيصال مادة تاريخية هامة تؤرخ لأحداث

بلاد المغرب وأبرزها إيالة الجزائر وعلاقتها المختلفة خاصة ما تعلق بإيالة تونس تجاريا.

الكلمات المفتاحية : ابن حمادوش الجزائري، أبوراس الناصري ، العلاقات التجارية، إيالة الجزائر، إيالة تونس، القرن 12هـ/18م .

Abstract:

the century 18th came a Maghreb flights could not for any researcher in this specialisation exceeded, it contains an important balance of flights, which considered as important sources to study the various aspects, which backpacker was able son Algerian Ibn Hamadouche and Abo RassEnassiri delivery of the sources of an important historical chronicles singled out and whom the events of socio-cultural and economic.

مقدمة :

لم يترك الإسلام أي وسيلة تعود على الإنسان بالفائدة إلا وحته على فعلها وممارستها فنجد من هذه الأمور الرحلة، والتي لها فوائد عديدة خاصة وأنها وردت في القرآن الكريم⁽²⁾ في سورة قريش في قوله تعالى: "إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف"⁽³⁾، وقوله تعالى في سورة الحج "...وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر

يأتين من كل فح عميق..."⁽⁴⁾، وهذه الرحلات لم تكن ذات طابع واحد فقد كانت علمية، دينية، تجارية، استكشافية، فساهمت كثيرا في معرفة ووصف المناطق ومختلف الطرق التي تسلكها القوافل، ولا شك أن أمتع كتب الرحلات وأرفعها قيمة علميا وأديبا وتاريخيا هي التي تأخذ طابع ديني بهدف الحج أو علمية بهدف طلب العلم أو الاثنين معا⁽⁵⁾، وانتقل هذا النوع من السفر من المشرق إلى بلاد المغرب وأصبح جزءا من طريقة الانتقال من منطقة إلى أخرى وسميت "بالرحلات الحجازية"، وكان سكان بلاد المغرب يتبعون منهج المشرقيين في الرحلة خاصة ذات البعد الديني وهو أداء فريضة الحج، وقد تم تدوينها في شكل يوميات وكان أكثرهم ينتمون إلى العلماء المحليين⁽⁶⁾، وقد ظهر في تاريخ بلاد المغرب وسيلة للتواصل التاريخي على مر القرون متمثلة في كتب الرحلات بمختلف أنواعها، وكان للجزائريين والمغربيين دور في كتابتها مع بدايات التواجد العثماني بالمنطقة، لكن الملاحظ هو إبداع المغربيين في إنتاج مختلفها (حجازية، وغير حجازية)، فنجدها كتبت نثرية أو شعرية، وفي هذا الإطار برز العديد من الرحالة المغاربة خاصة خلال القرن 12هـ/18م وأغلب رحلاتهم حجازية، فكان لهم دور كبير في إخراجها كمصادر تاريخية هامة اعتمد عليها أغلب الباحثين في دراساتهم، وأبرز هذه الرحلات ذات القيمة التاريخية الهامة نجد رحلة ابن حمادوش الجزائري والموسومة بـ: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" والتي دونها سنة (1156هـ/1743م) ورحلة أبوراس الناصري الجزائري والمعنونة بـ "فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته" والتي ألفها سنة (1204هـ/1789م)⁽⁷⁾، فجاءت متونها بروايات وإشارات تؤكد وجود نشاط تجاري بين اإيالي الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/18م .

أ-1/ التعريف بصاحب رحلة ابن حمادوش الجزائري :

جاء في تحقيق الرحلة الذي قام به الأستاذ أبو القاسم سعد الله بأنه عبد الرزاق بن محمد المعروف تاريخياً بابن حمادوش الجزائري عاش خلال القرن 12هـ/18م، ولد بمدينة الجزائر سنة 1107هـ/1695م، أتم تعليمه الأولي بمسقط رأسه، درس العلوم الشرعية والفقه والنحو والتصوف والأدب وبرع في مجال العلوم الطبية وأصبح فيما بعد صيدلياً وطبيباً⁽⁸⁾، قام بأداء فريضة الحج مرتين الأولى كانت سنة 1125هـ/1712م والثانية سنة 1113هـ/1718م⁽⁹⁾، فقام برحلة أخرى إلى المغرب الأقصى عام 1156هـ/1743م، وتنقل فيها بين تطوان⁽¹⁰⁾ ومكناس وفاس⁽¹¹⁾، توفي وعمره حوالي تسعين سنة فلم يعلم تاريخ وفاته ولا مكان دفنه⁽¹²⁾.

أ-2/ قراءة في كتاب " رحلة ابن حمادوش الجزائري "

يعتبر كتاب رحلة ابن حمادوش الجزائري والمسماة " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال " والتي قام بها سنة 1156هـ/1743م من أهم مؤلفات هذا الرحالة، فهي مصنفة ضمن الرحلات غير الحجازية لكونه قام بها إلى المغرب الأقصى متنقلاً بين المدن المغربية بهدف العلم والتجارة معاً⁽¹³⁾، فرغم أدائه لفريضة الحج مرتين إلا أنه لم يدون رحلاته للمشرق، لكنه قام بكتابة رحلته إلى المغرب وطبعت وجاءت هذه الرحلة مبتورة من بعض الأجزاء، وقد قام بتحقيق المخطوطة الوحيدة على مستوى الخزانة العامة بالرباط الأستاذ أبو القاسم سعد الله⁽¹⁴⁾، و جاء في كتاب ابن سودة أنه توجد

نسخة أخرى موجودة على مستوى الخزنة الكتانية بفاس⁽¹⁵⁾، فمن خلال القراءة الكاملة والمتأنية للرحلة والتقديم للرحلة توصلت إلى مجموعة من النتائج :

أ- مشكلة النقل الحرفي للنصوص أو تكرار النصوص - دون مراعاة الأمانة العلمية - سمة غالبية في متون بعض الرحلات المغاربية، وفي الحقيقة ذلك أمر لا بد منه لتغطية بعض الفراغات التي ترد فيها، خاصة في ظل عدم معرفة المؤلف لبعض الأماكن الجغرافية، لكن في الواقع حسب رأيي هذا ليس بمشكلة لو تمت الإشارة إلى المصدر المأخوذ عنه وتثبيته مع النص المقتبس منه ولا يتوقف الأمر عند التكرار فقط، فأحيانا يوجد تناقض ملحوظ إما النص في حد ذاته يتناقض مع معطياته أو يتناقض مع غيره من نصوص رحلات أخرى وهذا حسب رأيي يرجع لعدم تدقيق بعض المؤلفين لمعلوماتهم ما أوقعهم في أخطاء جسيمة كان من الممكن تفاديها.

ب- أنه يمكن اعتبارها مصدر هام تترجم حياة المؤلف خاصة وأن أغلب كتب التراجم والسير اعتمدت عليها للتعريف به، وإن عشر على الأجزاء المفقودة من رحلته فبطبيعة الحال ستسد فراغا كبيرا من التاريخ الثقافي و السياسي لبلاد المغرب، وهذا انطلاقا مما اعتمد عليه من مصادر جزائرية ومغربية⁽¹⁶⁾.

ت- هي نادرة من نواذر فن الرحلة غير الحجازية خلال القرن 12هـ/18م وهذا نظرا لأهمية النصوص المختلفة التي جاءت فيها .

ث- أنها مادة خام يجب صقلها والاعتماد عليها في دراسة جوانب تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية ومصدر يعتمد عليه لدراسة وتحليل العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن

12هـ/18م، من خلال إبرازها لدور العلماء المغاربة في الحركة العلمية والثقافية خلال العهد العثماني .

ج- استرسال ابن حمادوش الجزائري في بعض الأمور الشرعية مع بعض المشايخ والفقهاء جعل منها مصدر مرجعي ديني وإن قارناها مع رحلات أخرى سنجدها رحلة مغربية لا مشرقية خالية من الصنعة الأدبية وكثرة القصص الخرافية والأسطورية .

ح- الرحلة تتميز بأسلوب لغوي بسيط وسهل قريب من لغة المؤلفين الحاليين فرغم أن الرحلة ليست حجازية، إلا أنها تضمنت بعض الإشارات والإيحاءات حول وجود نشاط تجاري بين الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/18م .

خ- بمقارنة بسيطة بين رحلة ابن حمادوش مع رحلات أخرى متزامنة معها مثل رحلة الدرعي سنجد أن النشاط التجاري - مع قلته - كان مقرونا بتنقل القوافل المختلفة وغير واضح في هذه الرحلات، فالمرجح في كل هذا أن النشاط التجاري كان هامشيا ولم يكن مقصودا في ذاته .

فما تضمنته هذه الرحلة من إيحاءات وإشارات نصية تؤرخ للتواصل التجاري بين ابالي الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/18م وجدتها في النص التالي :

النص :

"...فمكثنا أياما إلى أن بعث له نائبه (1)، وكان الحاج الطاهر السنخسوخ القصري هو المكاس (2)، كتابا بعدد ما عندنا من السلع وأسمائها، فلما رد له الجواب وأمره أن يدفع

لنا، وكان خامس عشر محرم الحرام، دفع للناس أرزاقهم . فأول ما دفع القطن لأنه أذاه ثم يوم الثلاثاء أول من أخذ رزقه غير القطن... وكان عندي صندوق فيه ثلاثة وأربعون تزيئة (3) ششية تونسي (4) وسبعة عشر حزام حرير وقصاب زبد، فأخذ في المكس مني حزاما حريرا وخمسة وعشرين شاشية زوج تزيينات وواحدة (5)، وجملة سارميتي (6) في هذه السفرة المباركة ثمانون ومائتا سلطاني (7) ذهباً، منها ثمانية وعشرون قراضا واثان وخمسون ومائتان لي (8)... ونزلت في فندق السرايري في بيت مقابلة عين الشمال، كراؤها ستة عشر موزونة في كل شهر، فلقيت الشيخ احمد البناي الفاسي (9)، عند باب داره لأني أتيت له بأمانة من الجزائر فدفعتها له وافترقتنا...» (17) .

(1)- / يقصد الطاهر سخسوخ القصري وهو جامع الضرائب (المكاس) وممثل الباشا في المرسي .

(2)- / المكس: من مسميات الضرائب ويطلق اسم المكاس على الرجل الذي يقوم على باب السوق أو يطوف بالتجار الموجودين بها ويلزمهم بدفع مبلغ معين من المال مقابل عرض سلعهم، وفي هذا الإطار كان عمر رضي الله عنه يسمح ويأذن لأهل الذمة أن يأتوا إلى بلاد المسلمين، ويأخذ منهم العشور حتى يبيعوا ما عندهم من بضائع، فيستفيد المسلمون منهم ببيع البضائع، ويأخذون منهم العشور مقابل ما يأخذون هم أيضاً من تجار المسلمين، أما المسلم فلا يحل أن يُؤخذ منه عشرٌ ولا مكس ولا ضريبة، وإنما جعل الله تبارك وتعالى في ماله الزكاة، وفيها الكفاية، وجعل الغنائم ومصادر لبيت المال (18)،

وقد عرفت كل من الجزائر وتونس هذا النظام خلال العهد العثماني واعتبر بمثابة أحد أهم مواردها المالية .

- (3) / تزيينة = الدزينة وتساوي اثنا عشر⁽¹⁹⁾، إذن مجموع ما عند ابن حمادوش هو: $516 = 12 \times 43$ شاشية تونسية .

- (4) / الشاشية التونسية: قبة رجالية، تدخل ضمن اللباس التقليدي التونسي⁽²⁰⁾، يرجع أصلها إلى مدينة القيروان (ق2ه/8م)، استوردت من الأندلس عند هجرة الأندلسيين إلى تونس⁽²¹⁾، وازدهرت صناعتها فيما بعد وأصبحت من أهم صادرات تونس خلال العهد العثماني⁽²²⁾، فأقرب الأسواق الخارجية لتونس من غربها هي الأسواق الشرقية لولاية الجزائر⁽²³⁾، ولهذا كانت من أهم المنتوجات التي تصدر إلى الجزائر بفضل القوافل، انطلاقا من بعض المراكز التجارية في غرب تونس أهمها: توزر نفطة، قفصة، الكاف، طبرقة مع مراكز تجارية في شرق الجزائر أهمها: قسنطينة، وادي سوف، تبسة، سوق أهراس والقالة⁽²⁴⁾، ومع بداية القرن 12ه/18م تراجع منتوج الشاشية الجزائرية مما سمح لنظيرتها التونسية أن تغزو أسواقها التجارية⁽²⁵⁾، وهنا ذكر الأستاذ خليفة حماش ماجاء في الدفتر رقم 139 لبيان مصروف الدولة عام 1179ه/1765م في الصفحة 5: شراء مصطفى الجزيري وكيل الجزائر بتونس طريبتين من الشاشية ($24 = 2 \times 12$) أي 24 شاشية قيمتها 24 ريالا (أي 1 ريال للشاشية الواحدة) أثناء توجهه للأراضي التركية⁽²⁶⁾، وهو ما يرجح الدور الفعال الذي لعبته الشاشية التونسية في تنشيط الحركة التجارية بين الإيالتين خلال القرن 12م/18م .

- (5) / أي أن المكاس (جامع الضرائب) أخذ منه 25 شاشية تونسية .
- (6) / سارميتي: كلمة محلية مغربية متداولة في تطوان معناها رأسمالي⁽²⁷⁾ .
- (7) / السلطاني: عملة نقدية ذهبية كانت متداولة في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى خلال التواجد العثماني، في البداية كان يسمى "سكوين الجزائر"⁽²⁸⁾، كان لها أنصاف وأرباع⁽²⁹⁾ .
- (8) / بعملية بسيطة: $516 - 25 = 491$ ، و لدينا مجموع ما تحصل عليه عند بيع سلعته من الشاشية التونسية هو 280 سلطاني ذهبي معناه $280 \div 491 = 0.57$ سلطاني ذهبي وهو سعر الشاشية الواحدة، وإذا ما طرحنا ما تم قرضه والمقدر ب: 28 سلطاني سنجد أن ابن حمادوش تحصل على ما مقداره 252 سلطاني ذهبي، وهذا دليل على أنها تجارة مربحة.
- (9) / من شيوخ ابن حمادوش وهو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني، الفاسي مولدا ومنشأ ووفاء، تلقى تعليمه الأولي بمسقط رأسه، بجامع القرويين وغيره على يد شيوخ ذاع صيتهم في الآفاق أمثال: الحسن بن مسعود اليوسي (ت1102هـ/1691م)، وعبد السلام بن الطيب القادري (ت1111هـ/1699م)، ومحمد بن قاسم ابن زاكور (ت1120هـ/1708م) وآخرون، فلم يكتف البناني بشيوخ بلده بل رحل إلى المشرق زيادة في التحصيل العلمي، توفي سنة 1163هـ/1750م⁽³⁰⁾ .

ب-1/ التعريف بصاحب رحلة "أبوراس الناصري" :

هو محمد أبو راس بن ناصر الراشدي الجليلي الجزائري⁽³¹⁾، ولد بإحدى نواحي معسكر سنة 1165هـ/1751م⁽³²⁾، عاش في صغره حياة قاسية لكنه استطاع أن يأخذ بدور تعليمه الأولى بالمغرب الأقصى ثم بمسقط رأسه، اشتغل بمهنة التدريس فأصبح في وقت قصير من أنشط وأشهر علماء الجزائر في عصره⁽³³⁾، بعد سن الخمسين بدأ رحلاته فزار من خلالها أغلب بلدان بلاد المغرب والتقى خلالها العديد من العلماء والمشايخ فأخذ عنهم الكثير منهم: القاضي محمد بن جعدون والفقير الخطيب محمد بن الحفاف والعالم الفاضل الشيخ عبد القادر بن شقرون الفاسي (ت 1219هـ/1804م) و محمد بن المحجوب التونسي (ت 1243هـ/1827م) والأديب إبراهيم الرياحي (ت 1266هـ/1850م)⁽³⁴⁾، رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج سنة 1204هـ/1789م وقام بتدوين مشاهدته وصادفه من أحداث ومجالس شيوخ و عنونها ب "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، وله مؤلفات أخرى كثيرة تجاوزت المائة منها : "عجائب الأسفار" و "الحلل السندسية"⁽³⁵⁾، توفي أبو راس الجزائري ودفن بمسقط رأسه سنة 1238هـ/1823م⁽³⁶⁾.

ب-2/ قراءة في كتاب الرحلة الموسومة بـ "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" :

يعتبر كتاب "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" من أهم مؤلفات صاحبه أبو راس الجزائري والتي صنفت ضمن الرحلات الحجازية⁽³⁷⁾، قسمها إلى

خمسة أبواب فالأول منه خصص لصغره وحالته الأسرية وتعليمه، والثاني خصه لشيخوخه والعلماء الذين التقى بهم في المغرب الأقصى والجزائر وتونس ومصر والحجاز والشام، أما الباب الثالث فكان لرحلته بالمشرق والخامس خصه للأسئلة والأجوبة التي طرحت عليه أثناء تنقلاته، وفي الباب الخامس والأخير ذكر فيه مؤلفاته مرتبة، وقد ذكر أبو القاسم سعد الله أنه وجد نسختين لمخطوطه بالمغرب الأقصى⁽³⁸⁾، وأسلوب تأليف هذه الرحلة يعود إلى تأثر أبو راس بأسلوب عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ/1505م)⁽³⁹⁾ من خلال ما عاشه في صغره من فقر وحرمان مثله، وتدوين هذا الكتاب جاء في الأيام الأخيرة من حياته⁽⁴⁰⁾.

فبعد قراءات عديدة في متون هذه الرحلة ومقارنتها برحلات مغاربية أخرى توصلت إلى جملة من النتائج يمكن أن أخصها في مايلي:

- أ- من منطلق ماورد في جل رحلات المغاربة من نصوص، فإن النشاط التجاري - مع قلته - كان مقرونا بتنقل القوافل المختلفة وغير واضح في هذه الرحلة، فالمرجح في كل هذا أن النشاط التجاري كان هامشيا ولم يكن مقصودا في ذاته .
- ب- - السمة الغالبة في معظم رحلات المغاربة تطرح مشكلة الأمانة العلمية الواجب اتخاذها أمام ظاهرة انتقال المعارف التاريخية بين المؤرخين، إذ لا بد من الإشارة إلى المصادر المنقول عليها أثناء تدوين الرحلات ونقل الروايات، وهذا ما نفتقده إطلاقا في أغلب كتب الرحلات الحجازية .

ت- صحيح أن قسم لا بأس به ما قدموه لنا في كتب الرحلات مبني على الرواية الشفوية، لكن العيب في كل هذا هو النقل الحرفي لبعضها عن رحلات سابقة فهذا ما اعتبره أنا بمثابة إجحاف في حق جهود سابقه من الرحالة، فلو تمنعنا مثلا في وصف أغلب المدن والقرى والمسالك التي اشتركوا في المرور بها سنجد أن من يأتي من الرحالة بعد سابقه سيورد لنا نفس الوصف سواء أكان مقتبس حرفيا أو ذو معنى توافقي، ولهذا على الباحثين في متون هذه المصادر التاريخية أخذ بعض الحيلة من المعلومات التي تتوفر عليها .

ث- مهما يكن من شيء فإن رحلة أبو راس الناصري تعتبر مصدر هام لدراسة تاريخ بلاد المغرب خاصة الإطار السياسي والاقتصادي بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/18م.

- لكن هل قدم لنا هذا الرحالة في رحلته هذه مادة خبرية توحى بوجود نشاط تجاري بين الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/18م.؟

من منطلق أن هذا الكتاب مصنف ضمن خانة الرحلات الحجازية وانطلاقة رحلته سنة (1204هـ/1789م) من الجزائر مرورا بتونس، فالأكيد أنها تحتوي على إشارات وروايات ذات صبغة تجارية تبرز البعض من هذا النشاط الاقتصادي، واعتمادا على الطريق الذي سلكه أبوراس الناصري خاصة مروره بالجزائر وتونس فحتمنا سترد بعض الإشارات القيمة في نصوص الرحلة حول وجود نشاط وتبادل تجاري بين الإيالتين، والطريقة التي أوصلتني إلى هذه الاستنتاجات هي عملية استنطاق هذه النصوص

والروايات، والآن سأعرض وأناقش ما جاءت به النصوص الواردة في الرحلة والتي توحى بوجود حركة تجارية بين الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/18م :

النص الأول:

"...وإني ليلة جمعة نائم وكأني في سوق، فلقيني رجل أزرق في عباءة و"برنوص" وأحسب أن على رأسه "شاشية" دوم، وفي يديه قفة دوم، فيها عنقودان متاع العنب، أحدهما حلوى، والآخر حامض..."⁽⁴¹⁾.

الرواية تتضمن بين دفتيها إحدى السلع التي اشتهرت صناعاتها في الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/18م، وهي " البرنوص " و"الشاشية"، والتي تعتبر من الصناعات النسيجية الصوفية التقليدية، فتطورت صناعاتها خاصة بعد مجيء الأندلسيين، وعرفت تجارتها رواجاً كبيراً فكانت تدخل ضمن أهم السلع المتبادلة بين الإيالتين، وفي هذا الإطار انتشرت عدة ورشات بالجزائر لصناعة البرانيس وأشهرها برانس زمورة ومعسكر، نفس الشيء عرفته الشاشية بالجزائر، لكن مع بداية النصف الثاني للقرن الثامن عشر تراجعت صناعاتها وتجارتها وهذا مقارنة بالشاشية التونسية⁽⁴²⁾.

النص الثاني:

"...ولما ظهرت بي علامات النفع للطلبة تنافس الأشياخ في أخذني، لتدريس أولادهم، فأثرت شيخنا الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، فذهبت ل "قيطنة" وقد اجتمعت

جموع من الطلبة... وصار الشيخ يعظمني - على صغري - وأعطاني القمح والشعير والدرهم والسمن والزيت والكباش. فجزاه الله خيرا...»⁽⁴³⁾.

في هذا النص إشارة إلى بعض ما اشتهرت به الجزائر من منتوجات زراعية وهي: القمح، الشعير، والزيت، والتي كانت بمثابة محاصيل ذات طابع تجاري، ومن منطلق أن المساحات الزراعية المستغلة خلال العهد العثماني كانت تمد الدولة بإنتاج ضخم من هذه المحاصيل فإن جزء منه يوجه للإستهلاك المحلي وإن حصل اكتفاء ذاتي فيها فالمؤكد هو توجيه الجزء الآخر للتصدير، فمثلا خلال سنة 1120هـ/1708م سمح الإنتاج الوفير للحبوب خاصة القمح بتصدير أكثر من 150 ألف شحنة من مختلف موانئ الإيالة⁽⁴⁴⁾، فحتما جزءا منها كان يصدر إلى تونس، وبالمقابل وردت في النص ثروة حيوانية هامة كانت الجزائر تتوفر عليها خلال العهد العثماني وهي: الكباش، والتي كان يستخلص منها كميات وافرة من الصوف والجلود وبدورها تستعمل في بعض المنسوجات أهمها البرانس والحيام⁽⁴⁵⁾...، وقد كان يصدر جزء منها نحو أوروبا وبلدان المغرب العربي، ومن المؤكد أن عائداها المالية كبيرة، فهي إذن بمثابة تجارة مربحة .

النص الثالث:

"...وفي آخر القرن (الثاني عشر) أكثرت من تدريس "الألفية" بشرح "البهجة المرضية" وغيرها، وفي سنة أربع ومائتين وألف ذهبت إلى الحج فقامت لي علماء المشرق على ساق...»⁽⁴⁶⁾.

يحدثنا أبوراس الجزائري عن تاريخ رحلته إلى المشرق لأداء فريضة الحج وقال أنها كانت سنة 1204هـ/1789م .

النص الرابع:

"...ثم عمطنا فتنه "دراوة" (1)...مع ما دهمنا من الطاعون، الذي تهرب منه الواعون، فاتصلت علينا صراصر النكبات والبلبات من الخوف والجوع والروع، الذي في الفؤاد مودوع (2)..."⁽⁴⁷⁾ .

(1) / فتنه دراوة: الواضح أنه يقصد ثورة محمد بن عبد الله الدرقاوي المدعو "ابن الأحرش" والتي كانت سنة 1219هـ/1804م بالشرق الجزائري ضد نظام حكم عثمان باي "حاكم بايلك الشرق"⁽⁴⁸⁾، والتي كانت نتيجتها تردي الأوضاع الاقتصادية فظهرت المجاعات "...حتى صاروا يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح اقتياته..."⁽⁴⁹⁾ وزادت أسعار الحبوب والتي كانت الغذاء الأول للسكان "...فبيع الصاع الواحد من البر وقتئذ بخمسة عشر أريالة سكة الوقت، والصاع من الشعير بسبعة أريالة..."⁽⁵⁰⁾، كل هذه الأوضاع حتما أثرت كثيرا على التجارة الداخلية والخارجية للجزائر .

(2) / يقصد به وباء الطاعون واحتياح الجراد للجزائر لسنوات عديدة خلال القرنين (11-12هـ/17-18م)، فقد شكل مرض الطاعون أخطر هذه الأمراض خلال العهد العثماني وأثر كثيرا على الوضع الصحي للسكان والتي ارتبطت بدورها بعوامل أخرى أهمها الزلازل والفيضانات والجفاف واحتياح الجراد للأراضي الزراعية، فعرفت ظهور العديد من

الأوبئة الفتاكة خاصة الطاعون خلال القرنين (11-12هـ/17-18م) أهمها سنوات (1010هـ/1601م)، (1026هـ/1617م)، (1141هـ/1728م)، (1162هـ/1749م)، (1200هـ/1785م)، (1207هـ/1793م)⁽⁵¹⁾، وما يمكن ملاحظته عن هذه الأمراض هو تكرارها تقريبا كل 10 سنوات، والمؤكد أن أوبراس الناصري في هذا النص يتحدث عن الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر خلال سنة 1200هـ/1785م والذي أتى على أكثر من عشرين ألف نسمة من سكانها⁽⁵²⁾، وإذا ما قارنا هذا الوضع الاجتماعي الذي عاشته الجزائر خلال القرن 12هـ/18م مع إيالة تونس فحتما سنخلص إلى تشابه في أوضاعهما الصحية⁽⁵³⁾، فهل كل هذا سيؤثر على العلاقات التجارية بين الإيالتين؟ أكد الأستاذ ناصر الدين سعيدوني أن من أسباب ظهور هذه الأوبئة بتونس والجزائر خلال العهد العثماني هي: "توافد التجار والبحارة والحجاج والطلبة من أقطار الشرق الأوسط إلى الموانئ الجزائرية"⁽⁵⁴⁾، وهو ما يؤكد أن للتواصل التجاري بين تونس والجزائر دور هام في انتقال هذه الأوبئة، وأن سبب كل هذه الأوبئة في الإيالتين راجع إلى تردي أوضاعهما الاقتصادية خاصة في المجال الزراعي، والذي انعكس سلبا على المجالات الأخرى، وهذا ما يعلل أكثر تراجع مظاهر الحركة التجارية بين الإيالتين . .

النص الخامس:

"...ولما أردت تجديد تبيضها وترميمها وتقييضها، ذكرت ذلك للباي... السيد محمد بن عثمان⁽⁵⁵⁾... فبعث لي مع ساقيه مائة ريال بوجوهها (1)، قامت أوفى إقامة بترميمها

وتبييضها، وذلك قبل أن أحج عنه - رحمه الله! -... ولما أبت من الحج سنة سبع وعشرين أعطاني مائة محبوب (2)، جعله الله - يوم القيامة - مقربا محبوبا...»⁽⁵⁶⁾.

(1) / ريال بوجو: عملة نقدية فضية، سكنت في الجزائر خلال العهد العثماني، ويسمى أيضا "ريال صغير الضرب" تراوح وزنه بين 8.2 غ و 10.2 غ، له أجزاء أهمها ربع ريال بوجو، ثمن ريال بوجو⁽⁵⁷⁾.

(2) / المحبوب: عملة عثمانية كانت تضرب في القسطنطينية والواحد منها يسمى "محبوب سليماني إسلامبولي"، كانت في بدايتها سالمة من الغش في صنعها، لكن بعد ذلك أنقص من معيارها فسميت "زر محبوب"⁽⁵⁸⁾، وفي أواخر العهد العثماني أصبحت من العملات المتداولة في الأسواق الجزائرية، ولها أجزاء أهمها نصف المحبوب والذي كان مفقودا بالإيالة⁽⁵⁹⁾.

النص السادس:

"...ولقيت العلامة الأمين مفتي الجزائر وخطيبها السيد الحاج علي ابن الأمير، فوجدته يدرس في خطبة الامام خليل، وقد ذكر فيها لواء الحمد، فقال: قضيه من "زمردة حضراء"، ففهم أنه من نوع "العقيق"، فقلت: أيها السيد؟! ليس الأمر كما عبرت، وإنما المراد به "الزبرجد"، لأن الأخضر من "الياقوت". يقال له: "زبرجد"، والأحمر يقال له: "البرهان"، والأبيض يقال له: "النميط"، لأن أمور الآخرة أجمل من نفائس الدنيا، من ياقوت وجوهر، وذهب وفضة، وسندس...»⁽⁶⁰⁾.

في هذه الرواية يورد لنا أبوراس حضوره لدرس حول لواء الحمد لمفتي الجزائر الإمام علي بن الأمير، فورد فيها بعض من أنواع الأحجار الكريمة منها: ("العقيق"، "الزبرجد"، "الياقوت"، "النميط" "والبرهان") - كما جاء في النص - فهي من المعادن النفيسة والغالية الثمن والسؤال المطروح: هل معرفة أهل الجزائر لهذه الأحجار الكريمة لدليل على وجودها ضمن ممتلكاتهم؟. من المؤكد أن هذه المعادن الغالية تجلب من المشرق في مواسم الحج أو من بلاد السودان من طرف القوافل خاصة ذات الطابع التجاري منها، فرغم ثمنها الغالي، إلا أن أغنيائها كانوا يقتنونها كسلعة بهدف بيعها في أسواق بلاد المغرب، فمن المرجح أن تجارتها مربحة جدا، وهذا دليل كبير على الغنى والرفاهية المالية التي كان يمتاز بها بعض سكان بلاد المغرب خاصة تجار الذهب⁽⁶¹⁾.

النص السابع:

"...ثم ذهبت إلى تونس أم البلاد، ومشوى الطارق والتلاد، هي التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمل، يقضي منها نفثه العاكف والبادي، والرائح والغادي..."⁽⁶²⁾.

هذا النص يظهر فيه أبوراس الجزائري وصفا لتونس فقليل عنها أنها من أكبر المدن بإفريقية وأهم قواعدها على ساحل البحر⁽⁶³⁾، بما أراضي خصبة واسعة كثيرة المياه⁽⁶⁴⁾ بها سور بكامل محيطها، كانت تسمى قديما "ترشيش" من منتوجاتها: اللوز، الرمان، التين الأسود، السفرجل، بينها وبين قرطاجنة ميلين (3.4 كلم) وصفاقس ثلاثة مراحل (133 كلم) والقيروان والمهدية مائة ميل (168 كلم)⁽⁶⁵⁾.

النص الثامن:

"...ثم ركبت البحر إلى مصر، البلد الذي ليس لعمر ولا لزيد، والفرا الذي في جوفه، كل الصيد..."(66).

يورد لنا المؤلف في هذا النص انتقاله من تونس إلى مصر عبر البحر وهو ما يؤكد أن تونس كانت إحدى محطاته نحو المشرق لأداء فريضة الحج .

النص التاسع:

"...وسئلت بمجلس علماء الجزائر بالجامع الأعظم المعتاد، يوم الخميس، وذلك سنة أربعة عشرة ومائتين وألف، عن " القهوة " و " الدخان " و عما يسف منه أو يشم، فأجبت: ذكر الشيخ علي الأجهوري عن الخطاب أن الشراب المتخذ من قشور " البن " المسمى ب " القهوة "، اختلف الناس فيه، فمنهم متغال في الحال يرى أن ذلك قربة ومنهم متغال في التحريم، يراها كالخمر، والحق أنه في ذاته لا إسكار فيه، وإنما في تنشيط للنفس، ويحصل من مداومته ضرورة تؤثر في البدن عند تركه، كاعتياد أكل اللحم بالزعفران...ومنها أن بعض بائعيها يخلطها بشئ من المفسدات على ما قيل..."(67).

يعالج أوبراس الجزائري في هذا النص مسألة فقهية تتمثل في حكم شرب القهوة وتدخين الدخان وأحكامها من الناحية الشرعية فقال بأن حكمهما مختلف في العلماء، لكن ما مصدر هذه السلع التي ظهرت بالجزائر؟. من المؤكد أنها سلع مشرقية (هندية

خاصة) أو سودانية جلبتها مختلف القوافل التجارية عبر ما يسمى بالتجارة الصحراوية⁽⁶⁸⁾

النص العاشر:

"...والبن أصله في بلاد "زبلغ" و "الحبشة"، ثم ظهر باليمن أواخر القرن التاسع، ثم انتشر، قال الشيخ إبراهيم بن جمعان: " إذا كان البن في بلد، ذهب منه الجان المختطف للأولاد...وأما الدخان وسفه وشمه...وذلك أن أهل السودان قدموا لمراكش على السلطان أحمد الذهبي بالزرافة والفيل، فجالسوا الناس، فتعاطوا منهم الشرب والشم، ففشى ذلك وانتشر كما هو شأن البع الحبيثة..."⁽⁶⁹⁾ .

محتوى هذا النص يؤكد أن كل من البن و الدخان هي إحدى السلع المطلوبة من المشرق وبلاد السودان وقد تمت مناقشة ذلك سابقا .

خاتمة:

مما سبق عرضه نصل إلى أن ما تميزت به نصوص رحلة ابن حمادوش الجزائري وأبوراس الناصري هو قصورها عن تصوير الجانب التجاري الذي يربط الإيالتين خلال القرن 12هـ/18م وهذا لطغيان الطابع الديني (الحج)، الاستكشافي (الجغرافيا)، الثقافي (العلمي)، وما تم تسجيله من إهمال لبعض التفاصيل التجارية - في رأيي - لا يتعدى وصف للأماكن الجغرافية وإشارات إلى عمليات البيع والشراء في بعض أسواق الإيالتين، وإن المتعامل مع متن هاتين الرحلتين يدرك صعوبة تحديد نوعية العلاقات الاقتصادية وخاصة الحركية التجارية بينهما، خاصة في ظل التعميم الشبه الكامل الذي تميزت به عن

وجود تواصل حقيقي وواضح في مضمونها، وما تم التوصل إليه هي اجتهادات واستنتاجات، بعد جهد كبير من خلال البحث في كتب التراجم والجغرافيا المتوفرة، وحقيقة كل هذا فرض علي الدخول في مقاربات وترجيحات من أجل رسم صورة عن وجود علاقة اقتصادية فعلية بين الايالتين خلال القرن 12هـ/18م .

الهوامش :

(¹) / نذكر من بينها : - حسن الوزان (ليون الإفريقي) : وصف إفريقيا ، كذلك : مارمول كرخال : إفريقيا (بداية ق 10هـ/16)، وكذلك، رحلة التيمقوتي (أواخر القرن 10هـ/16م)، بالإضافة إلى رحلة العياشي (أواخر القرن 11هـ/17م)، للمزيد أكثر عن هذه الرحلات ينظر : بلحميسي، (مولاي)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص-ص. 15-17 .

(²) / عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص-ص. 29-32 .

(³) / القرآن الكريم، سورة قريش .

(⁴) / القرآن الكريم، سورة الحج (26-27) .

(⁵) / عواطف محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص-ص. 36-38 .

(⁶) / إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج2، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ص-ص. 754-765 .

(⁷) / لمعرفة الرحلات أهميتها وأنواعها خلال العهد العثماني ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1800)، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص-ص. 381-390، وكذلك : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص-ص. 177-180 .

- (⁸) / ابن حمادوش (عبد الرزاق بن محمد بن محمد الجزائري، ت ق 12هـ/18م)، لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال، المسماة: "رحلة ابن حمادوش الجزائري"، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 2007، ص-ص. 9-10 .
- (⁹) / سعد الله، أبحاث وآراء...، مرجع سابق، ص-ص. 182-223 . وكذلك: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج2، ص-ص. 425-426 .
- (¹⁰) / مدينة ساحلية مغربية، للمزيد ينظر: شربل (كمال موريس)، الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، دار الجيل، بيروت، 1998، ص. 128 .
- (¹¹) / نويهض (عادل)، معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1980، ص. 365 .
- (¹²) / ابن حمادوش، المصدر السابق، ص-ص. 9-10 .
- (¹³) / للمزيد ينظر: سعد الله، أبحاث وآراء...، المرجع السابق، ص-ص. 228-229 .
- (¹⁴) / ابن حمادوش، المصدر السابق، ص-ص. 13-14 .
- (¹⁵) / بن سوادة (عبد السلام)، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ضبط واستدراك: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997، ص. 248 .
- (¹⁶) / ابن حمادوش، المصدر السابق، ص-ص. 17-23 .
- (¹⁷) / نفسه، ص. 32 .
- (¹⁸) / الشرباصي (أحمد)، المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، بيروت، 1981، ص-ص. 436-437 .
- (¹⁹) / شدياق (ك)، قاموس نوبل المزدوج (عربي-فرنسي، فرنسي-عربي)، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2011، ص. 340 .
- (²⁰) / دونان (هنري)، الإيالة التونسية، تر: محمد فريد الشريف، المطبعة العصرية، تونس، 2012، ص. 63 .

(21) -Jean André Payssonnel, *Voyage dans La Régence de Tunis (1724)*, édition annotée: Mohamed Larbi Snoussi, Centre de publication Universitaire, Tunis, 2003, p. 63 .

(22) / عن صناعة الشاشية وازدهارها ينظر: الإمام (رشاد)، سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814)، أطروحة دكتوراه، دائرة التاريخ، الجامعة الأمريكية، بيروت، دت ، ص-ص. 286-288 . وكذلك:

- Boubaker (Sadek), *La Régence de Tunis aux XII^e siècle : ses relations commerciales avec les ports de L'Europe méditerranéenne, Merseille et Livourne*, publications de .la R.H.M et de C.E.R.O.M.A, Zaghouan,1987 , p-p. 130-131 .

(23) / الزبيري (محمد العربي)، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 و1830، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 ، ص-ص. 151-152 .

(24) / قاسم (أحمد)، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم (1574-1600م)، تقديم : عبد الجليل التميمي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2004 ، ص-ص. 313-315 .

(25) / سعيدوني (ناصر الدين) والبوعبدلي المهدي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 ، ص-ص. 69-70 .

(26) / حماش (خليفة)، كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي، منشورات جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، دت ، ص. 106 .

(27) / ينظر في الهامش، ابن حمادوش، مصدر سابق، ص. 32 .

(28) / درياس (بمينة)، السكة الجزائرية في العهد العثماني، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007 ، ص. 368 .

- (²⁹) / مروش (المنور)، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداحيل، ج1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص. 36 .
- (³⁰) / ابن المجدوب (عبد الكبير بن عبد الرحمن الفاسي)، تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، "موسوعة أعلام المغرب"، ج6، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص-ص. 2164-2165 .
- (³¹) / عبد الحفي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخ والمسلسلات، ج1، اعتناء : إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص، 150 .
- (³²) / للمزيد ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، مرجع سابق، ص-ص. 377-379 .
- (³³) / كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ص. 768 .
- (³⁴) / أبو راس الجزائري، (محمد بن أحمد بن ناصر الراشدي الجليلي الجزائري، ت 1238هـ/1823م)، فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، تح : محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص-ص. 95-110، وكذلك عبد الحق زربوخ، «أبو راس الناصري الجزائري ومؤلفاته»، مجلة التراث العربي، دمشق، 98(2005)، ص-ص. 230-238 .
- (³⁵) / للمزيد أكثر يراجع : أبو راس الجزائري، مصدر سابق، ص-ص. 5-6، وكذلك : سعد الله، أبحاث وآراء...، مرجع سابق، ص-ص. 185-186 .
- (³⁶) / أبو القاسم الحفناوي (ت 1360 هـ/1942م)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيبير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1906، ج2، ص. 168 .
- (³⁷) / للمزيد ينظر: كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ص. 769 .
- (³⁸) / ينظر : أبوراس الجزائري، مصدر سابق، ص. 7، وكذلك : سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، مرجع سابق، ج2، ص. 380 .
- (³⁹) / عبد الرحمن السيوطي: هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن الهمام الجلال الأسيوطي الأصل الشافعي، من خيرة العلماء الأفاضل المجتهدين بمصر ومن المصنفين المكثرين، للمزيد ينظر : جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، تح: محمد أبو الفضل

إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1967، ص-ص. 336-335، وكذلك، محمد سالم محيسن، معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، مج 2، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص-ص. 124-124 .

(⁴⁰) / أبو راس الجزائري، مصدر سابق، ص. 6 .

(⁴¹) / نفسه، ص. 21 .

(⁴²) / ناصر الدين سعيدوني، والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص-ص. 69-70 .

(⁴³) / أبو راس الجزائري، مصدر سابق، ص. 24 .

(⁴⁴) / سعيدوني والبوعبدلي، المرجع السابق، ص-ص. 56-59 .

(⁴⁵) / نفسه، ص-ص. 60-61 .

(⁴⁶) / أبوراس الجزائري، المصدر السابق، ص. 24 .

(⁴⁷) / نفسه، ص. 24 .

(⁴⁸) / للمزيد عن فتنة درقاوة وثورة ابن الأحرش، ينظر: ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص. 263 .

(⁴⁹) / العتري محمد الصالح (ت 1291هـ/1874م)، **مجاجات قسنطينة**، تح: رابح بونار،

ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص. 34 .

(⁵⁰) / نفسه، ص. 34 .

(⁵¹) / عبد الله بن محمد الشويهد، **قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ/1695-**

1705م)، تح: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص-ص. 141-

142 . وكذلك ينظر : ناصر الدين سعيدوني، «الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء

العهد العثماني»، **المجلة التاريخية المغربية**، (39-40)، (1985)، ص-ص. 431-445 .

(⁵²) / سعيدوني ، **ورقات جزائرية....**، مرجع سابق ، ص-ص. 359-360 .

(⁵³) / مروش (المنور)، **المرجع السابق** ، ص-ص. 135-152 .

(⁵⁴) / سعيدوني، «الأحوال الصحية....»، مرجع سابق، ص-ص. 431-445 .

- (⁵⁵) / يقصد به الباي محمد بن عثمان الكردي الملقب بمحمد الكبير حاكم بايلك الغرب (1779م-1797م) .
- (⁵⁶) / أبوراس الجزائري، المصدر السابق، ص-ص. 75-76 .
- (⁵⁷) / للمزيد أكثر عن هذه العملة ينظر: يمينة درياس، المرجع السابق ، ص-ص. 244-245 . وكذلك ينظر : مروش، مرجع سابق، ص-ص. 57-60 . وأيضا: سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 - 1830)، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص. 205 .
- (⁵⁸) / الشرباصي ، المرجع السابق ، ص. 407 .
- (⁵⁹) / سعيدوني، النظام المالي...، المرجع السابق، ص-ص. 200-204 .
- (⁶⁰) / أبوراس الجزائري، مصدر سابق، ص. 92 .
- (⁶¹) / للمزيد عن تجارة الذهب ببلاد المغرب ينظر: بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، تر: الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1988، ص. 328 .
- (⁶²) / أبوراس الجزائري، مصدر سابق ، ص. 108 .
- (⁶³) / صفي الدين البغدادي (ت 739هـ/1339م)، مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مج1، تح: علي محمد البحاي، دار الجليل، بيروت، 1992، ص. 282 .
- (⁶⁴) / أبو اسحاق الكرخي (ت 346هـ/957م)، مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1927، ص. 38 .
- (⁶⁵) / شهاب الدين الحموي (ت 574هـ/1178م)، معجم البلدان، مج2، دار صادر، بيروت، 1977، ص-ص. 60-62 .
- (⁶⁶) / أبوراس الجزائري، مصدر سابق، ص. 115 .
- (⁶⁷) / نفسه، ص-ص. 159-160 .
- (⁶⁸) / للمزيد عن التجارة الصحراوية ينظر: صباح إبراهيم الشبخلي، «النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري»، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص-ص. 29-46 .
- (⁶⁹) / أبوراس ، المصدر السابق، ص. 160 .

إبن حماد الصنهاجي ومنهجه في التأريخ لثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد

من خلال كتابه: "أخبار بني عبيد وسيرتهم"

مساهمة جزائرية في حفظ الذاكرة الجماعية لمجتمعات بلاد المغرب

أ/ عاشور منصورية قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة باتنة 1

achour.mansouria@gmail.com

أ/ موسى رحمانى قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة باتنة 1

rahmani-mss@hotmail.com

ملخص:

هذه الدراسة تسليط الضوء على المؤرخ الجزائري ابن حماد الصنهاجي، الذي عمل في البلاط الحمادي والذي إنفرد دون غيره من مؤرخي المغرب الأوسط في التأريخ لثورة النكار بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد، الذي ثار ضد العبيديين الشيعة لإعتبارات عديدة (مذهبية وسياسية واقتصادية واجتماعية) متحالفا مع أهل السنة المالكية.

مفاتيح الدراسة:

- التعريف بالمؤرخ.
- عرض منهجه في التاريخ للتأثر والثورة.
- الدراسة رصد لحراك اجتماعي سياسي مذهبي إنفرد به المؤرخ عن غيره خلال فترة الدراسة.

Summary:

This study highlights the life and the achievements of the Algerian historian Ibn Hammad Al-Senhagi, who worked at the Hammadi palace and he, alone among the Middle Maghreb historians, took care of writing the history of the revolution led by Abu Yazid Mokhlad Ben Keddad, whose stood against Obidien Shiites for several considerations (ideological, political, economic and social) in an alliance with the Maliki Sunnis .

Keys to study:

- Definition of the historian .
- Display his method in writing history of the revolutionary and the revolution.
- The study is a monitoring of doctrinal socio-political movement which the historian was distinguished by, during the study period.

مقدمة:

ظلت بلاد المغرب مُشكلة من مجتمعات قبلية وريفية مناهضة للحكومات المركزية، و قد كان هذا التشكل عائق في عدم إرساء قواعد حضارة وثقافة متميزة عكس ما كان عليه الحال في المشرق⁽¹⁾؛ خاصة بعد تفكك وحدة العالم الإسلامي، وظهور دويلات مستقلة ببلاد المغرب والأندلس كالأدارسة العلويين بفأس، والإباضية بتهرت، والصفيرية بسجلماسة بني مدرار، كان بعضها تابع للعباسين ولو روحيا كالأغالبة

بالقيروان، والبعض الآخر إستقل بنفسه في إدارة شؤونه؛ بل وناصب بني العباس العداء السياسي والمذهبي.

لقد أعطت هذه المناهضة والمناكفة البدايات الأولى لنشأة الفكر التاريخي المغربي، وظهرت لها تقاليدھا في الرواية الإقليمية، وفي التأليف التاريخي⁽²⁾ إذ استطاع اقليم المغرب أن يؤسس لنفسه ما يشبه مدرسة اقليمية خاصة، لكون المغاربة قد أحسوا بأن لديهم من الأخبار، والأحداث ما يستحق التدوين والتسجيل على غرار اقرانهم المشاركة. فكان لكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله، ويرويها إخباريوه ورواته⁽³⁾ وهذا الإهتمام مرده إلى حب المؤرخ لوطنه، والتعصب له، والتفاخر برجاله وإنتاجه العلمي والثقافي، ومن الحاجة الحياتية لمعرفة التجارب السياسية المحلية والاستفادة منها، والرغبة في تمجيد الحكام المحليين لأجل أغراض سياسية أو نفعية!⁽⁴⁾

وقد لا يقتصر الهدف على تسجيل الحدث التاريخي الذي جرى في الإقليم وتدوينه، بقدر ما قد يكون هذا التدوين وهذا التسجيل هو بيان لموقف ديني أو حكم فقهي، أو تسديد لرأي سياسي، أو إثبات لنسب فاضل شريف⁽⁵⁾.

مشكلة (إشكالية) الدراسة وتساؤلاتها:

من هو ابن حماد القلعي الصنهاجي، وما هو المنهج الذي سلكه في التأريخ لثورة الأوراس بقيادة أبي يزيد محمد ابن كيداد اليفرنى الزناتي "المعروف بصاحب الحمار"؟

وما مكانة كتابه بين المصادر المغربية التي أرخت للثورة وصاحبها، وما مدى مصداقيته العلمية، على اعتبار أن الفترة التاريخية التي كان قد تناولها كانت بعيدة زمنيا عن عهده؛ ومع هذا البعد الزمني، كان هناك تباين واختلاف سياسي ومذهبي وفكري، خاصة

بعد زوال السلطة التي كانت تعادي مذهبي السلطة التي كان أحد أركانها و رمزا من رموزها و أحد أقوى المدافعين عنها؟

أهميتها:

إن الإجابة عن هذه التساؤلات ستساعدنا بلا شك في تحديد أهمية الدراسة من حيث:

- أ- التعرف على شخصية ابن حماد الصنهاجي ومساره التاريخي، في بيئته المغربية من حيث تشبعه بثقافة عصره وإلمامه بنتائج هذا العصر الفكري و المعرفي، وما حازه من مهارات واكتسبه من استعدادات، أهله لأنه يكون كتابه السالف الذكر أهم المصادر في التأريخ المذهبي بالمغرب الإسلامي عموما، والمغرب الأوسط على وجه الخصوص.
- ب- الوقوف على بعض الجوانب الخفية في مسار الثائر - صاحب الحمار - وتأثير الجغرافيا التاريخية في ثورته ضد العبيدين الفواطم مطالع القرن الرابع الهجري خاصة ببلاد الجزائر.

أهدافها:

- أ- تسليط الضوء على المؤرخ الجزائري الذي عمل في البلاط الحمادي، وابرار منهجه في التأريخ للثائر، وانفراده بذكر بعض أحداث الثورة وتقديمه تفاصيل لم ترد عند المؤرخين الذين سبقوه.
- ب- احياء المجد الثقافي الجزائري وتحريك مياه برك المثاقفة في المغرب الأوسط بعد ركودها زمنا طويلا، وحتى تستكمل السلسلة الذهبية للمؤرخي القطر الجزائري عبر تاريخها المديد.

ت- إبراز أهمية الكتاب كمصدر أساس في التاريخ المذهبي للمغرب الأوسط الذي يعد ملتقى الحركات المذهبية، وتحفيز الدارسين على إعادة قراءة نصوص الكتاب وتحقيقتها ومقابلتها بالروايات الإسماعلية والإباضية التي تؤرخ للثورة والثائر.

منهج الدراسة:

جمعت الدراسة بين المنهج الوصفي (المسحي) في سرد الأحداث التاريخية، والمنهج التحليلي في تفكيك الرواية التاريخية وقراءة ما بين سطورها، وبيان خلفيات الأحداث الاجتماعية والفكرية والسياسية، واعتمدت المنهج المقارن والذي تقتضيه الضرورة بسبب التباين والاختلاف بين رواية صاحبنا وروايات الخصوم⁽⁶⁾، بحسب ما تقتضيه طبيعة الدراسة، ومن أجل إبراز أهم الملاحظات التي أحاطت بالموضوع، خاصة في شقه المذهبي في ظل الصراع بين الخوارج الصفرية والشيعية الفواطم وأهل السنة المالكية، وما تفضي إليه الدراسة من خلاصات ونتائج ستميط اللثام عن شخصية المؤرخ وتأليفه.

أولاً: أ- نسبه وكنيته :

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي القلعي، تلك القلعة التي أنارها العلماء والأدباء والمفكرون بسبب تشجيع حكامها لهم فكانت لذلك مقصداً ومستقراً لمن تهفو نفسه إلى الإستزادة من فنون العلم المختلفة، وفيها تقلب ابن حماد في مدارج العلم والعرفان⁽⁷⁾ فهو "الشيخ الأجل الفقيه الرئيس العالم الأكمل الأوحده، من أهل قلعة بني حماد من كبراء الأئمة وفضلائهم"⁽⁸⁾ وهو كمال قال الجيلالي "العلامة المؤرخ الأديب الضليع"⁽⁹⁾

أما الصنهاجي فألى قبيلة صنهاجة المغرب الأوسط ترجع أصوله؛ وهي من القبائل البربرية التي كان لها حضور تاريخي مشهود ببلاد المغرب، وهو سليل من سلالة بني حماد الصنهاجين التي حكمت القلعة العاصمة الأولى للدولة الحمادية وبجاية الناصرية العاصمة الثانية، التي تحولت إلى قبلة العلماء والمثقفين. أفلا يشتد حينه، وتقفو نفسه إلى مجد أجداده. بعد زوال دولة أجداده واندراس العاصميتين القلعة وبجاية؟⁽¹⁰⁾

أما كنيته بابن حماد فقد اتفق أغلب من ترجم له بأن هذه الكنية تعود إلى العائلة الحمادية التي أسست الدولة، مع تقاطع اسمه مع اسم مؤرخ صنهاجي ثان مغمور وهو ابو عبدالله ابن محمد البرنسي صاحب كتاب المقتبس في اخبار المغرب والاندرلس⁽¹¹⁾

ب- مولده ونشأته :

ولد ابن حماد سنة 548هـ / 1105م في عهد الأمير "الناصر بن علناس"¹² الذي يعد من أعظم ملوك بني حماد وأشهرهم، ولد بقرية تعرف بجمزة⁽¹³⁾ (البويرة حاليا) وهي من حوز قلعة بني حماد، وبحسب الإشارات المقتضبة التي وردت في المصادر التي ترجمت له فقد كانت نشأته نشأة عادية كبقية أقرانه من أبناء عصره وفتيان مصره، حيث كانت النشأة تعتمد في الجملة على حفظ القرآن الكريم وطرفاً من السنة النبوية الشريفة، واللغة العربية وعلومها من نحو وصرف وبيان، وبعض العلوم العقلية التقليدية، كما درس بعض كتب الفقه المتعارف على تدريسها وتلقينها للناشئة خاصة كتب المذهب المالكي، كل ذلك بدأه ابن حماد بقرية حمزة، وبها تلقى تعليمه الأولي على مشايخها، علما بأن هذه القرية هي عداد في عداد الحواضر العلمية⁽¹⁴⁾ للمنطقة التي يشع بها علم قلعة بني حماد⁽¹⁵⁾، وما أصابه من علم في قرينته قليل في نظره وهذا دأب أصحاب المهتم العالية والنفوس الكبيرة، فرغب في الاستزادة واستكمال ما ناقصه، فما كان منه إلا أن تنقل إلى حاضرة العلم والعلماء بجاية الناصرية العاصمة الجديدة للدولة الحمادية.

بعدها حمل عصى الترحال إلى مدينة الجزائر، ثم إلى تلمسان للقاء علمائها وشيوخها، وهذا التنوع في التحصيل قد إنعكس على تنوع تراثه وآثاره العلمية، وكثرة تلاميذته، وتعدد رحلاته، وتنوع وظائفه، كما اشتهر بإنتاجه الفكري الغزير، وبتقلده للمناصب الإدارية خاصة في القضاء، وقد كتب عن تاريخ أباؤه وأجداده.⁽¹⁶⁾؛ وظل متنقلا بين مدن وعواصم الغرب الإسلامي طالبا للعلم ناهلا للمعرفة فبلغ عدد مؤلفاته نحو مئتي مؤلفا منها ما عرف وأشتهر ومنها ما ضاع وفقد.⁽¹⁷⁾

ج- مشايخه:

من دقة المؤرخين المسلمين، وما تميزوا به عن أقرانهم في الأمم الأخرى إعتنائهم بتفاصيل المسار العلمي للعلماء من خلال الاعتناء بذكر أساتذتهم ومشايخهم ومروياتهم وأسانيدهم، وهذا ما يمكن الباحث من الوقوف على حجم التحصيل العلمي والثراء الفكري للعالم المترجم له. لذلك يعتني المترجمون بنشأة العالم من خلال إعتنائهم بذكر شيوخه وبيان مكانتهم ومنزلتهم العلمية؛ وابن حماد لا يعزب عن هذه القاعدة، فقد ذكر مترجميه أنه أخذ عن جملة من العلماء وقد ذكر في برناجه شيوخه ومقروءاته من الكتب والذي يشتمل على 222 كتابا مسندة كلها إلى مؤلفيها، وبرناجه هذا يعد من أحسن البرناجات كما يقول الغبريني⁽¹⁸⁾ ومن هؤلاء العلماء منهم:

1- الشيخ أبي مدين شعيب بن الحسن الإشبيلي البجائي الأندلسي⁽¹⁹⁾ كان ذلك في سنة 531هـ/1137م في داره ببجاية قال في برناجه أنه سمع عليه كتاب " المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى " من فاتحته إلى خاتمته قراءة تفقه⁽²⁰⁾، وقد جعله ابن قنفذ صاحبنا من أصحاب أبي مدين شعيب وخاصته⁽²¹⁾.

2- عبد الرحمن بن عبد الله، أبا محمد الأزدي الإشبيلي⁽²²⁾ المولد سنة 510هـ/1116م بإشبيلية والمتوفى ببجاية سنة 582هـ/1186م روى عنه كتب كثيرة في الفقه والحديث كالموطأ وكذا في اللغة⁽²³⁾.

3- الشيخ الإمام حسين بن علي بن محمد الشهير بـ "أبي علي المسيلي" والملقب بأبي حامد الصغير ألف تأليفا سلك فيه مسلك أبي حامد الغزالي الطوسي النيسابوي حجة الإسلام في كتابه الإحياء قال عنه الغبريني: انه اطلع على هذا الكتاب "التفكير فيما يشتمل من السور والآيات من المبادي والغايات" وأن كلامه فيه أحسن من كلام أبي حامد وأسلم⁽²⁴⁾، مات ببجاية ودفن عند باب أميسون⁽²⁵⁾.

4- القاضي الشيخ ميمون بن جبارة -أبا تميم البارودي⁽²⁶⁾ استقضى ببلنسية، ثم ببجاية إلى أن استدعي لمهمة القضاء بمرسية وفي الطريق أدركته المنية بتلمسان⁽²⁷⁾

5- كما تعلم على يد الشيخ يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل المعروف بابن النحوي⁽²⁸⁾ صاحب المنفرجة المشهورة.

د- مؤلفاته:

1- شرح كتاب "اعلام بفوائد الأحكام" تأليف شيخه عبد الحق الإشبيلي.

2- شرح مقصورة ابن دريد.

3- النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية.

4- برنامج لشيخه وأسماء مؤلفاتهم .

5- تلخيص تاريخ الطبري الكبير .

6- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم.

7- ديوان شعر⁽²⁹⁾.

د - وفاته:

بعد أن تقلب ابن حماد في عدة مناصب في الدولة الموحدية تشير المصادر بأنه تولى قضاء الجزيرة الخضراء في الأندلس إلى سنة 613هـ/1216م ، ثم انتقل إلى سلا وتولى قضاءها إلى غاية وفاته سنة 628هـ/1230م، وهو يومئذ قد جاوز الثمانين من العمر⁽³⁰⁾.

ثانيا : كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم:

أ - سيرة الكتاب :

يعتبر كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم " من أهم ما ألفه ابن حماد ومن الآثار القليلة التي وصلت إلينا ، وقد لقي هذا الكتاب بعض الإهتمام ، فقد ترجم منه المستشرق " شربونو " فصلين إلى الفرنسية في المجلة الآسيوية سنة 1862م و1869م⁽³¹⁾ ، وفي السنة الأخيرة نشره المستشرق الفرنسي نفسه في المجلة الإفريقية العدد 78 بعنوان وثائق غير منشورة عن الزنديق⁽³²⁾ أبو يزيد نقلا عن ابن حماد ،⁽³³⁾ ثم طبع سنة 1927م مع ترجمة كاملة إلى الفرنسية وقد قام بهذا العمل المستشرق " فندر هيديون"⁽³⁴⁾

وقد قام الأستاذ "جلول أحمد البدوي " بتحقيق الكتاب والتعليق عليه وطبع سنة 1984م بالجزائر كما طبع في مصر بتحقيق الأستاذين التهامي نقرة، و عبد الحليم عويس وصدر عن دار الإعتصام.

ب- دواعي التأليف:

لقد حدد ابن حماد في بداية كتابه دواعي التأليف بقوله: "فَهَذِهِ جَمَلَةٌ مِنْ أَخْبَارِ بَنِي عُبَيْدِ اللَّهِ قَدِ تَمَّتْ فِي هَذَا التَّأْلِيفِ فَبَعْضُهَا التَّقَطُّطُ مِنْ مَفْرَقَاتِ التَّوَالِيفِ، وَبَعْضُهَا عَرَفَنِي بِهِ مِنْ وَثَقَتْ مِنْهُ بِالْتَّعْرِيفِ، وَدَعَانِي إِلَى هَذَا التَّأْلِيفِ مَا دَعَا الْمُؤَلِّفِينَ الْمُؤَرِّخِينَ إِلَى أُمَّتَالِهِ، وَهُوَ كِتَابَةُ الْأَحْدَاثِ فِي قَالِبِهَا وَتَسْجِيلُ حَقَائِقِهَا، وَنَسْخُ الْأَحْدَاثِ تِلْكَ بِالصُّورَةِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَيْهَا وَفِي ظَرْفِهِ (35)

ج - الموضوعات التي تناولها الكتاب:

أ - القسم الأول: تاريخ الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب، وفيه أربعة خلفائهم وهم:

1- أبو عبيد الله المهدي.

2- محمد القائم

3- اسماعيل المنصور

4- أبو تميم المعز لدين الله قبل انتقاله إلى القاهرة وهذه الفترة تمتد من 297هـ/910م إلى 362هـ/973م.

ب - القسم الثاني :

و يتناول الفترة الممتدة من 362هـ/973م تاريخ انتقال الفاطميين إلى مصر إلى غاية وفاة الخليفة العاضد، ونهاية دولتهم سنة 567هـ/1172م على يد الأيوبيين.

ثالثا: ثورة أبو يزيد من خلال ابن حماد:

أ: ترجمة أبو يزيد:

هو أبو يزيد مخلد بن كيداد ، من بني جعفر من بني جانة الذي تقول له البربر أحيانا "أجانا" ينتسب لزناتة ، والده كيداد من تقيوس⁽³⁶⁾ ، في قسطلية⁽³⁷⁾ كان تاجرا ، وأمّه "سبيكة" جارية اشتراها أبوه وحملت منه "أبو يزيد" ، وقد كان أبو يزيد أعرجا به شامة في لسانه ، فذهب به أبوه إلى عراف، وانبأه ذلك العراف بأن لابنه هذا شأن في المستقبل. وبعد عودته توفي أبوه في تقيوس⁽³⁸⁾ ، وقد نشأ أبو يزيد في توزر⁽³⁹⁾ ، ولما كبر قرأ وفقه الإباضية⁽⁴⁰⁾ وقيل على مذهب النكار⁽⁴¹⁾ ، الذين أنكروا أمامة عبد الوهب بن عبد الرحمن بن رستم بعد أن كان وهيبيا⁽⁴⁾ مات أبوه وتركه فقيرا معدما، فكان « أهل قيطون⁽⁶⁾ يصلونه بفضل أموالهم، وكان يعلم صبيانهم القرآن ومذاهب النكارية.»⁽⁷⁾ ، وتزوج بامرأة على مذهبه تسمى "تاخيرات" أو تاخيرت، وله أربعة أبناء هم: يزيد و به كني ، ويونس، وأيوب ، والفضل. وقد كان أبو يزيد يقدمهم على الجيوش ويخرجهم في السرايا .

ومن صفاته أنه كان قصير القامة، دميم الحلقة، ولكنه بالمقابل كان سريع البديهة يستحضر الآيات القرآنية عند المحاورة و مناظرة الخصوم والمعارضين، و عندما عوتب على لبس الحرير، بعد كان يلبس الصوف الصوف ، وركب الخيل بعد كان يركب الحمير، أجاب من عاتبه بالآية الكريمة: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ).⁽⁴²⁾ كما كان يتمثل بأبيات من الشعر⁽⁴³⁾.

ب: دعوته و ثورته :

منذ أن كان "أبو يزيد" في توزر يعلم الصبيان، و هو يدعو من وثق به، للخروج عن أبي القاسم بن عبيد الله، فبلغ عدد أتباعه ما يقارب الثلاثمائة رجل، و اتصل بعامل توزر

"ابن فركان" فأنكر عليه و تهدده، و تبرأ منه، عندها انصرف عنه أتباعه و تخلو عنه، فخرج من بلدها إلى جبل الأوراس، عند بنو كملان، قوم من هوارة، الذين كانوا على مذهبه، فقوي بهم، واشتد ساعده وعمره إذ ذاك ستون عاما، وبه علل كثيرة، وصحبه رجل أعمى هو "أبو عمار بن حميد الحجري" (44)، و سمي أبو يزيد من بايعه بالمؤمنين، و أقام معهم بـ"العزابة" (45)، و انصرفت عنه "أعداد من المسلمين" (46)، ولما دخل أبو يزيد القيروان (47) قال لأهلها: "لم لا تجاهدون بني عبيد؟ ها أنا رجل أعرج، وصاحبي أبو عمار أعمى، وقد عذره الله سبحانه وتعالى ورفع عنه حرج الجهاد والقتال فلم نذل أنفسنا" (48).

وكان أبو يزيد يرى الجمع بين الأختين، بملك اليمين، ويستبيح نساء من خالفه من المسلمين ويسفك الدماء، وقد استولى أبو يزيد على افرقية كلها إلا المهديّة (49)، ودخل القيروان ووصل إلى مصلى العيدين في أيام المنصور العبيدي (50)، وبعدها بدأت قواته تتراجع وبدأت هزيمته تلوح في الأفق، بسبب ما أظهره من غلو في الدين وإسراف في سفك الدماء وانتهاب الأموال.

لقد كان أتباعه من البربر يقتلون كل من ظفروا به من الناس عيثاً وعبثاً، خاصة ممن خرج من المهديّة عند حصارهم لها فرارا من الجوع والحصار، كانوا يشقون بطونهم أحيانا بحثا عن المال، توهمنا منهم أنهم ابتلعوه (51).

ج: رد فعل الفاطميين:

تولى المنصور بن اسماعيل قتال أبي يزيد الذي توالى هزائمه منذ وصوله المهديّة 30 جمادى الآخر سنة 333هـ/15 فبراير 945م، متبعا سياسة استمال فيها الناس إليه رغبة منه في تغيير مساندتهم لأبي يزيد، فبقي مع المنصور قلة قليلة، وقال لهم صيرة فسمى

ذلك الموضوع بصيرة التي بنيت مدينة سنة 334هـ/946م⁽⁵²⁾، بعدها خرج اسماعيل من المهديّة إلى سوسة⁽⁵³⁾ فأعلن العفو عن الناس ما عدا خصومه، ومن سوسة انتقل إلى القيروان، ثم توجه إلى المغرب، فنزل بساقية ممس لأربع بقين من شهر ربيع الأول من سنة 335هـ/947م، وهناك لحق به عسكر من برقة⁽⁵⁴⁾ ومن المشرق في ألف فارس ثم رحل إلى سببية⁽⁵⁵⁾ فمرجحة⁽⁵⁶⁾، ثم ملاق⁽⁵⁷⁾ فباغاية⁽⁵⁸⁾، أين خرج له أهلها فهنّؤوه، ودعوا له، وشكرهم لأنهم أغلقوا الأبواب في وجه أبي يزيد، ثم واصل سيره إلى أن وصل طبنة⁽⁵⁹⁾، فقام بها أياما كثيرة⁽⁶⁰⁾.

وفي هذه الأثناء وصله كتاب من عامله بالمسيلة⁽⁶¹⁾ يخبره بقيام ثورة في الأوراس من قبائل زاوة وصنهاجة وعجيسة، اجتمعت حول ثائر، فأمره بالقضاء عليها، وعند مجيئه استقبله بجثة الثائر، وبهدايا أخرى، فأمر اسماعيل بالتنكيل به⁽⁶²⁾.

وواصل اسماعيل سيره وكان ينتقم ويكرم، فانتقم من أهل بسكرة⁽⁶³⁾ - بعد أن وصله السند من أبي خزر الزناتي، فقامت زناتة بالإغارة على بسكرة، وفي سدراته وبنطوس، لأنها كانت تمد أبا يزيد بالطعام، ومن بسكرة انتقل إلى مقرة⁽⁶⁴⁾، واستمال القبائل بالطعام والكساء، وازدادت قوة اسماعيل بانضمام صنهاجة وعجيسة بقيادة زيري بن مناد إليه، وفي نفس الوقت حشد أبو يزيد عددا كبيرا من بني برزال وقبائل سالات⁽⁶⁵⁾.

واستمرت مطاردة إسماعيل لأبي يزيد، فتوجه إلى جبل سالات، ولم يعثر عليه، وقد أصابه وجيشه جوع وعطش فمات الكثير منهم، وقد أشار عليه بعض أصحابه أن "يا مولانا، أعظم الفتح وأجل الغنيمة التخلص مما نحن فيه" فأخذ برأيهم، ورجع قاصدا صنهاجة رغم عثورهم على علامات ودلائل بوجود أبي يزيد في سفح الجبل.

وفي صنهاجة التقى بزيري بن مناد وهناك أجزل العطاء لجميع أفراد صنهاجة ، ثم رحل إلى وادي لعلع ، أين مرض وبقي في فراشه مدة شهرين وانقطعت عنه أخبار أبي يزيد ثم توجه إلى تاهرت⁽⁶⁶⁾ وفي ذلك الوقت ذهب أبو يزيد إلى المسيلة، وهذا ما حتم على إسماعيل الرجوع إليها، وأرسل رسلا إلى المناطق المجاورة لاستنفارهم فأرسل ميسورا إلى سطيف⁽⁶⁷⁾، وأرسل خفيفا إلى ميله⁽⁶⁸⁾، لاستنفار كتامة⁽⁶⁹⁾.

د - أهم المعارك بين الطرفين ونهاية أبي يزيد:

وقعت بين الطرفين العديد من المعارك منها ما كان لصالح الفاطميين ومنها ما انتهى لصالح خصومهم، تواصلت هذه المعارك حتى بعد القضاء على أبي يزيد، ومن بين هذه المواقع ما كان ين جيش أبي يزيد بقيادة ابنه أيوب، وصاحب المسيلة علي بن حمدون، وانتهت بعد قتال شديد بانحزام الجيش الفاطمي⁽⁷⁰⁾.

وهناك وقعة أخرى تعرف بوقعة "عين السودان"⁽⁷¹⁾، وفيها انهزم أبو يزيد، وافترق مع صاحبه أبو عمار وحدثت بين إسماعيل، وأبي يزيد معركة أخرى تعرف "بيوم الرؤوس"، وقد جرت بفحص باتنة(بادنة)⁽⁷²⁾، وانتهت بانحزام أبي يزيد وقتل عشرة آلاف من جيشه⁽⁷³⁾.

وفي الثاني من رمضان سنة 335هـ/947م من يوم السبت حدثت وقعة "الحريق"⁽⁷⁴⁾ حيث أحرق إسماعيل بيوتا لأنصار أبي يزيد ، وقتل منهم عددا كبيرا ، وسبى نساءهم ، وغنم منهم كثيرا مما أدى بأبي يزيد إلى الفرار إلى قلعة "كيانة"⁽⁷⁵⁾، فلاحق به إسماعيل، وفي طريقه إلى القلعة حارب بني عوسجة ، وحارب قلعة تناكر، ثم شدد الحصار على قلعة كيانة وفي يوم الأحد من سنة 336هـ كانت معركة كيانة⁽⁷⁶⁾ وانتهت

بعد قتال شديد بأهزام أبي يزيد، وقبض عليه مثقلا بجراحه، بعد محاولة فراره، فأمر بمداواته ، غير أنه توفي بين يديه وهو ينزف⁽⁷⁷⁾.

وقام إسماعيل بالتنكيل بجثة أبي يزيد حيث أمر بها فسلخت وحشيت قطنا وقيل تبنا، ثم وضعت في قفص بين قردين يلاعبانها، وحملت على جمل وطيفَ بها بين البلدان ليشاهدها الناس⁽⁷⁸⁾، وحيثما حل استقبل بالأفراح والتهنيتي، وواصل إسماعيل حربه لأبناء أبي يزيد، وهزم ابنه الفضل، ومثل برأسه، وأرسله وجثة أبيه إلى صقيلية⁽⁷⁹⁾ ولكن الباخرة غرقت، فاختفى رأس الفضل وطففت جثة أبيه، وفي سنة 337هـ انهمز يزيد ابن أبي يزيد وفي السنة ذاتها قتل أيوب ابن أبي يزيد⁽⁸⁰⁾.

د - منهجية ابن حماد في سرد ثورة أبي يزيد:

إن المتمعن في قراءة كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، يلاحظ أن ابن حماد أشار إلى ثورة أبي يزيد في موضعين اثنين قبل أن يفصل في سردها ، فالموضع الأول يذكر، أنه عندما بدأ عبيد الله المهدي في اختطاط المهديّة رمى بسهم من الباب إلى موضع المصلى ، وقال : " إلى هاهنا يبلغ صاحب الحمار...!" وكان يقصد أبا يزيد مخلد بن كيداد الذي خرج عن الإسماعيليين في فترة حكم ابن عبيد الله المهدي القائم⁽⁸¹⁾.

وفي الموضع الثاني يذكر ابن حماد أنه في عهد عبيد الله المهدي، قام ابنه القاسم باختطاط مدينة المسيلة برمحه، وهو راكب على فرسه، وأمر بينائها وتسميتها "المحمدية" ، كما أمر أن تكون مخزنا لأنواع المأكولات والأقوات وما هو ضروري ولم تنزل تلك الأطعمة محفوظة إلى فتنة أبي يزيد، وخرج إسماعيل لمحاربه أين كانت له عوننا وسندا ومددا للمؤونة، عندما حاصره في جبل كيانة⁽⁸²⁾.

وعند قراءة لثورة أبي يزيد من خلال كتاب ابن حماد ، استنتج بعض النقاط حول منهجه في سرد هذه الثورة، ولعل أهمها ما يلي:

1- لم يفرد لثورة بابا أو فصلا مخصوصا، وإنما أدرجها ضمن حديثه عن الخليفتين محمد القائم (322هـ/934م 334هـ/946م) ، وإسماعيل المنصور (334هـ/946م 341هـ/952م).

2- ثورة أبي يزيد ضمن موضوع القائم لا تتعدى ترجمة له، وذكر لدعوته، وذكر ابن حماد أن أبا يزيد استولى على افريقية كلها ما عدا المهديّة، كما ذكر موقعة علي ابن حمدون مع أبي يزيد عندما ترجم لعلي بن حمدون.

3- أما موضوع الخليفة المنصور، فقد جعل ابن حماد أهم الأعمال التي قام بها هو حربيه لأبي يزيد، وقد استغرقت أحداث الثورة حيزا كبيرا من هذا الخليفة.

4- التأريخ لثورة أبي يزيد عند كاتبنا جاءت في إشارات مختلفة المواضع كقوله مثلا وهو يتحدث عن سير الثورة: "واستولى أبو يزيد على افريقية....."⁽⁸³⁾، عكس المقرئزي، وابن خلدون الذين اتبعا خط سير الثورة باستيلاء أبي يزيد على المدن أو محاصرته لبعضها، ومحاولاته المتكررة الاستيلاء على المهديّة.

5- تناول المؤرخ الثورة كجزء من سيرة إسماعيل ، على اعتبار أنها تندرج في سياق حرب بني عبيد للثائر أبي يزيد، كما تناولت السياسة التي اتبعها إسماعيل في القضاء على الثورة، من خلال التحالفات التي أقامها، أو الإمكانيات والموارد التي رصدها لدعم قدرات الجيش الفاطمي المنهك، وتوظيف القوة الزيرية الناشئة، وهذا أمر طبيعي لأن ابن حماد يؤرخ لهذه الأسرة التي حكمت المغرب في فترة بروز القوة الزيرية الصنهاجية.

6- تناول ابن حماد لهذه الثورة كان متقطعاً، فهو لم يفرد لها باباً خاصاً كما فعل غيره من المؤرخين كابن خلدون والمقرئزي مثلاً الذين أطنبا في سرد أحداث الثورة متسلسلة دون انقطاع .. فابن حماد فكك الثورة وفكك سيرورتها، فهو كلما مر بحادثة جانبية إلا وأبعدته عن الثورة لأنه كان يتوسع فيها، وكلما صادفه مكان إلا وشرحه وحدد موضعه. وبالتالي كان هذا التقطع مشوشاً لذهن القارئ، فتختلط أحداث الثورة بالأحداث الجانبية، وهي حالة تظهر عن الكثير من المؤرخين غير الحوليين.

7- لعل ما يميز ابن حماد عن غيره من المؤرخين للثورة هو ذكره لبعض المواقع الفاصلة في الثورة، كموقعة عين السودان، وموقعة الحريق، وموقعة آذنة، وحدد مواضع بعض هذا المواقع وتسميتها بلغة أهل المنطقة.

8- يذكر إحسان عباس⁽⁸⁴⁾ ابن حماد ويسميه أيضاً (ابن حمادة) بأن له كتاب تحت عنوان "القبس" وهو كتاب يعطي أفضل انطباع عن المؤلف، بأنه من المؤرخين السنة، نظر إلى ثورة أبي يزيد والخلافة الفاطمية نظرة مقارنة وموازنة، فأبو يزيد عنده "عقوبة من الله للشيعنة الذين أمروا بسب الغار والعباءة واقترفوا القتل والتعذيب"⁽⁸⁵⁾ وأن من اتبع أبي يزيد لم يكن يعلم بمذهبه "فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة"⁽⁸⁶⁾ وهو بموقفه هذا يشد عن مواقف علماء وفقهاء أهل السنة الذين نظروا إلى الفاطميين نظرة تشكيك في حقيقة انتسابهم لآل البيت.

9- ولما كان صاحباً قاضياً في عهد الموحدين، فإننا لا نرى له مسوغاً للتعاطف مع الشيع الفاطميين الذي يديه في كتابه، وهو القاضي السني المالكي، مما جعل الأستاذ إحسان عباس يرى أن هذا الموقف ليس موقفه؛ بل هو موقف نسب إليه، وربما زيد في الكتاب من بعض من نسخه⁽⁸⁷⁾.

10- الكتاب موجز في مجمله، وهو وإن كانت مصادره وفيرة في المرحلة المغربية للدولة الفاطمية وقبل انتقال دولتهم إلى مصر سنة 362هـ/972م، إلا أن مصادره في المرحلة المصرية قليلة خاصة بعد فترة المستنصر، فهو يعتمد على الرقيق القيرواني والقضاعي وابن حيان، وبعد عهد المستنصر يعتمد على الرواية الشفوية عن أبي المكارم هبة الله المصري وأحد الطلبة من الحجاج⁽⁸⁸⁾، وقد ضُمَّن ذلك في مقدمة الكتاب فقال بأنه قيد هذا التأليف، فبعضه التقطه من مفرقات التأليف، وبعضها عرفني من وثقت منه بالتعريف⁽⁸⁹⁾

11- تعد القطعة التي ألفها عن أبي يزيد مفصلة نسبياً، بما حوته من معلومات عن أحوال أبي يزيد قبل إعلان الثورة، ويبدو أنه تأثر ببعض المصادر الإباضية، أو نقل عنها⁽⁹⁰⁾، فهو ينفرد عن من أرخ للثورة بذكر "أن من بايع أبا يزيد وأقام معه عرف بالعزابة، ومن بايعه و انصرف عنه عرف بـ"عدة المسلمين"⁽⁹¹⁾.

12- اهتم "المؤلف" بالمرحلة الأخيرة من الصراع مع أبي يزيد والمنصور، ولكنه بالمقابل أغفل ما قبله. فهو لم يشر خلال فصول كتابه ولو مرة واحدة لأبي يزيد بما نعت به وما عرف به من أنه "صاحب الحمار" رغم أنه ذكره أكثر من خمسين مرة، ولم ينعته أيضاً بما نعته به المصادر الشيعية الاسماعيلية بالملعون أو الدجال، كما أنه اعتمد الامانة العلمية فذكر أنه وقف على القصر الفلاني وهو باق إلى الآن⁽⁹²⁾ وقد رأى في بعض كتب الشيعة أن أبا يزيد قد أخربه⁽⁹³⁾، كما عمد أيضاً إلى تسمية بعض المناطق كما تنطقها البربر كقوله قاعة "تناكر" وتقول البربر للموضع الآن "شيكرك"⁽⁹⁴⁾، وقبله قلعة "المري"⁽⁹⁵⁾ كما سمته البربر وترجمها "بالمرأة" وهي اليوم بنواحي البويرة في الطريق إلى مدينة الجزائر.

خاتمة:

نصل في الأخير ومن خلال تطوافنا في الفضاء الذي رسمناه من التقييد لهذا العالم والمؤرخ، ومن خلال تتبعنا لإنتاجه الفكري: أن السلالة الصنهاجية لم تتخلص من الموروث الشيعي الفاطمي، ولا من العصبية القبلية، بالرغم من أن الإمارة الحمادية لم تكن تملك تقاليد الحكم بسبب بداوتها، وافتقارها لمؤرخين يدونون تاريخها لما كانت القلعة هي عاصمة الدولة، وهو خلاف الوضع الذي آلت إليه في بجاية بسبب الاحتكاك بالأندلسيين، وانخراط بعض الكفاءات في دوايب الحكم والإدارة، وبعد نهاية الإمارة لجأ بعضهم كابن حماد إلى العمل على إحياء مآثر الأجداد، يدفعه الحنين إلى القبيلة التي خدمت الدولة الإسماعيلية فراح يؤرخ لدولتها ومن ثم يؤرخ لقبيلته، لذلك ألف " النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة بإفريقية وبجاية" وهو لا يزال مشتغلا بالقضاء في العهد الموحد.

و الكتاب في عمومته يتسم بالبساطة والسير على النمط التقليدي الذي درج عليه من سبقه من المؤرخين، غير أنه رسم لنا خريطة الأحداث والوقائع من خلال تتبعنا لخط سير ثورة صاحب الحمار ورصد بعض المناطق التي لم تذكر من قبل، بل ذكرت لأول مرة وتجلت حتى في الأسماء التي ما زالت إلى اليوم تذكر رغم هامشيتها كفحص طاقة⁽⁹⁶⁾ الذي يوجد في الطريق الرابط بين بجاية بلزمة، طاقة، نقاوس طينة⁽⁹⁷⁾، ولكن التصحيف أوقع المحقق في الخلط فعندما ذكر باتنة (وهي أم حواضر منطقة الأوراس اليوم) قال أنها لا تبعد عن المسيلة إلا إثنا عشر ميلا، وما هي إلا آذنة التي تتواجد على وادي سهر بالزاب⁽⁹⁸⁾.

والحقيقة أن الكتاب على صغر حجمه يعد مرجعا مهما لدارس تاريخ المغرب الأوسط خاصة من ناحية الجغرافية التاريخية التي أصبحت اليوم نافذة مهمة في البحث وكتابة

التاريخ بما يبين العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية، وأن المغرب الأوسط ساهم في إنتاج المعرفة التاريخية ونشرها بين الأقطار وحفظها على امتداد الزمن.

الهوامش والحواشي:

- 1 - علاوة عمارة : الكتابة التاريخية بالمغرب الأوسط ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة ، ص: 85
- 2 - شاکر مصطفى : التاريخ والمؤرخون ، ج1، ط1، دار العلم للملايين بيروت ، 1980، ص: 286/
- 3 - السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ عني بنشره القدسي ، دار الكتاب العربي، بيروت 198
- 4 - شاکر مصطفى ، المرجع السابق، ص: 289
- 5 - نفسه ، ص: 324-325
- 6 - نقصد هنا الروائين الإسماعلية و الإباضية.
- 7 - ابن حماد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبید وسيرتهم ، تح : أحمد جلول البدوي ، م و ك ، الجزائر 1984 ، ص 29-30.
- 8 - الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح : محمد ابن أبي شنب، دار البصائر ، الجزائر 2007، ص 100-101.
- 9 - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط4، دار الثقافة، بيروت لبنان ، ج 2، ص 38.
- 10 - علاوة عمارة : المرجع السابق، ص 85.

- 11 - مجهول : مفاخر البربر ، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية ، دار ابي الرقراق، المغرب ، 2005، ص157.
- 12 الناصِرُ بِنُ عَلَنَاسِ بْنِ حَمَّادِ بْنِ بُلْكَيْنِ بْنِ زَيْرِي الصَّنْهَاجِيِّ البَرَبَرِيِّ، مَلِكُ المَغْرِبِ. هُوَ الَّذِي أَنشَأَ مَدِينَةَ بِجَايَةِ النَّاصِرِيَّةِ، وَكَانَتْ دَوْلَتَهُ سَبْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً. شَمْسُ الدِّينِ الذَّهَبِيُّ: سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت1985، ج118، ص597-598.
- 13 مدينة حمزة قريبة من القلعة وهي التي نزلها وبنهاها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن ابن علي بن أبي طالب وأبوه الحسن بن سليمان هو الذي دخل المغرب، ياقوت الحموي معجم البلدان، تح: احسان عباس، ط3، دار صادر، بيروت 1995 ، ج2، ص302.
- 14 - نفسه، ص:192
- 15 - ابن مريم المديوني: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان ، د، م، ج، الجزائر ص: 300، وكذا الغبريني ، المصدر السابق، ص: 100
- 16 - علاوة عمارة: ابن شداد الصنهاجي : جامع أخبار المغرب الوسيط، مجلة التاريخ العربي، ع 21، 2002، المملكة المغربية ، ص: 67
- 17 - الغبريني، المصدر السابق، ص102.
- 18 - نفس المصدر والصفحة.
- 19 - الفقيه القطب المحقق شيخ مشايخ الإسلام من ناحية اشبيلية نزيل بجاية وناشر العلم والورع والزهد بما طلبه الموحدون لمراكش وسار إلى تلمسان وهناك كانت منيته في موضع العبادسة594هـ ،يراجع : يراجع: عنوان الدراية ،مصدر سابق ، شمس الدين الذهبي :المصدر السابق، ج21، ص218-219؛ ابن قنفذ القسنطيني انس الفقير وعز الحقير 21-22.
- 20 - الغبريني، المصدر السابق، ص192، ؛ محمد بن مخلوف :شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تح: عبد الحميد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت2003، ج1، ص236.

- 21 - ابن قنفذ القسنطيني: أبو العباس أحمد بن الحسين القسنطيني : أنس الفقير وعز الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين شعيب وأصحابه، تحقيق: أبو سهل نجاح عوض صيام، تقديم علي طه جمعة، دار المقطم القاهرة ، ط1، 2002، ص: 137.
- 22 عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي أبو محمد الخطيب فقيه محدث مشهور حافظ زاهد فاضل أديب شاعر، له تواليف حسان قرأت عليه بعضها وناولني أكثرها وكان - رحمه الله - متواضعاً مثقلاً من الدنيا قسم نهاره على أقسام، كان إذا صلى الصبح في الجامع أقرأ إلى وقت الضحى ثم قام فركع ثمان ركعات ونهض إلى منزله واشتغل بالتأليف إلى صلاة الظهر، فإن صلى الظهر أدى الشهادات وقرأ عليه في أثناء ذلك إلى العصر، فإن صلى العصر مشى في حوائج الناس. وكان لا يدخل بجانة أحد من الطلبة إلا سأل عنه ومشى إليه وأنسه بما يقدر عليه، وكان لا يدخل بجانة (أحد من الطلبة إلا سأل عنه ومشى إليه وأنسه بما يقدر عليه . أحمد بن يحيى الضبي : بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967 ، ص. 391.
- 23- أبو محمد الخطيب ببجانة (بجاية) فقيه محدث مشهور حافظ زاهد فاضل أديب شاعر، له تواليف حسان قرأت عليه بعضها وناولني أكثرها وكان - رحمه الله - متواضعاً مثقلاً من الدنيا قسم نهاره على أقسام، كان إذا صلى الصبح في الجامع أقرأ إلى وقت الضحى ثم قام فركع ثمان ركعات ونهض إلى منزله واشتغل بالتأليف إلى صلاة الظهر، فإن صلى الظهر أدى الشهادات وقرأ عليه في أثناء ذلك إلى العصر، فإن صلى العصر مشى في حوائج الناس. نفس المصدر، ص391، وأنظر أيضاً محمد بن مخلوف: المرجع السابق، ج1، ص224.
- 24 - الغبريني : المصدر السابق، ص: 13-14-15
- 25 فقيه مالكي، مشارك في بعض العلوم، من أهل المسيلة، رحل إلى الأندلس فولاه سليمان بن حكم الشورى بقرطبة، قال ابن بشكوال : كان حسن التفقه، وقد نوظر عليه في المسائل وكان لا يحسن سواها، وكان عفيفاً متواضعاً " مات بقرطبة ودفن بمقبرة العباس . عادل نويهض : مُعْجَمُ أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حَتَّى العَصْر الحَاضِر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت 1980 ، ص. 300.

26 ميمون بن جُبارة بن خَلْفون، أَبُو تميم الفرداويّ. المتوفى 584 هـ: دخل الأندلس ووَيّ قضاء بَلَنْسِيَّة مدة، ثُمَّ صُرِف. وولي قضاء بجاية. وكان من كبار العلماء، معدودًا في الرؤساء، كريم الأخلاق، عظيم الحرمة، وبه انتفع أهل بَلَنْسِيَّة، واستقاموا وتفقهوا. استُفدِمَ إلى مَرَاكُش لتولي قضاء مُرْسِيَّة بعد وفاة الإمام أبي القاسم بن حُبَيْش، فتُوِّفَ في طريقه إليها بَتَلْمَسَان. شمس الدين الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار عوَّاد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2003، ج12، ص792.

27 - ابن حماد، مصدر سابق، ص: 12

28 - أبو الفضل يوسف بن محمَّد: المعروف بابن النحوي التوزري أصله من قلعة أبي حماد الإمام العالم العامل المحقق العمدة القدوة الفاضل، كان من أهل العلم والدين على هدى السلف الصالح بحجاب الدعوة وهو ناظم المنفرجة المشهورة أولها:

اشتدي أزمة تفرجي ... قد آذن ليلىك بالبلج

ولما أفتى علماء المغرب بإحراق أحياء أبي حامد الغزالي انتصر أبو الفضل هذا لأبي حامد وكتب إلى أمير المسلمين في شأن ذلك، أخذ عن أبي الحسن اللخمي وأبي عبد الله محمد المازري المعروف بالذكي وأبي زكريا الشقراطشي وعبد الجليل الربيعي، وعنه جماعة من أهل إفريقية وفاس منهم أبو عمران موسى بن حماد الصنهاجي مفتي فاس. قال الحافظ ابن حزم: أوصاني أبي أن أقبل يد أبي الفضل متى لقيته ولو لقيته في اليوم مائة مرة. قال: ودعا لي وحصلت لي بركته. توفي عن ثمانين سنة بقلعة بني حماد بجنوبي سهول بجاية في المحرم سنة 513 هـ [1119م] وقبره بما يزار حتى الآن. الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج35، ص360؛ ابن مريم: المصدر السابق، ص300، ابن مريم: المصدر السابق، ص: 300، محمد بن مخلوف، مرجع سابق، ج1، ص185.

29 - موسى لقبال وعبد الحميد حاجيات وآخرون: الجزائر في التاريخ "العهد الإسلامي" م و ك، الجزائر 1984، ص: 346

30 - نفس المرجع والصفحة.

31 - البستاني، المصدر السابق السابق، ص: 39

32 هذا ديدن المشتشرقين والمستعربين خاصة ممن ينتمون إلى المدرسة الفرنسية الكولونيالية، فهم يعتمدون دوماً إلى إطلاق النعوت ، وتحريف الكلم عن مواضعه، فعملوا بالتالي على تشويه المصادر العربية الإسلامية التي نشروها. خاصة ما تعلق بتاريخ المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة.

33 - A-CHERBONNEAU:Revue africaine-13ANNÈE-N:78. NOVEMBRE 1869,PAGES;DE;425 A453

34 - نفسه ، ص: 474، وكذا الجليلي ، المرجع السابق، ص: 39

35 ابن حماد: المصدر السابق، ص17.

36 - مدينة إفريقية قريبة من توزر ، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج2، ط2، دار صادر بيروت لبنان 1995 ، ص:37

37 - مدينة كبيرة ، بما تمر يجلب إلى افريقية من مدنها توزر التي هي أكبر مدنها، والحمة ونفطة، الحموي ، المصدر نفسه، ج4/ص:348

38 - ابن حماد، مصدر سابق، ص:30،29

39 - توزر مدينة بأقصى أفريقية ، من نواحي الزاب، من أعمال الجريد بما نخل كثير ، يراجع الحموي ، المصدر السابق ، ج2، ص:57

40 - ابن حماد ، المصدر السابق ، ص:30. يذكر ابن حماد بأن أبا يزيد كان إباضياً، ولم يزد على ذلك، عكس بعض المصادر التي تذهب إلى القول بأنه كان نكارياً، كتقي الدين المقرئزي: اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح جمال الدين الشيبان، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1948، ص:109، وعبد الرحمان بن خلدون : تاريخ بن خلدون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ج7، ص 16؛ إلا أن القاضي عياض يرى بأنه كان يبطن رأي الصفرية ويتمذهب بمذهب

الخوارج. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت بلاتا، ج2، ص495.

41 النكار أو النكارية، ويقال لهم أيضا النجوية والشعبية، والشغبية؛ وهم خوارج المغرب والأندلس من الإباضية، أو كانوا الغالبيين على خوارج المغرب والأندلس، وهم جماعة يزيد بن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن، لأنه لم يكن الإمام بالإجماع، وكان فيهم من يبرّه علما، فاعتبروه مغتصبا للإمامة، ونكثوا بيعته، فقبل لهم النكاث، وكانوا في اجتماعاتهم يكثرون النجوى فقبل هم النجوية، وأحدثوا في الجماعة الشعب بمعنى الفرقة، أو الشغب بمعنى العصيان والفضى فقبل هم الشعبية أو الشغبية. عبد المنعم الحنفي: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1999، ص652-653.

(4)، الوهيبية: هم الذين أيدوا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وصوبوا إمامته، وهم جمهور إباضية المغرب. أبو زكرياء: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص176.

(6) قيطون بفتح أوله وسكون ثانيه بلدة بإفريقية بينها وبين قفصة ثلاث مراحل وبينها وبين نفطة مرحلة، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص: 423.

(7) ابن خلدون: كتاب العبر، ج7، ص16.

42 سورة الأنفال، الآية 60.

43 - ابن حماد: المصدر السابق، ص31-32

44 - أبو عمار الأعمى: إمام إباضي، وهو أحد شيوخ أبي يزيد ومنظر الثورة، انظر: ابن حماد المصدر السابق، ص30، ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تح. ج. س. كولان و ليفي برونسال ج1، (ط2، بيروت. دار الثقافة، 1980)، ص217.

- 45 - العزابة: مفردھا عزابي، و هو العازب المبتعد عن مباحج الحياة الدنيا، و يعنى عند الإباضية، المجلس الديني الخاص في كل مدينة.
- 46 - ابن حماد، المصدر السابق، ص30، ص32 .
- 47 - اول حواضر المغرب الإسلامي ، بناھا عقبه بن نافع الفهري عام 50هـ، وهي " مدينة عظيمة بإفريقية وليس بالمغرب مدينة أجل منها ، إلى أن قدمت العرب بإفريقية وخرت البلدان فانقل أهلها عنها" الحموي، المصدر السابق، ج4، ص:420
- 48 - إشارة ابن حماد إلى مشاركة علماء السنة في الجهاد ضد الشيعة ، وقد شارك منهم الكثير ورفعوا شعارات تأييد لأبي يزيد ومناهضة للشيعة، وقد استشهد منهم الكثير ، يراجع ابن عذارى المراكشي ، المصدر السابق، ص:217، وكذا عبد الله المالكي: رياض النفوس ، تح بشير البكوش والمطوي العروسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ، 1981ص:292-344
- 49 - تنسب إلى عبيد الله المهدي اختطها بنفسه سنة300هـ، وانتهى منها بعد خمس سنوات وانتقل إليها في شوال سنة 308هـ تقع على الساحل داخله في بحر الروم ، ياقوت الحوي ، المصدر السابق، ج5، ص:231،230
- 50 - يتفق ابن حماد مع ابن عذارى، في حين يقع الاختلاف في سير المعارك مع المقرزي وابن خلدون في توضيحات عديدة ، يراجع ابن عذارى ، المصدر السابق، ص:218، والمقرزي ، المصدر السابق، ص:111-120، وابن خلدون ن المصدر السابق، ص:41-43
- 51 - ابن حماد المصدر السابق، ص:31
- 52 - نفسه ، ص:33
- 53 - مدينة صغيرة بنواحي افريقية بينها وبين المهديّة ثلاثة أيام ، وتبعد عن القيروان وثلاث وثلاثين ميلا يحيط بها البحر من جهات الشمال والجنوب والشرق ن حاصرها أبو يزيد في 80 ألف رجل ، وأهزم عنها لشدة حصانتها ، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص:282

54 - اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية ، ومدينتها أنطابلس ، وتعني المدن الخمس ، افتتحها عمرو بن العاص سلما سنة 21هـ، وهي مدسنة أهلها ذوو وداعة وامن وسلام ، نفسه، ج2، ص:338-389

55 - ناحية من أعماق افريقية، نفسه، ج3، ص:186

56 - قرية بإفريقية لهوارة، تبعد عن الأريس بمرحلة بمرحلة، نفسه، ج5، ص:109

57 - اسم وادي بتونس قريب من حدود الجزائر وتونس ، ابن حماد م س ، طبعة الجزائر ، هامش9، ص:35

58 - مدينة بإفريقية أولية جلييلة بقرب مسكيانة ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح، وهي على مقربة من جبل أوراس المتصل بالسوس، وبهذا الجبل قام أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفزي الزناتي النكاري على أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي وبه كان مستقر الكاهنة، عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح:إحسان عباس، ط 2، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت 1980، ص 76.

59 - بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب فتحها موسى بن نصير فبلغ سبيلها عشرين ألفا وهرب ملكهم كسيلة، وسورها مبني بالطوب، وبها قصر وأرباض، وليس بين القيروان إلى سحلماسة مدينة أكبر منها، استجدها عمر بن حفص هزار مرد المهلي في حدود سنة 454هـ،

إليها ينسب أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني الشاعر الأديب اللغويّ نزيل الأندلس. ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج4، ص:21.

60 - ابن حماد ، المصدر السابق، ص:35-36

61 - مدينة بالمغرب تسمى الحمديّة ، اختطها أبو القاسم بن المهدي سنة 315هـ، الحموي المصدر السابق، ج 5 ص: 130

62 - ابن حماد المصدر السابق، ص:37

- 63 - بلدة من نواحي الزاب فيها نخل وشجر وتعرف ببسكرة النخيل ، الحموي المصدر السابق، ج1، ص:422
- 64 - مدينة بالمغرب قريبة من قلعة بني حماد ، تبعد عن طينة بثلاث فراسخ ، نفسه ، ج5، ص:175
- 65 - ابن حماد ، المصدر السابق، ص:41
- 66 - اسم لمدينين متقابلتين ، يقال لأحدهما تاهرت القديمة ، والأخرى تاهرت الحديثة ، بينها وبين المسيلة ست مراحل وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد ، الحموي ، المصدر السابق ، ج2، ص:7
- 67 - مدينة من نواحي من جبال كتامة ، بين القيروان وتاهرت ، الحموي ، نفسه، ج3، ص:220
- 68 - مدينة بأقصى افريقية من أصل الزاب ، تبعد عن قسنطينة بيوم واحد ، نفسه، ج5، ص:244 .
- 69 - ابن حماد المصدر السابق، ص:39-40
- 70 - نفسه ، ص:31، يذكر ابن خلدون أنه وقعت بين القائدين أكثر من واقعة والحروب بينهما كانت سجالا .
- 71 - ينفرد بذكرها ابن حماد فقط .
- 72 هي مدينة قديمة تسمى (أذنة) وتسمى أيضا (أذنة) وتسمى أيضا (باذنة)أو (باتنة)، أنظر ابن حماد: المصدر السابق، طبعة القاهرة، ص 71. ولسنا ندرى اليوم أهي باتنة أم حواضر الأوراس والتي ذكرها النميري في فيض العباب ، في رحلته مع السلطان المريني أبي عنان من قسنطينة إلى الزاب، أم التي تقع قريبا من مدينة المسيلة.؟

- 73 - ابن حماد نفسه، ص: 38-41، وينفرد ابن حماد بذكر اسم مكان الواقعة، وغيره يرى بأن الأطفال أخذوا من رؤوس القتلى عشرة آلاف رأس، ينظر المقرئزي، المصدر السابق، ص: 122، وابن خلدون المصدر السابق، ص: 43.
- 74 - ينفرد ابن حماد بذكر هذه الواقعة
- 75 - جبل كتامة عند ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 44، وكذلك المقرئزي، المصدر السابق، ص: 124. يذكر بجبل كتامة
- 76 - ينفرد ابن حماد بذكر هذه الواقعة وهو جبل المعاضيد راجع هامش 4، ص 25.
- 77 - نفس المصدر، ص: 42-44.
- 78 ابن حماد: المصدر السابق، طبعة القاهرة، ص 42-43.
- 79 - من جزائر بحر المغرب مقابلة افريقية وهي مثلثة الشكل، الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص: 416.
- 80 - ابن حماد المصدر السابق، ص: 45-47، ورواية نقل الجثة نجدها عند ابن حماد لوحده لكنها جاءت مقتضبة.
- 81 - نفس المصدر، ص: 22.
- 82 - نفسه، ص: 25.
- 83 - نفسه، ص: 31.
- 84 - احسان عباس، المرجع السابق، ص: 75.
- 85 - ابن عذارى: البيان ج 1، ص: 216.

- 86 - نفسه، ج1، ص:216
- 87 - احسان عباس ، المرجع السابق، ص:76
- 88 - نفسه والصفحة نفسها
- 89 - ابن حماد ، المصدر السابق ، ص: 17
- 90 - أحسان عباس ، م س ص: 76
- 91 - ابن حماد م س ص 20، ربما يريد بعدة المسلمين عامتهم.
- 92 - نفسه، ص:23
- 93 - نفسه، ص:33
- 94 - نفسه، ص:43
- 95 - نفسه، ص:42
- 96 - قرية تتوسط بلزمة ومدينة سريانة ولاية باتنة اليوم
- 97 - نفسه، ص:36
- 98 - نفسه، ص:41

المعالم الأثرية بوادي سوف بين الانهيار والترميم
أ. ماني محمد / جامعة الشهيد حم لخضر / الوادي
m.mani39@gmail.com

الملخص:

يزخر وادي سوف كغيره من الوطن الجزائري بموروث حضاري مادي مهم، متمثل في المخطوطات الكامنة في زوايا المكتبات ورفوف الخزائن العتيقة، و من هذا الموروث المادي توجد المعالم التاريخية، التي كانت تمثل منارات علمية أو إدارية مهمة في هذه المنطقة. إن بلدة قمار تعتبر من البلدات الأولى من حيث النشأة على تراب سوف، إن مقر الحكم لهذه البلدة - ديوان القائد - أكبر دليل على الموروث الأثري السوفي الجزائري، إن تاريخ إنشاء هذا المقر قديم جدا لا يعرف بالتحديد ولكن كيف هي الحالية العمرانية لهذا المنشأ؟ وما هي أهم المشاكل الإنشائية التي تعاني منها؟ وهل من سبل لاستغلالها من جديد في إطار يخدم الوجهة الاجتماعية على جميع الأصعدة؟

لقد تميزت منطقة وادي سوف بوجود مواد جبسية مختلفة استغلت من طرف السكان في بناء ما يحتاجونه من عمارة لأغراضهم المختلفة، و قد عانت هذه المواد بعد مرور السنين و الأعوام من الفتور و الإعياء ، فهل من آليات و وسائل محلية تستطيع رد الاعتبار لهذه العمارة ، بطرق حديثة تستغل المواد المحلية الأخرى التي يمكن بها تقوية البناء و العمارة ، مثل اللألياف النباتية الخاصة بالمنطقة ، لهذا وسمت هذه المداخلة بـ " المعالم الأثرية الجبسية بين الانهيار و الترميم "

إن مختلف المعايينات و الدراسات التي قمنا بها أثبتت في مجملها أن المنشآت الجبسية معرضة للتشققات و الإعياء شأنها شأن المنشآت الخرسانية و غيرها و أنه بإمكاننا ترميمها بمواد محلية شبيهة بالتي بنيت بها ، و بهذا يمكننا بعثها و استغلالها من جديد .

الكلمات المفتاحية: المعالم الأثرية، الترميم، التشققات، الجبس، ألياف النخيل.

Abstract:

Oued souf, like other regions in the Algerian homeland, is replete with an important cultural heritage, exemplified by the manuscripts that lie in the corners of the libraries and the shelves of the antique safes, historical monuments are located within this heritage, which were used to represent important scientific or administrative beacons in this region.

Guemar is one of the towns that was first founded in Souf, and the office of authority –the Commander’s Office/Deewan elkayed– is indeed the greatest evidence of the ancient Soufi heritage, the date of creation of this office is too old to be defined, but how is the current physical state of this structure? What are the most important structural problems that it suffers from? Are there any ways of exploiting them again in a socially oriented framework?

Oued souf has been marked by various gypsum materials that, for various purposes, have been used by the population to build what they needed. Over the last years, these substances have suffered from apathy and weariness. The question is: are there Any local mechanisms and means that can rehabilitate this kind of architecture in a modern way by exploiting other local materials that can strengthen the building? For instance, the region's own botanical fibers, for this reason, this intervention is called "gypsy monuments; collapse and restoration."

The various previews and studies we have conducted have shown in their entirety that gypsum establishments are prone to cracks and weariness, exactly like concrete structures and others, we can restore them with local materials similar to those they were built in, thus, they can be exploited anew.

Keywords: monuments, restoration, cracks, gypsum, palm fibers

المقدمة :

يعتبر وادي سوف من المناطق العريقة قديمة النشأة في الصحراء الجزائرية ، و ما يدل على ذلك و جود آثار و بنايات و قرى إن صح التعبير قد طمرت تحت الرمال أو هدمت ، مثل سندروس و جلهمة و القدائم و تكسبت القديمة و غير ذلك ، و منها ما هو متوسط العمري ليس بالقديم الظارب في القدم و لا الحديث القريب ، و من مناطق سوف بلدة قمار التي تحوي مجموعة من المعالم الأثرية منها الزاوية التجانية و منها برج الدخان و منها ديوان القائد - المعروفة بالديوان - و منها مدرسة البنين و غير ذلك .

إذا بإمكاننا أن نسأل عن تاريخ إنشاء كل من هذه المعالم من جهة و ما هي الوضعية العمرانية لها اليوم و هل من إمكانية لترميمها و استغلالها من جديد ؟ و ما هي المواد الكفيلة بذلك ؟ لقد قمنا بالدراسة على ثلاث عينات أو اماكن مختلفة في الوضعية و هذه الأماكن كلها في البلدة المذكورة ، و هي الزاوية التجانية و برج الدخان و ديوان القائد القديم ، و قد شملت هذه الدراسة ثلاثة مباحث ، الأول هو التعريف بتاريخ و مكان و الدور الذي كان يؤديه كل معلم من هذه المعالم ، أما الثاني فقد تطرقنا فيه إلى المواد المستعملة في بناء هذه المعالم الأثرية و الوضعية العمرانية الحالية و مجمل الترميمات التي مست جوانب هذه المنشآت ، و المبحث الثالث فقد شمل دراسة ترميم مجمل هذه

المعالم الأثرية بمواد محلية متمثلة في الجبس و الياف النخيل ، و قد خلصنا إلى مجموعة من التوصيات حول هذه المعالم الأثرية .

ديوان القائد - الديوان -

المكان : يقع باب الغرب أي حي 05 جويلية 1962 اليوم يحده من الشرق الشارع المعروف بشارع " القائد " و من الغرب منازل خاصة و من الشمال منزل كان تابع لإدارة القائد و من الجنوب المسكن القديم للقائد و السجن .

تاريخ النشأة : لا نعرف إلى اليوم تاريخ التأسيس بالضبط إلا أن القرائن تؤكد أنه كان موجودا في منتصف القرن التاسع عشر ، فحاكم البلدة سي عمار بن السا كان يحكم في هذا المكان و قد تولى زمام الحكم في 10 مارس 1888.¹

المساحة : تقدر مساحتها الإجمالية حوالي 430 متر مربع ، بواجهة 20 م على 21.5 م .

المرافق : كانت تضم عدة مرافق أهمها:

دار الحكم : و فيها يجتمع القائد و مشائخ العروش ، كما يستقبل فيها الوفود و الضيوف ، و حاكم الملحق .
بيت القائد : و هو مسكن القائد مع أهله .

السجن : مكان حبس الناس حتى الحكم عليهم من طرف قاضي محكمة قمار الشرعية ، أو الحبس حتى احالتهم على مكتب الملحق بالوادي .

التوسعة :

أول ما بنى دار الحكم " الديوان " ثم اضيف إليها السجن ثم منزل القائد الذي حل بالبلدة معين من طرف السلطة الفرنسية سنة 1907 م² ، كأول حاكم يحكم المنطقة من غير أهلها .

و قد شهدت الدار و مرافقها إصلاحات كبيرة ضمن مشروع ديكول سنة 1959³ ، و مازلت الذاكرة الشعبية تحتفظ بكثير من القصص و الحكايات حول إعادة البناء و الترميم .

الدور الذي كانت تقوم به : قامت هذه الدار بعدة أدوار عبر السنين أهمها :

- أنها كانت مقر حكم قائد البلدة و مشائخ العروش ، منها تصدر القرارات و تتخذ المواقف ، و تعالج القضايا الخاصة بالبلدة .

- مكان لاستقبال الوفود من قادة سياسيين و عسكريين ، و لعل أكبر دليل ما جاء في وثيقتي تركات صادرتين عن محكمة قمار الشرعية .

- أصبحت و منذ 1962 أو قبلها مقر بلدية قمار .

- بعد الاستقلال كانت مقر أول بلدية في ظل الدولة الجزائرية المستقلة ، و رئيسها و أعضاء مجلسها من المجاهدي و مناضل البلدة .

- كان جزء منها مكان لحبس المعتدين على القانون ، كما حبس فيها بعض المجاهدين .

- بعد فتح البلدية الجديدة في بلدة قمار في سبعينات القرن الماضي ، شغلت عدة ادوار منها :

- دار للكشافة ، و نادي للشباب .

- تعاونية للمكفوفين . حتى مطلع التسعينات .

- مكان لتعليم الشباب و لدروس الدعم .

- مكان لنشاط بعض الجمعيات ، مثل جمعية الراعم للطرب .

الوضعية الحالية :

في سنوات 2004 إلى 2007 تعرض هذا المعلم إلى محاولة ترميمه ، و بدأ بإزالة و تعرية الأماكن المتضررة ، ولكن دون أن يتم الترميم ، أغلقت و بقيت على تلك الحال

مهشمة و معظم الشقوق مفتوحة ، تنذر بالسقوط لولا تدارك الأمر ، بالمسارعة بترميمها

الأهمية :

تكمن أهميتها في الموقع الاستراتيجي الذي تحتله فهي تقع في حي شعبي كبير ، حي الباب غربي ، الذي لا يتوفر على كثير مرافق عمومية ، بالإضافة إلى أن بناءها مزال حسن يمكن ترميمه و استغلاله في مختلف النشاطات .

المدلول الحضاري :

- كونها كانت دار حكم ، و قد وقف امام حاكمها كثير من العلماء ناصحين أو مهددين من طرف هذا الحاكم .
- ما تحتويه من زخارف على قبته لها بعد حضاري و إسلامي .
- قل من لم يقف من الآباء و الأجداد داخل هذا المبنى ، محاكما أو مستحكما .
- أن سجلات الحالة المدنية و هذه الألقاب شكلت في هذا المكان .



زخرفة القبة الكبيرة بديوان القائد



ديوان القائد من الداخل

مواد البناء المحلية

مواد البناء المستعملة :

1- اللوس : و يسميها البعض " وردة الرمال " و يوجد داخل الأرض على شكل طبقات يختلف عمقها و بعدها عن سطح الأرض كما يختلف سمكها من منطقة إلى أخرى ، و هي نوع من الصخور الرسوبية يتكون من الجبس و الرمل له صلابة عالية مما أكسبه خصائص ميكانيكية قوية خاصة في الضغط و الانحناء ، و مقاومة تسرب المياه . و بحسب حجمها يطلق عليها أسماء مختلفة و تكون لها استعمالات مختلفة كذلك ، فأسمائها حسب الحجم هي :

اللوسة : تكون بحجم 20 دسم3 ، فما فوق . و تستعمل في البناء كلبينات يمسك الجبس بعضها إلى بعض .

الترشه : هي اللوس الصغير ، الذي يملأ حجمه اليد أو يزيد عن ذلك بقليل أو ينقص ، و يستعمل في البناء عموما ، و خاصة القباب أو الأدماس التي لا نحتاج فيها إلى الحجارة الكبيرة .

الحرش : و هو أيضا نوع من اللوس أصغر من الترش إلى ان يصبح حصى صغير و يستعمل في تغطية الكثبان الرملية كي تنقص من حركتها و لكي لا ترحزها الرياح .

الجبس :

حب الله هذه المنطقة بمخزون هائل من هذه المادة الخام المتواجدة تقريبا على سطح الأرض أو بأعماق ليست بالبعيدة ، فقد اكتشفه الرجل السوفي منذ حل بهذه الأرض فبنى له و ذريته الدور و المساكن بهذه المادة مثل قرية تكسبت القديمة و كذلك جلهمة و القدائم الذيني مازالت بعض آثارهم إلى اليوم ، و قد انتشر ذلك بعد غور الوادي الذي كان يجري على سطح الأرض ، حيث بدأ الناس في حفر الغيطان فصادفتهم حجارة الجبس في غير ما موضع ، و أهم مناطق تواجدته في الولاية اليوم هي جهة حاسي خليفة و الجديدة و الفولية و غيرهم ، و هي من أهم و أجود أنواع الجبس المنتشرة في الوطن الجزائري ، و يستعمله السكان بطرق مختلفة بدائية و ذلك بالحرق البسيط ، و يستعمل مؤخرا بواسطة حرقه بأفران عالية الحرارة مما يكسبه خصائص ميكانيكية عالية ، و الجبس عبارة عن مادة كيميائية أصلها طبيعي ، ناتجة عن تحويل و حرق نوع من الصخور الرسوبية ذات التركيبات البلورية المختلفة الأشكال ، و اسمه العلمي الكيميائي هو " كبريتات الكالسيوم المائية " ، أما صيغته الكيميائية فهي $CaSO_4 \cdot 2H_2O$.

خصائص الجبس :

للجبس مجموعة من الخصائص على أساسها اعتمد أهل سوف هذه المادة في البناء

:

- العزل الحراري الجيد : و هي أهم مميزاته ، إذ له ناقلية للحرارة منخفضة ، و هذا ما تحتاجه منطقتنا ذات الجو الحراري المرتفع في الصيف و البارد في الشتاء .
 - مقاومة الحريق : نظرا لتركيبته الكيميائية فالجبس مادة غير قابلة للاحتراق . بالإضافة إلى أنه تحت درجات حرارة عالية لا يطلق أي غازات سامة .
 - العزل الصوتي الجديد : فله من العزل الصوتي ما يضاهي أو يفوق جدران الطوب .
- و من خصائصه ما يوضحه الجدول التالي :
- جدول يوضح بعض خصائص الجبس⁴ :

الكتلة الحجمية الظاهرية	840-915 كلغ / م ³
الكتلة الحجمية المطلقة	1100-1300 كلغ / م ³
مقاومة الشد	بعد 7 أيام حوالي 4 Mpa
مقاومة الضغط	بعد 7 أيام حوالي 10.10 Mpa

ليف النخيل :

من أكثر النباتات شيوعا في أرض سوف أشجار النخيل و لولاها ما كان لأهل سوف اثر في هذه المنطقة ، تحتوي هذه النباتات على جزء محيط بالجدع يسمى الليف ، و تنتمي ألياف النخيل هذه إلى مجموعة الألياف السليلوزية و السليلوز عبارة عن نوع من السكريات . و بعد تحضير الألياف من خلال نزعها من النخيل و غسلها ثم إعادة تجفيفها طبيعيا . نقوم عليها بمجموعة من التجارب ، لاستخلاص بعض الخصائص نبينها في الجدول التالي :

جدول يوضح بعض خصائص اليف النخيل⁵ :

الكتلة الحجمية الظاهرية	512-1088 كلغ / م ³
الكتلة الحجمية المطلقة	1300/1450 كلغ / م ³
حمولة الإنهيار للشد (من أجل ألياف	ق ش = 85 ن .

	بقطر 0.8 سم)
10-9.5 %	نسبة الرطوبة
202.64 - 96.83 %	نسبة الإمتصاص بعد 24 ساعة
10-0.2 ملم	قطر الألياف المستعملة

و بعد التجارب المجرات على العديد من أنواع النخيل و جد أن ألياف النخيل الذكري -
الذكار - أقوى من ألياف النخيل الأنثوي - نخيل التمر - . و صدق الله حين قال (و ليس الذكر كالأنثى) .



الياف النخيل

الأخشاب :

أغلب الأخشاب المستعملة لإنشاء البنايات في المنطقة هي جذوع النخيل المختار من نوع النخيل الممتاز و الصلب ، و في الغالب تكون جذوع " الغرس " و " التفازوين " . التي تمتلك مقاومة للضغط و الانحناء كبيرة مقارنة مع غيرها من انواع النخيل الأخرى ، و أما أماكن استعمالها فهي تستعمل للتسقيف في أغلب الأحيان ، و لكي تؤدي الدور المنوط بها و جب تحضيرها من عدة نواحي أهمها :

- بعد قسمة الجذع طوليا إلى ثلاث أو أربعة قطع - على حسب سمك و قطر الجذع -

- التنظيف من بقايا اللألياف و الغبار العالق .

- جعل جزء الجذع المقطوع على شكل هندسي ارتفاعه أكبر من قاعدتيه و القاعدة السفلية أكبر من العلوية ، و تفسيرها العلمي زيادة عزم عطالة هذا الجسم مما يجعله مقاوم للضغط و الانحناء المعرض لهما .

- يغمس مدة تتراوح ما بين 90 إلى 360 يوم داخل ماء مملح ، و غالبا ما يأخذ للشطوط القريبة لتشريبه بتلك الأملاح كي لا يصله السوس .

- إعادة تجفيفه ، قبل الاستعمال .

ترميم و معالجة المعالم الأثرية

معظم المعالم الأثرية الموجودة في منطقة وادي سوف و من بينها المعالم سابقة الذكر ، كلها مبنية من المواد المحلية و هي الجبس و اللوس .

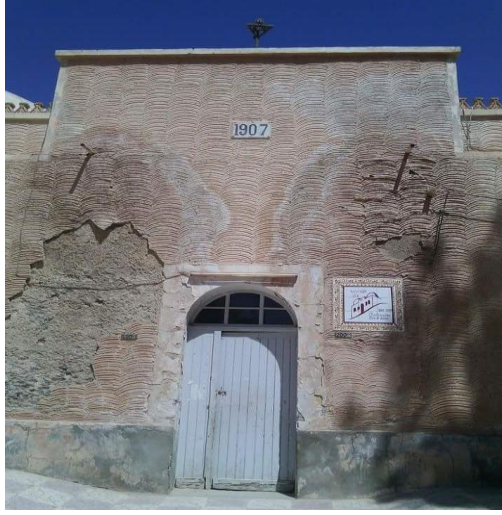
اصابة المنشآت الجبسية :

1- بالتشققات : و المقصود بها وجود تباعد أو فراغ بين شقي الجسم الجبسي الواحد و قد يأخذ هذا التشقق عدة وضعيات و أشكال ، بحسب المشكل المسبب لهذه الظاهرة فمنها الأفقي و العمودي و المائل ... الخ .

* اسباب التشققات : و هذه بعض الأسباب لأنه يصعب حصرها جميعا في تختلف من منشأ لأخر ، و الشائع منها .

تحدث التشققات عموما لأسباب عديدة ومختلفة نذكر منها :

- دراسة التربة غير المستوفية لكل الخصائص الفيزيائية والكيميائية اللازمة . مثل هبوط الأرض أو ما يسمى في ميكانيك التربة بـ " الانخساف " .
- أخطاء في دراسة المبنى من الناحية الإنشائية .
- التنفيذ غير الجيد للمخططات المدروسة .
- العوامل الطبيعية و الكيميائية المؤثرة على المنشأ .
- الأحداث المفاجئة مثل الصدمات والزلازل .
- هناك أسباب خارجية ككثرة الأحمال و تجاوزها المقدار المحدد .
- المدى الحراري الكبير بين الليل و النهار خاصة في فصل الصيف فدرجة الحرارة في النهار تفوق تحت اشعة الشمس 50 درجة بينما في الليل قد تصل إلى 20 درجة فقط . كذلك بين الشتاء و الصيف فدرجة الحرارة في ليالي الشتاء تقل عن 0 درجة بينما في قيلولة الصيف تفوق 50 درجة كما ذكرنا ، و هذا المدى الحراري الكبير لا شك أنه بمرور الزمن سيسبب تشققات نتيجة التمدد و التقلص في المنشأة .
- 2- بالتآكل :** و المقصود به تهري و ذوبان المادة الجبسية سواء في التلبس أو في المونة الرابطة بين الحجارة . و في الغالب يكون نتيجة تفاعلات كيميائية سببها الماء و الرطوبة الزائدة . كما هو موضح في الصورة .



تآكل طبقة التليس لمدرسة رضا حوحو قمار

كيفية الترميم :

بحسب الإصابة تكون كيفية الترميم :

– عند الإصابة بالتشققات : نتبع الخطوات التالية :

- 1- ننظر سبب التشقق ، لإزالته إن أمكن ، كأن يكون الحمل المؤثر كبير أو هناك هبوط في الأرض التي تم عليها البناء .
- 2- ننظر عمق هذا الشق و طوله ليتسنى لنا كيفية معالجته .
- 3- إن كان الشق غير عميق أي لم يصل إلى الحجارة يمكن أن نتبع ما يلي :
 - فتح الشق و توسيعه .
 - احضار كمية من ألياف النخيل النظيفة .
 - غسل و تنظيف المكان بالماء .
 - حشو الليف داخل الشق ، و جعل شبكة منه عرضية تشمل الشق و جوانبه .

- خلط الجبس بطريقة جيدة و صبها داخل الشق .
 - 4- إذا كان الشق عميق أي وصل إلى الحجارة يمكن أن نتبع ما يلي :
 - احضار كمية من ألياف النخيل النظيفة .
 - احضار كمية من قضبان الحديد في حالة جيدة لم يصبها الصدأ . يكون طولها أكبر بقليل من عرض الشق .
 - تعكف هذه القضبان من أطرافها .
 - غسل و تنظيف المكان بالماء .
 - حشو الليف داخل الشق ، و جعل شبكة منه عرضية تشمل الشق و جوانبه .
 - جعل قضبان الحديد فوق طبقة الليف بوضعية عمودية على الشق .
 - يخلط الجبس بطريقة جيدة و يصب داخل الشق .
 - يغط الليف و القضبان بالجبس و يلبس و يصقل مكان الشق .
 - عند الإصابة بالتآكل :
 - في هذه الحالة يجب :
 - تنظيف و إزالة كل الطبقة الجبسية المتآكل .
 - إحضار نوعية من الجبس جيدة بإمكانها مقاومة الرطوبة بقدر معين .
 - يخلط الجبس و يملأ به مكان الجبس السابق .
 - وضع شبكة من ألياف النخيل على كل المساحة المتضررة و نقوم بالتلبس عليها ، و حالياً تستعمل شبكة من الحديد .
- ملاحظات :**

- إذا كانت هناك مجموعة من التشققات متجاورة فإننا نلجأ أيضا إلى غسل و تنظيف تلك المنطقة بكاملها و جعل شبكة من الألياف و نقوم بالتلبيس عليها . كما هو موضح في الصورة .



عملية التنظيف الشقوق و إزالة الطبقات المتآكلة



عملية التنظيف الشقوق و إزالة الطبقات المتآكلة



التقوية باستعمال الشبكة الحديدية والحجارة لزيادة التماسك

كيفية انشاء شبكة من الألياف :

بعد جمع الليف ينظف و ينشف ليكون مادة شبيهة بالصوف ثم يظفر ظفائر طولية بحسب الحاجة إليها ، أما السمك فيتحكم فيه من خلال نوعية الليف و كيفية الظفر . و قد كان آباؤنا الأولون من أهل واد سوف يصنعون من هذه المادة حبال يستعملونها في أعمالهم اليومية ، فترقق هذه الحبال ، و تجعل على شكل شبكة كما هو الحال في " الشبكات الحديدية " بين كل ظفيرة و أخرى مسافة بين 15 إلى 20 سم ، بحسب الحاجة ، أما الطول و العرض الإجمالي فيتحكم فيه مقياس العنصر المراد ترميمه .

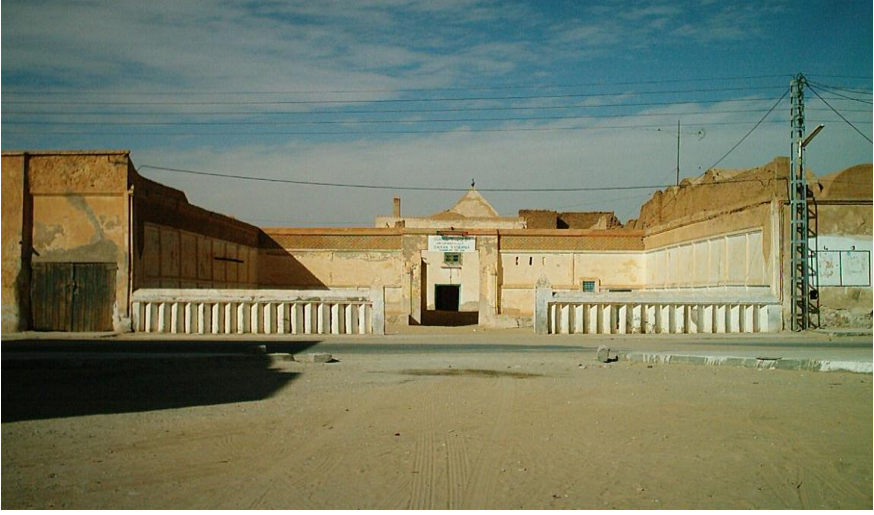
الأخطاء في الترميم :

في الغالب ما يلجأ بعض العامة من الناس عند الترميم إلى أمور تزيد من تدهور و تلف المنشآت الجبسية منها :

- استعمال مادة للترميم مخالفة لمادة البناء الأصلية كالترميم بالإسمنت للمنشآت الجبسية ، مما يؤدي لخلق تنافر بين تركيبة المادتين و بالتالي إيجاد تصدعات داخلية غير مرئية بين المادتين بإمكانها أن تؤدي بالمبنى للانهيار .
- الترميم بجبس ليس له المقومات و الخصائص المطلوبة .
- استعمال حجارة من اللوس غير نظيفة عليها غبار .
- عدم التنظيف الجيد لأماكن لصق الجبس الجديد بالقديم .



التحضير لخلط الجبس و عجنه



مدخل الزاوية التجانية قبل ترميمها سنة 2003



مدخل الزاوية التجانية بعد ترميمها سنة 2003

التوصيات العامة حول هذه المنشآت

- الإسراع في ترميم ديوان القائد قبل الانهيار .

- ثم استغلاله و عدم تركه فارغ ، و ذلك من خلال جعله فضاء للجمعيات و مختلف النشاطات الشبانية .

- عدم الإسراع في الهدم كما حصل للبرج ماخرا أو للسوق القديم داخل البلدة .

- تسمين كل ما هو رمز و له دلالة على عظم هذه المنطقة و أهلها للتدليل على عظم هذا الوطن الغالي الجزائر ، من خلال تصنيفه ضمن الموروث الأثري الوطني أو العالمي .

ما كتبه أبو القاسم سعد الله عن الهدم :

و قد كتب الدكتور أبو القاسم سعد الله عن ذلك في كتابه حصاد الخريف فقال (... أما البلدة القديمة فقد طاف بها طائف حرقها وسلخ جلودها وكشف سرها وأزال معلما من معالمها التي ترجع ربما إلى بضع مئات من السنين. فرحبة السوق القديمة كان الناس يتفياون ظل أفواسها في الصيف ويتدثرون بدفئها في الشتاء - هذه "القصبة" العتيقة قد هدمت وفتحت للشمس والهواء وأصبح مكانها لا يختلف عن أية ساحة عمومية أو مفترق طرق. والحارات والأزقة الضيقة التي كانت مبنية بالجبس والحجر المحلي قد اخترقت وفتحت هي أيضا بحجة تهوية المنازل وتسهيل مرور قوات الأمن وعبور السيارات، بدل مرور الناس بها راجلين أو على ظهور الحيوانات. وإذا صحت الرواية التي سمعناها فإن عملية الاختراق والسلخ وهتك أسرار البلدة قد تمت بمساعدة جزئية قدمتها منظمة اليونسكو للمحافظة على التراث القديم للبلدة قمار.)⁶



ديوان القائد اليوم



ديوان القائد اليوم

المراجع :

- 1- إبراهيم مياسي ، الصحراء الجزائرية في ضلال وادي سوف ، دار هومة ، الجزائر ، 2014 . ص 161
- 2- أبو اقسام سعد الله ، ابحاث و آراء ، عالم المعرفة ، 2009 ، ج 3 .
- 3- أبو اقسام سعد الله ، حصاد الخريف ، عالم المعرفة ، 2011 .
- 4- التجاني عقون ، جريدة الحوراء ، عدد 48 ، تاريخ 2011/01/07 .
- 5- بن عيشة الطاهر ، مقال في جريدة المحقق سنة 1958 أو 1959 .
- 6- حفصي فؤاد ، المساهمة في دراسة العزل الحراري للبناءات في المناطق الصحراوية ، مذكرة ماجستير ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة 2010 .
- 7- عاشوري قمعون ، الشيخان الشيخ ابراهيم بن عامر والشيخ الهاشمي جوار في المسكن و تباين في المواقف ، مطبعة مزوار ، الوادي ، 2010م ، ص 16
- 8 - عبد الباقي مفتاح ، أضواء على الشيخ أحمد التجاني و أتباعه ، الوليد للنشر ، كونين الوادي .
- 9- عبد العزيز حسونة ، عمارة مدينة قمار بمنطقة سوف من القرن 10 إلى 13 هـ ، دراسة أثرية و عمرانية . 2013 .
- 10- الزاوية التجانية بقمار الماضي و الحاضر ، بتصرف .
- 11- مرخوفي عبد المالك ، المساهمة في دراسة خصائص و تشوهات خرسانة الياف النخيل في المناطق الحارة و الجافة ، مذكرة ماجستير ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة 2004 .

المخطوطات :

- 1- السائح حقي ، نسخة من القصيدة مخطوطة ، في مدح الطريقة التجانية ، لدي نسخة منها .

الوثائق :

- 1- وثيقة من ارشيف بلدية قمار مؤرخ في 17 جانفي 1962 لدي نسخة منها .
- 2- وثيقة فرنسية مؤرخ سنة 1904 .

التهميش:

- 1 حسب وثيقة فرنسية مؤرخ سنة 1904 .
- 2 محمد الطاهر التليلي: الفوائد المنشورة، مخ.
- 3 حسب وثيقة فرنسية مؤرخ سنة
- 4 انظر حفصي فؤاد ، المساهمة في دراسة العزل الحراري للبناءات في المناطق الصحراوية ، مذكرة ماجستير ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة 2010 .
- 5 انظر أيضا مرخوني عبد المالك ، المساهمة في دراسة خصائص و تشوهات خرسانة الياف النخيل في المناطق الحارة و الجافة ، مذكرة ماجستير ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة 2004 . و حفصي فؤاد ، المساهمة في دراسة العزل الحراري للبناءات في المناطق الصحراوية ، مرجع سابق .
- 6 أبو القاسم سعد الله ، حصاد الخريف ، عالم المعرفة ص 152

مناهج التحقيق و تأثير المدارس الفكرية و العلمية .

أ/ رحمة يسعد شريف / قسم التاريخ/ جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

ملخص:

تهتم لجان التراث العربي و المجامع العلمية إلى صياغة قواعد و مناهج لتحقيق المخطوطات ، هذا العلم الذي يسعى إلى الحفاظ على تراثنا ، هذا التراث الضخم، رغم أن ما ضاع منه كان أضخم مما وصل إلينا .

حيث تتجه الأنظار اليوم إلى إحياء تراثنا العلمي خاصة بعد نشر الكثير من التراث الأدبي و التاريخي .

ويأتي السؤال المهم: هل نحن في حاجة إلى مخطوطات جديدة، تكشف عن تراثنا وتجلبه بعد هذا القدر الهائل من المطبوعات، منذ ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي؟

وأقول: نعم، نحن في حاجة لا تنقطع إلى المخطوطات، وحاجتنا هذه لغائتين:

الغاية الأولى : البحث عن تلك المخطوطات التي تتردد في كتب التراجم والبيبلوجرافيا، لعلمائنا، ويكثر النقل عنها والإحالة عليها في كتب اللاحقين، ولا نرى لها وجودا في فهارس المكتبات، مطبوعة أو مخطوطة.

والغاية الثانية : أن بعض مطبوعاتنا نشرت عن أصول مجهولة ، وقد كان هنا في مراحل الطبع الأولى ، قبل أن يستقر علم تحقيق المخطوطات. وقد يسأل سائل : كيف كانت هذه الأصول المخطوطة مجهولة ؟ والجواب: أن ناشري الكتب في تلك المراحل الأولى من الطباعة لم يكونوا يغنون بذكر وصف المخطوط الذي ينشرون عنه، بل إن بعضهم كان يتخلص من المخطوط نفسه بعد الفراغ من طبعه، فإن العمال أحيانا كانوا يجمعون من المخطوط نفسه .

لم يكتف العرب بالحفاظ على تراثهم، بل كان لهم الفضل الكبير في الحفاظ على تراث الأمم الأخرى، الذي نقله العرب إلى حضارتهم الأخرى و ضاعت أصوله لدى تلك الأمم كتراث الفرس و الهنود و الرومان و الإغريق.

و لأن نسخ الكتب كانت تتعرض للزيادة والنقصان ، ظهرت الحاجة إلى التحقيق و نسبة النص إلى مؤلفه أو نسبة المؤلف إلى النص .

إن الذين يشتغلون اليوم بالمخطوطات يستحقون كل تقدير ،يقدمون من طاقاتهم لهذا العلم خدمة للأجيال القادمة.

إن غاية هذا العلم هو تقديم المخطوط صحيحا كما وضعه مؤلفه دون شرحه ،ووضع بعض الدارسين و المجتهدين أسسا لتحقيق المخطوط من جمع نسخه و إخراج النص ثم مرحلة الإخراج و النشر كأسس ضرورية لعملية التحقيق. ولعله وإن اختلف البعض في نقاط حول تحقيق الكتاب المخطوط فقد اتفقوا حول هذه الأسس كأسس ضرورية يقتدي بها الطالب كما عليه أن يبرز في هذا العمل قيمة المخطوط العلمية ومرتبته بالنسبة إلى غيره من المصنفات التي ألفت قبله وبعده في الموضوع نفسه . هذه القواعد ينبغي إتباعها في نشر النصوص لا هي تقليد أعمى للمستشرقين و ليس فيها الغموض و فقدان المنهج .

إن عمل التحقيق هو رغبة في إعداد جيل مثقف أصيل يقدر البحث العلمي و يدرك مناهجه و يتحلى بصفات العالم و الأديب.

Abstract:

Strict rules and methods in codology were formed thanks to the Arabic heritage and the scientific societies . The latter was very great and huge , but what was lost was even greater. After

the revelation of a considerable amount among the Arabic legacy , tendencies appeared to revival our scientific heritage mainly in history and literature .

Our ancestors were really experts in the field of codology . They used to verify the texts' true writers , and compare its different forms to choose the closest to the truth .Due to their practical approach and to the quality and diversity of their codology studies , the Arabs could preserve the human heritage , and transmit it to their civilization such as that of Rome , Persia, Greece , and India .

The manuscript represents a full historical unit holds between envisages the lives of earlier generations represented in the quality of his papers and Ohbarh and arts Tjalida and other characteristics of the era of writing.

Codology 's main aim is to provide correct manuscripts as they were written without explanations . For that reason, many strict rules and precise bases were created such as : Gathering

different copies of manuscripts , and extracting a text . The matter that led to the creation scientific methodology . And that methodology should be followed , not blindly as Orientalists did ; but with the willingness to get well- educated generations , armed with the true charecteristics of scientists and researchers .

تمهيد :

يفخر العرب منذ القدم بتفوقهم على الأمم جمعاء بقريحتهم منذ العصر الجاهلي ، هذا العصر الذي كانت فيه الرواية التي استمرت حتى القرن 1 هـ ، و بعده جاء دور جمع الروايات و تدوينها حتى مطلع القرن 3 هـ.¹ و قد أطنب السلف في مدح الكتابة ، حتى قال أحدهم " لا دية لمن لا يكتب "³².

و قد تم جمع القرآن و نسخه و توزيعه على الأمصار في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه و كتابة الحديث و السنة النبوية في عهد عمر بن عبد العزيز ، و مع اتساع الدولة الإسلامية كثرت التأليف العلمية و الدواوين و حرص الناس على تناقلها في الآفاق و جاءت صناعة الوراقين⁴ . هذه الصناعة التي انتشرت و أصبحت ذكائنها مجالس يرتادها العلماء و الأدباء⁵ .

و كان من أهم المصادر التي اعتمدت عليها الحضارة العربية الإسلامية نقل علوم الأمم القديمة إلى اللغة العربية ، و بذلك كان لحركة الترجمة و نقل الكتب القديمة دورا أساسيا في التأليف و يعد خالد بن يزيد بن معاوية " حكيم آل مروان " أول من اهتم بالصناعة و فكر في نقل الكتب القديمة في موضوعات شتى⁶ .

ولكن حركة الترجمة لم تبدأ إلا مع بيت الحكمة الذي أنشأه العباسيون في بغداد في عصر هارون الرشيد، ثم ازدهرت حركة الترجمة و النقل في عصر الخليفة المأمون⁷.

و بذلك سرعان ما توجه المؤلفون وخاصة الأدباء نحو التخصص و المنهجية الدقيقة، مثل كتب القرآن الكريم و الحديث مثل كتاب المطر لأبي زيد الأنصاري و كتابي الإبل و أسماء الوحوش و صفاتها للأصمعي و النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري كذلك.⁸

فكان التخصص في الكتابة في المواضيع الدقيقة جدا و هي تشبه إلى حد كبير موضوعات العرب الحديثة في أدق بحوثهم العلمية⁹.

ثم برز موضوع النقد العام، و يعد ابن سلام في طبقات فحول الشعراء " من أبرز النقاد العرب، و بذلك برزت شخصيات تنفرد عن غيرها في مناهجها التأليفية، فشخصية الجاحظ النادرة تختلف في منهجها عن ابن قتيبة، بل إن الاختلاف منهجيا بين كتاب و كتاب مثل كتاب " البيان و التبيين " و "كتاب الحيوان " للجاحظ¹⁰.

لقد ألف العرب الملايين من المصنفات في مختلف ميادين الثقافة و العلوم الإنسانية و قد كان نتاج العلماء و المحدثين و الفقهاء و اللغويين و الشعراء و الكتاب و الفلاسفة و الحكماء فزاد المخطوط العربي بأكثر من 3 ملايين تقديرا¹¹،

إذن كان الوراقون يقومون بما تقوم به المطابع هذه الأيام و هو إصدار النسخ اللازمة للسوق من كل كتاب فيتعرض للزيادة و النقصان و بذلك ظهرت الحاجة إلى التحقيق و نسبة النص إلى مؤلفه أو نسبة المؤلف إلى النص، و كثيرا ما يتساءل الأدباء : هل التحقيق في مستوى التأليف ؟ و هل ينظر إليه من الناحية العلمية بمنظار الأهمية ؟

المخطوط:

و الحق أن التحقيق جهد علمي ، و قد يتطلب التحقيق وقتا أطول من التأليف ، كما أن خدمة الكتاب التراث و إلباسه اللبوس العلمي الجديد أمر لا يقل بحال عن التأليف ، بل إن التحقيق جهد قومي ، ينير ثقافة الأمة و ينير المعرفة التي اشتهر بها العلماء المسلمون .¹²

المخطوط يمثل وحدة تاريخية كاملة يحمل بين سطوره حياة أجيال سابقة ممثلة في نوعية أوراقه و أحباره و فنون تجليده و غيرها من خصائص عصر كتابته .¹³

و المخطوطات كناية عن كتب أو رسائل لم تطبع بعد ، و لا تزال بخط مؤلفيها الأصليين و النساخ، و العلم الذي يهتم بدراسة هذه المخطوطات و تحقيقها يسمى علم دراسة المخطوطات¹⁴ و التحقيق في اللغة هو إحكام الشيء. و التحقق هو التيقن و حقيقه تحقيقا صدقه ، و المحقق من الكلام الرصين و تحقق الخبر صح .¹⁵

و التحقيق في استخدامنا العادي هو البحث بهدف الوصول إلى الحقيقة ، إذن هو إصدار الكتب على حقيقتها أو إصدارها على الصورة التي أراد لها صاحبها¹⁶ ، و هو بهذا المعنى أمر لا غنى عنه في نشر تراثنا المخطوط لأن نسخة المؤلف غالبا ما تكون مفقودة و غالبا ما يتجمع لدينا من الكتاب الواحد نسخ متعددة تتفاوت فيما بينها تفاوتا شديدا ، و لأن لكل نسخة خصائصها و تاريخها و نصيبها من الدقة و صحة النسخ و سلامته و اكتمال النص أو نقصه أو زيادته .¹⁷

و لفظ المخطوط ظهر مع ظهور الكتاب المطبوع أما قبل ذلك فكان العرب يسمونه تأليف ، كتاب الأصول ، الكتب الأمهات لأنها كانت تحوي أساسيات العلم¹⁸ .

أما لفظ العرب فقد تناولوه بلفظ Codex و هو لفظ لاتيني فسره قاموس كولبير Collier Dictionary بأنه الكتابة الأثرية القديمة و الكتابة الأثرية على الألواح . و

قد ترجمت كلمة Codex بأنها تعني كتاب أي مخطوط و الجمع Codexiers أي مخطوطات¹⁹.

وكذلك لفظ Manuscript وتعني الكتاب و الوثيقة و أهما تعني المخطوط²⁰.
و لعل المستشرقين في القرن 19م هم أول من عنوا بوضع الأصول و القواعد المتعلقة بتحقيق المخطوطات و أخرجوا بعضها ككتاب الفهرست لابن النديم الذي حققه فلوجل سنة 1871م، و معجم البلدان لياقوت الحموي الذي حققه فستفلد سنة 1868م، و الحق أن ما وصل إلينا من تراثنا ضخما و ما ضاع و اندثر كان أضخم و خاصة حين تتوفر الظروف المناسبة لطبع المخطوطات كلها أو الثمين منها منها على الأقل. و تتجه الأنظار اليوم إلى إحياء تراثنا العلمي بعد نشر الكثير من التراث الأدبي و التاريخي و هذا ما يؤكد على مكانة العرب العلمية في مرحلة سيطروا فيها ثقافيا على عملية الإبداع في العلوم²¹ و لم يكتف العرب بالحفاظ على تراثهم، بل كان لهم الفضل الكبير في الحفاظ على تراث الأمم الأخرى، الذي نقله العرب إلى حضارتهم الأخرى و ضاعت أصوله لدى تلك الأمم كتراث الفرس و الهنود و الرومان و الإغريق²².

إن الذين يشتغلون اليوم بالمخطوطات يستحقون كل تقدير، يقدمون من طاقاتهم لهذا العلم خدمة للأجيال القادمة²³، خاصة و أن نشر المخطوطات العربية بعد ظهور الطباعة كانت تتجه نحو مغزى تجاري وهو طبع أحد نسخ الكتاب دون محاولة لدراساتها أو مقابلتها بالنسخ الأخرى و لم يكن للنشر في ذلك الوقت إلا ميزة إتاحة النص في عدد أكبر من النسخ حتى يستفيد به أكبر عدد من القراء و الباحثين²⁴.

وقد بدأ نشر المخطوطات يتحول من الناشرين التجاريين إلى الباحثين المتخصصين و يصبح عملا علميا يقوم على الدراسة الجادة لمختلف أصول الكتاب للوصول إلى نص يطمأن إليه و أنه إن لم يكن النص الذي تركه المؤلف، فهو أقرب ما يكون إلى هذا الأصل الذي قلما يعثر عليه.²⁵

و قد كان من نتيجة ذلك أن اعترفت الجامعات بتحقيق التراث و اعتبرته عملا علميا تمنح عليه الدرجات العلمية.²⁶

و مع بداية الاشتغال بالمخطوط لم يكن ثمة منهج معلوم يمكن أن يلتزم به المحققون و إنما كان لكل واحد طريقته و منهجه، وقد استمرت بعض هذه الطرق من مناهج العلماء المسلمين في توثيق النصوص الشرعية و بعضها استمدت من مناهج المستشرقين في نشر التراث القديم²⁷. و لأن هذا الفن حديث و المشتغلون به يفتقرون إلى التجربة و لا يسيرون على قواعد مرسومة و لا شروط مقننة، فإن ضرورة توجيه المحققين الناشرين ضرورة ملحة ووضع أبرز النقاط التي يشترط بهم أن ينتهجوها²⁸.

و من خلال المقالات التي نشرت في نقد بعض الكتب المحققة، بدأت خيوط المنهج تتجمع، ثم لم تلبث أن نشرت بعض الكتب التي تحاول أن تضع أصول هذا العلم منها : مؤلف أصول نقد النصوص للمستشرق الألماني برجستراسر²⁹.

غاية التحقيق و منهجه :

إن غاية التحقيق هو تقديم المخطوط صحيحا كما وضعه المؤلف دون شرحه، فلا تملأ الحواشي بالشروح و الزيادات بصورة واسعة مملدة قد تشغل القارئ عن النص نفسه³⁰

مبادئ أساسية للمخطوط :

لتحقيق المخطوط - أي مخطوط - مجموعة من المبادئ العامة التي يجب على المحقق أو الطالب أن يتقيد بها حتى يكون العمل متقونا و مقبولا³¹، و يجب إخراج الكتاب كما أراد له صاحبه لو كان حيا و تقديم النص مقروءا و مشكولا وموثقا و إثبات صحة النص و عنوانه إلى مؤلفه بدليل علمي قاطع، مع العناية بضبط الكلمات التي تحمل أكثر من قراءة، إذ أول أساس هو عملية إحياء نص قديم و عرضه عرضا علميا دقيقا و هذا هو الأصل³².

و بذلك فإن الأسس الثلاث لعمل التحقيق هي :

- أ- جمع النسخ و المقاربة بينها و تحديد منازلها

- ب - إخراج النص و هو لب التحقيق سواء كان تحقيقا لاسم المؤلف أو لعنوان الكتاب أو لنسبة الكتاب إلى مؤلفه أو للنص نفسه .

- ج- الإخراج و النشر .

و قبل أن نخوض في هذه الأسس، نتطرق إلى الشروط الواجبة لتحقيق مخطوط:

- أن لا يكون الموضوع حقق من قبل أو لم يحقق تحقيقا علميا أو نشر بدون تحقيق أو تصحيح و فيه كثير من التصحيف و التحريف و هو يستحق منه الجهد الذي سيبدله فيه لإخراجه إلى النور³³.

- أن يكون على علم و بينة من قيمة المخطوط العلمية في المجال الذي ينتمي إليه و ذلك لوجود مخطوطات مقتبسة و مضمون المخطوط مستهلك و هذا يفقد المخطوط الفائدة و الأهمية العلمية³⁴.

- أن ينتفع بالعمل المحقق من خلال النشر إذ لا فائدة ترجى من عمل حقق بعد جهد يسير و كان صعبا نشره ³⁵ .

أسس تحقيق المخطوط :

- 1- جمع نسخ المخطوط :

يتم جمع نسخ المخطوط المراد تحقيقه ويكون ذلك بالرجوع إلى الفهارس و الأعمال البيبليوغرافية من المكتبات المختلفة و المنتشرة في أرجاء العالم ³⁶، مثل تاريخ الأدب لبروكلمان و تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين و كذلك فهارس المخطوطات العربية في المكتبات العربية و الأجنبية ³⁷ مثل مكتبة جامعة الملك سعود في الرياض و مكتبة جامع الزيتونة في تونس و المكتبة العامة في الرباط و مكتبة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة و كذلك المكتبة العامة في اسطنبول و مكتبة الإسكوريال في مدريد ³⁸ .

و بعد جمع النسخ يأتي دور ترتيبها من حيث المنزلة و الأهمية بالشكل الآتي :

- المخطوط الأصلي أو المخطوط الأم

- ثم النسخة المصدقة

- النسخة طبق الأصل

- النسخة الموثقة ³⁹ .

- النسخة المسموعة ⁴⁰

- النسخة المنسوبة

- النسخة السقيمة ⁴¹

- النسخة المعيبة ⁴² .

و بذلك ليست كل مخطوطات الكتاب سواء في أقدارها ففيها الكامل و الناقص و القديم و المتأخر و الواضح و الغامض و الموثق بإجازاته و مقابلاته و غير الموثق ، و هنا تأتي أهمية دراسة الخط و الورق و استبيان الأشخاص الذين ورد ذكرهم⁴³ .

قواعد المفاضلة بين نسخ المخطوط حسب المستشرق الألماني برجستراسر:
و قد أورد المستشرق الألماني برجستراسر بعض القواعد للمفاضلة بين نسخ المخطوط الواحد إذا كانت كثيرة و هي :

- 1- النسخ الكاملة أفضل من النسخ الناقصة .
 - 2- النسخ الواضحة أحسن من النسخ غير الواضحة .
 - 3- النسخ القديمة أفضل من النسخ الحديثة .
 - 4- النسخ التي قوبلت بغيرها أفضل من النسخ التي لم تقابل⁴⁴ .
- و بعد الاطلاع على النسخ المطلوبة و امتلاك النسخة الأم و الفروع يعمل المحقق حسب القواعد الآتية :

* يقرأ المخطوط قراءة مجددة عدة مرات ليفهم الهدف و المضمون وليفك الرموز التي استخدمها المؤلف .

* ينسخ المخطوط بقلم رصاص (مبدئياً) ، حتى يسهل عليه التصليح .
* يبيض النسخة الأم على ورق كبير مسطر ويترك لعملية الحواشي و كذلك لعلامات الترقيم و الخط الواضح و الكتابة على وجه واحد و تحديد أول الورقة بخط متباين و ذكر رقم الورقة .

* يراجع التبييض على المخطوط خوفاً من الخطأ

* يضع الرموز المتباينة للنسخ الفرعية .

* يباشر بمقابلة النسخ واحدة بواحدة

* يضبط الكلمات الصعبة ⁴⁵ .

- 2- إخراج النص:

عملية إخراج النص تعتمد على عدة قواعد :

*التحقق من عنوان الكتاب و اسم مؤلفه و يستعين إذا التبس احد هذين الأمرين

بالرجوع إلى كتب الفارس مثل "أسماء المؤلفين و آثار المصنفين لإسماعيل البغدادي و غير

ذلك من الكتب ⁴⁶ .و يجب التثبت من صحة المؤلف ،إذ يوجد كثير من الكتب التي

تحمل عنوانا واحدا لكن لكل منها مؤلف يختلف عن الآخر مثل "كتاب الأنواء الذي

أورده ابن النديم و قد ورد هذا العنوان نفسه في ستة مؤلفات مختلفة . ⁴⁷

إذن يجب أن نقرب من النص الذي تركه المؤلف و افتقدناه ⁴⁸ ،مع مراعاة النقاط الآتية :

* أن المحقق ليس من مهمته تقويم النص أو تصحيح المعلومات الواردة به .

* ليس مهمته استكمال النقص الموجود في النص ،إلا إذا كان لا يستقيم دون اضافة و

يكون ذلك باستخدام معقوفتين ⁴⁹ .

و يرى البعض أن المحقق يجب عليه تصحيح الخطأ إما في المتن و إما في الحاشية و أن

هذا الأخير أفضل ،كون النص يعبر تماما عن شخصية صاحبه العلمية و اللغوية ⁵⁰ .

بينما يرى التونجي أن الواجب أن يبقى النص كما هو حتى يسهل على الباحثين دراسة

أسلوب المؤلف و أسلوب عصره ،و يتعرف إلى فكره و تفكير عصره في المتن ،أما

المطالعون فيعرفون المحقق من حواشيه ⁵¹ .

* أن يستخدم الهوامش في إثبات الخلاف بين النسخ و تخريج النصوص⁵²، و إثبات التعليقات و الشروح و التنبيه إلى الأخطاء العلمية التي وردت في النص، و أما الأخطاء الإملائية و اللغوية فتصوب في مواضعها ما لم تكن النسخة التي تنشر في أصل المؤلف⁵³.

و يرى أحدهم أن تقتصر على إثبات الخلاف بين النسخ و أن تجمع التعليقات في أواخر الفصل، و هذا الرأي يهتم بالناحية الشكلية على حساب الجانب الموضوعي⁵⁴. و لا شك أن الأفضل أن يذكر كل شيء في موضعه و أن يحرص المحقق على عدم الإسراف في التعليق و الشرح⁵⁵، و يتفق التونجي في ذلك و يرى أن هذا الأمر يرهق القارئ بعناء القراءة المتواترة بين النص و الحاشية خاصة و أن الثقافة يوم تصنيف الكتاب تختلف عما هي عليه الآن⁵⁶، لهذا لزم التحقيق بعض الإشارات التوضيحية اللازمة على أن تكون غاية الإيجاز مع الإكثار من استخدام الرموز للضغط على حجم الحواشي ما أمكن⁵⁷. وكذلك تستخدم الهوامش لتعريف المواقع و أسماء الأشخاص و أسماء المدن⁵⁸.

و الحواشي لم يكن لها نظام عند الأقدمين، إذ كانت توضع أحيانا بين الأسطر أو في جوانب الصفحة، أما المحدثون فاتبعوا في ذلك طرقا :

* الأولى : أن تعزل الحواشي في أسفل الصفحة بحرف مخالف.

* الثانية : تلحق جميعها بنهاية الكتاب، أما الإشارة إلى اختلاف النسخ فتدرج في حواشي صلب الكتاب .

* الثالثة: أن يلحق اختلاف النسخ و التعليقات بنهاية الكتاب . و حجة الذين يعتمدون الطريقتين الثانية و الثالثة، أن لا يشغل القارئ بغير نص الكتاب لثلا يتأثر برأي المحقق ووجهة نظره⁵⁹ .

أما هارون فيرى أن يكون كل ذلك في أسفل كل صفحة تيسيرا للدارس الذي ينبغي أن يكون ناقدا لا متأثرا برأي غيره أو وجهة نظره، ذلك أن أغلب قراء الكتب المحققة على درجة عالي

ة من التبصر و تحرر الفكر⁶⁰ .

و الحق أن كثيرا من علماء الشرق و الغرب يهتمون بالحواشي و يعدون استخدامها فنا و براعة و فائدة حمة للقارئ و هم يتبعون في ترتيب الحواشي طبقا لما يلي:

- جعل الحواشي طبقتين :

- أ -

الأولى ترقم بأرقام غربية تصب فيها اختلاف النسخ والروايات و هذه خاصة بالباحثين المحققين .

الثانية ترقم بأرقام مشرقية تشرح فيها التعليقات العامة و هذه خاصة بالمطالعين .

- ب -

- جعل الحواشي طبقة واحدة، بحيث يدمج المحقق الطبقتين في حاشية واحدة و هذه هي الطريقة السائدة .

- هناك من يضع في الحواشي اختلاف النسخ و يشرح المعاني الغامضة، فيما ينقل التعريفات الموسعة إلى قسم مستدرك في خاتمة الكتاب، و حسب التوحي هذه طريقة

مناسبة لأن العلم قد يمر عدة مرات و لا يمكن شرحه شرحا مكررا فالحاشية ضرورية لشرح الغموض و توضيح الصعب و إلا تكون غير ذات نفع⁶¹.

*على المحقق أن يدرس الإجازات المسجلة على الورقة الأولى إلى جانب العنوان ليبين في المقدمة قيمة النسخة و أهميتها⁶².

* بط أجزاء المخطوط بعضها ببعض⁶³.

- 3- مرحلة الإخراج و النشر :

و يتبع في ذلك ضرورات :

أ* المقدمة : و تشمل :

أ - أدراسة مفصلة عن صاحب المخطوط :

و هذه المرحلة تتطلب أن يكون النص معدا إعدادا جيدا من حيث تنظيم الفقرات و ترقيم الحواشي و استخدام علامات الترقيم و ضبط الألفاظ التي قد تلتبس على القارئ و خاصة أسماء الأشخاص و الأماكن⁶⁴.

و في المقدمة يتحدث المحقق عن الكتاب مبينا أهميته و عدد نسخ المخطوط التي اعتمد عليها و مصادرها و ما فيها من فوارق و ذكر السبب الذي جعل إحداهم أما و البقية تتمات و كذلك ذكر المنهج الذي اتبعه في عمله في التحقيق⁶⁵، مع دراسة مفصلة عن صاحب المخطوط و نشاطه العلمي⁶⁶.

أ-ب- دراسة تحليلية للمخطوط :

يتم في هذه المرحلة مدى قيمة المخطوط العلمية و مرتبته بالنسبة إلى غيره من المصنفات التي ألفت قبله و بعده في الموضوع نفسه⁶⁷.

- وصف دقيق للمخطوط : ويتناول ما يلي :
- ذكر اسم المخطوط و اسم مؤلفه كما هو في المخطوط .
 - ذكر أسماء النسخ المعتمدة في التحقيق .
 - ذكر نوع الورق الذي كتب به المخطوط و عدد أوراق المخطوط الأصل وكل نسخة عنه و طولها و عرضها و عدد الأسطر في كل ورقة و الكلمات في كل سطر و ذكر حالة المخطوط ما إذا كانت متآكلة أو غامضة
 - نوع الخط الذي استخدم في المخطوط الأصل و كذلك نسخه .
 - نوع المداد و اختلاف ألوانه .
 - ماهية الشروحات و الإضافات و الحواشي في المخطوط الأصل و نسخه .
 - المختصرات التي استخدمها المؤلفون و الناسخون في نسخهم .
 - المصادر و المراجع التي اعتمد عليها المؤلف ومدى أمانته العلمية ودقته في اقتباس النصوص و الأفكار .
 - الأسباب التي دفعت المحقق اعتماد نسخ دون أخرى كأساس للتحقيق⁶⁸ .
- *ب- تقسيم المخطوط :
- حيث يقسم المخطوط إلى أبواب وفصول و مباحث وتستقى من مضمون الكلام نفسه⁶⁹ .
- *ج- فهارس المخطوط :
- حيث يتم فهرس للمخطوط منها على سبيل الذكر فهرس الموضوعات و فهرس الأعلام و الأماكن و فهرس الآيات و الأحاديث و غيره⁷⁰ .

*د-المصادر و المراجع :

تثبت المصادر و المراجع بقائمة اعتمد عليها المحقق في دراسته ⁷¹.

*5-طبع المخطوط :

في هذه المرحلة يجب أن يتصف العمل بالإتقان و الدقة و الوضوح و التنسيق الكامل .و يستحسن تصوير الورقة الأولى و الأخيرة من المخطوط و جعلها في بداية نص المخطوط المحقق المطبوع و الإشارة إلى ذيل كل ورقة في مكانها من المخطوط المطبوع ⁷²، شرط أن يكون العمل مستوفيا لعلامات الترقيم و منظم الفقرات و الحواشي ⁷³ و أن يتجنب الناشر التعقيدات الطباعية ⁷⁴.

خاتمة :

إن أسلافنا لم يكتفوا بالحفاظ على تراثنا، بل كان لهم الفضل الكبير في الحفاظ على تراث الأمم الأخرى و عملوا على نقله إلى حضارتهم وضاعت أصوله لدى تلك الأمم كتراث الفرس و الهنود و الرومان و الإغريق . إن الذين يشتغلون اليوم بالمخطوطات يستحقون كل تقدير ،يقدمون من طاقاتهم لهذا العلم خدمة للأجيال القادمة.

إن غاية هذا العلم هو تقديم المخطوط صحيحا كما وضعه مؤلفه دون شرحه ،ووضع بعض الدارسين و المجتهدين أسسا لتحقيق المخطوط من جمع نسخه و إخراج النص ثم مرحلة الإخراج و النشر كأسس ضرورية لعملية التحقيق.

ولعله وإن اختلف البعض في نقاط حول تحقيق الكتاب المخطوط فقد اتفقوا حول هذه الأسس كأسس ضرورية يقتدي بها الطالب كما عليه أن يبرز في هذا العمل قيمة المخطوط العلمية ومرتبته بالنسبة إلى غيره من المصنفات التي ألفت قبله وبعده في الموضوع نفسه .
هذه القواعد ينبغي إتباعها في نشر النصوص لا هي تقليد أعمى للمستشرقين و ليس فيها الغموض و فقدان المنهج .

إن عمل التحقيق هو رغبة في إعداد جيل مثقف أصيل يقدر البحث العلمي و يدرك مناهجه و يتحلى بصفات العالم و الأديب.

التهميش:

1. محمد التونجي: المنهاج في تأليف البحوث و تحقيق المخطوطات ، ط1، دار الملاح للطباعة و النشر حلب، 1986، ص15.

2 عابد سليمان المشوخي: نسخ المخطوطات ، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية ، عالم الكتب، الرياض، 1994، ص222.

3 عابد سليمان المشوخي: نسخ المخطوطات ، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية ، عالم الكتب، الرياض، 1994، ص222.

4 نفسه.

5 عبد العزيز محمد مسفر: المخطوط العربي و شيء من قضاياه ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1999، ص81.

6 أمين فؤاد السيد: أمين فؤاد السيد : الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات ، ط1، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1997، ص81.

7 المرجع نفسه ، ص 81، 82 .

- ⁸ نفسه .
- المرجع نفسه، ص 78، 80 .
- ⁹ محمد التونجي: المرجع السابق، ص 16.
- ¹⁰ محمد التونجي: المرجع السابق، ص 16.
- ¹¹ صلاح الدين المنجد: قواعد فهرسة المخطوطات العربية، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1976، ص 9.
- ¹² المرجع السابق، ص 149.
- ¹³ مصطفى مصطفى السيد يوسف: صيانة المخطوطات علما وعملا، ط 1، عالم الكتب، القاهرة، 2002، ص 19.
- ¹⁴ مهدي فضل الله: أصول كتابة البحث و قواعد التحقيق، ط 2، دار الطليعة، بيروت، ص 140.
- ¹⁵ عبد الستار الحلوجي: المخطوط العربي، ط 2، مكتبة مصباح، المملكة العربية السعودية، 1989، ص 273.
- ¹⁶ عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص 273.
- ¹⁷ نفسه .
- ¹⁸ عبد العزيز محمد مسفر: المرجع السابق، ص 67.
- ¹⁹ نفسه .
- ²⁰ نفسه .
- ²¹ محمد التونجي: المرجع السابق، ص 149.
- ²² نفسه .
- ²³ المرجع نفسه، ص 150.
- ²⁴ عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص 274.
- ²⁵ نفسه .

- 26 نفسه .
- 27 المرجع نفسه ،ص276.
- 28 محمد التونجي :المرجع السابق ،ص151.
- 29 عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص152.
- 30 صلاح الدين المنجد:قواعد تحقيق المخطوطات ،ط7،دار الكتاب الجديد ،بيروت،1987،ص15.
- 31 عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص152.
- 32 محمد التونجي : المرجع السابق ،ص180.
- 33 عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص276- عبد العزيز محمد مسفر :المرجع السابق ،ص170.
- صلاح الدين المنجد:قواعد تحقيق المخطوطات ،ص16.- مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص141.-عبد السلام محمد هارون :تحقيق النصوص ونشرها ،ط6،مكتبة الخانجي ،القاهرة ،1995،ص72.
- 34 - مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص141.
- 35 نفسه .
- 36 - عبد العزيز محمد مسفر :المرجع السابق ،ص170.
- صلاح الدين المنجد:قواعد تحقيق المخطوطات ، ص16.
- 37 نفسه.- مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص142.-عبد الستار الحلوجي : المرجع السابق ،ص276.
- 38 مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص142،143.-عبد الستار الحلوجي : المرجع السابق ،ص276.

- 39 النسخة الموثقة : هي النسخة المنقولة حرفيا عن النسخة الأم في حياة المؤلف نفسه و بدرجة الصحة نفسها .
- نقلا عن : مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص 145.
- 40 النسخة المسموعة :هي النسخة المكتوبة في عصر المؤلف ،أقرها العلماء وكتبوا عليها الحواشي .نفسه .
- 41 النسخة السقيمة : هي النسخة التي كتبت بعد عصر المؤلف وليس عليها إجازات -توثيق- و يفضل منها الأقدم فالأقدم . نقلا عن : مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص 145.
- 42 النسخة المعيبة : هي النسخة التي تنقصها أمور هامة كالمقدمة و الورقة الأولى التي تشير الى عنوانها و اسم مؤلفها . المرجع نفسه،ص 146.
- 43 عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص278.-عبد العزيز محمد مسفر :المرجع السابق ،ص171.-مهدي فضل الله : المرجع السابق ،ص146.
- 44 عبدالعزيز محمد مسفر :المرجع السابق ،ص170.
- 45 محمد التونجي : المرجع السابق ،ص184،185،186.
- 46 عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص278.-محمد عبد السلام هارون :المرجع السابق ،ص43.
- 47 عبد العزيز محمد مسفر :المرجع السابق ،ص172.
- 48 - عبد العزيز محمد مسفر :المرجع السابق ،ص173.-عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص279.-محمد عبد السلام هارون :المرجع السابق ،ص46.
- 49 عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص279.-عبد العزيز محمد مسفر :المرجع السابق ،ص173-محمد عبد السلام هارون :المرجع السابق ،ص47.
- 50 -مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص148.-عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص279.-محمد عبد السلام هارون :المرجع السابق ،ص46.
- 51 محمد التونجي : المرجع السابق ،ص180.

- ⁵² تخريج النصوص أي ردها إلى مصادرها مثل الآية القرآنية ترد الى السورة و رقمها و يرد الحديث الى مصدره و غير ذلك .نقلعن عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص279.
- ⁵³ عبد العزيز محمد مسفر : المرجع السابق ،ص173. - عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص279،280.
- ⁵⁴ عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص280.
- ⁵⁵ نفسه. - عبد العزيز محمد مسفر : المرجع السابق ،ص173.
- ⁵⁶ محمد التونجي : المرجع السابق ،ص181.
- ⁵⁷ نفسه.
- ⁵⁸ عبد العزيز محمد مسفر : المرجع السابق ،ص173.
- ⁵⁹ محمد عبد السلام هارون :المرجع السابق ،ص87.
- ⁶⁰ نفسه .
- ⁶¹ محمد التونجي :المرجع السابق ،ص188.
- ⁶² المرجع نفسه :ص182.
- ⁶³ عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص280.
- ⁶⁴ محمد التونجي : المرجع السابق ،ص182.
- ⁶⁵ مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص152،153.
- عبد العزيز محمد مسفر : المرجع السابق ،ص173
- ⁶⁶ نفسه .
- ⁶⁷ نفسه .
- ⁶⁸ - عبد العزيز محمد مسفر : المرجع السابق ،ص174. - مهدي فضل الله :المرجع السابق ،ص154،155. -عبد الستار الحلوجي :المرجع السابق ،ص280. -محمد عبد السلام هارون :المرجع السابق ،ص84.

⁶⁹ - مهدي فضل الله: المرجع السابق، ص155. - عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص280

⁷⁰ - مهدي فضل الله: المرجع السابق، ص155. - عبد العزيز محمد مسفر: المرجع السابق

ص174. - محمد عبد السلام هارون: المرجع السابق، ص92. - عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص280

⁷¹ نفسه .

⁷² - عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص280

⁷² - مهدي فضل الله: المرجع السابق، ص155. - عبد العزيز محمد مسفر: المرجع السابق، ص174.

⁷³ محمد عبد السلام هارون: المرجع السابق، ص85.

⁷⁴ يقصد صاحبها مشكلة الرموز وتعقيد الأرقام و هذا يخرج للقارئ عن تفهم النص نقلا عن المرجع نفسه، ص89.

العقيدة الأشعرية .. مرجعية فكرية.

- الحضور في فكر وذهنية إنسان المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط -
 أ/ نذير برزاق - قسم التاريخ - جامعة محمد بوضياف المسيلة
 أ/ خلفات مفتاح - قسم التاريخ - جامعة محمد بوضياف المسيلة

الملخص:

حظيت العقيدة الأشعرية باهتمام مجتمع المغرب الأوسط وجعلوها اختيارهم العقدي بجانب الفقه المالكي والطريقة الجنيديّة في التصوف، حيث انعكست في تفكيرهم بفضل شخصية الإمام الغزالي (ت 505هـ) في البداية، ثم شهدت مرحلة إبداعية تجديدية تكفل بها محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ) حين صاغ مؤلفات عقديّة مع شروح تفصيلية لها بُغية إرساء المجتمع على ساحل الأمان العقدي ورفع الغشاوة عن القلائق العقديّة وبسط السكينة المعرفية في فكرهم.

كما سعينا لانتقاء بعض الأفكار التي تخص هذه العقيدة وتُعدّ بنودا فيها تعكس حقيقة الانتماء إلى هذا الفكر، ولعلّ الأتمودج الذي قدّمنا عنه إضاءات خافتة عن فكره وطرحه عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ).

الكلمات المفتاحية: العقيدة الأشعرية- المغرب الأوسط- الإمام أبو حامد الغزالي- الإمام محمد بن يوسف السنوسي- عبد الرحمن ابن خلدون.

Summary :

The dogma of « Al-Achariya » was of great importance to the community of the Middle Maghreb to the point that it was their preferred belief beside their « fiqh Al Maliky » and behaviour of « junidy » in the soufisme.

At first, this dogma was reflected in the thinking via the personality of Al Ghazali (died 505 H) . Then, Mohamed Ben Youcef Al Sanoussi (died 895H) renovated this dogma by the books he published. He was aiming at securing the dogma of the community.

I did my best to select they ideas witch illustrate the principles of the Achariya dogma.

Ibn khaldoun was one of the modales witch adopted the ideas of this dogma.

Keyword: Achaariya dogma – Middle Maghreb- Al Ghazali- Al Sanoussi- Ibn khaldoun.

مقدمة:

عدت العقيدة الأشعرية إحدى ثوابت المرجعية الفكرية التي تبناها مجتمع المغرب الأوسط، وجعلوها بمثابة المأوى العقدي في سبيل الوعي المعرفي لأفكارهم وسلوكياتهم، ولعل الزوبعة التومرتية أحدثت نقلة نوعية في فكر مجتمع المغرب الإسلامي وامتد تأثيرها إلى مابعد الموحدين أين تبوأ العقيدة الأشعرية مكانة مرموقة، وأضحت مشجبا للخاصة والعامّة إلى جانب المذهب المالكي والطريقة الجنيديّة.

ولعل الحدث السنوسي هو الذي أعاد إحيائها وبثها حين مكّنها في فكر المجتمع بتأليفه التي صاغها على منوال الرؤية الأشعرية مراعيًا مستويات الفهم؛ فأعطى بذلك نَفْسًا جديدًا للعقيدة ووقف عند الهواجس والحواجز التي ظلّت تُورق المجتمع وتؤلّد لهم مساحات غير آمنة عقديا بداخلهم، فأحكم الطوق على إحدى مقومات تركيبة المنظومة

الفكرية وساهم في تقديم إضاءات وإيضاحات بسطت سكينه معرفية لجعلها مرجعية ثابتة مستمرة في أداء الوظيفة التاريخية.

- ما دواعي تبني مجتمع المغرب الأوسط للعقيدة الأشعرية؟
 - فيما تتجلى البصمة السنوسية في الإبدال العقدي الأشعري؟
- 1- العقيدة الأشعرية .. الأسس الفكرية:

تعددت المذاهب والآراء والمعتقدات وظهرت نحل في ملل، كل يعلو بصوته ويدلو بدلوه في الذب عن العقيدة باعتبارها أس المجتمعات، فصلاح المعتقد استقامة للحياة والسلوك وفساد المعتقد ترهل للوجود والقيم، ولعل أبرز معتقد ظهر في الفكر الإسلامي بعد مخاض عسير العقيدة الأشعرية المُنظَّر لها من قبل أبي الحسن الأشعري¹.

هذا الأخير استطاع تأسيس مذهب كلامي جديد يجعل من النص الشرعي منطلقا ويعضده بالأدلة العقلية والبرهانية، أين نصَّر مذاهب السلف بمناهج الاعتزال²، وتجلت ثمرة مراحل السابقة الانتمائية في صناعة مرحلة ائتمانية للفكر العقدي لإنسان العصر الوسيط وما بعده، فكان نتاج تطور مذهب أهل السنة والجماعة، حيث انتقل من مرحلة تجنب الخوض في دقائق علم العقيدة كالذات الإلهية إلى مرحلة الدفاع عن العقيدة الصحيحة بالأدلة والبراهين التي تناسب طبيعة التحدي العقدي والفكري في المجتمعات الإسلامية³.

فاستطاع الانفراد بمعتقد جديد قعده وسننه وأسس بذلك لنحلة ظلت محل قبول ورفض وتباين آراء حول مؤسسها ومن بعده وانتقاد لأفكار وأشخاص⁴.

2- الأشعرية في معتقد إنسان ما بعد الموحدين :

سمة الأشعرية على طول خط حضورها التاريخي استطاعت أن تساهم في التمكين للمعتقد القويم، وذلك بالدفاع والجدال والسجال والحجاج عن الثوابت والمبادئ

الرئيسية للمعتقدات الإسلامية في مجابهة تحديات الملل والأهواء والنحل المخالفة لها منهاجاً ورؤية في مجال أوسع امتد إلى فكر الآخر المناقض لها.

وما تتميز به هو ذلك النسق العقدي الذي تتحرك فيه بدقة لا متناهية من الانسجام بين جوانبه وجزئياته وفي إطار دقائق مفاهيمه الذي تحكمه رؤية منهجية معينة⁵، ووسطيته الفكرية المتجلية في الأخذ بأدلة العقل إلى جانب الأخذ بأدلة النقل من غير تعسف ولا تطرف، فكان بحق ممثلاً لمذهب أهل السنة والجماعة⁶.

فجاء اختيار المغاربة لها للدلالة على عمق الانتماء الحضاري إلى الأمة الإسلامية وحرصهم على وحدتها العقائدية⁷؛ لأن لكل أمة منظومتها العقدية الفكرية في الأصول والفروع والمناهج والمسالك⁸، فولّد روابط وتداخلا بين المجال المغربي الإسلامي – والمقدس الإسلامي – العقيدة الأشعرية، واحتضن كل واحد الآخر أين ساهمت العقيدة في هندسة المجال وساهم المجال في احتواء الفكر⁹.

إلا أن تحولات فكرية وسياسية في القرنين الرابع والخامس الهجريين جعلته يتجاوز وضعه كمذهب كلامي ويتحول إلى قضية ذات أبعاد ثقافية وسياسية محورية في مذاهب أهل السنة وخاصة في علاقتها بكل من التشيع والاعتزال.

كما تُعدّ العقيدة الأشعرية عنوان لتوجه عقدي ومذهب كلامي جديد وتجديدي ولد من رحم أزمة التوسع والتكاثر العقائدي، أين كانت الساحة آنذاك مَرَجَلاً تغلي بالمذاهب والعقائد، والمرحلة التاريخية آنذاك على صفيح ساخن من التطرف والغلو الفكري، فالبينة الحضارية والفكرية والنفسية كانت مشجعة ومواتية للظهور ومقارعة النحل الأخرى.

- ما الظروف المؤثرة في التمكين للعقيدة الأشعرية بتبوء مكانة بالمغرب

الإسلامي؟

تبنى مجتمع المغرب الإسلامي للعقيدة الأشعرية كان عن قناعة ترسّخت بعد طول أمد، وتمثل عندهم قاعدة حياة لمعتقدتهم¹⁰، فكانت بحق مرجعية فكرانية لعقيدتهم وبنوا مسائلهم على مقاسها وواكبوا مستجداتها المتجددة بتجدد الزمان والمكان وتغير الأحوال والمقتضيات¹¹.

لكن الحركة الانتقالية للعقيدة الأشعرية إلى المغرب الإسلامي كانت في وقت مبكر، وشهدت ذيوعا وصيتا من خلال التأثير الكبير والعميق لأفكار وطروحات الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ / 1111 م) بالتزامن مع حملة المرابطين عليه مما ولد نتيجة عكسية بجدلية القمع والإقناع، وظهرت بعده شخصيات مغاربية مؤثرة مشبعة بفكر الغزالي وحاملة لتجربته الصوفية الممزوجة بعقيدته الأشعرية على غرار أبي بكر العربي المعافري وابن تومرت وأبي مدين شعيب¹²، وكانت تتمتع هذه الكوكبة بمركزية التأثير في ذهنية وفكر وسلوك مجتمع المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا.

إضافة إلى تلك الثلة من العلماء وجهودها الفردية وهمومها الجماعية كذلك ساهم فرد العامة في تقبل المعتقد الأشعري والتمسك به والحفاظ عليه؛ فكان مأواه العقدي وملاذه الفكري حتى بالمجتمع القبلي، فلَمَّت العقيدة شمل المجتمع الحضري والقبلي تحت عباءة معتقد واحد وهو الأشعرية؛ فدانت مجموع القبائل بالعقيدة الأشعرية وهي - بدورها - تقوّت عن طريق مفهوم اعتناق القبيلة لمعتقد مشترك¹³.

إضافة إلى جملة من الدواعي رَغِبَتْ خاصة وعامة المغرب الإسلامي في اعتناق العقيدة الأشعرية لعله أنها عقيدة التوحيد، بالإضافة إلى أنها تمثل منهج الوسطية والاعتدال، وانتماء عدد كبير من العلماء لها باعتبارها الوحيدة التي جمعت بين المالكي والشافعي والحنبلي¹⁴.

والتزام مجتمع المغرب الإسلامي بهذه المنظومة الفكرية العقيدية والسير على نهجها بجدلية الائتلاف والاختلاف بالتعاون والإثراء لِمَا اتفقوا عليه وإعذار بعضهم البعض فيما

اختلفوا فيه، حيث اختلفوا في بعض التفاصيل إما لبائين في التصور نتيجة التطور أو بداعي اختلاف العوارض والأحوال والأفكار والتصورات لأنها قابلة للتغيير بتغيير الزمان والمكان والأحوال¹⁵.

وما يجب التأكيد عليه هو أن الانخراط الفكري في المعتقد الأشعري كان مميزة الخصوصية ومراعاة الأحوال، فالناظر في تأليف العلماء للدرس العقدي بنظرة اجترار كلام السلف من المشاركة واهم ومتخيل¹⁶؛ لأن خاصة المغرب الإسلامي كانوا مواكبين لسياقات التحولات والتغيرات ومراعاة الاختلاف، فكانوا في جدلية انتماء للإطار العام واثمان لواقعهم وحالهم، فأبدعوا في التصنيف والطرح بمراعاة الخصوصية الذاتية في سياق الخِصِّصَة الجماعية.

كما أن ثبات المغاربة على عقيدة أبي الحسن الأشعري لِمَا لها من علاقة متينة مع الفقه المالكي، فالكتب الفقهية التي كانت تُدرَّسُ انتماء أصحابها إلى العقيدة الأشعرية كأبي زيد القيرواني وابن الحاجب وابن عاشر¹⁷، فانضادت خصوصية التكتل بين العقيدة والفقه إلى خصوصية الإبداع، وأضحت بهذا العقيدة الأشعرية قاعدة حيوية فكرانية ارتكازية لضبط المرجعية وذهنية وعقلية وثوابت إنسان المغرب الإسلامي.

كما استمرت الأشعرية في رحلة البحث عن التمكين لمعتقداتها وقطعت مسافات معرفية لأداء وظيفة تاريخية تضمن الاستمرارية لوجودها وإيجاد مكانة ضمن البناء الفكري لمرجعية إنسان المجال هذا، ولعل الخطب العشواء لواقعها زمن المرابطين عُوض بنسج خيوط جديدة لأفكارها عصر الموحدين محولين إيجاد مصوغ معرفي لها تحت سماء النظام الفكري، إلا أن حالة من الاستقرار العقدي ظهرت ملامحه خلال فترة الموحدين ستنعكس على ما بعدهم بتمهيدهم لسبل التمكين لهذا المعتقد في نفوس إنسان ما بعد الموحدين.

حيث استطاعت المرجعية العقدية الأشعرية أن تكون - مع أفول نجم الموحدين - منظومة مميزة لها مقومات معرفية مخصوصة من حيث آليات إنتاجها المعرفي والمعرفة التي

تكرسها¹⁸، ولعل ما يبرز ذلك التأثير الموحي وتداعياته على الفترة ما بعده أن عرف ق 14/هـ 8م تطورا في العلوم والآداب وبالأخص في العلوم الدينية بفضل الإصلاح الموحي في بلاد المغرب أين انعكس بشكل لافت على انتشار كتب الأشاعرة خاصة كتب الغزالي وظهر الاهتمام بها دراسة وتدرسا¹⁹، وتغيرت المعالم من قديمة إلى جديدة أين خرجت العلوم الدينية من طور مناظرة الرأي والعقل وانتقلت إلى طور عقائدي أكثر توازنا واعتدالا²⁰.

بل امتدت سهام الإصلاح الموحي إلى غاية ق 9/هـ 15م حينما عرفت وشهدت تحولات عقائدية كانت من تداعيات الفترة الموحدية وظهر الاتجاه نحو القناعة العلمية والرضا بالقليل من الفقه والمعرفة والتغاضي عن العلوم العقلية والعلمية وتفضيل علوم الدين والتصوف والفروع الفقهية على علوم الطب والهندسة، فما أشبه حال ق 9/هـ 15م بحال العصر الموحي²¹.

لكن العقيدة الأشعرية ظلت صامدة التمكين وصامدة التغلغل، استطاعت فرض سيادتها على ذهنية ومعتقد إنسان ما بعد الموحدين وانتشرت زمن الحفصيين والزيايين والمرينيين، فقد اعتمدت الدولة الحفصية في المجال العقدي على التأويل كما يذهب إلى ذلك الأشاعرة، كما ظلت الأشعرية سائدة في المغرب الأوسط وبرعاية سلاطين بني زيان لكنهم نقحوها مما شأها من أفكار كالعصمة والمهدوية والإمامة²².

على الرغم من بسط نفوذها خلال القرن التاسع الهجري إلا أن مرحلة ق 6-8/هـ 12-14م مثّلت قمة الهرم في تطور العقيدة الأشعرية بالمغرب الإسلامي حين أبانت كتابات أقطاب الفكر الأشعري عن مستوى رفيع في المناقشة والتحليل والشرح ظلت إلى فترة متأخرة مرجعية أساسية وسندا لعلم الكلام الأشعري فيما بعد²³.

3- البديل الفكري العقدي بالمغرب الأوسط:

كل مرحلة زمنية لها خصائصها التاريخية والفكرية بالأخص، ويظل الإنسان دائما ينشد الحقيقة والصواب في معتقده وسلوكه ويتعطش لسبر أغوار أفكار جديدة عليها ملاذه الفكري.

بدأ التأليف لدى العلماء في مختلف موضوعات العلم كان موضوع العقيدة يأخذ الصدارة في أول أبحاثهم مع اختلاف وتباين مدارس ومناهج وأساليب التصنيف، مما يعد أحد أهم أسباب إثراء روافد البحث فيها بحيث يتناولها كل من زاويته ونظراته الخاصة بمناهج متعددة تدل على اتساع الأفق المعرفي لهذه الكوكبة المبدعة الفذة.²⁴

ولا يخفى على أحد جهودهم في خدمة العقيدة الأشعرية أين تجسد ذلك في المصنفات الكثيرة المتنوعة الجامعة ما بين نشر وشعر وشرح وتلخيص مراعية أصناف المتلقين ومسايرة لمستوياتهم العلمية والفكرية وقدرتهم على فهم الخطاب الخاص بهذه العقيدة²⁵، فصَبَّ الاهتمام بالعقيدة الأشعرية يقينا منهم أنها السلاح العاصم من الفرق الضالة؛ ما جعل بعض المتون العقدية إلزامية في التعليم تلخيصية للعقيدة الأشعرية بأسلوب يستوعبه الخاصة والعامة وأبرز هذه المتون: " أم البراهين " للإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ) التي استطاعت أن تحقق مقاصد جليلة ليس فقط على مستوى تعريف الناس بأشعريتهم تعريفا صحيحا بل أيضا على مستوى تصنيفهم بما يهدد عقيدتهم²⁶.

للعلم أنه قبل ظهور عقائد السنوسي على الساحة الفكرية، التزم مجتمع المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا بأصول " العقيدة البرهانية في علم الألوهية " لأبي عمرو عثمان السلاجي (ت574هـ)؛ حيث بسطت هيمنتها وأضحت مصدرا للمرجعية العقدية الأشعرية، أين ظلت تُدرَّس في المدارس والجوامع لأنها العقيدة الرسمية للمجال إلى غاية ق9/15م²⁷، وكانت ضرورية لعامة المتلقين نظرا لبساطتها ولتمثيلها

لمجموع المعتقد الأشعري في صفائه ونقاوته، فأضحى بهذا السلاجلي لبنة من إسهامات مفكري الأشاعرة الأوائل في ترسيم المعتقد الأشعري في أوساط المغرب الإسلامي²⁸.

لكن إبدال فكري عقدي في المنهج طراً مع الحفاظ الرؤية: يا ترى صوت ونداء من تعالى؟

بعد السلاجلي (ت574هـ) دخلت العقيدة الأشعرية طوراً جديداً تمثل في ظهور فكر أشعري يتميز بالتوسع في التحليل ومناقشة الجزئيات والوقوف عند دقائق الأمور فاسحا المجال لظهور مؤلفات عقديّة غزيرة المادة كبيرة الحجم وظهرت فنن منهجي وطرق جديدة في عرض الأفكار²⁹، هذه المرحلة هي تلك التي دشنها المفكر التلمساني أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ) بعقائده المتعددة - لجميع فئات المجتمع: الكبرى والوسطى والصغرى والمفيدة والحفيدة مع الشروح لها - التي صبغت الساحة العقديّة، فطوّر أفكاره داخل العقيدة الواحدة وهي الأشعرية، واجتهد في إطارها ولم ينفصل عنها فكانت الرؤية مشتركة موحدة والمنهج متباين ومختلف، فَتَحَت السنوسي لوحة عقائدية جديدة في العقيدة الأشعرية ظلت لأمد طويل مرجعية ثابتة في المعتقد.

عناية بالغة حظي بها الدرس العقدي منذ تلك النقلة السنوسية، وأعلن عن تجلية معاني العقيدة السنية الأشعرية وتقريبها للناس بأسلوب ميسر لا ينفك في أصوله ومستنداته عن الارتباط بأبرز مصادر المعرفة الكتاب والسنة والارتكاز على عقول وأفهام العلماء³⁰، أين ساهموا في ترسيخها خاصة بالمغرب الأوسط، بل عُدَّت الوحيدة من حيث التأليف والتعليم³¹، وستدخل مرحلة جديدة تميزت بالتراكم المعرفي الكبير في المؤلفات العقديّة تجعل من المرحلة توصف بـ: المرحلة السنوسية³²؛ التي تمثلها مصنفات الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت895هـ)، متمما المراحل السابقة لحضورها بدءاً من التمثيل الفردي للعقيدة الأشعرية ثم التكريس الموحد لها كعقيدة رسمية وتليها مرحلته³³.

فكان الإبداع والتجديد من المغرب الأوسط بفضل السنوسي الذي استطاع بتفتق عقله أن يجيب من خلال مؤلفاته عن كثير من القضايا التي تهم الجانب العقدي وأن يرسخ العقيدة الأشعرية في فكر إنسان المغرب الإسلامي ويبعث فيه حياة جديدة بضخ دماء جديدة لتواصل العقيدة سيرتها وتمارس هيمنتها على الرغم من المعارضة الشديدة من قبل أحد معاصريه وهو أبو العباس أحمد بن زكريا التلمساني (ت899هـ) بسبب مسألة إيمان المقلد ورؤية المعدوم³⁴.

وغير ذلك من القضايا الجديدة التي تناولها ودشن بها السنوسي مرحلته على غرار محاربة التقليد وإحياء الاجتهاد في علوم النظر بعد ظهور الفساد في عقائد الطلبة والفقهاء أين أوجب على الجميع تحصيل العلوم من طريقها المؤلف وهو الاجتهاد والتعلم من العلماء والتزام التعب في الدرس والرحلة في طلب الفوائد³⁵.

بهذا وغيرها استطاع السنوسي تأسيس مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الأشعري بالمغرب الإسلامي وتكون فيها عقائده المرجع والسند لمن بعده³⁶.

4- تجليات المعتقد الأشعري .. أفكار وأشخاص:

تبّيت هذه العقيدة تظهر ملامحها من ناحية الأفكار؛ فالأشاعرة يتنزلون بين طريقتين طريقة المتقدمين وطريقة المتأخرين، حيث يعتبر الغزالي وكذا الرازي من بعده أول من كتب على طريقة المتأخرين³⁷، والعلامة المميزة بينهما هي قول المتقدمين بطلان المدلول لبطلان الدليل وعلى العكس من ذلك يرى المتأخرون أنه ليس من بطلان المدلول بطلان دليله³⁸.

كما يتنزل الناس في النظام المعرفي الأشعري إلى خاصة وعامة بمعيار المعرفة، لكن بحقوق وواجبات لكل طرف مع التركيز على مبدأ العمل المقرون بالعلم، فلا مكان لعلم لا ينتج عنه عمل ولا معنى للعمل لدى الخاصة في المنظومة الأشعرية إن لم يكن متصلا بشؤون المدينة ولم يكن متعلقا بطرق عدة بأمور العامة وسبل نجاحها³⁹، لأن خطاب

العمل عند الأشعرية يمكّن الباحث مما لا يمكّنه من خطاب النظر والمعرفة وحدها لأنها تُظهر التناقض بين واقع الممارسة النظرية عند المفكر الأشعري وبين ما يعلنه من قول وقصد، فخطابها خطاب تشريع عملي لأحكام الممارسة وشروطها وقوانينها⁴⁰.

ومن التحليلات البارزة في المعتقد الأشعري في الجانب السياسي، البند الذي يوجب السمع والطاعة لأئمة المسلمين⁴¹، وهذه إحدى صور الرضوخ الأشعري للواقع الالتزام بطاعة أولي الأمر حتى وإن أسأؤوا⁴².

بالإضافة إلى الثابت الأشعري وهو نبد التقليد وإيجاب النظر العقلي في العقائد على العموم وتعميم المعرفة الكلامية على مجموع أفراد المجتمع عامتهم وخاصتهم واعتبار ذلك شرطا أساسيا في الإيمان⁴³.

ومن أبرز العلماء الذين صبغت حياتهم الفكرية بالعقيدة الأشعرية عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1405م)؛ فهو يجول بتفكيره في سائر العلوم والمسائل المتعلقة بها داخل المدار الفكري السني الأشعري، ولم يخرج عن المنظومة الأشعرية في شكلها النمطي عند النظر إلى سائر المجالات التي كتب فيها⁴⁴، ففي شخصيته العلمية ما يجمع التراث الإسلامي بتعدد مذاهبه مهما كانت إلا أن النزعة الأشعرية هي الغالبة وقد يكون لمذهب ابن تومرت الأثر غير المباشر⁴⁵، وتفكيره لم يكن يخرج عن المرجعية الأشعرية أو تجاوزها، بل كان مؤطرا بها منتجا في حدودها المعرفية والمنهجية، لذلك جاءت مقارباته النقدية في سائر الحقول المعرفية ترجمة عنها⁴⁶، ورؤيته الصادرة عن التراث الأشعري تجلت في إبطاله الفلسفة ومنتحليها ورفض آراء الفلاسفة والمتكلمين ذوو التوجه غير الأشعري، فمضمون نظرية ابن خلدون مضمون نظري أشعري فهو يؤمن بعالمين: محسوس وروحاني⁴⁷، فتميز ابن خلدون بالشمولية واتساع التغطية والقدرة على توظيف آليات الفكر السني الأشعري في اتجاه الارتقاء بها إلى درجة التحكم الكلي في عمليات الإنتاج المعرفي سواء ما تعلق بال عمران أو بفهم الوجود⁴⁸.

لذا انتصار ابن خلدون للأشعرية مشهور إذ يعتبرهم من أهل السنة، ولهذا البعد العقدي انعكاساته على البعد الموضوعي في العرض التاريخي، فنراه يهمل ذكر المعتزلة في فصل علم الكلام في نشأة هذا العلم وتسميته وتطوره مما يجعل من لا دراية له بتاريخ هذا الفن يتوهم أن علم الكلام بدأ من الأشعري⁴⁹، لكن أشعرية ابن خلدون كانت - في مرحلة الانحطاط والجمود - ضربا من بعث الحركة داخل الفكر السني بإعادة توظيف آلياته حتى يتمكن من الاستمرار⁵⁰.

فما ابن خلدون إلا أنموذج من متبني العقيدة الأشعرية بالمغرب الإسلامي وترجم ذلك في تأليفه وآرائه وفي صناعة أفكاره ورسم عمران مجتمعه وذهنيتهم وسلوكهم.

خاتمة:

الباحث المنقب فيما أنتجته النخبة ما بين العصر الموحدى إلى المرحلة السنوسية، يجد أن معالم المعتقد الأشعري عرف جدلية الرج والرواج في الأفكار والتأليف، إلا أنها شكّلت في نهاية الأمر ثابتا من ثوابت مجتمع المغرب الأوسط ومكونا من مكونات هويته الدينية ومعلما من معالمه الثقافية والحضارية ومرجعا فكريا لمعتقده.

ولم يكن حضورها وتغلغلها عشوائيا في تراث هذا المجال، بل كان وجودها ضرورة مقاصدية، مما جعلها مقوما من مقوماته الفكرية وثابتا في الثلاثية المرجعية ولبنة في شبكة المنظومة التي عبر عنها عبد الواحد بن عاشر (ت1040هـ) في منظومته⁵¹:

في عقد الأشعري وفقه مالك
وفي طريقة الجنيد السالك.

الهوامش:

1- أظنت المصادر وبالأخص كتب التراجم في التطرق لترجمة شخصية أبي الحسن الأشعري وتصانيفه، فكفتنا المصادر هذه مؤونة إعادة تدوين ترجمة تذكيرية للشخصية وما يهمننا هو الإفصاح وإعادة التوضيح بما له علاقة بسياق العنصر والظروف التاريخية المنتجة لهذا المعتقد، فيكفينا التلميح

إلى أن أبا الحسن الأشعري كان معتزليا ثم أعلن اعتزاله الاعتزال وتأسيس عقيدة جديدة هي العقيدة الأشعرية التي لا زالت ثابتا عقديا إلى اليوم مشرقا ومغربا.

2- خالد زهري، " مستويات الإبداع في علم الكلام الأشعري عند المغاربة "، ضمن كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري، لمجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البختي، دار أبي رقرق، ط1، الرباط، 2012، ص67.

3- محمد الأمين بوحلوفة و بوركية محمد، "السلطة و قبائل البربر و إسهامها في حفظ الفكر الأشعري في المغرب الأوسط"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع27، الجزائر، 2015، ص256-257.

4- تباينت وجهات العلماء في الحكم على المعتقد الأشعري بين قابل لآرائه ودلائله ومواضيعه وبين رافض لمضمونه ورؤيته ومنهجه، وقد رصدت المصادر هذه الجدلية بين الولاء والبراء للمعتقد الأشعري.

5- عبد الخالق أحمدون، " عناية المغاربة بالعقيدة الأشعرية "، مجلة التاريخ العربي، ع51، المغرب، 2010، ص276.

6- محمد الكتاني، جدل العقل و النقل في مناهج التفكير الإسلامي في القديم و الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1992، 169/2.

7- عبد الله معصر، تقرب المذهب و العقيدة و السلوك، دار أبي رقرق، الرباط، 2012، ص90.

اختيار المغاربة للثابت العقدي الأشعري جاء بعد أمد طويل من المراحل التي سبقت حضوره وتمكنه في عقولهم وإرضاءه لأنفسهم معتقد مرجعي يستندون إليه في عقائدهم الإيمانية، لكن الباحث محمد الكتاني اعتبر جمود المسلمين على المذاهب الاعتقادية كالأشعرية قد أضر بهم أكثر مما أضر بهم الجمود في الفقه، ولقبول هذا أو رفض هذا الطرح يتطلب مزيد تنقيب عن حجم الضرر الذي لحقه الجمود على ذهنية إنسان المغرب الإسلامي بالخصوص ضمن السياق العام للضرر العقدي للمجتمع الإسلامي عموما حسب. محمد الكتاني، المرجع السابق، 185/2.

8- محمد الادريسي التسماني: " العقيدة الأشعرية مادة في التعليم و التربية- الواقع و الآفاق-"، ضمن كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري، لمجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البختي، دار أبي رقرق، ط1، الرباط، 2012، ص33.

9- يتداول داخل المنظومة العقدية مصطلح مجالي وهو الدار باعتباره يحوي عناصر قدسية ولما تحتضن من عناصر الوحدة والتوحيد، وبهذا جاء ذكر هذا المجال في محتوى هذه المنظومة نظرا

- للخصوصيات التي يحملها وكذا الإمكانية في تشخيص الخصائص الجوهرية للمنظومة العقائدية. نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2005، ص33.
- 10- لا تعد العقيدة الأشعرية لوحدها ركيزة قاعدة فكر مجتمع المغرب الإسلامي، إنما هناك ركائز أخرى وسواكن معرفية إضافية استند إليها المجتمع لصناعة منظومة فكرية تحصينية لفكرهم وسلوكهم، وهما: المذهب الفقهي المالكي والسلوك الصوفي الجنيدي.
- 11- خالد زهري، الفقه المالكي و الكلام الأشعري - محاولة لإبراز بعض ملامح الإبداع الكلامي و الصوفي عند فقهاء المغرب -، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2011، ص31.
- 12- ساعد خميسي، " موقف ابن خلدون من علمي الكلام و التصوف"، ضمن كتاب: ابن خلدون و منابع الحداثة، ج2، المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون، قرطاج، 2008، ص 108-109. هناك شذرات تاريخية تعطي ملمحا عاما على وقت دخول الأشعرية للمغرب الإسلامي قبل ق 6هـ/12م تؤكد على وجودها قبل هذا بفضل عائد الصلات والرحلات العلمية بين المشرق والمغرب وترصد انتقال المضامين والمؤثرات والمصادر، ولمزيد اطلاع. انظر إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب - دخولها، رجالها، تطورها، وموقف الناس منها -، دار قرطبة، الجزائر، 2006، ص 05. محمد المغراوي، " تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي"، ضمن كتاب: " التاريخ و الفقه"، تنسيق: محمد حجي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص134.
- 13- خاصة إذا تحدثنا عن دور القبيلة والفرد فيها أين يمنع من استقلالية الشخصية في التسيير فهو تحت طاعة الجماعة التي تحدد له معتقده، ومن هذه الفكرة انطلقت رحلة المحافظة على العقيدة الأشعرية بالمغرب الأوسط. بوحلوفة، المرجع السابق، ص262.
- 14- عبد الله معصر، المرجع السابق، ص 90 - 91. في عدّ هذا السبب الأخير من دواعي تبني أهل المغرب الإسلامي للعقيدة الأشعرية انخراط كوكبة من العلماء فيها من مختلف المذاهب، حُقّق لنا أن نتساءل عن سر غياب الحنفية في سياق الذكر للمذاهب الأخرى وعن مكنن خلل التقارب بين الأشعرية والحنفية، ولعل العلة تعود إلى مجال الانتشار؛ أين نجد الحنفية منتشرة ومتداولة في فضاء طغى عليه الاعتزال والتشيع بعكس المذاهب الأخرى التي انشطرت مفعولها في مناطق تتميز بسلامة المعتقد وكانت أقرب إلى الأشعرية والتحالف معها والالتحاق برذاتها.

- 15- محمد الادريسي التسماني، " العقيدة الأشعرية مادة في التعليم و التربية- الواقع و الآفاق-"، ضمن كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري، لمجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البخيتي، دار أبي رقرق، ط1، الرباط، 2012، ص37.
- 16- يوسف احناة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، ط2، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، 2007، ص186. اجتهد وأبدع علماء المغرب الأوسط في الجانب العقدي درسا وتأليفا، وما يؤكد هذا التداول والانفتاح والانتشار لمصنفاتهم وآرائهم أفقيا وعموديا في الحركة التاريخية زمانا ومكانا خاصة تأليف رائد التصنيف الإبداعي الفكري العقدي محمد بن يوسف السنوسي (ت895 هـ).
- 17- عبد القادر باحي، الإمام المغيلي- عصره وحياته دراسة تاريخية تحليلية وثوقيقية -، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2012، ص93.
- 18- ناحية الوريحي بوعجيلة، "المرجعية الأشعرية في تفكير ابن خلدون"، ضمن كتاب: مرجعيات ابن خلدون ومصادر تفكيره، المعهد العالي للغات، تونس، 2007، ص359.
- 19- محمد بوشقيف، "تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال ق8-9هـ/14-15م"، رسالة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم التاريخ، تلمسان، 2011، ص20-21.
- 20- عبد الحميد حاجيات، "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بن زيان"، مجلة الأصالة، ع26، الجزائر، 1975، ص139.
- 21- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، 129/1.
- 22- نبيل شريحي، "دور علماء تلمسان في الحياة السياسية و الاجتماعية و العلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 8-9هـ/14-15م"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ والجغرافيا، الجزائر، 2010، ص36. من النماذج جدال الإمام السيوطي ابن زكري التلمساني في مسألة وقضية الإمامة . سعيد البوسكلاوي، "الجدل الكلامي في عصر ابن خلدون"، ضمن كتاب الأبنية الفكرية في المغرب الإسلامي زمن ابن خلدون، لمجموعة باحثين، تنسيق: بناصر البعزاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007، ص141. كما عمل بنو زيان على تنقيح الموروث الموحدوي ومراجعات على مضمون معلمهم القديمة فقضوا على خرافة العصمة والمهدوية والإمامية ونقحت في

- عهودهم العقيدة الأشعرية مما شأها من أفكار تليفقية من المعتزلة والشيعة. عبد العزيز فيلاي، بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2014، ص 98.
- 23- عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص 291.
- 24- التسماني، المرجع السابق، ص 39.
- 25- أحمد عبادي، "مقدمة كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري"، لمجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البختي، دار أبي رزاق، ط 1، الرباط، 2012، ص 05. مراعاة أصناف المتلقين سمة بارزة في تأليف محمد بن يوسف السنوسي العقيدية حيث استطاع تصنيف عقائد لجميع فئات تراتبية المجتمع بتسهيل وتبسيط العبارات والتخفيف من المضامين.
- 26- خالد زهري، المرجع السابق، ص 173. تبوأ متن " أم البراهين " منزلة هامة عند مجتمع المغرب الأوسط والمغرب الإسلامي عموما نظرا لمنهجية الطرح والمسائل المتناولة فيها وشموليتها ورؤيتها الأشعرية الدقيقة واستطاعت فرض وجودها في مجال الدرس عبر مختلف المجالات الجغرافية.
- 27- يوسف احنانة، المرجع السابق، ص 140.
- 28- المرجع السابق، ص 151.
- 29- عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص 289.
- 30- أحمد عبادي، المرجع السابق، ص 05.
- 31- محمد بوشقيف، المرجع السابق، ص 362.
- 32- عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص 292. يوسف احنانة، المرجع السابق، ص 114.
- 33- يرى الباحث عبد الله معصر أن المرحلة السنوسية تمثل نوعا من التراجع في علم الكلام الأشعري على مستوى المضامين أين وقع فيها الخلط بين ما هو منطقي وما هو عقدي مع وجود تطور كمي على مستوى المصنفات حيث ظهرت الحواشي والتعليقات والشروح البسيطة. عبد الله معصر، المرجع السابق، ص 100. نختلف مع رأي الباحث فيما ذهب إليه لأن المرحلة السنوسية شهدت علماء آخرين غير السنوسي أبدعوا في تصانيفهم العقيدية وإن كان ليس بنفس مستوى الطرح السنوسي، كما أننا نفضل استعمال مصطلح دمج بين ما هو منطقي وما هو عقدي على توظيف مصطلح خلط لأن المعنى يختلف والمرحلة السنوسية دجت المنطق في أمور العقيدة بعدما أرجعته إلى أصالته وأضحى توظيفه لتقوية الطرح أما الخلط فيعني عدم التفريق وعدم التمييز فتداخلت الأمور

- بينهما دون رضا الطرفين المنطق والعقيدة.
- 34- عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص293. رغم المعارضة التي تعرض لها السنوسي من قبل معاصريه في عديد القضايا إلا أن ذلك لم يؤثر في عطائه العقدي.
- 35- المرجع السابق، ص292. يوسف احنانة، المرجع السابق، ص114، 127. ثمة نظرة وأطروحات للسنوسي في مسألة نبد التقليد ودعوته المتجددة إلى الاجتهاد وضرورة النظر العقلي لأنه ثابت عقدي أشعري بحكم واجب عيني وشرط في الإيمان، لأن المقلد في العقائد أجمعوا على عدم جواز إيمانه. خالد زهري، المرجع السابق، ص87.
- 36- يوسف احنانة، المرجع السابق، ص229.
- 37- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006، 976/3. هو أول من شرع قسمة متقدمين ومتأخرين في النظام المعرفي الأشعري.
- 38- سعيد بنسعيد العلوي، الخطاب الأشعري - مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي -، منتدى المعارف، بيروت، 2010، ص11.
- 39- بنسعيد العلوي، المرجع السابق، ص47.
- 40- المرجع السابق، ص216. تطرق ابن خلدون إلى هذا الأمر ضمن فصل علم الكلام وقدم الخطاب الأشعري بصيغة العلم والإنصاف. المصدر السابق، 969/3.
- 41- ربيعة سحنون و طارق العلمي، منهج الإمام الجنيد في السلوك و خصائص الممارسة الصوفية بالمغرب، دار أبي رقرق للطباعة و النشر، وجدة، 2012، ص130.
- 42- أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، ط3، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق - مكتبة المؤيد، السعودية، 1990، ص56. أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989، ص04.
- 43- يوسف احنانة، المرجع السابق، ص259. خالد زهري، المرجع السابق، ص87.
- 44- ناجية بوعجيلة، المرجع السابق، ص385.
- 45- ساعد خميسي، المرجع السابق، ص126 - 127.

- 46- ناجية بوعجيلة، المرجع السابق، ص359.
- 47- عبد الله عبد اللاوي، حفريات الخطاب التاريخي العربي- المعرفة، السلطة و التمثلات-، ط1، ابن النديم للنشر و التوزيع، وهران- دار الروافد الثقافية، لبنان، 2012، ص149 - 150.
- 48- ناجية بوعجيلة، المرجع السابق، ص359.
- 49- مقداد عرفة منسية، " الحديث عن العلوم في مقدمة ابن خلدون": ضمن كتاب: ابن خلدون و منابع الحدائث، المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون، قرطاج، 2008، 763/2، بالعودة إلى نص ابن خلدون فصل علم الكلام، نجد بأنه عرج على ذكر المعتزلة وآرائها وصدارة حوضها في مسائل علم الكلام وتتبع نشأة هذا العلم ومراحل تطوره وأعقب حديثه عن أفكار المعتزلة بالنهضة الأشعرية لدفع تلك المعتقدات الفاسدة للمعتزلة. ابن خلدون، المصدر السابق، 975/3.
- 50- ناجية بوعجيلة، المرجع السابق، ص385.
- 51- عبد الواحد بن أحمد ابن عاشر، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013، ص03.

منهجية تحقيق تراث المغرب الإسلامي المخطوط عند ليفي بروفنسال
 كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب انموذجا"
 أ/ حساين عبد الكريم - قسم التاريخ - كلية الآداب و العلوم الإنسانية - جامعة
 سيدي بلعباس

الملخص باللغة العربية:

تحاول هذه الدراسة التطرق إلى المدرسة الإستشراقية السباقة ودورها في الكشف في تراث المغرب الإسلامي، و رغم الانتقادات الكثيرة التي ظلت موجهة إليها، فقد كان لهذه المدرسة الدور الفعال في نفض الغبار عن هذا التراث. و هو ماجعل الباحثين في الحقل التاريخي يستفيدون الكثير من هذا التراث المحقق في إنجاز بحوثهم و دراستهم.

و على الرغم من أن المدرسة الإستشراقية قد تمكنت من اسداء خدمات جليلة في هذا الجانب، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الخروج عن الموضوعية التاريخية، فشوهوا الكثير من الحقائق أثناء التحقيق و ألصقوا تهما باطلة به، وهو ماجعل الكثير منهم يبتعدون عن القواعد و المبادئ الأولية للمنهج العلمي في التحقيق ، من أمثال دوزي و غيرهم من المستشرقين و قد أثرتنا نحن في هذا المقال اختيار كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب للمستشرق "ليفى بروفنسال" كنموذج لغياب أسس و قواعد التحقيق العلمي الرصين والسكوت عن الكثير من القضايا دون مناقشتها بموضوعية.

الكلمات المفتاحية: ليفي بروفنسال- المستشرقين- تحقيق المخطوط- المغرب الإسلامي.

Abstract.

No one could argue that the school Orientalist outlook was the first to digging in the heritage of Islamic Maghreb and the unmasking of some of its features, and that despite the many criticisms that have been addressed to it, has contributed to the school Orientalist outlook effective contribution in the dusting off the heritage of Islamic Maghreb. And therefore provided researchers in the historic field very important information, which enabled them to accomplish their research and studies. And whether the school Orientalist outlook had advised the good service to dust this heritage dissemination, it could not in any way be overlooked the speech ambushes orientalist, some orientalists who have reputations and their fame like Dosi, Miranda, was fully aware of the inherent their hatred of the Arabs and Muslims, and leaving the historic substantive, which sometimes lead to a distortion of the landmarks of the heritage of the Islamic Maghreb and false charges and before this quantity of European Studies, which dealt with this heritage were and an investigation, the researcher found himself before a real dilemma, perhaps including absence of the initial principles scientific curriculum in the investigation of these Orientalists, then the distortion of many of the issues contained in the manuscripts through condoned without discussion scientific vision Fair.

مقدمة:

لا أحد يجادل في أن المدرسة الإستشراقية كانت سباقة إلى الحفر في تراث المغرب الإسلامي، و إماطة اللثام عن بعض معالمه، و ذلك بالرغم من الإنتقادات الكثيرة التي ظلت موجهة إليها، لقد ساهمت المدرسة الإستشراقية مساهمة فعالة في نفص الغبار عن تراث المغرب الإسلامي. و بالتالي وفرت للباحثين في الحقل التاريخي معلومات في غاية الأهمية، مكنتهم من إنجاز بحوثهم و دراستهم.¹

و إذا كانت المدرسة الإستشراقية قد أسدت خدمة طيبة لنفص الغبار عن هذا التراث ونشره، فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفال كمائن الخطاب الإستشراقي، فالدارس لبعض المستشرقين الذين لهم سمعتهم و شهرتهم من أمثال دوزي،² و أشباخ،³ و ميراندا، يدرك تمام الإدراك كراهيتهم المتأصلة للعرب و المسلمين، و خروجهم عن الموضوعية التاريخية،⁴ الأمر الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى تشويه معالم تراث المغرب الإسلامي و إلفاق تهما باطلة به، و أمام هذا الكم من الدراسات الأوروبية التي تعاملت مع هذا التراث تأليفا و تحقيقا، يجد الباحث نفسه أمام معضلة حقيقية لعل من بينها غياب المبادئ الأولية للمنهج العلمي في التحقيق عند هؤلاء المستشرقين، ثم تحريف الكثير من القضايا التي وردت في المخطوطات عن طريق السكوت عنها دون مناقشتها برؤية علمية نزيهة.⁵

و للوقوف على ذلك، يسعى هذا البحث إلى تبني نموذج تحقيق الأستاذ لياقي بروفنسال للجزء الأول من كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب لمؤلفه ابن عذاري أحمد بن محمد المراكشي، فمن خلال هذا النموذج سنحاول الوقوف على منهجية الأستاذ في التحقيق، أو بكلمة أخرى الطريقة التي اتبعها الأستاذ لياقي بروفنسال في تحقيق هذا الكتاب.

لا بد من التنويه منذ البداية بهذا الكتاب، حيث يهتم ابن عذاري فيه بأخبار المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سنة 478هـ فيما يتعلق بأخبار الأندلس، و فيما يتعلق بأخبار المغرب حتى سنة 667هـ.

نشر المستشرق دوزي الجزء الأول و الجزء الثاني محققين بين عامي 1848 و1851، ثم نشر الأستاذ ليفي برونسال الجزء الثالث من الكتاب عام 1930، ثم أعاد المستشرق دي كولان (Colin) و ليفي برونسال نشر الجزء الأول و الجزء الثاني عام 1948، ثم نشر الكتاب في أربعة أجزاء في دار الثقافة بيروت سنة 1967. و كان الجزءان الأول و الثاني مصورين عن طبعة دوزي، و الثالث كان مصورا عن طبعة ليفي برونسال، و الرابع بتحقيق احسان عباس، و لم يذكر في هذه الطبعة الجزء الذي نشره المستشرق ميراندا و سماه القسم الثالث، ثم ظهر "البيان المغرب" (قسم الموحدين) بتحقيق جماعة من الباحثين في بيروت سنة 1406هـ/1985م.

و لا مرأى في أن الأستاذ ليفي برونسال - محقق الجزء الأول من كتاب "البيان المغرب" - أمضى سنوات طويلة منكبا على دراسة تراث المغرب الإسلامي تأليفاً وتحقيقا، استحق أن يحتل مكانة خاصة على خريطة المتخصصين في تاريخ المغرب الإسلامي⁶ فلا يمكن للباحث في التاريخ إنكار جهوده في نشر عدد هام من ذخائر الفكر المغربي ككتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن لابن مرزوق، نشره في باريس عام 1925م، و أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين مع نبذ من مختصر كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب المعروف بالمقتبس لمؤلفه أبي بكر علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، و قد نشره ليفي برونسال في باريس عام 1928م، و للوقوف على مدى نجاح المحقق في إلتزام القواعد العلمية في التحقيق، و

إتباع الضوابط العلمية في منهجيته، سأورد نموذج لأعماله، يتعلق الأمر بالجزء الأول من كتاب البيان المغرب الذي نشره عام 1930م.

يجب أن نبرز في البداية أن ليفي بروفنسال رغم علو كعبه في حقل تاريخ المغرب الإسلامي، إلا أنه لم يتعمق كثيرا في دراسة المصادر التاريخية التي حققها. إذ أن هذه المصادر غير محققة بالكيفية التي تتطلبها قواعد التحقيق، فأعماله تبقى مجرد نشر فقط، وفي الآن نفسه، يستنتج كل متفحص لعمل ليفي بروفنسال أنه اصطدم بمشكل اللغة العربية، فهو وإن كان قادرا على قراءتها و فهمها، فإنه لم يكن مؤهلا لإستيعابها،⁷ لذلك جاء تحقيقه للكتاب (البيان ج1) مليئا بالأخطاء اللغوية و هو ما سنبينه لاحقا.

إن إلقاء نظرة فاحصة للكتاب الذي حققه تجعلنا نلاحظ ما يلي :

- لم يورد المحقق سيرة ابن عذارى أحمد بن محمد المراكشي مؤلف الكتاب و ثقافته وهي من مستلزمات قواعد التحقيق. كما لم يتعرض إلى عصره، فمن المتفق عليه عند مدارس التحقيق أن يخص المحقق فصلا تمهيدا بتعرض فيه إلى التعريف بالمؤلف، و المعارف التي تلقاها، و بالمناصب التي شغلها، و بأساتذته الذين أخذ عليهم، كما يتمحور على البيئة التي عاش فيها صاحب المخطوط و مكانته داخلها، وكذلك المصادر التي ترجمت له،⁸ و هي كلها أمور أغفلها ليفي بروفنسال رغم أهميتها في أي تحقيق، ناهيك عدم تعرضه للتعريف بالمخطوط المحقق، عنوانه، وصحة نسبه إلى مؤلفه، كما أهمل المحقق التعرض لمنهج المؤلف في تحقيقه من حيث دواعي تحقيق المخطوط، و المنهج الذي اتبعه فيه، و النسخ التي عاد إليها، والحاصل أن قارئ النص على هذه الصورة المبتورة لا يجد أجوبة شافية عن مثل هذه الإشكاليات التي لا يجوز إغفالها، ذلك أنها تقدم للقارئ معلومات هامة حول المخطوط و أهميته.

- رغم أن الحواشي تعطي قيمة علمية للبحث، إلا أن ليفي بروفنسال اكتفى في الحواشي التي ذيل بها المتن بتقنية لا تزيد عن مقارنة النسختين المعتمدين و ذكر ما تزيد أو تنقص إحدهما عن الأخرى، رمز للأولى بحرف A، و للثانية بحرف B فمثلا يكتب في الحواشي عند مقارنته للنسختين المعتمدين (Manque dans A, blanc dans B) كما أنه لم يتعرض إلى المصادر و المراجع التي ساعدته في إنجاز عمله، و كذلك لم يتم بالتعريف بالشخصيات الواردة في نص المخطوط، و أسماء المدن، و المواقع، و كل ذلك يعتبر إخلال بالمنهج العلمي للتحقيق الذي يتطلب الصرامة في ذلك.¹⁰

- ما يلاحظ أيضا على المحقق أنه لم يقارن المخطوطين اللذين كانا بين يديه بمخطوط آخر كان موجود بالخزانة الحسينية (الملكية) بالرباط تحت رقم 336.¹¹ فقد إعتد هو على مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 200 في 232 ورقة و هي ناقصة و مخطوطة باريس و هي مبتورة من الأول و الآخر، و هو ما أثر شكل واضح في عمله التحقيقي فالمحقق النزيه مطالب بأن تجتمع له كل نسخ المخطوط لإستكمال عمله بهدف إخراج النص بطريقة علمية.¹²

- حينما تسقط كلمات أو حتى فقرة بكاملها في النسختين المعتمدين، فإن بروفنسال لا يستدرك ما سقط من كلمات بالإشارة إلى ذلك في الهامش و هذا يخالف قواعد التحقيق، فالمتعارف عليه في عملية تحقيق المخطوط أن المحقق مطالب باستنتاج ما سقط من كلمات بوضع هامش لها.

- ينقص كتاب البيان المغرب المحقق من قبل ليقبي بروفنسال بعض الفهارس مثل فهرس أسماء الأعلام، و فهرس أسماء الأماكن، و فهرس الأشعار، التي يتضمنها الكتاب، فالفهارس تعتبر من المكملات في عملية التحقيق، فإذا كان المخطوط مثل الخزانة المقفلة، فالفهارس هي المفاتيح التي تجعل القارئ يستخرج من تلك الخزانة كنوزها، و

يستفيد منها إلى أقصى حدود الإفادة،¹³ و بالتالي فلو وضع المحقق هذه الفهارس لزادت التحقيق دقة و ضبطا و تسهيلا للمطلع على الكتاب و ما يحتاجه من البحث بكل سهولة.

- من الأمور الملفتة للإنتباه في النص المحقق، أن الأستاذ ليفي بروفنسال لم يذكر في ختام عمله المصادر و المراجع التي اعتمد عليها أثناء عملية التحقيق، فالمحقق النزيه هو الذي يعتمد في عملية تحقيق النص على مجموعة من المصادر تساعد في إماطة اللثام عن الكثير من القضايا تمهيدا لتعديل ما يمكن تعديله أو إضافته إلى الفراغات الموجودة في النص الأصلي،¹⁴ كما أن الإعتماد على المراجع يزيد من توسيع مدارك المحقق، و هذه كلها جوانب أهملها بروفنسال في عملية التحقيق رغم أهميتها العلمية.

- إن قارئ النص المحقق للأستاذ بروفنسال يلاحظ أنه جاء مليئا بالأخطاء سواء الأخطاء الإملائية و اللغوية أو الأخطاء العلمية، و قد أضر ذلك كثيرا بالتحقيق الذي يتطلب تجنب مثل هذه الأخطاء، و من بين الأخطاء في النص المحقق نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

- لم تزل الشيعة منذ مات علي بن أبي طالب (ص 134) "لم تزل الشيعة منذ أن مات علي بن أبي طالب."
- فلما توصل أبو عبد الله إلى مدينة رقادة (ص 163) "فلما وصل أبو عبد الله إلى مدينة رقادة".
- و دارت بين ابن أبي العيش و بين ابن أبي العافية " (ص 200) و دارت بين ابن أبي العيش و بين أبي العافية".

- و قد وقع الأستاذ بروفنسال في مزلق خطيرة أدت إلى تشويه بعض المعاني بسبب قراءة خاطئة للألفاظ، و نسوق في ذلك نموذجا واحدا: "ثم وصله الخبر أنه توجه إلى ناحية فاس فبعد ذلك رجع نصير الدولة إلى تيهرت وأشير" و اللفظة في الواقع هي

فعند ذلك وليس فبعد ذلك،¹⁵ و الملاحظ أنه بإحلال اللفظة الأولى مكان الثانية يتغير المعنى، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور تحليلات خاطئة لأنها مقروءة خطأ. إن عمل المحقق النزيه يتطلب منه مراجعة النص عدة مرات حتى يتعد عن التحريف في الألفاظ. و حتى و إن أورد المؤلف هذه الأخطاء و هي كثيرة الحدوث في النصوص الأصلية، و جب على المحقق تصحيحها في الحواشي لإعطاء القيمة العلمية للعمل الذي يقوم به.

- مما يلاحظ كذلك على تحقيق الأستاذ برونسال أنه لم يلتزم في مواضع إستعمال الفواصل و الإشارات، و كمثل على ذلك يضع علامة التعجب عند كلمة "رحمه الله"¹⁶ "بسم الله الرحمن الرحيم"¹⁷ الأمر الذي يطرح أكثر من علامة إستفهام خاصة أن علامات التعجب كما جرت الأعراف توضح في ختام الفكرة في حالة إذا كان صاحب النص يبدي إستغرابه من فكرة معينة. و بما أن المؤلف لم يضع هذه العلامات، فالمسؤولية كلها تقع على المحقق.

- من الملاحظ كذلك أن برونسال استخدم عبارة "رضي الله عنه" في شكلها المختزل (رضه)¹⁸ و هذا يخالف قواعد التحقيق التي تتطلب ترك العبارة كما هي في النص فكتابتها بهذه الصورة في المتن يعتبر تشويها لعمل المؤلف.

- من الثغرات التي تحسب على ليفي برونسال في عملية التحقيق عدم إفادة القارئ المطلع على الرسم الحرفي الذي اعتمده في التحقيق، و الطريقة التي اعتمدها لتبديل ذلك الرسم، ذلك أن للنص حرمة و أمانته، كما أن المنهج الحديث يعنى في ضبط الرسم عناية كبيرة أثناء عملية التحقيق.¹⁹ و لعل غياب ذلك ساهم بقسط كبير في التنقيص من تحقيق كتاب "البيان المغرب" بشكل ظاهر للعيان.

- لم يسعى الأستاذ برونسال إلى بذل جهود من أجل معرفة أصحاب الأبيات الشعرية الواردة في التحقيق و هي كثيرة، إذ أن من الصرامة العلمية في هذه الحالة تقتضي من

المحقق أن يرجع كل نص نقله المؤلف و لم يحل إلى مصدره، إلى أصله ثم توثيقه، و هذا ما يعرف بضبط النص و تقويمه، و لدينا نماذج كثيرة من الأبيات الشعرية التي يجهل القارئ أسماء أصحابها.²⁰

- يبقى أن نقول أن عمل بروفنسال يندرج في خانة النشر²¹ و فقط، نظرا لعدم قيامه بتحقيق تراث لبلاد المغرب الإسلامي تحقيقا علميا، و هذا ينطبق على معظم التحقيقات الإستشراقية التي سارت في هذا الاتجاه، لذا فإن مهمة الباحثين والدارسين لهذا التراث أن تتجه إلى تطهير تراث المغرب الإسلامي بإعادة النظر فيما نشره هؤلاء، و لا يأتي ذلك إلا عن طريق إعادة تحقيق هذه الأعمال المنشورة للمستشرقين، تحقيقا علميا رصينا أو بتعبير الأستاذ محمود حمدي زقزوق²²، "والواجب الإسلامي يقتضينا أن نعمل على تنقية هذا التراث العظيم و غربلته وإزالة الغيوم التي تحجب عنا إشراق شمسه.

الهوامش :

1- عبد القادر بوباية، المستشرقون و كتابة التاريخ الإسلامي، ليفي بروفنسال أنموذجا، مجلة عصور، العدد 2، مكتبة الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر ديسمبر 2002، ص 86.

2- يتضح ذلك من خلال الكثير من إنتاجاته ينظر على سبيل المثال تحامله على المرابطين، فقد جعل قدامهم إلى الأندلس نذيرا بإنقلاب بعيد المدى، فقد زالت دولة الحضارة، و قامت على أنقاضها الحمجية، **Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge. Maisonneuve-leiden.**

J. Bill (3^{ème} édition 1981) P.

- 3- يذهب أشباح في كتابه تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين إلى أن دخول المغاربة إلى الأندلس كان سببا في إنهاء الثراء العظيم الذي عرفته الأندلس في عهد الدولة الأموية و ملوك الطوائف، ينظر : عصر المرابطين و الموحدين ج1، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر 1964، ص 434.
- 4- سلطاني الجيلالي، الحركة الثقافية و الفكرية في عصر المرابطين، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي حول المراكز الثقافية في المغرب الإسلامي، بقسم الحضارة الإسلامية وهران، ص 292.
- 5- ابراهيم القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغربي الإسلامي و تاريخه الإقتصادي و الإجتماعي، دار الطليعة، بيروت ط1، مارس 2002، ص 9.
- 6- عبد القادر بوبايا، المقال السابق، ص 93.
- 7- إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص 10.
- 8- عبد الحق زريوح، منهج تحقيق المخطوط، مجلة الآداب و العلوم الإنسانية والإجتماعية، العدد العاشر، مارس 2006، جامعة تلمسان، ص 192.
- 9- عبد السلام هارون، تحقيق النصوص و نشرها، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1977، ص ص 44 - 45.
- 10- فهمي سعد و طلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية و التطبيق، دراسة و تحقيق، دار عالم الكتب، بيروت لبنان، ط1، 1413هـ/1993م، ص 48.
- 11- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، المخطوط 336، الخزانة الحسينية (الملكية) بالرباط.
- 12- زريوح عبد الحق، المقال السابق، ص 189.
- 13- ناصر الدين سعيدوني، أساسيات منهجية التاريخ، دار القصة للنشر الجزائر 2000، ص 57.

- 14- ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص 15.
- 15- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ج 1 تحقيق ج.س. كولان و لقيمي بروفنسال، دار الثقافة - بيروت لبنان ط3، 1983، ص 250.
- 16- نفسه، ص 81 - 164 - 248.
- 17- نفسه، ص 164.
- 18- نفسه، ص 134.
- 19- محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة الدراسات البيبلوغرافية رقم 1 ج2 (الفترة المعاصرة) مطبعة فضالة المحمدية 1989، ص 340.
- 20- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق ج1، ص 81 - 147.
- 21- ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص 17، عبد القادر بوباية، المقال السابق، ص 94.
- 22- محمود حمدي زقزوق، الإستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع الكويت 1983، ص 149.

حركة المجتمع الإسلامي

من نظرية التحدي والاستجابة إلى مقارنة الوعد والوعيد

Islamic society movement

Theory of challenge–response approach to the promises and warnings

أ/ نبيلة شلابي - كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة 1

nabilachala90@gmail.com

ملخص:

لقد اهتم توينبي بتفسير الحركة التاريخية للمجتمع الإسلامي من خلال نظريته التحدي والاستجابة التي تشترط على المجتمع المتحرك نحو بناء حضارة أن يتحدى العوامل الطبيعية والبشرية ويقابل تحدياته باستجابات مناسبة ناجحة ليضمن استمراره في التاريخ، وجاء مالك بن نبي على أثره فأخذ تفسيره لحركة المجتمع الإسلامي وأعاد صياغته في ضوء القرآن الكريم، حيث وجد أن القرآن الكريم قد وضع الضمير المسلم بين حدين متوازيين هما "الوعد والوعيد" أي أنه قد وضعه في أنسب الظروف التي من شأنها أن تحدث استجابة لتحدي هو في أساسه روحي وبذلك تكون الحركة تاريخية للمجتمع المسلم هي حركة تنزع نحو السمو الى أعلى بفضل استناد العمل المثمر على القوة الروحية.

الكلمات الدالة: توينبي . مالك بن نبي . التحدي والاستجابة . الوعد والوعيد . تفسير

التاريخ

Abstract:

Interested Toynbee's interpretation of the historical movement of Islamic society through his theory of challenge and response that requires moving society towards building a culture that defies the natural and human factors offset challenges responses appropriate successful to ensure continuity in history, came Malik bin Nabi on the impact he took his interpretation of Islamic society and reformulated in the light of Koran, where he found that the Koran has put the Muslim conscience between edged parallel are the "promise and intimidation" which he had placed in the most appropriate conditions that would respond to the challenge is fundamentally a spiritual occur and thus the historical movement the Muslim community is a movement tend toward Highness to higher thanks to the fruitful work based on spiritual strength.

Key words: Toynbee Malik bin Nabi challenge–response promises and warnings interpretation of history

مقدمة

إن الحديث عن حركة المجتمعات هو حديث حركة التاريخ ككل، وبالتالي الغوص في فلسفة التاريخ، وهذه الأخيرة تحوي في جعبتها الكثير من الأمور المتعلقة بالتاريخ البشري، ومن بين تلك الأمور النظريات المفسرة لحركة التاريخ؛ إذ أن مهمة النظرية التاريخية أن تفسر الأحداث وتُعقلن التطورات التاريخية، وما من نظرية إلا لها وجهان؛ أهما صالحة مادامت أداة للمعقولة، وهي فاسدة حينما تدعي الإطلاق والتسلط على كل عصر، ولقد ظهرت عدة نظريات تحاول تفسير الحركة التاريخية منذ حوالي القرن الرابع عشر ميلادي، والتي شملت عمالقة المفسرين أمثال القديس أوغسطين من الغرب، وابن خلدون من المسلمين وغيرهما كثير، وتكمن أهمية النظريات في أنها تقدم لنا تفسيراً معقولاً للتاريخ يُمكن أن يُزيل الضبابية التي حجبت السنن التاريخية، وقوانينها التي يسير وفقها التاريخ الذي كان منذ زمن طويل يُلقى إلقاءً سردياً وصفيًا ويُنظر إليه ظاهراً وليس باطنياً، وهذه الدراسة هي بصدد تناول نظريتين كانتا متأثرتين بابن خلدون أيما تأثر مع انفرادهما بخاصيتهما ظهرتا في القرن العشرين ميلادي، ونعني بالنظريتين : الأولى نظرية توينبي "التحدي والاستجابة" والثانية ليست نظرية بقدر ما هي إعادة صياغة لسابقتها (مقارنة) تحت مسمى "الوعد والوعيد" والتي قال بها مالك بن نبي.

وتتمحور إشكالية هذه الدراسة حول حركة المجتمع الإسلامي من التحدي والاستجابة إلى مقارنة الوعد والوعيد، ويمكننا طرح الإشكالية بالصيغة التالية :

إلى أي مدى وفق مالك بن نبي في إعادة صياغته لنظرية التحدي والاستجابة التي قال بها توينبي في ضوء القرآن الكريم في تطبيقها على حركة المجتمع الإسلامي؟

ولمعالجة هذه الإشكالية قسمنا هذه الدراسة إلى :

المحور الأول : حركة المجتمع الإسلامي في ضوء نظرية التحدي والاستجابة

ويحتوي هذا المحور على العناصر التالية:

- أرنولد توينبي ونظريته الحضارية "التحدي والاستجابة"

- الحضارة الإسلامية (حركة المجتمع الإسلامي) في ضوء نظرية التحدي والاستجابة

المحور الثاني : "الوعد والوعيد" صياغة قرآنية جديدة لنظرية التحدي والاستجابة

ويحتوي هذا المحور على العناصر التالية:

- مالك بن نبي ورؤيته للمجتمع

- حركة المجتمع المسلم وفق مبدأ "الوعد والوعيد" صياغة قرآنية لنظرية التحدي

والاستجابة

المحور الأول : حركة المجتمع الإسلامي في ضوء نظرية التحدي والاستجابة

قبل الحديث عن المجتمع أو الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة لابد أولاً التعرف على هذه النظرية وصاحبها بشيء من الإيجاز.

أولاً : أرنولد توينبي ونظريته الحضارية "التحدي والاستجابة"

1- أرنولد توينبي : هو جون أرنولد توينبي مؤرخ إنجليزي عاش ما بين 1889م و1975م، وقد شهد تطورات خطيرة في العالم في تلك الفترة (الثورة الصناعية، الأطماع الاستعمارية، الحربين العالميتين الأولى والثانية...)، فانفعل بالأحداث المعاصرة، وشعر بالقلق على مصير الحضارة الغربية من الزوال، فانكب يدرس الحضارات القديمة لمعرفة أسباب تدهورها وفنائها...، ترك أرنولد توينبي عدة مؤلفات تاريخية كان أشهرها مؤلفه الضخم "دراسة التاريخ"⁽¹⁾

2_ نظرية التحدي والاستجابة عند توينبي

يطلق الدارسون على نظرية توينبي في قيام وسقوط الحضارات الإنسانية بنظرية التحدي والاستجابة، فهي في نظر توينبي العامل الحقيقي المتحكم في قيام الحضارات وارتقائها ثم سقوطها واندثارها⁽²⁾.

معنى التحدي والاستجابة : فمن حيث اللفظ؛ التحدي يشير إلى وجود خطر أو تهديد أو مشكلة، وغيرها من المعاني المقارنة، أما لفظ الاستجابة فيشير إلى الرد والجواب والتجاوز...، أما من حيث المعنى فالتحدي هو وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان أو المجتمع في طريق بنائه للحضارة، والاستجابة هي التغلب على تلك الشدائد والظروف الصعبة⁽³⁾.

فتويني يرى أن تحدي البيئة وحوافز مختلفة كحافز الضربات وحافز الضغوط وغيرها من الحوافز كلها تفرض استجابة فيقول: "هل ثمة تحد أشد من أن يستثير استجابة"، وهو يعني بذلك أن البناء التاريخي إنما هو وليد حالة نفسية تتوتر بدورها لدرجة أنها تتحدى جميع العوائق، وعلى الخصوص منها العائق الطبيعي؛ إذ أن أي تحد للطبيعة في نظره إنما يبرهن على أن هذا الشعب أو ذاك قادر على صنع تاريخه⁽⁴⁾، وبالتالي استمرار حركته نحو بناء الحضارة.

3 - المجتمع ودراسة التاريخ عند تويني

يرى تويني أنّ التاريخ هو إحدى النوافذ التي لا تحصى، التي تطل على الحقيقة فهو يُعرّفه أنّه: "إنجاز للخطة الإلهية، وهو إبداع الله في حركته؛ من الله منبعه وإلى الله غايته"⁽⁵⁾، وقد حاول أن يدرس تاريخ البشرية بصورة تجريبية، ليتوصل إلى مبادئ وقوانين تصدق على التاريخ ككل، وأراد أن يُجرب تناول الشؤون الاجتماعية البشرية بالأسلوب العلمي، لذا بدأ بالبحث عن وحدة تكون حقلاً مفهوماً للدراسة، فوجدها في الحضارة التي تنتظم عدة أمم وانطلق من مبدأ أنّ مادة التاريخ هي حياة أقسام موحدة من البشرية سمّاها المجتمعات⁽⁶⁾.

والمجتمعات عند تويني قسمان : مجتمعات بدائية ومجتمعات متحضرة

- المجتمعات البدائية : هي مجتمعات راكدة لأحد احتمالين: إما أنّ التحدّي لم يكن كافياً، وإما أنّ هذه الجماعات قد عمدت إلى الفرار من طريقه.

- المجتمعات المتحضرة : ويطلق عليها اسم حضارات أي المجتمعات التي تسير في طريق الحضارة، وهي التي تحولت من الركود إلى الحركة⁽⁷⁾.

ثانيا : الحضارة الإسلامية (حركة المجتمع الإسلامي) في ضوء نظرية التحدي والاستجابة

يرى توينبي أن الأمة الإسلامية كغيرها من الأمم ينطبق عليها قانون التحدي والاستجابة، فهو يعتبر أن مجيء الإسلام كان استجابة ناجحة قام بها المجتمع السرياني ردا على تحدي الهيلينية⁽⁸⁾، وقد مر المجتمع الإسلامي -حسب توينبي- في مساره الحضاري بسلسلة من التحديات تبعتها سلسلة من الاستجابات استطاع معها التغلب على تلك التحديات، ومن تلك التحديات مثلا: من خلافة أبي بكر إلى نهاية فترة عثمان رضي الله عنهما، كان التحدي هو كيفية تأمين قلب الدولة وعمقها الاستراتيجي، وكانت الاستجابة حروب الردة والفتوحات الإسلامية، وبعد سقوط الخلافة العثمانية كان التحدي كيفية الانتقال والنهوض من حالة التخلف واستعادة الوحدة، فكانت الاستجابة بظهور الصحوة الإسلامية⁽⁹⁾.

ولقد شكلت الحضارة الإسلامية بدورها تحديًا للحضارة المسيحية الأوروبية في امتدادها إلى إسبانيا من جهة، ثم أجزاء من شرق أوروبا على أيدي العثمانيين من جهة أخرى، وكذلك حدثت تحديات عنيفة خلال العصور الوسطى من الحضارة الأوروبية لحضارة الإسلام تمثلت في الحروب الصليبية، وقد كان أعمق وأخطر وأبعد التحديات أثرا على العالم الإسلامي، هو الحضارة الأوروبية الحديثة، فهي أهم ظاهرة في العصر الحديث، أما عن استجابة حضارة الإسلام للتحدي الغربي فتمثل في مظهرين⁽¹⁰⁾:

ـ **مظهر التزمت:** تحت اسم السلفية التي واجهت تحدي الحضارة الغربية (بتفوقها العسكري والتكنولوجي والاقتصادي) بتفوقها على نفسها، متخذة من الدين درعا من العدوان الخارجي بقيادة الوهابية (الحجاز)، والسنوسية (المغرب)، والمهدية (السودان)...، فكانت استجابتها فاشلة لأنها لم تقدم طاقات خلاقة صادرة عن روح أصلية.

ـ **مظهر التشكل:** حيث وجد المتشكل أن أفضل وسيلة لحماية نفسه من الخطر (الغربي) أن يتعرف على سر تفوق عدوه فيطرح جانبا وسائل الحرب التقليدية وتراثه الماضي ليقتبس مظاهر الحضارة المتحدية، وحاول التشكل بها، هذا المظهر مثلته حركة محمد علي بمصر، وحركة كمال أتاتورك في تركيا...، لكن هذه الأخرى كانت استجابة فاشلة لأنها لم تقدم إسهاما إبداعيا في تيار الحضارة القائمة فهي عملية تقليد⁽¹¹⁾، في نظر توينبي.

ورغم الاستجابات الفاشلة للحضارة الإسلامية إلا أنها ستبقى حضارة حية في نظر توينبي رغم النكبات التي حلت بها لوقوع معظم أقطارها فريسة للاستعمار في القرن التاسع عشر، إذ تكمن في الحضارة الإسلامية طاقات غير قائمة في الحضارات الغربية ما يرشحها أن تكون حضارة المستقبل⁽¹²⁾، وهنا تظهر نظرة توينبي التفاضلية في تفسيره للحركة التاريخية للمجتمعات.

المحور الثاني: "الوعد والوعيد" صياغة قرآنية جديدة لنظرية التحدي والاستجابة

قبل الحديث عن هذه الصياغة الجديدة لنظرية التحدي والاستجابة لا بد من إشارة موجزة لواضعها (مالك بن نبي) ورؤيته للمجتمع.

أولا : مالك بن نبي ورؤيته للمجتمع

1- مالك بن نبي : يعد مالك بن نبي ظاهرة بارزة في خريطة الفكر العربي الإسلامي المعاصر؛ فقد أعطى الفكر الإسلامي عصارة أفكاره وخلاصة تجاربه، وقدم الأنظمة الإسلامية في قالب حضاري وأسلوب معاصر فكان صاحب مدرسة نقلت إلى العالم جوهر الإسلام وبدائله⁽¹³⁾.

هو الحاج بن لخضر بن مصطفى بن نبي ولد في 01 جانفي 1905م في مدينة قسنطينة بالجزائر، وقد امتدت حياته ما بين أوائل القرن العشرين وثلاثة الأخير (توفي في 31 أكتوبر 1973م) في بلاد مزقتها الأهواء، وعقَّها الأبناء، فاستضعفها الأعداء، وراحوا يتفننون في نهبها واستلابها في محاولة لمسخ شخصيتها، وتزوير حضارتها، واستبدال عقيدتها ولغتها في غفلة من أبنائها، الذين تخلَّو عن دورهم في الدعوة، والتحضير، والشهادة على كل الشعوب؛ فهو ينتمي إلى بلد عربي إسلامي (الجزائر)، عانى من تجربة الصدام بين المجتمع الأوروبي المادي، والمجتمع الإسلامي ما لم يعاناه بلد آخر. فكان لهذه الظروف إضافة إلى عدة مؤثرات أخرى (العائلة، المحيط، المدرسة، القراءات، المختلفة العربية منها والغربية...) أثرا كبيرا في توجيه فكره⁽¹⁴⁾ نحو المشكلة الجوهرية للمجتمعات وهي الحضارة والتي تمحورت حولها جل مؤلفاته منها : شروط النهضة، ميلاد مجتمع، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، الظاهرة القرآنية، وغيرها من المؤلفات وهي كثيرة.

2- حركة المجتمع عند مالك بن نبي

يقول مالك بن نبي: "إنَّ الطبيعة توجد النوع لكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، هو ما نطلق عليه اسم حضارة"⁽¹⁵⁾ نفهم من هذا الكلام أن سر حركة التاريخ عند ابن نبي هي حركة المجتمع نحو بناء الحضارة .

وانطلاقاً من مبدأ الحركة فالمجتمع عنده هو الجماعة التي تغير دائماً خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع عملها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير⁽¹⁶⁾.

والمجتمع عند مالك بن نبي نوعان:

أ_ المجتمع البدائي (الطبيعي) : وهو العالم الساكن ذي المعالم الثابتة كالقبيلة العربية في العصر الجاهلي .

ب_ المجتمع التاريخي: وهو المجتمع المتحرك الذي يخضع لقانون التغيير والذي يعدل معاملة من جذورها وهو نوعان:

- المجتمع الجغرافي: والذي يكون ميلاده إجابة عن الظروف الطبيعية.

- المجتمع الفكري (الإيديولوجي) : والذي يكون ميلاده تلبية لنداء فكرة.

وللمجتمع حسب مالك بن نبي ثلاث خصائص : حركة، وإنتاج لأسباب هذه الحركة، وتحديد لاتجاه هذه الحركة⁽¹⁷⁾، وبذلك تكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما

تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها (الحضارة)
(18).

ثانيا : حركة المجتمع المسلم وفق مبدأ "الوعد والوعيد" صياغة قرآنية لنظرية
التحدي والاستجابة

يرى مالك بن نبي أنه بإمكان أي مجتمع الدخول في دورة حضارية جديدة إذا أراد
ذلك وخطط له، ذلك أنّ التطور الاجتماعي محكوم بعوامل نفسية ومعنوية غير مادية،
مما يُمكن المجتمع من التحكم في قوانينها ليُعدّل من حياته، ويصل إلى غاياته⁽¹⁹⁾، لذلك
فهو يستشهد مرارا بالآية الكريمة : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
{ (سورة الرعد، الآية : 11)، تأكيداً منه لمفهومين في فكره:

- وجود العالم الغيبي في أي تغيير يحصل على المستوى النفسي، والاجتماعي، والتاريخي،
كما يقول: "هناك خلف الأسباب القريبة أسباب بعيدة تلجع على تفسير التاريخ طابعا
ميتافيزيقيا أو كوتيا"⁽²⁰⁾.

- إمكان الدخول في دورة حضارية جديدة عن طريق تنظيم الثروة البشرية، والمادية،
وإعادة تأهيلها، وهو ما يشترط التخطيط المنظم لتفعيل العناصر الأساسية الثلاثة المكوّنة
لأى دورة حضارية (الإنسان، والتراب، والوقت)⁽²¹⁾.

وعلى هذه الخلفية اهتم مالك بن نبي بنظرية التحدي والاستجابة التي قال بها توينبي،
والتي تُشير إلى أنّ أفول أي حضارة في التاريخ إنما هو نتيجة الإخفاق المتتالي الذي مُنيت
به استجابة مجتمع ما لتحديد معين، فالاستجابات الناجحة تكون دائما - كما يؤكد توينبي

- متناسبة مع التحدي الذي تواجهه حضارة ما، وكلما كان التحدي عظيماً كانت الاستجابة عظيمة أيضاً، ولكن بشرط أن لا يكون ذلك التحدي شديداً الصعوبة، وألا يكون كذلك شديداً السهولة، وإنما يجب أن يكون في درجة التحدي المناسب القادر على إحداث الاستجابة التي من شأنها أن تؤدي إلى النتيجة المطلوبة⁽²²⁾.

فقد اطلع مالك بن نبي على آراء توينبي فوجدها مُقنعة، لذلك أعاد صياغتها في ضوء القرآن الكريم إذ يقول: "ونحن يُمكننا إلى حدّ ما أن نصوغ هذا الرأي الذي ذهب إليه المؤرخ - يعني توينبي - صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم، فقد نستطيع - مادامنا لم نصل بهذه الطريقة إلى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الإسلامي وغاياته التاريخية- أن نفسّر هذه الحركة بالعوامل التفسّية التي حفّزت القوّة الروحية في هذا المجتمع وشروط حركته عبر القرون"⁽²³⁾.

فقد وجد ابن نبي أنّ القرآن الكريم قد وضع الضمير المسلم بين حدّين متوازين هما: الوعد والوعيد؛ أي أنّه قد وضعه في أنسب الظروف التي من شأنها أن تُحدث استجابة لتحديد هو في أساسه روحي⁽²⁴⁾.

فالوعيد هو الحدّ الأدنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثّر، وقد أعطى له مالك بن نبي مثالا بقصة المرأة الزانية التي أتت إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلم لإقامة حدّ الزنا عليها، وهذا ما يبرز قيمة الوعيد في توجيه الطاقات النفسية في حالة معينة⁽²⁵⁾.

والوعد هو الحدّ الأعلى الذي يُصبح فيه الجهد من ورائه مستحيلاً، حين تطغى قساوة التحدي على القوّة الروحية التي منحت للإنسان، ويعطي ابن نبي مثالا لذلك بحالة بلال الحبشي رضي الله عنه الروحية أثناء تعذيبه على يد قريش، وهو يكرر إجابته على تحدي

قريش (أحد.. أحد..)، ففي تلك اللحظة التعديبية القاسية كانت روح بلال منغمرة في فيض نوراني هو وعد الله الحق، لذلك لم تستطع أي قوة في الأرض أن تخفض إصبغه⁽²⁶⁾.

فالضمير المسلم وضع بين حدّي العمل المؤثر؛ الحدّان اللذان ينطبقان على مفهوم الآيتين الكريمتين :

- { فلا يأمن مكر الله إلا القومُ الخاسرون }، (سورة الأعراف، الآية : 29)

- { إنّه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون }، (سورة يوسف، الآية : 87)

وبين هذين الحدّين تقف القوة الروحية متناسبة مع الجهد الفعال الذي يبده مجتمع يعمل طبقاً لغاياته⁽²⁷⁾.

و حركة المجتمع المسلم التي تقع بين حدّي الوعد والوعيد هي في الحقيقة حركة تنزُّع نحو السُّمُو إلى أعلى وتحلق فوق ما هو أدنى بفضل استناد العمل المثمر على القوّة الروحيّة، والقرآن الكريم يعرض صورة لهذين الحدّين في قوله تعالى: { ولئن أذقنا الإنسان منا رحمةً ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السيئات عنيّ إنه لفرح فخور }، (سورة هود، الآيتين 10، 11).

فالقوة الروحية التي تتطابق مع العمل المثمر الفعال - حسب ابن نبي - تقع بين حالين من أحوال النفس لا يوجد وراءهما إلا الخمول والرخاوة في جانب، واليأس والعجز في جانب آخر⁽²⁸⁾.

خلاصة :

من خلال ما تقدّم عرضه نجد أنّ مالك بن نبي أعاد صياغة نظريّة توينبي في تفسيره لحركة المجتمع الإسلامي في ضوء القرآن الكريم، لكن هذا لا يعني أنه لم يتجاوزه، فإن فهمه لنظريّة توينبي في ضوء القرآن يُؤكّد نزعة بن نبي الفكرية والفلسفية إلى البحث عن سند علمي من داخل العقيدة، فوجد في القرآن وفي عناصر الدين الأخرى مصدرا غنيا يستمدّ منه رؤاه، وتفسيراته للظواهر الاجتماعية المختلفة، خاصة ما يتصل منها بقضية الحضارة، فمن هذا المصدر استمدّ ابن نبي آراءه في الحراك الاجتماعي والتاريخي ليخلص إلى أن الدين هو العنصر الأول الذي كان ولا زال له تأثير بالغ في التطوّرات التاريخية لأيّ مجتمع في العالم، أمّا توينبي فقد أرجع التغيّرات التي تحدث في تاريخ أيّ أمة إلى عوامل طبيعية بالدرجة الأولى، وبالرغم من أن مالك بن نبي وقف موقف المعجب من توينبي إلى حدّ ما، إذ اعتبر تفسيره مهمّ جدّا في مراحل التاريخ الإنساني، ولذلك أعاد صياغة تفسيره إلا أنه تجاوزه حين اعتبر أن التفسير الطبيعي غير كاف لتفسير منشأ الحركة التي ولّدت المجتمع الإسلامي وغايته التاريخية، وأعطى بديلا لتفسير هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حقّزت القوّة الروحية في هذا المجتمع⁽²⁹⁾، نحو ما هو أسمى.

فمالك بن نبي إذن يرد سر حركة المجتمع الإسلامي إلى العوامل النفسية.

خاتمة

لقد اهتم توينبي بدراسة الحضارات وركز على الخصائص التي ميزت الحضارات عن بعضها البعض مؤكدا على أن قانون التحدي والاستجابة ينطبق على جميع الحضارات؛

فراح يطبقه على الحضارة الإسلامية متتبعا مراحل حركة المجتمع الإسلامي من ظهوره الذي كان استجابة - حسب نظريته - ناجحة لتحدي الهيلينية، ثم مروره عبر مراحل بعدة تحديات تلتها عدة استجابات إلى أن يصل المجتمع الإسلامي إلى نهاية مساره التاريخي وأقول حضارته، عندما فشلت استجابته للتحدي الأكبر وهو الحضارة الغربية الحديثة، ولكن يبقى الأمل في عودة الحضارة الإسلامية في المستقبل حسب نظرة توينبي التفاؤلية.

وقد اطلع مالك بن نبي على نظرية توينبي فأقنعه إلى حد ما فراح يبحث لها عن سند في مرجعيات الإسلام فوجد أن القرآن الكريم قد وضع ضمير المسلم بين حدّي الوعد والوعيد؛ أي في أنسب الظروف التي من شأنها أن تحدث استجابة لتحدي روعي في أساسه، فتوصل إلى أن حركة المجتمع الإسلامي بين حدّي الوعد والوعيد هو في حقيقة الأمر راجع إلى مجموع العوامل النفسية الذي يعد ناتجا عن بعض القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهرى للتاريخ الإنساني.

وبذلك يكون ابن نبي مُتجاوزاً لتوينبي رغم أنه أعاد صياغة نظريته، حين أرجع منشأ الحركة التي ولدت المجتمع الإسلامي وغاياته التاريخية إلى العوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية في هذا المجتمع بدل العوامل الطبيعية التي يركز عليها توينبي في نظريته.

الهوامش :

- (1): آمنة تشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1989م، ص65. وينظر: رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، د.ط.، 2000م، ص193. وينظر: حسين محمد سبتي، أعلام فلسفة التاريخ، تق: ساسين عساف، المكتب العالمي للطباعة والنشر، د.م، 1996م، ص142.

- (2): جمال بروال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي وأزوالد شبنجلر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر_باتنة، 2003م، ص45.
- (3): المرجع نفسه، ص37، نقلا عن: عكاشة شايف، الصراع الحضاري في الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص57.
- (4): لخضر شريط، في الحركة التاريخية وتفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي، تق: عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، الجزائر، ط1، 2008م، ص45.
- (5): آلبان ويدجيري، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي، تر: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت_ لبنان، د.ط، د.ت، ص223.
- (6): آمنة تشيكو، مفهوم الحضارة، ص70.
- (7): نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1997م، ص73.
- (8): أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، دار المعرفة الجامعية، د.م، ط1996م، ص287.
- (9): جاسم محمد سلطان، فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، أم القرى، د.م، ط1، 2005م، ص70، 71.
- (10): أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص287.
- (11): المرجع نفسه، ص288، 189.
- (12): رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ، ص109.
- (13): عبد الله عقيل سليمان العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، تق: مصطفى مشهور وآخران، دار النشر والتوزيع الإسلامية، القاهرة _ مصر، ط4، 2006م، ص130، 131.

- وينظر: فوزية بريون، مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر، دمشق _ سوريا، ط1، 2010م، ص17.
- (14): مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن الطفل، تر مروان القنواقي، دار الفكر، دمشق _ سوريا، ط1، 1996م، ص109. وينظر: أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت _ لبنان، ط1، 2000م، ص71. وينظر أيضا: نور الدين مسعودان، مالك بن نبي حياة وآثار، دار النون، الجزائر، د.ط، د.ت، ص6،7.
- (15): مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013م، ص17،18.
- (16): المرجع نفسه، ص(9،17،10-19).
- (17): المرجع نفسه، ص26،27.
- (18): لخضر شريط، في الحركة التاريخية وتفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي، تق: عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، الجزائر، ط1، 2008م، ص77.
- (19): فوزية بريون، مالك بن نبي، ص170.
- (20): مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تق محمد مبارك، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013م، 25/1.
- (21): فوزية بريون، ص171.
- (22): المرجع نفسه ص171.
- (23): مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص24.
- (24): المرجع نفسه، ص24. وينظر: فوزية بريون، ص171.

(25): مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 24، 25.

(26): المرجع نفسه ص 24- 25.

(27): المرجع نفسه، ص 24.

(28): المرجع نفسه، ص 25.

(29): ينظر: فوزية بريون، ص 172.

University of chahid hamma lakhdar. El-oued. Algeria
Faculty of social and human sciences



JOURNAL OF EL MAAREF
For researches and historical studies
Periodical and international refereed journal

